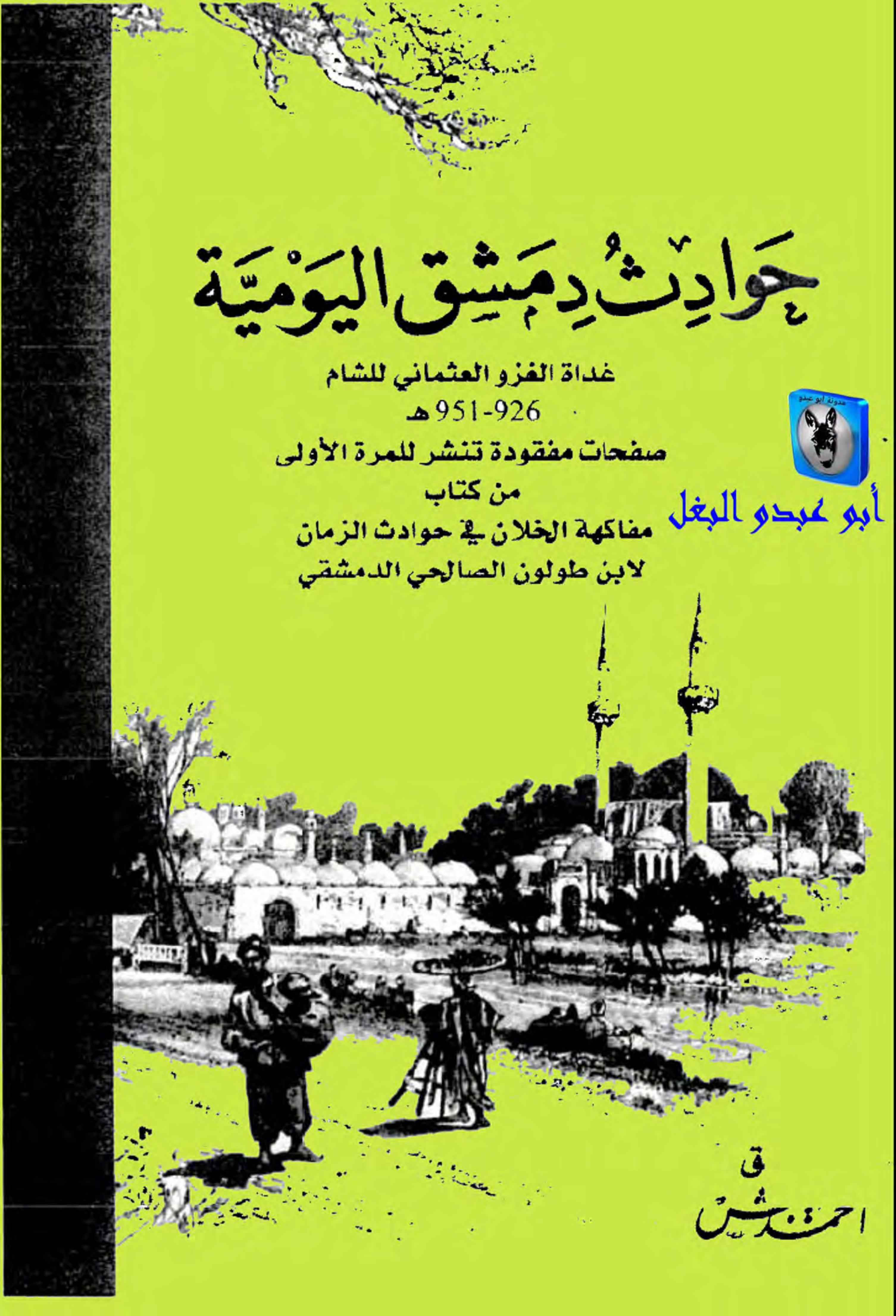

حوادث دمشق اليومية
غداة الغزو العثماني للشام
926-951هـ
صفحات مفقودة تنشر للمرة الأولى
من كتاب
مفاكهة الخلان في حوادث الزمان
لابن طولون الصالحي الدمشقي
ق
احمد ايبش
أبو عبدو البغل

محقق الكتاب
أحمد إيبش

باحث في التاريخ العربي والإسلامي

صدر له بدءاً من عام 1982 سبعة كتب

حول تاريخ بلاد الشام والجزيرة العربية.

بالإضافة إلى عشرات المقالات والمحاضرات.

ويقوم حالياً بالإعداد لمجموعة من الدراسات

التاريخية والأثرية حول معالم الحضارة

والتراث للقطر العربي السوري تحت

عنوان (إعادة استكشاف سورية)

ستكون الحلقة الأولى منها بعنوان :

موسوعة الريف العربي السوري

بالتعاون مع الصديق الباحث

محمد عصام الحجار .

حوادث دمشق اليومية

إعادة استكشاف سورية

- 1 -

حَوادِثُ دِمَشق اليَوْمِيَّة

غداة الغزو العثماني للشام

926-951 هـ

صفحات مفقودة تنشر للمرة الأولى

من كتاب

مفاكهة الخلان في حوادث الزمان

لابن طولون الصالحي

(توفي عام 953 هـ)



دار الأوائل

2002

الكتاب : حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام
المؤلف : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي
تحقيق : أحمد الإيبش
التدقيق العام : إسماعيل الكردي
التنسيق الفني والتصوير الفوتوغرافي للمحقق
تصميم الغلاف : ROOTS

الطبعة الأولى
دمشق 2002
عنوان المحقق : ص. ب 11252
دمشق - سورية

الأوائل **للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية**

الإدارة : ص.ب 3397 - التوزيع : ص.ب 10181 سورية ، دمشق
تلفاكس : 2248255 11 963 ++ ، خليوي : 411550 93 963 ++
البريد الإلكتروني : e-mail: alawael@scs-net.org
موقعنا على الإنترنت : www.daralawael.8m.com

صورة الغلاف الأمامي : التكية السليمانية بدمشق بأواسط القرن التاسع عشر ، عن كتاب Picturesque Palestine .
صورة الغلاف الخلفي : مشهد قريب للتكية السليمانية ، نقيشة معدنية ، عن المصدر ذاته .

موافقة وزارة الإعلام رقم : 50584 تاريخ 2001/4/16

الإهـــداء

إلى محمّد وهَيَا إيبش

صفحات من تاريخ مدينتكما

الخالدة دمشـق ووطنكما الحبيب سورية

توطئة

إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ .

هذه قاعدة عامة لا موضع فيها لمناقشة أو جدال ، وذلك أن التاريخ لا يقوم إلا على الآثار التي خلّفتها عقول السلف أو أيديهم . فإن سطت محن الدهر أو عوادي الزمن على بعض هذه الآثار وأزالت معالمها ، فقدها التاريخ وكانت كأنها لم توجد ، وبفقدها يُجهل تاريخ عصرها ورجالها وأحوالها ، أما إذا بقيت وحُفظت فقد حُفظ التاريخ فيها . لهذا يرى المؤرخون لزاماً في أعناقهم، قبل كل شيء ، أن يتصدّوا للبحث والتنقيب عن شتى الآثار التي خلّفها لنا السلف ، والتي اصطلحنا ها هنا على أن نسميها «أصولاً» .

بين هذه الأصول في تواريخ البلدان ، تحتل كتب (الحوادث اليومية) مكانة مرموقة وصبغة شائقة ممتعة للقراءة ومفيدة للبحث والدراسة . وهذه الكتب تتناول فيما تتناول ، على المعتاد ، تسجيل الوقوعات اليومية والحوادث الفردية والجماعية لمجتمع مدينة ما ، على صعيد الهيئتين الحاكمة والمحكومة . فتراها تقدم صورة حيّة وصادقة عن حياة مجتمع هذه المدينة وحركته السياسية والاقتصادية وحوادثه وغرائبه وطرائفه ، وحتى ما يتّصل بتقلّبات الطبيعة من أمطار وثلوج وطوفانات ، وكوارث كالزلازل والحرائق . وتلمح فيها فوق ذلك وصفاً وافياً للعادات والتقاليد ولأنماط الحياة السائدة آنذاك في الفترة التي يغطيها الكتاب . وهذا كلّه غالباً بلهجة عاميّة جذّابة ممتعة .

هذا ولقد حظيت مدينة دمشق بنصيب وافر من هذه المؤلفات التاريخية المبنية على أسلوب اليوميات ، لعل أبرزها كان المذكرات اليومية الثمينة التي دوّنها لنا الحلاّق الدمشقي أحمد البديري في الربع الثالث من القرن الثاني عشر الهجري (1154- 1176 هـ) ، والتي اشتهرت بعنوان «حوادث دمشق اليومية» . ولما صدر هذا الكتاب في عاصمة النيل القاهرة عام 1959 عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، بتحقيق الباحث المصري المُجيد الدكتور أحمد عزّت عبد الكريم ، لاقى في عاصمة الشام دمشق أكبر ترحيب وأبعد صدى . حتى لقد اعتبره الكثيرون ، وأضحيتُ منهم ، أمتع وأطرف ما صدر من أصول تاريخية حول هذه المدينة الخالدة ، بوجه العموم والإطلاق .

ثم لم يمض على ذلك الحدث أكثر من ثلاثة أعوام ، حتى صدر في عاصمة النيل أيضاً ، ما بين عامي 1962- 1964 كتاب آخر لا يقل خطراً ولا طرافة عن ذاك ، هو كتاب «مفاكهة الخلاّن في حوادث الزّمان» للمؤرخ الدمشقي الشهير محمد ابن طولون الصالحي ، والذي يؤرّخ لنصف قرن من حياة دمشق الخالدة ، ما بين شطرين متميزين ومتباينين من تاريخها ، هما أواخر عهد الدولة المملوكية ومطلع حكم الدولة العثمانية . فكان هذا ما رفع المؤلف ابن طولون إلى مصاف كبار مؤرخي الشام ، وبات وصنوه المصري محمد ابن إياس كفرسي رهان ، سجّلا لنا وقائع المرحلة ذاتها بين القطرين الشقيقين الشامي والمصري .

يومها ، تلقى جمهور الباحثين والقرّاء هذا الكتاب بمزيد الاغتباط ، غير أن السعادة بصدوره سرعان ما خفتت وخبا بريقها ، عندما أدرك القارئ أن ما نُشر منه لا يمثل سوى بعضٍ من نصفه الأول فقط ، بين عامي 884 - 926 هـ ، مع خروم شتى تكتنف متنه . وأما النصف الآخر ، الذي يغطي الربع الثاني من القرن العاشر الهجري (927 - 951 هـ) ، خلال باكورة حكم بني عثمان للشام في عهد السلطان سليمان خان القانوني ، والذي يمثل زبدة الكتاب وقيمته الحقيقية ، فقد

ضاع من الأصل المخطوط الذي عوّل عليه محققه الدكتور محمد مصطفى ، والمحفوظ في مكتبة جامعة توبنگن Tübingen بألمانيا الغربية .

كانت خيبة الأمل تلك ، منذ وقعت عيناي على الكتاب للمرة الأولى قبل عشرين عاماً ، حافزاً لي للبحث المحموم عن الجزء الناقص من المخطوط . فأذكر أنني عندما التحقت بمقاعد الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت ، لم أذَرْ فهرساً من فهارس المخطوطات العربية في العالم ، وما أكثرها ، إلا والتهمتُ ما فيه من معلومات وتسميات بحثاً عن ذاك الابن الضال ، دونما أي جدوى أو حتى بصيص من نور . وما برح هذا الهاجس في نفسي يستشري إلى اليوم ، بضراوة لم تعرف الكلل وبإلحاح لن يطفئه إلا بلوغ الضالّة المنشودة بالعثور على كنز دمشق الثمين الضائع .

غير أن بارقة أمل لاحت أخيراً في الأفق ، واهية في مبدئها ، عندما ظفرتُ في بعض مخطوطات مكتبة برلين العامة بألمانيا الغربية ، بشذرات منقولة من الجزء الثاني من المفاكهة . وما هي إلا أسابيع قليلة ، حتى بدأت نصوص أخرى ونقول شتّى من الكتاب تتكشّف لي الواحدة تلو الأخرى ، حتى بلغ ما عثرتُ عليه منها ما يصل في تقديري إلى قرابة نصف الكتاب أو ثلثه في أقل تقدير ، وذلك مما يزيد على اثني عشر مصدراً مخطوطاً .

فهنا حارَ بي السؤال :

هل يقوم البعض مقام الكل؟ وهل يفي الجزء بالحاجة دون الأصل؟

غير أنني ، برغم حيرتي ، لم ألبث أن عمدتُ إلى جمع ما أمكن جمعه من بقايا الكتاب ونُتفه المتناثرة ، بعد أن كنت أحجمتُ تارة وترددتُ أطواراً . ثم نكصتُ على أعقابي ثانية وتراجعتُ ، فأهملتُ الكتاب الذي غفا على رفوف مكتبتي مدّة غير يسيرة ، بانتظار نصيبه للخروج إلى النور .

وبعد الحيرة والتردّد لسنوات عدّة ، وجدتُ نفسي تنازعني إلى نشره أيّما منازعة ، وألفيتُها تقول لي غداة بعض الأيام : دُونك يا صاحِ الأمر ، ولا تقنع من الغنيمة بمجرّد الإياب . . فما لا يُدرك كلُّه لا يُترك جُلُّه ، ثم إن الميسور لا يُترك بالمعسور كما علمتَ . ولعلّ الأيام تجود لك بالجزء المفقود من الكتاب ، أو على الأقل بنسخة منه ، فيكتمل بذلك السؤل ويتحقق حلمك المنشود .

قلتُ لها : حسنٌ يا نفسُ ، فإني فاعلٌ . ثم ما تراه يدريك؟ لعلّ طالعنا يقودنا يوماً ، بحُسن التوفيق ، إلى العثور على مُبتغانا من حيث لا ندري ولا نحتسب . . فقديماً قال الشاعر : ويأتيكَ بالأخبار مَن لم تُزوِّد .

قالت : وأيمُ الحقّ أصبتَ وأصْمَيتَ ، ومن الله التوفيق وعليه الاتكال !

فإذاً . . ها أوم كتابنا أخيراً بصورته الراهنة ، نضعه بين أيدي الباحثين والقرّاء الكرام ، آملين منهم تقدير الجهد المبذول والعناء والنَّصَب الكبيرين حتى صار إلى شكله الحاضر .

واستكمالاً للفائدة ، قدّمنا لبحثنا بدراسة وافية حول أصول الحوادث اليومية كمصادر لتأريخ الشام في مطلع العهد العثماني ، وعن كتاب «مفاكهة الخلاّن» ومؤلّفه ، وعن أسلوبنا المتّبع في تحقيقه .

* * * * *

لا مُشاحّة في أن هذه الصحائف المفقودة من «مفاكهة الخلاّن» ، التي ننشرها اليوم للمرّة الأولى ، تعتبر بلا مُدافع المصدر الأول لتاريخ مدينة دمشق في مطلع حكم بني عثمان لها ، وهي فترة مضطربة وغامضة المعالم لم تصلنا عنها مصادر ووثائق كافية . كما أنها تلقي أضواءً كاشفة على ملابسات ثورة جان بردي الغزالي - وهي الثورة الأولى التي تقوم في وجه الفاتحين العثمانيين بالشام -

وكيف تم إخمادها بالقوّة ، واستُغلّت عقب ذلك ذريعة لفرض النظام والهدوء عنوة لصالح الدولة الحاكمة الجديدة ، لفترة لا يستهان بها امتدّت أكثر من نصف قرن حتى أواخر القرن العاشر الهجري ، فألقت نتائجها بظلال جليّة على أنظمة الحكم والإدارة العثمانية في إقليم الشام .

فهذا الكتاب ، يأتي اليوم ليسدّ ثغرة هامّة ، وليضيف إلى مكتبة المصادر المختصّة بتاريخ دمشق وبلاد الشام ، وليرسم فوق ذلك صورة حيّة وطريفة ودقيقة للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لدمشق ، إبّان انضوائها تحت الحكم العثماني في عهد السلطان سليمان خان القانوني ابن السلطان سليم الأول فاتح الشام .

ومن الممتع للقارئ أن ينتقل عبر صفحات هذا الكتاب إلى ماضي دمشق قبل 500 عام ، فيعيش معه مشاهد للحياة اليومية للمجتمع الدمشقي ، بين حكامه وعلمائه وأعيانه وعوامه ، وشتى حوادثه من كبيرة أو صغيرة ، ويلمح فيه طائفة من الوقائع والعادات والتعابير التي حفظت لنا بعضها القرون واندثر البعض الآخر .

وحريّ بنا ذكره في هذا المقام ، أننا حين نقدّم هذا الكتاب اليوم ، فإنما بمثابة حلقة أولى من سلسلة من المصادر الخطيّة عن حوادث دمشق اليومية والحوليّة على امتداد العهد العثماني في الشام ، نعتزم نشرها ، وكنا جهدنا منذ قرابة العشر سنوات في تجميع مصادرها الأصلية المختلفة من مؤلفات إخبارية مخطوطة ووثائق ومراسلات ورحلات وكتب تراجم وسواها ، بما يغطي بصورة شبه كاملة تاريخ هذه المدينة في العهد المذكور من مطلعه إلى خاتمته . ولم يتمّ لنا ذلك اليوم إلا عقب جولات عديدة مضنية على دور المخطوطات العربية في شتّى أصقاع العالم ، ما بين شرقه وغربه . غير أننا لسنا نحسب في ذلك فضلاً أو منّة ، ولا نلتمس من ورائه كسباً أو جزاءً ، فحبّ الوطن غلاّب ، ودافع العلم غامر .

على أنه من البديهي أن لهذا المشروع ، إن تحققت فكرته وتمّت أركانه ، فائدة علمية كبيرة لكل مهتم بتاريخ دمشق وتراثها الحضاري ، ولكل متتبّع لتاريخ بلاد الشام والوطن العربي في العهد العثماني عموماً .

* * * * *

منذ اللحظة الأولى التي عزمنا فيها على نشر هذه الصحائف المفقودة من كتاب «مفاكهة الخلاّن» ، كنا نعلم بأن هذه ليست سوى خطوة أولى في عمل أهم وأشمل ينبغي القيام به في أقرب فرصة تسنح ، ألا وهو إعادة تحقيق ونشر القسم الأول من الكتاب ، والمحفوظ بخط المؤلف في مكتبة جامعة توبنگن بألمانيا .

صحيح أن الكتاب قد سبق نشره بمصر بين 1962 - 1964 ، على يد الباحث المصري محمد مصطفى ، إلا أن هذه النشرة مع الأسف ليست تفي بالمطلوب ، وليس فيها من التحقيق العلمي ما يليق بمقام الكتاب وأهميته البالغة ، خلا فهارسها . فمن خلال مراجعة سريعة للنشرة المذكورة ، يتبيّن للقارئ بأن عدم تمكن الأستاذ المحقق من دقائق الطبوغرافيا التاريخية لدمشق وبلاد الشام ، من أسماء مواقع أو حتى أعلام ، قد أوقعه بأغلاط جسيمة أدّت إلى الحد من قيمة الكتاب . وكنا قرأنا بخصوص هذه النشرة نقداً صارماً كتبه كل من أستاذنا الجليل الدكتور صلاح الدين المنجد ، وصديقنا الباحث أكرم حسن العلبي .

غير أننا لسنا نريد هنا اتهام الرجل بالنقص أو التقصير ، فله من الأعمال العلمية ما يفي بحفظ مكانته وتبيان فضله ، وحسبه من ذلك نشرته لكتاب ابن إياس «بدائع الزهور» ، المعروف بأهميته الفائقة لدى كل دارس وباحث .

فلسنا نزيد هنا على أن نقول إن «أهل مكّة أدرى بشعابها» ، وحُقّ بعدُ لدمشق أن يصدر هذا الكتاب فيها ، ومؤلفه دمشقي عاش بدمشق ومات فيها ،

وقصر جلّ نتاج قلمه على تاريخها . فلا غرو إذاً أن نفاخر ببضاعتنا التي رُدّت إلينا من بعد غياب طالت به الأيام ، ونرجو أن يقيّض الله لنا الفرصة القريبة لإعادة نشر الكتاب كاملاً بقسميه .

* * * * *

أما من يبادر من القرّاء الكرام إلى إبداء رأيه وملاحظاته برسالة إلى عنواننا البريدي (ص ب 11252 دمشق) ، فإنما يكون قد أسدى لنا ولدمشق تجلّة تُذكر على الدوام فتُشكر ، وإسهاماً مفيداً نحتسبه ضرباً من احتكاك الفكر بالفكر .

ويطيب لي في هذا المقام هنا ، أن أتقدّم بجزيل الشكر والعرفان إلى أصدقاء كرام كان لهم أطيب الأثر والعون في صدور هذا الكتاب ، وهم الأخ العزيز قتيبة شيخاني والأخ العزيز إسماعيل الكردي والأخ العزيز مطيع اللحام .

وختاماً ، فها هي ذي اليوم إضافة جديدة واجتهاد متواضع ، نقدّمهما على طريق متابعة الدراسات العلمية عن تاريخ سورية الحبيبة ، لاستجلاء المزيد والمزيد من معالم تراثها وحضارتها العظيمين ، ضمن إطار المشروع الطموح الذي نتصدى له حالياً بعنوان : «إعادة استكشاف سورية» .

دمشق ، 3 تموز 2001

أحمد إيبش



مقدّمة

كانت سورية ، وهي الإقليم الشمالي لبلاد الشام ، أول قطر عربي دخله الأتراك العثمانيون فاتحين ، في حركة التوسّع الكبير في العالم العربي ، الذي بدأه السلطان سليم خان الأول (سنة 1516 م) وأتمّه من بعده ابنه السلطان سليمان خان القانوني (1520- 1566 م) . فعلى أثر معركة مرج دابق شمالي حلب (سنة 1516) وهزيمة الجيش المملوكي بقيادة السلطان قانصوه الغوري ، استولى العثمانيون على بلاد الشام جميعها ، وتقدّموا فدخلوا مصر ، وزالت السلطنة المملوكية نهائياً بعد 275 سنة من قيامها ، وحلّت محلّها ولايات عثمانية في القاهرة ودمشق وحلب وطرابلس وصيدا .

استهلّت السيادة العثمانية أول الأمر في الوطن العربي ، على أملاك السلطنة المملوكية المنهارة ، في الشام ومصر والحجاز وأجزاء أخرى من الجزيرة العربية - ثم امتدت هذه السيادة إلى باقي البلاد العربية التي خضعت لها تباعاً ، فشملت في البداية العراق ثم اليمن وشرقي السودان ، ثم المغرب الأدنى (تونس) والأوسط (ليبيا والجزائر) ، فيما عدا المغرب الأقصى (مراكش) .

هذا وقد دام الحكم العثماني في سورية وبلاد الشام حتى قيام الحرب العالمية الأولى عام 1918 ، أي أنه لبث فيها نيّفاً وأربعة قرون ، فكان بذلك أطول حكم شهدته بلاد الشام منذ انضوائها تحت سلك العروبة إثر الفتح الإسلامي لها عام 14 للهجرة (635 للميلاد) .

ويمكن لنا أن نقسم تاريخ سورية ، وبلاد الشام عموماً ، في هذا العهد العثماني الطويل إلى الأقسام الأربعة الرئيسة التالية :

1- العهد العثماني الأول ، والسيطرة العثمانية على البلاد العربية في القرن السادس عشر الميلادي ، منذ عام 1516 إلى النصف الثاني من القرن المذكور . وتشمل هذه المرحلة الفتح العثماني والقضاء على الثورات المحلّية وتنظيم الإدارة العثمانية وفترة الهدوء بالقوة .

2- الثورة على العثمانيين : وتشمل بداية الضعف العثماني وثورات العساكر وثورات الأمراء ومحاولات الدولة العثمانية فرض هيبتها . وتمتد هذه المرحلة من النصف الثاني للقرن السادس عشر حتى الربع الأول من القرن الثامن عشر .

3- تعاظم النفوذ المحلّي في القرن الثامن عشر : وتشمل هذه المرحلة تفشي الانحطاط العثماني ، وازدياد النفوذ المحلّي في بلاد الشام ، وظهور الأسر الحاكمة والمماليك وذروة النفوذ المملوكي في مصر الذي أدّى في النهاية إلى دخول بلاد الشام تحت الحكم المصري بقيادة محمد علي (1831- 1840) .

4- الانفصال عن الدولة العثمانية : وهي المرحلة الأخيرة في التاريخ العثماني ، وتشمل حركات الإصلاح في الدولة في القرن التاسع عشر ، التي بلغت أوجها في عهد التنظيمات الخيرية (بدءاً من عام 1839 م) . وكذلك ظهور حكم الطغاة في العالم العربي ، والتدخل الأجنبي فيه ، وظهور الحركات الوطنية والقومية ، فالحركة الدستورية وثورة الشبان الأتراك وعهد الاتحاديين ونهاية الامبراطورية العثمانية ، ثم خروج الحكم التركي من العالم العربي عام 1918 . وأخيراً نمو الحركة الوطنية التركية وبداية عصر الجمهورية .

* * * * *

ظهور الدولة العثمانية وبداية توسعها

ينتمي السلاطين العثمانيون إلى جدّهم الأمير «عثمان بن أرطغرل» ، وتعتبر سلطنتهم ، التي ظهرت على مسرح الأحداث في القرن الثالث عشر الميلادي ، دولة حديثة العهد حينذاك . كانت نقطة البداية عندما تقدّموا بزعامة أرطغرل ابن سليمان شاه لمساندة سلطان قونية السلجوقي علاء الدين الأول ضد الغزاة المغول ، فمنحهم علاء الدين جزءاً من أراضي آسيا الصغرى مقابل هذه المساعدة . وأخذ العثمانيون بقيادة عثمان ابن أرطغرل (1299 - 1426 م) في التوسع بسرعة كبيرة في الأناضول على حساب الدولة البيزنطية ، وعلى حساب بقية الإمارات التركية الصغرى هناك . وهذا ما تابعوه أيضاً في عهد السلطان الغازي أورخان الأول ابن عثمان .

ثم اتجه العثمانيون ، بقيادة السلطان مراد خان الأول ثم ولده السلطان بيازيد خان الأول ، في موجة جديدة للتوسع في أوروبا بادئين بالبلقان ، فأخضعوا أجزاء كبيرة من بلغاريا والبوسنة وصربيا ، وبالرغم من الهزيمة الساحقة التي لاقاها العثمانيون أمام تيمورلنك (1402 م) في أنقرة فسرعان ما نجحوا في استرداد قوتهم ، ومواصلة فتوحاتهم التي توّجت بالاستيلاء على القسطنطينية (1453 م) بقيادة السلطان محمد خان الثاني «الفاتح» ، وتحويلها إلى عاصمة نهائية لهم باسم «إستانبول» من بعد عاصمتهم السابقة بورصة . وأعقب ذلك توسّعهم سريعاً في شرق أوروبا ووسطها .

وما إن حلّ مطلع القرن السادس عشر حتى حدث تغيّر في اتجاه فتوحاتهم ، إذ تحوّل العثمانيون مؤقتاً إلى الفتح والغزو في بلاد الشرق ، بادئين بالدولة الصفوية في فارس ، فتم لهم إخضاعها على يد السلطان سليم الأول إثر معركة چالديران الفاصلة وسقوط تبريز سنة 1514 م . ثم تابع السلطان سليم فتوحاته في

الشرق ، فبدأها بإخضاع الشام بعد عامين في مرج دابق سنة 1516 م كما ذكرنا ، راسماً بذلك الفصل الأخير لانهيار السلطنة المملوكية ، التي سرعان ما تداعت بعد عام واحد فقط (1517) تحت ضربات العثمانيين .

اختلفت الآراء كثيراً في أسباب فتوحات السلطان سليم في البلاد العربية ، فالفكرة الشائعة تنحو إلى أن السلطان سليم باتجاهه إلى الشرق قد أدار ظهره لأوروبا ، وإن كان ذلك يمثل تغييراً واضحاً في استراتيجية الدولة العثمانية . ولكن الواقع في رأينا يخالف ذلك ، فما اتجه السلطان سليم إلى الشرق ، وإلى البلاد العربية خاصّة ، إلا ليؤمّن ظهر دولته ويحميها من القوتين الكبيرتين اللتين كانتا متحفّزتين للقضاء على دولته ، وهما أولاً الدولة الصفوية ذات الطابع الثيوقراطي المذهبي ، التي كان من أهدافها بالطبع مناوئة الدولة العثمانية التي تتزعم المعسكر المواجه لها مذهبياً ، وثانياً الدولة المملوكية التي رأت ولا شك في الدولة العثمانية القوية خطراً يتهدّد وجودها نفسه [1] .

فالأمر إذاً راجع ، بالدرجة الأولى ، إلى صراع بين قوى ثلاث في منطقة واحدة ، وقد تلامست حدودها وظهر الاحتكاك بين قواها . فكان لا بد لتوفير الحماية والأمان للدولة العثمانية من القضاء على القوى الكبيرة في الشرق ، وأهمها قوة سلطنة المماليك في مصر والشام ، ثم متابعة الفتوحات في أوروبا بعد تأمين العثمانيين لظهرهم في الشرق . قام بالدور الأول السلطان سليم ، ثم كانت المهمة الثانية من نصيب ابنه السلطان سليمان ، الذي بلغت الإمبراطورية العثمانية ذروة أوجها وقوتها في عهده .

* * * * *

(1) راجع : تاريخ ومؤرخي مصر والشام إبان العصر العثماني ، دكتورة ليلى عبد اللطيف أحمد ، ص 10 .

الفتح العثماني للشام
وتوطيد السلطة العثمانية فيها

الفتح العثماني

اصطدم الجيشان العثماني والمملوكي في 23 آب 1516 ، في مرج دابق قرب حلب ، فهزم المماليك شرّ هزيمة ، وأسفرت المعركة عن مقتل السلطان المملوكي قانصوه الغوري نفسه . وعزي انتصار العثمانيين إلى استخدامهم السلاح الناري اليدوي الذي لم يستخدمه المماليك . وكان السلطان الغوري قد حرص على سلامة مماليكه الخصوصيين وتوفيرهم لحمايته فلم يدفع بهم إلى القتال ، في حين رمى في لظى المعركة بالقرانصة من مماليك السلاطين السابقين ، فتقاعسوا عن القتال حين علموا بهذا التمييز . كما أن الخيانة انتشرت في صفوف المماليك ، وانتقل خاير بك ، نائب حلب المملوكي ، إلى جانب العثمانيين إبّان القتال [1] .

ثم اتجه السلطان سليم نحو حلب ، فدخلها برضى أهلها ، الذين قاسوا من جور المماليك في السابق ، وخُطب للسلطان في جوامع حلب ولقّب بخادم الحرمين الشريفين (ومنذ عهد السلطان سليم أضحى هذا اللقب الديني ملازماً لكل سلاطين بني عثمان) . ثم سار العثمانيون باتجاه الجنوب دون أي عناء ، فاحتلّوا حماة وحمص ، ووصلوا دمشق التي عُيّن عليها جان بردي الغزالي نائباً من قبل المماليك المنهزمين ، ولكنه هرب بدوره إلى مصر . وقدّم زعماء دمشق الخضوع للعثمانيين ، وكان على رأسهم قضاة المذاهب الأربعة ونقيب الأشراف ونائب القلعة المملوكي .

---

(1) رجعنا في كتابة هذا الفصل إلى كتاب أستاذنا الكبير الدكتور عبد الكريم رافق «بلاد الشام ومصر ، من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت» ، ص 96-101 .

وحاول العثمانيون إدخال تنظيمات جديدة تتعلّق بالتأكد من هوية أصحاب الوظائف الدينية ومستنداتهم ، وكذلك أصحاب الإقطاعات ومنشوراتهم ، وأجروا إحصاءً للسكّان والممتلكات بغية فرض الضرائب عليها ، فأثار ذلك نقمة الدمشقيين . وكان السلطان سليم مقيماً آنذاك في برزة في ضواحي دمشق يراقب الأمور ، فتدخل كمنقذ وألغى هذه الإجراءات ، وعزل الوالي العثماني يونس باشا الذي أمر بها ، كما أنه وزّع المال على العلماء . وزيّن ثوب المحمل الشريف الذي يرافق قافلة الحج إلى الحجاز ، وزار قبر زعيم الصوفية محيي الدين ابن عربي في الصالحية ، ووزّع المال على أهلها وجلّهم من العلماء والصوفية ، وذلك في محاولة منه لكسب التأييد الشعبي . فيبدو أن العثمانيين كانوا ما يزالون آنذاك بحاجة إلى هذا التأييد ، برغم القوة العسكرية التي كانوا يتمتعون بها ، فحين أطلقت قواتهم المدافع في تظاهرة عسكرية في برزة ، ظن أهل دمشق «أن السماء انطبقت على الأرض» ، كما روى ابن طولون في الجزء الأول من المفاكهة [1] .

ومما يلاحظ على الفتح العثماني لبلاد الشام أن العثمانيين لم يلقوا مقاومة تذكر ، لأن المماليك الجراكسة كانوا قلّة في بلاد الشام ، وهرب معظمهم إلى مصر في أعقاب هزيمة مرج دابق . كما أن الشعب لم يقاوم العثمانيين ، ولم يدافع في الوقت نفسه عن المماليك بسبب ظلمهم السابق له ، بل وقف كالمتفرّج وهويستبدل حاكماً غير عربي بحاكم آخر غير عربي .

وبعد الفتح العثماني لمصر ، إثر موقعة الريدانية في 23 كانون الثاني 1517 ، شعر الفاتحون بحرية أكبر في التعامل مع السكان المحليين ، وأعقبوا كل انتصار لهم باتخاذ إجراءات غير شعبية ، كانوا قد ترددوا في تنفيذها في السابق . فبعد انتصار الريدانية أرسل العثمانيون البشائر بذلك إلى دمشق ، وأعقبوها بإبطال العملة القديمة وإصدار عملة جديدة ، كما شدّدوا قبضتهم لضمان الأمن ، حسبما ذكر

---

(1) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، القسم الأول ، 2 : 30 .

ابن طولون [1]. وحين أرسل العثمانيون إلى دمشق أنباء شنقهم السلطان المملوكي الأخير طومان باي والقضاء على مقاومة المماليك ، أعقبوا ذلك بإجراء «غير شعبي» ، وهو تخفيض سعر العملة العثمانية بمقدار النصف ، فتضرر الدمشقيون كثيراً ، ولكنهم لم يجرؤوا على الثورة . واتخذت إجراءات أمن مشدّدة لردع «الزّعر» الذين نشطوا في دمشق في أعقاب الأنباء المتضاربة عن مصير العثمانيين في مصر . ويمثل هؤلاء الزّعر العنصر المحلّي الذي قاوم المماليك والعثمانيين على حدّ سواء [2]. وأقام العثمانيون الخوازيق في الحارات لإرهاب المناوئين لحكمهم ، وأوعز الوالي والقاضي والدفتردار في دمشق بتسجيل الممتلكات ، داخل المدينة وخارجها ، وبالتفتيش على المستندات المتعلقة بها لمعرفة التزوير فيها ، كما طُلبت مستندات الأوقاف لتدقيقها [3].

وفي أعقاب عودة السلطان سليم من مصر إلى دمشق ، أدخل إليها بعض التنظيمات ، فأمر بحصر البيوت فيها وكتابة أسماء أصحابها ، وفرض عليهم ضريبة جماعية ، وزّعت عليهم بشكل متفاوت حسب مراتبهم في الغنى والفقر ، وفرضت كذلك ضريبة من القمح على كل حارة في دمشق .

وقد أبقى العثمانيون كثيراً من مظاهر الإدارة المملوكية في بلاد الشام لفترة مؤقتة ، وذلك لدوام استمرار الأمور ، وعيّنوا جان بردي الغزالي ، والي حماة في عهد المماليك ، والياً على دمشق . وأزالوا من السلطة بعض الأمراء الذين وقفوا إلى جانب المماليك ، مثل التنوخيين أمراء جبل لبنان ، وأحلّوا مكانهم المعنيين ، الذين أيّدوا العثمانيين في معركة مرج دابق . وطرد العثمانيون الأمير البدوي ناصر الدين ابن الحنش ، الذي سيطر على منطقة البقاع الغنية ، وبالتالي على الطريق الرئيسية التي تربط دمشق ببيروت ، وعيّنوا مكانه الأمير محمد ابن قُرْقُماس

(1) مفاكهة الخلان ، 2: 43-47 ، 58-59 .
(2) انظر حول نشاط الزعر كتاب إعلام الورى لابن طولون ، ص 221 .
(3) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، 2: 90-95 .

الشركسي ، ولكن آل الحنش عادوا بعد ذلك إلى حكم البقاع [1] . وأبدى السلطان سليم اهتماماً بسلامة قافلة الحج الشامي .

وخلال نيّف ونصف قرن ، ما بين 1516 - 1574 م ، شملت الفتوحات العثمانية معظم العالم العربي ، من العراق شرقاً إلى المغرب الأوسط غرباً فاليمن جنوباً . وأصبح العثمانيون القوة العظمى في العالم الإسلامي ، وحماة الأماكن المقدسة والمدافعين عن الحج . وزادت هذه الفتوحات من احترام العثمانيين في العالم الإسلامي وخارجه ، كما أنها أتت إليهم بفوائد اقتصادية كبيرة جداً ، إذ تحكّموا بالطرق التجارية ما بين الشرق الأقصى وأوروبا ، المارّة في بلاد الشام ومصر ، وحصلوا على موارد كبيرة من عائدات التجارة والزراعة ، مما زاد في دعم الجهد الحربي والتوسّع العثماني .

القضاء على الثورات

ظهرت في أعقاب الفتح العثماني للبلاد العربية ، وخلال ثلاث سنوات من بدايته ، سلسلة من الثورات قامت بها قوى مملوكية عملت لإعادة السلطنة المملوكية ، أو قوى عثمانية ناقمة على الإدارة في استانبول ، أو قوى بدوية ومحلّية حاولت الحفاظ على نفوذها .

وقد بدأ ثورات المماليك على العثمانيين جان بردي الغزالي ، والي دمشق العثماني (1517 - 1520 م) ، وهو من بقايا المماليك ، ادّعى في حقه المؤرخ المصري ابن زُنْبُل الرَمّال بأنه تواطأ مع العثمانيين إبّان الفتح ، ولم يثبت ذلك بالفعل ، غير أن المتداول بين الدارسين اليوم أنه قد عُيّن بهذا المنصب مكافأة له

---

(1) انظر حول تاريخ آل الحنش في هذه الفترة :
Francis Hours, S. J. et Kamal Salibi: "Muhammad ibn al-Hanach Muqaddam de la Biqa', 1499-1518", *Mélanges de l'Université Saint- Joseph*, t. XLIII (1968), pp. 1-23.

على تواطئه [1]. وبدا الغزالي، منذ مطلع ولايته على الشام، مغالياً في إظهار الولاء للعثمانيين فوطّد الأمن في دمشق وخارجها، وقاد حملة ضد أمير البقاع البدوي ناصر الدين ابن الحنش فقتله في عام 1518 بعد أن فشل السلطان سليم في ذلك، وعيّن مكانه حاكماً عثمانياً. وبطش الغزالي أيضاً ببعض الأمراء المحليين في نابلس وغيرها، وشنّ عدّة حملات ضد بدو حوران وعجلون، الذين تعرّضوا لقافلة الحج الشامي. وسرّ السلطان من أعمال الغزالي هذه، وخاصة حمايته قافلة الحج، وأغدق عليه الخلع. واستفاد الغزالي من ذلك، وكسب رضى المسلمين، وازداد بالتالي نفوذه في دمشق، وهيبته في الولاية [2].

واستغل الغزالي انتصاراته هذه لتعميق نفوذه في دمشق، فعارض القاضي الحنفي ولي الدين ابن الفرفور، المعروف بطموحه وولائه للعثمانيين، واضطره للهرب إلى حلب، وأقام مقامه القاضي شرف الدين ابن مفلح. كما أن الغزالي أعاد بعض العادات المملوكية التي كان السلطان سليم قد أبطلها، مثل دق الطبل في القلعة وعلى أبواب المدينة، وأعاد الشهود إلى المحاكم كالسابق. وفي محاولة أخرى لاستقطاب الناس من حوله، أمر بمعاقبة العثمانيين الذين يتعرّضون لهم. وقوّى دفاعات دمشق بتحصينه أبواب المدينة.

وما إن علم الغزالي بموت السلطان سليم في 22 أيلول 1520 م، حتى أعلن الثورة على العثمانيين، فشرع بمحاصرة قلعة دمشق، حيث الإنكشارية الموالين للسلطان، واحتلّها في 29 تشرين الأول، ومنع خطباء المساجد من ذكر اسم السلطان الجديد سليمان. وفي محاولة لجمع المؤيدين، أعاد الغزالي آل الحنش إلى حكم البقاع. والتفّ من حوله في دمشق بقايا المماليك وشبّان الحارات من

---

(1) راجع حول ملابسات هذا الأمر ما قام بتبيانه صديقنا الأستاذ أكرم حسن العلبي في كتابه «دمشق بين عصري المماليك والعثمانيين»، ص 400-405.

(2) انظر حول هذه الأحداث: ابن طولون، إعلام الورى، 228-231؛ مفاكهة الخلان (القسم الأول)، 2: 83-85، 87-99، 113-114، 119-121؛ نجم الدين الغزي، الكواكب السائرة، 1: 169.

الزعر ، الذين اغتنموا المناسبة كعادتهم لإبراز قوتهم . وأبطل الغزالي ألبسة العثمانيين ، وأظهر ألبسة المماليك . وأمر بإيقاف بناء الجامع والتكيّة عند قبر محيي الدين بن عربي ، اللتين كان السلطان سليم قد أمر ببنائهما .

وحاول الغزالي مدّ سلطته خارج دمشق ، فعيّن بعض الولاة من قبله على طرابلس وحمص وحماة ، ثم سار نحو حلب لإخضاعها . وبعد أن حاصرها اضطر إلى التراجع ، في 20 كانون الأول ، بسبب اقتراب الجيش العثماني المتجه إليه ، وعاد إلى دمشق حيث أعلن نفسه سلطاناً ولقّب بالملك الأشرف ، وخُطب باسمه في الجامع الأموي يوم الجمعة في 1 شباط 1521 . ثم سرعان ما نشبت المعركة بينه وبين القوات العثمانية في برزة ، في 5 شباط 1521 ، فمني الغزالي بهزيمة منكرة ولقي حتفه ، واحتل العثمانيون دمشق من جديد . وكانت هذه الثورة آخر ثورة للمماليك في بلاد الشام [1] .

صحيح أنه قد حدثت عدة ثورات للبدو في بلاد الشام ، في أعقاب الفتح العثماني ، ولكنها لا تتساوى من حيث الأهمية مع ثورات المماليك ، لأنها حركات مألوفة في تاريخ المنطقة التي شهدت باستمرار صراعاً مستمراً بين سلطات المدن والقوى البدوية . وكان يرجح أحد الطرفين على الآخر بنسبة ما يكون عليه كل منهما من قوة وضعف . وطبيعي أن يثور البدو في فترة انتقال السلطة من دولة إلى أخرى ، للحصول على ما يمكن من الامتيازات ، وطبيعي أيضاً ألا تقف الدولة العثمانية ، وهي في أوج قوتها ، لا مبالية إزاء ما يحدث .

وقد سبقت الإشارة إلى ما قام به الغزالي من حملات ضد بدو البقاع وحوران وعجلون ، للمحافظة على الأمن ، وبالتالي ازدهار الريف والاقتصاد . وكان مهتماً أيضاً بتأمين سلامة قافلة الحج من خطر البدو . ولكن مثاله في الثورة على السلطة العثمانية ، واعتماده على الزعماء المتنفذين من بدو وأعيان ، شجّع

(1) انظر تفاصيل هذه الثورة أدناه ؛ وراجع : بلاد الشام ومصر ، لرافق ، 115-121 .

هؤلاء على اقتفاء أثره . وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن البدو هاجموا قافلة الحج في العلا في السنة التي ثار فيها الغزالي ، وإذ أمكن للعثمانيين القضاء على ثورة الغزالي فلم يكن من السهل القضاء على تمرّد البدو .

وبقيت هذه المشكلة شوكة في خاصرة حكام المدن طيلة الحكم العثماني ، ووجد ولاة دمشق أنفسهم مضطرين إلى شراء البدو بالمال حين لم يمكنهم إخضاعهم بالقوّة ، وذلك لضمان سلامة قافلة الحج ، وعرف هذا المال بالصرّ . وكان يُدفع نصفه لدى ذهاب القافلة ونصفه الآخر لدى عودتها ، ويتضمّن هذا المبلغ حق المرور والحماية وأجرة البدو كأدلاّء للقافلة .

وكثيراً ما امتنع أمراء الحج عن دفع النصف الثاني من الصرّ أثناء العودة ، وهذا ما يفسّر كثرة اعتداء البدو على القافلة حين عودتها . ومما شجّع البدو على القيام بذلك الطمع بالبضائع التي تحملها القافلة في طريق العودة [1] . وقد تنوّعت أشكال اعتداءات البدو على قافلة الحج ، فكانوا مثلاً يملؤون برك الماء في منازل الحج ، على الطريق السلطانية بين الشام والحجاز ، بالمواد الفاسدة السامة ، مما دعا السلطان إلى الأمر ببناء القلاع وإقامة الحاميات للمحافظة عليها . ونشطت الدولة في بناء هذه القلاع في عهد السلطان سليمان القانوني .

ولم يقتصر خطر البدو في بلاد الشام على طريق الحج ، بل تعدّاه إلى مناطق الريف وضواحي المدن . وقد قام بدو الوُلد علي في عام 1526 باعتداء على منطقة المرج ، في ضواحي دمشق الجنوبية الشرقية ، وخرج عليهم والي الشام لطفي باشا وقاتلهم ، وأعدم اثنين من زعمائهم . ولكن هذا العنف لم يقض على تمرّد هؤلاء البدو ، إذ أغاروا بعد سنتين على منطقة القسطل شمالي دمشق .

---

(1) انظر الدراسة المفصلة لقافلة الحج الشامي (تشكيلها ، ذهابها ، قيادتها ، عودتها ، وأهميتها التجارية) في كتاب الدكتور رافق :

The Province of Damascus, 1723-1783, pp. 52-76.

تنظيم الإدارة العثمانية

لجأ العثمانيون ، في أعقاب القضاء على الثورات ، إلى تنظيم الإدارة العثمانية في البلدان العربية المفتتحة . وقد استمر تقسيم بلاد الشام إلى ثلاث ولايات ، هي : الشام وحلب وطرابلس ، كما كان الأمر زمن السلطنة المملوكية سابقاً . وامتدت ولاية الشام من معرّة النعمان حتى العريش ، ولكن ثورة الغزالي جعلت العثمانيين يعيدون النظر في حدود هذه الولايات بشكل لا يتمكن معه الثائرون من استغلال اتساعها وضخامة مواردها المالية ضد الدولة ، فاقتصرت ولاية الشام بعد ذلك على المنطقة الممتدة بين دمشق والعريش ، وقسمت بدورها إلى الصناجق التالية : دمشق أو الشام مركز الولاية ، القدس ، غزّة ، صفد ، نابلس ، عجلون ، اللّجون ، تدمر ، صيدا مع بيروت ، والكرك مع الشوبك . وقسمت ولاية حلب إلى الصناجق التالية : حلب مركز الولاية ، أضنة ، كلّس ، بيره جك ، بالس ، منبج ، معرّة النعمان ، وتركمان حلب وإعزاز . وتألفت ولاية طرابلس من صناجق : طرابلس مركز الولاية ، حماة ، حمص ، سلمية ، جبلة ، اللاذقية ، والحصن [1] .

ولم تكن هذه التقسيمات نهائية ، إذ كثيراً ما كان يلغى صنجق ما أو يدمج بآخر أو يؤسس صنجق جديد . وقد حدث في عام 1660 أن سُلخ كل من صنجق صفد وصنجق صيدا مع بيروت عن ولاية الشام ، وتأسست منهما ولاية رابعة في بلاد الشام هي ولاية صيدا . وكانت بعض الصناجق في ولاية ما تلحق أحياناً بولاية أخرى لأسباب معيّنة ، كما حصل مثلاً لاحقاً في القرن الثامن عشر ، حين ألحق صنجقا حمص وحماة بمنصب والي الشام ، على شكل مالكانة ، أي التزام ضرائبها مدى الحياة ليستفيد من عائداتها ، وذلك بعد أن أصبح ولاة دمشق أمراء لقافلة الحج الشامي ومسؤولين مباشرة عن تأمين نفقاتها .

---

(1) راجع ما ورد لدى المؤرخين والرحالين الترك ، كعلي العيني واوليا چلبي افندى .

وقد أبقى العثمانيون في المناطق خارج المدن الزعماء المحليين ، الذين قامت زعامتهم إما على أسس دينيـة أو إقطاعيـة أو بدويـة ، طالما أنهـم يقدمون الطاعـة والضرائب للسلطة العثمانية . واعترف السلطان سليم الأول أثناء وجوده بدمشق بالمعنيين الذين قدّموا له الولاء ، أمراء على جبل لبنان محل التنوخيين الذين كانوا أمراء الجبل في عهد المماليك ، والذين أيّدوا ناصر الدين ابن الحنش أمير البقاع البدوي ، الذي حاربه السلطان سليم[1] . وليوازن العثمانيون قوة المعنيين اعترفوا بمنافسيهم آل عسّاف التركمان ، الذين فرضوا نفوذهم على لبنان الشمالي التابع لولاية طرابلس ، ووقفوا إلى جانب العثمانيين إبّان الفتح ، فأعطوهم حكم كسروان وجبيل وجعلوا مركز حكمهم في غزير . وليحدّ العثمانيون من توسّع آل عسّاف ، فقد اعترفوا بمنافسيهم آل سيفا الأكراد ، الذين تمركزوا في منطقة طرابلس وحكموها حتى النصف الأول من القرن السابع عشر[2] .

أما آل الحنش فقد دفعوا ثمن تمركزهم في سهل البقاع الغني بمحاربة السلطان سليم لهم ، ومن بعده الغزالي الذي قتل زعيمهم ناصر الدين وطردهم من الحكم ، ثم أعادهم الغزالي إلى السلطة أثناء ثورته ، ولكنهم أضعفوا بعد القضاء عليه ، وحلّت محلهم في البقاع ، في عهد السلطان سليمان القانوني ، أسرة بدوية أخرى هي آل الفريخ . واعترف العثمانيون بإمارة زعيمها منصور ابن فريخ ، لكي يوازنوا به قوة آل الحرفوش المتاولة المسيطرين على منطقة بعلبك . كما أنهم اعترفوا بأسرة آل حمادة في البقاع الشمالي ليراقبوا بواسطتهم آل الحرفوش .

* * * * *

---

(1) انظر : طنوس الشدياق ، أخبار الأعيان في جبل لبنان ، 1 : 287-293 ؛ عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ فخر الدين المعني الثاني ، ص 52 .
(2) الشدياق ، المرجع السابق ، 2 : 3-15 .

وفي أعقاب القضاء على ثورات المماليك بمصر وثورة أحمد باشا الخائن ، أوفد السلطان سليمان وزيره الأعظم إبراهيم باشا إليها لينظّم أمورها . وصدر تبعاً لذلك «القانون نامه» ، الذي نظّم أمور مصر العسكرية والمدنية . وبعد أن جرى تطبيق هذا القانون على مصر ، تم اقتباس كثير من قواعده بشكل أو بآخر لتنظيم أمور الشام أيضاً .

أما من الناحية الإدارية فقد أبقى القانون نامه كثيراً من التنظيمات المملوكية السابقة ، بأسمائها المملوكية أحياناً . ويرأس إدارة الولاية الباشا ، أي الوالي ، وهو من رتبة وزير ، ويسكن دار السعادة بجوار القلعة ، بينما تبقى القلعة بيد فرق عسكرية خاصة من الإنكشارية عُرفت بالقبيقول (Kapukulu ocakları) لا تأتمر إلا بأوامر السلطان . ويوازن سلطة الباشا آغاوات (قادة) الطوائف العسكرية ، والقاضي الحنفي ، والدفتردار . وينوب عن الباشا نائب ، عُرف في مصر باسم القائم مقام ، بينما عُرف في بلاد الشام باسم المتسلّم . واشترط القانون نامه على الباشا في مصر دعوة ديوان للمشاورة أربع مرّات في الأسبوع ، بينما لم يوجد مثل هذا الديوان بشكل منظّم في الشام ، بل كان يعقد فيها حين تقتضي الحاجة .

فترة الهدوء بالقوة

سادت الولايات العربية ، في أعقاب القضاء على الثورات فيها وإدخال التنظيمات الإدارية إليها ، فترة من الهدوء دامت في بلاد الشام ومصر والعراق قرابة نصف قرن ، وتخلّلها كثير من الاضطرابات في ولايات الأطراف في البصرة والإحساء واليمن وشمال أفريقية . وانعكست قوة الدولة وشهرتها المتزايدة ، خاصة في عهد السلطان سليمان القانوني ، على الولايات العربية فسادها جوّ من الرهبة وهي تشهد على فترات متقاربة إقامة الزينات فيها ، تخليداً لانتصار عثماني كبير في أوروبا أو في غيرها من الجبهات .

وتجلّت هيبة الدولة ونشاط الإدارة فيها في أشخاص الولاة الذين عيّنوا على الولايات العربية ، فقد أتوا إليها ووراءهم أمجاد عريضة في ميدان المعارك ، وهو المجال الرئيسي لصنع البطولات في عهد الفتوحات آنذاك . وبرهنوا أنهم على مستوى المسؤولية الإدارية الكاملة ، فحقّقوا الأمن وشيّدوا الأوابد ، ومعظمها ذات نفع خيري كالجوامع والمدارس والسُّبل لتخليد ذكراهم . ولم تشهد أية فترة في باقي العهد العثماني ما شهدته الولايات العربية في هذه الفترة من نشاط إداري وعمراني ، كما سنذكر أدناه .

وتجلّى النفوذ العثماني في بلاد الشام ، في أعقاب القضاء على ثورة الغزالي في عام 1520 ، في هوية كبار الموظفين ، فكان الولاة بلا استثناء من أصل رومي (عثماني) ، أي من غير السكان المحليين ، يتقبّلون عزل الدولة لهم وينفّذون أوامرها بدون تردّد أو تمرّد . وكان القضاة الحنفيون بأسرهم ، منذ أن عُزل ولي الدين ابن الفرفور عن منصب القاضي الحنفي في عام 935 هـ ، من أصل رومي . أما المفتون ، فنظراً لبقائهم في مناصبهم عادة حتى وفاتهم ، كانوا يضمّون أناساً من أصل محلّي وآخرين من أصل رومي . وكانت نسبة هؤلاء الأخيرين غالبة في هذه الفترة على أية حال .

أخلد السكان في ولاية الشام إلى الهدوء ، وأذهلهم ما رأوه من كثرة الجنود وعربات المدافع التي استخدمها العثمانيون في القضاء على ثورة الغزالي[1] . وقد عزّز العثمانيون الحامية الإنكشارية في القلعة في أعقاب ذلك . كما أن انتصارات العثمانيين ، بصورة خاصة في البلقان ، والزينة التي كانت تأمر بها الدولة في دمشق ، كما في غيرها من الولايات ، في مثل هذه المناسبات ، أظهرت للسكان قوة الدولة وجبروتها . فيذكر ابن طولون مثلاً في أحداث سنة 932 هـ : «وفي يوم الأربعاء سادس عشري ذي القعدة ، وصلت إلى دمشق البشائر بأن السلطان قد

---

(1) راجع حول تفاصيل ذلك ما يذكره ابن طولون أدناه في هذا الكتاب ، ص 123-126 .

انتصر على ملك مدينة بدون مع مدينة قرون وأربع وعشرين قلعة . وقُتل فيها من المشركين مايتان وثمانون ألفاً ، ومن المسلمين ثمانون ألفاً . وبعد أن رحل عنها ولّى بها يحيى باشا . فنودي بالزّينة سبعة أيام ، ثم بعد خمسة أيام قدم البشير فنودي بالزّينة سبعة أيام أُخر»[1] .

وفي الفترة بين 927 - 936 هـ زيّنت دمشق أربع مرّات احتفالاً بانتصارات العثمانيين العسكرية في بلاد البلقان . كما أن حملات ولاة دمشق ضد أمراء جبل لبنان ، عقب القضاء على الغزالي ، والإتيان برؤوس القتلى من الجبل ورميها في دمشق ، أرهبت سكان الجبل بقدر ما أرهبت سكان دمشق ، وزادت بالتالي من هيبة الدولة . ولم يتورّع العثمانيون عن سجن العلماء أصحاب الشأن في دمشق آنذاك . ويذكر أن والي دمشق إياس باشا سجن في عام 927 هـ/ 1521 م الشيخ تقي الدين القاري الشافعي بسبب انتقاده للحنفية وقوله بأن العثمانيين أهل بدع ، ثم أفرج عنه بتوسّط أحد المعتقدين بابن عربي ، ولكنه حُرم من امتيازاته . وحدث أيضاً في سنة 942 هـ أن أعدم قاضي دمشق بعهد واليها محمد كُرَجِه باشا اثنين من العلماء ، رغم معارضة مفتي الحنفية ، بتهمة أنهما رافضيان . وقام والي دمشق في سنة 928 هـ بسجن وتغريم الدمشقيين ، الذين قاموا بتغييرات في عمارة بيوتهم بقصد عدم إيواء العثمانيين فيها[2] .

وإلى جانب هذه النماذج من تسلّط الولاة ، نجد أن بعضهم ترك في هذه الفترة آثاراً هامة ، فالوزير لالا مصطفى باشا الذي ولّي على دمشق في الفترة بين 971 - 976 هـ/ 1563 - 1569 م ، بنى الخان المعروف باسمه تحت قلعة دمشق ، ويقوم مكانه اليوم سوق الهال ، كما أنه بنى حمّاماً في سوق السروجية[3] . وقام مراد باشا بعد ذلك في عام 976 هـ ، ببناء جامع في السويقة عُرف بجامع المرادية

---

(1) انظر ابن طولون أدناه ، حوادث سنة 932 هـ ، ص 191 .

(2) راجع ابن طولون أدناه حول هذه الحوادث في أماكن ورودها .

(3) ابن جمعة المقّار ، الباشات والقضاة (ولاة دمشق في العهد العثماني) ، ص 15 .

نسبة له ، ولا يزال قائماً حتى اليوم[1] . وحين ولي درويش باشا على دمشق في عام 979 هـ/ 1571 - 1572 م ، أمر ببناء جامع فيها عُرف باسمه ، هو جامع الدرويشية المعروف اليوم قرب باب الجابية ، وذلك بالإضافة إلى مآثر أخرى ، كعمارته لسبل مختلفة ولحمّام بالقرب من الجامع الأموي ولقيسارية قرب سوق الجوخ[2] . وفي عام 999 هـ/ 1590 - 1591 م تمّ بناء جامع السّنانية بدمشق قرب باب الجابية ، وكان قد أمر ببنائه سنان باشا الوزير الأعظم ، الذي عُيّن والياً على دمشق عام 998 هـ ، وعزل في العام ذاته[3] .

ولنا هنا أن نتساءل : لماذا بنيت هذه الأبنية ذات النفع العام في هذه السنوات المتلاحقة؟ ولماذا لم يُبن مثلها في السنوات السابقة أو اللاحقة من العهد العثماني؟ إذا تمعنّا في شخصيات البناة ، وجدنا أن لالا مصطفى باشا مثلاً كان في السابق وزيراً أعظم ، وقد اشترك في فتح قبرص . أما مراد باشا فيوصف أنه صاحب الخيرات والحسنات . وكان درويش باشا وزيراً أعظم وقد توجه إلى الحجاز أميراً على قافلة الحج في عام 974 هـ/ 1567 م . أما سنان باشا فكانت له أعمال خير كثيرة في مختلف البلدان ، وقد اشتهر أمره بإخضاع الثائرين في اليمن (1569 - 1571 م) ، وبنى ما لا يقل عن أربعين مسجداً جامعاً في مناطق مختلفة .

وهكذا ، فبالإضافة إلى صفات الغنى والخير والشهرة التي اتصف بها هؤلاء الولاة ، يجب أن نذكر أنه في هذه الفترة التي حكموا فيها ، بلغت الإمبراطورية العثمانية أوج مجدها ، ونالوا هم من هذا المجد الشيء الكثير . فلا عجب بعد أن حاز هؤلاء الأشخاص المناصب العالية والشهرة في الدولة ، أن يرغبوا بتخليد ذكرهم بهذه الأعمال الخيرية ، خاصة في دمشق عاصمة الخلافة

---

(1) ابن جمعة المقّار ، الباشات والقضاة (ولاة دمشق في العهد العثماني) ، ص 16 ؛ الغزي ، الكواكب السائرة 3 : 205-206 .

(2) ابن جمعة ، 16 ؛ الغزي ، الكواكب السائرة ، 3 : 150-152 .

(3) ابن جمعة ، 20 ؛ شرف الدين موسى الأيوبي ، نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، 1 : 158 .

سابقاً ومركز انطلاق الحجاج القادمين من أقطار مختلفة ، فيرى هؤلاء أعمالهم وينقلون أخبارها إلى بلادهم .

ولا شك بأن هذه الأسباب أيضاً هي التي حدت بالسلطان سليم الأول لأن يأمر منذ دخوله الشام ببناء مسجد جامع كبير عند ضريح الشيخ محيي الدين ابن عربي ، في عام 923 هـ [1] ، ثم ببناء تكية كبرى جانبه في عام 924 هـ . ثم حذا حذوه ابنه السلطان سليمان القانوني ، فأمر ببناء التكيّة السليمانية بدمشق ، في موضع القصر الأبلق بالوادي الأخضر (مقابل متحف دمشق الوطني اليوم) . وقد بوشر ببنائها في عام 962 هـ/ 1554 - 1555 م ، وانتهى ذلك في أوائل صفر 967/ أوائل تشرين الأول 1559 [2] .

ويدل بناء الخانات على نشاط التجارة في بلاد الشام في هذه الفترة . وكان الفرنسيون منذ عام 1536 م يتمتعون بامتيازات (Capitulations) شملت العلاقات التجارية في الدولة العثمانية ، وقد أعفتهم هذه الامتيازات من الخضوع كثير من قوانين البلاد . وفي حين أن الفرنسيين اهتموا بالتجارة مع المناطق الجنوبية من بلاد الشام ، بواسطة مينائها الرئيسي صيدا ، فقد حصر الإنكليز اهتمامهم في منطقة حلب ، واعتمدوا أكثر من الفرنسيين على تجارة المرور ، واستخدموا ميناء الإسكندرونة لنقل بضائعهم . وكانوا يستوردون الحرير من بلاد فارس ، ويصدّرون إليها وإلى بلاد الشام المنسوجات الإنكليزية ومواد الصباغة . وقد أسّسوا في عام 1581 م شركة بلاد المشرق (The Levant Company) ، التي تركّز نشاطها في بلاد الشام [3] .

---

(1) يرد تفصيل ذلك لدى ابن طولون في القسم الأول من مفاكهة الخلان ، 2 : 68-70 ، 79 .
(2) انظر : الغزي ، الكواكب السائرة ، 3 : 156-157 .
(3) انظر :
Alfred C. Wood, *A History of the Levant Company*, London, 1935, p. 11.
Paul Masson, *Histoire du Commerce Français dans le Levant au XVII^e Siècle*, Paris, 1896, pp. 371-96.

وكانت علاقة الولاة بالأمراء في ولاياتهم تنحصر في تحقيق الأمن في أرجاء الولاية ، وجمع الضرائب (مال الميري) من الأمراء الملتزمين . وفي عامين متتاليين 1523 و 1524 م شنّ والي الشام خُرَّم باشا الحملات على دروز الشوف ، فأخلدوا إلى السكينة ، واستمرّ الأمر كذلك حتى قيام فخر الدين المعني الثاني وتحدّيه للعثمانيين في العقد الأخير من القرن السادس عشر .

وقد شجع العثمانيون قيام أمراء محليين متعددين في بلاد الشام ، لإيجاد نوع من توازن القوى بينهم ، ولدرء إمكانية تعاظم قوة أي أمير لدرجة يهدد معها أمن المنطقة . ولهذا نجد في ولايتي الشام وطرابلس ، في القرن السادس عشر ، عدّة أمراء محليين استطاعوا أن يثبتوا نفوذهم محلياً ، فاعترف العثمانيون بسلطتهم .

وحاول العثمانيون إخضاع القبائل البدوية بالقوّة ، وذلك بشنّ الحملات التأديبية ضدها ، وبناء القلاع وتحصينها لمراقبتها . وعمدوا كذلك إلى شراء خضوعها بالمال ، وذلك لتأمين سلامة قافلة الحج الشامي . وفي الواقع فقد ساد الاستقرار في الريف في هذه الفترة ، مما شجع الزراعة ونشّط حياة القرية ، ويفسّر ذلك ازدياد عدد القرى في بلاد الشام في القرن السادس عشر .

* * * * *

خاتمة

وهكذا ، وبعد مقاومة طويلة وقفت فيها سورية صادّة عن العالم العربي خطر الغزو الخارجي الأوروبي والآسيوي ، سقطت في أيدي الأتراك العثمانيين في الربع الأول من القرن العاشر الهجري . وكان احتلالها فاتحة لضم جميع أجزاء العالم العربي إلى الدولة الجديدة ، وكأنها كانت في مقاومتها حافظة له وكذلك في انهيارها ، إذ عادت للعالم العربي وحدته وقضي على عوامل الانفصال التي كانت تمزقه [1] .

ولم تعد سورية حداً للامبراطورية الجديدة كما كانت في عهد المماليك ، وذلك لامتداد الامبراطورية العثمانية امتداداً واسعاً وفسيحاً . كما أنها لم تعد تتمتع بنفس المكانة التي كانت عليها في نطاق الامبراطورية المملوكية السابقة : فقد غدت مجموعة من الولايات البعيدة عن العاصمة ، وتنحصر أهميتها بقربها من المدينتين المقدستين وبكونها مركز انطلاق الحجيج ، وإقليماً ذا قدرات اقتصادية متعددة .

ويعزو كثير من المؤرخين الضعف الذي انتاب سورية خلال الحكم العثماني إلى الحكم نفسه الذي لم يكترث إلا بجمع المال ، ولم يُعن بمصلحة السكان ،

---

(1) رجعنا في كتابة هذه الخاتمة إلى بحث قيّم للدكتورة ليلى الصباغ بعنوان : المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، نشرت به قسماً من رسالتها التي نالت بها درجة الماجستير من جامعة القاهرة عام 1961 . وفي مجمل أبحاث الدكتورة ليلى نرى بجلاء صورة التغيير الذي بدأ يطرأ على نظرة المفكرين العرب تجاه التاريخ العثماني في العقدين الأخيرين من القرن العشرين . وبمقارنة سريعة بين كتاباتها في الستينيات والسبعينيات وبين أبحاثها الصادرة في النصف الثاني من الثمانينيات ، نرى أن حدّة النقد قد بدأت تخفت ، ليحل محلّها خطاب عقلاني يطرح تساؤلات هامة أكثر شفافية وأكثر بعداً عن روح النقد الصارم . ويلاحظ أن كل ذلك انطبق على عدد كبير من مفكرينا العرب ، وسنحاول في الفصل التالي تقديم رؤانا حول الموضوع عينه .

وكان سبباً غير مباشر في حرمان سورية من الاتصال بالعالم الخارجي ، فتقلّصت حيوياتها وانغلقت على ذاتها . غير أن الدولة العثمانية لم تكن العائق الحقيقي في وجه اتصالها بالعالم الخارجي ، ولا سيما الأوروبي منه ، ولا أدل على ذلك من وفود السياح الأوروبيين والتجار الذين تدفقوا إليها بأعداد كبيرة أثناء الحكم العثماني .

فانغلاق المجتمع العربي عن التأثيرات الخارجية لم يكن في الواقع انغلاقاً آتياً من خارج المجتمع نفسه أو مفروضاً عليه ، وإنما كان انغلاقاً داخلياً من المجتمع على نفسه ، وذلك خوفاً على قيمه وحفاظاً على ركائزه من أن تقتلعها ريح خارجية ، سواء أكانت أوروبية أو غيرها . وبنتيجة إحساس هذا المجتمع بالهزيمة العسكرية ، أو لنقل بالأحرى بالتهميش السياسي الذي أصابه من جرّاء النصر العثماني السهل على حكامه السابقين من المماليك ، وبالتالي ضمّ العالم العربي طائعاً غير مختار إلى عقد دولة بني عثمان ، كل ذلك أدى إلى ردّة فعل سلبية غالباً ، تبدّت في تجميده لعاداته وتقاليده وقدراته ، والحفاظ على كيانه الداخلي بشيء من الخضوع الصامت للحكام الجدد .

وإذا كانت سورية لم تجد في الحكم العثماني لها صدمة توقظها نحو نهضة ذاتية تحرك مجتمعها وتسيّره إلى الأمام ، ولم تر في الثقافة العثمانية ما يمكن أن يملأ الفراغ الذي أخذت تتحسسه من الناحية الفكرية ، فإن العثمانيين بالمقابل لم يجدوا فيها رصيداً ثقافياً يمنحهم الغذاء الفكري الكافي . فقد اعتادوا أن يستمدوا أسباب مدنيتهم من المجتمع الإيراني في فارس ، شأنهم في ذلك شأن غالبية المجتمعات العرقية التي دخلت الإسلام في آسيا الوسطى ، فتمثلوا في مطلع قيام دولتهم معالم الحضارة الإسلامية في إيران ، من لغويات وأدب وشعر وأنظمة حكم وإدارة . إلا أن النزاع بينهم وبين الصفويين في مطلع القرن السادس عشر قضم جذور الثقافة العثمانية ، وجفف قنوات ريّها الفكري .

وكان من المنتظر أن يجد العثمانيون في سورية ومصر ما يعوّضهم عن الخسارة الثقافية التي منوا بها ، ولكن الحضارة العربية الإسلامية آنذاك كانت غير قادرة على أن تحل محل الثقافة الإيرانية في حياة العثمانيين ، لأنها أولاً حضارة لم يستقوها في السابق من مصدرها العربي الأول وإنما عن طريق المجتمع الإيراني ، وبذلك بقيت بأعماقها غريبة عنهم على الرغم من احترامهم وتقديرهم لكل مقوماتها . وثانياً لأن هذه الحضارة كانت تمر بمرحلة «جمود وتجميد» . ولكن هذا لا يمنع من القول أن حكم العثمانيين لسورية والمقاطعات العربية كان له أثر ديني وفكري وأدبي ولغوي عميق على العثمانيين ، لا بد لنا كعرب معاصرين اليوم من دراسته وبحث آثاره .

ومن كل ما ذُكر يتضح أن الحكم العثماني لسورية وللمشرق العربي ، بكل أطره وتنظيماته ، لم يتسم بالعمق الكافي والتمازج الحضاري أو التصاهر الفكري التام ، فهو لم يتغلغل إلى أعماق مجتمعاتها ، ولم يبدّد الطاقات الحيوية الكامنة التي تقوقعت عليها هذه المجتمعات . وعندما ستضعف الدولة العثمانية وتتلاشى نحو الانهيار ، بعد أربعة قرون ، ويتحدى الاستعمار الغربي هذه المجتمعات العربية تحدياً حضارياً خطيراً بمحاولته خرقها والنفوذ إلى داخلها ، فإنها عندذاك ستخرج من سلبيتها وتفتق القوى الحياتية الكامنة فيها ، التي ستكوّن مسيلة نهضة عربية جديدة .

* * * * *

التاريخ العثماني
في الدراسات النقدية المعاصرة

تعرّض التاريخ العثماني للإهمال بوجه عام حتى النصف الأول من القرن العشرين . فقد تأثر الكتّاب الأوروبيون باتجاهات معاصريهم من الدولة العثمانية التي ظلّت تشكّل بالنسبة إلى أوروبا لمدّة ستة قرون - أي منذ نشأتها حتى الحرب العالمية الأولى - مشكلة كبرى : فهي في بادئ الأمر كانت تمثل رد الفعل الإسلامي ضد الخطر الصليبي ، ثم ما لبثت أن اعترضت المشروعات الاستعمارية الأوروبية ، وحين ضعفت أثارت ما عُرف في المصطلح الديبلوماسي باسم «المسألة الشرقية» ، التي شغلت أذهان الأوروبيين ولم يُسدل عليها الستار إلا بانهيار الإمبراطورية العثمانية [1] .

وهكذا ظل الأوروبيون ، ردحاً طويلاً من الزمان ، يعتبرون الدولة العثمانية العدو الأكبر للمسيحية ووصمة سوداء تلطّخ قيم الحضارة الغربية وكابوساً يخيّم على التطوّر التاريخي للبشرية . وأضحت عبارة turco (بصيغتها الإيطالية) مرادفاً للتعصب والجهل والتخلّف . وعكس المؤرخون الأوروبيون بوجه عام هذه النظرة المتحيّزة ، بغض النظر عن قليل من الاستثناءات التي خرجت عن هذه الأحكام العامة .

وعلى أثر انهيار الإمبراطورية العثمانية وظهور عدد من الدول الجديدة على أنقاضها ، جرى تفسير التاريخ العثماني من وجهة النظر القومية لكل من هذه

---

(1) راجع البحث القيّم الذي كتبه أحمد عبد الرحيم مصطفى بعنوان : في أصول التاريخ العثماني ، المقدمة . وكذلك انظر :

Halil Inalcık, *The Ottoman Empire: conquest, organisation and economy* (collected studies), Introduction, pp. I-II.

Kemal Karpat (editor), The Ottoman State and its Place in History, pp. 1-6.

Albert Hourani, The Ottoman background to the modern Middle East, ibid, pp. 61-3.

الدول ، وهي بوجه عام تفسيرات متحيّزة ومنقوصة . فقد اعتبرها مؤرخو البلقان والدول العربية الحديثة دولة أجنبية استعمارية عرقلت قيام نظم سياسية حديثة في بلادهم ، وجعلوا منها في كثير من الأحوال مشجباً يعلقون عليه مشاكل هذه البلدان ودواعي تأخرها . بل إن غالبية مؤرخينا العرب قد أبدوا نفورهم من التاريخ العثماني الذي لم يلعب العرب خلاله سوى دور ثانوي ، واعتبروا ظهور الأتراك نهاية لازدهار الحضارة العربية - الإسلامية ، وعقبة في سبيل اقتباس درجات التطور التي أصابتها الحضارة الأوروبية الحديثة .

ومثل هذه الأحكام العامة المتسرّعة والانفعالية لا تتمشى مع الحقائق التي تبرزها الدراسة الجادة الشاملة ، ولا مع الملاحظة المتأنية لما خلّفه العثمانيون في بلادنا من آثار مادية وسياسية وسلوكية تنفي ما يقال عادة من أنهم كانوا مجرد محاربين مجرّدين من أية قيم حضارية . بل إن هذه النظرة العامة إلى العثمانيين قد انتقلت إلى تركيا العلمانية الحديثة ، التي قامت على أنقاض الدولة العثمانية ، فراحت تكيل هجومها الشديد إلى الماضي العثماني .

غير أنه يستثنى من بين الكتّاب والمفكرين العرب والأتراك المعنيين بالكتابة عن التاريخ العثماني ، أولئك أصحاب الاتجاهات الإسلامية الراديكالية . فقد انبرى هؤلاء ، تحركهم الدوافع الدينية ، يدافعون عن الدولة العثمانية على اعتبارها حاضرة الخلافة ، وراحوا يقدّمون الحجة تلو الحجة على فضل هذه الدولة الإسلامية القوية على تحويل مسار الأحداث لصالح الأمة ، وأنها كانت الوحيدة القادرة على المنافحة عن الدين والخلافة الإسلامية في وجه الأطماع الأوروبية . ناهيك عن أنها تمكنت من تحدي أوروبا الغربية في عقر دارها ، عندما شرعت جيوشها في دك أسوار ڤيينا وكادت أن تستولي عليها في عهد السلطان سليمان القانوني . أما أساطيل البرتغاليين التي كانت تجوب منطقة الخليج العربي وتغير على موانئه فلم يتصدّ لها غير العثمانيين أنفسهم ، حتى أن المغيرين قد بلغوا

في إحدى المرات ميناء جدّة وكان في نيّتهم احتلال مكّة المكرّمة ذاتها ، لولا أن أدركتهم القوات العثمانية وألحقت بهم شرّ هزيمة وطردتهم .

كما يتمسك الإسلاميون الراديكاليون بفكرة فضل السلطنة العثمانية بخصوص الحفاظ على رموز الخلافة - حيث كانت آخر حلقات الخلافة الجامعة الإسلامية في عصرنا الحديث - وعلى إقامة شعائر الدين . ويسبغون عليها فضل نيل البشارة النبوية الواردة في الحديث الشريف : «لتفتحنّ القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» ، نعني الفتح العثماني - الإسلامي الصبغة - للقسطنطينية عاصمة بيزنطة وإحدى أبهى معاقل الشرق المسيحي ، والذي تم في عام 1453 م ، وغيّر وجه تاريخ المنطقة برمّتها .

وظهرت على صعيد المنشورات العربية في النصف الثاني من القرن العشرين أعداد من الكتب التي حاول مؤلفوها ردّ الاعتبار إلى دولة بني عثمان ، وتبيان فضلهم في التاريخ الإسلامي ، وأن السبب الحقيقي في التهجم على ماضيهم إنما يقف وراءه دعاة الغرب المناوئين للإسلام . ومن هذه الكتب ، على سبيل المثال نقرأ العناوين التالية : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ؛ الفتح الإسلامي للقسطنطينية ؛ حياة العاهل العثماني أبي الفتح محمد خان الثاني ؛ تاريخ الدولة العليّة العثمانية (بتحقيق جديد يتعاطف مع التاريخ العثماني) ؛ موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ؛ دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش ؛ صحوة الرجل المريض . . إلخ .

حتى أن الزعيم المصري جمال عبد الناصر ، وهو أبرز دعاة القومية العربية في عصرنا الحاضر ، خطب مرّة عام 1954 في القاهرة يقول[1] :

«مهما يكن الأمر بيننا وبين تركيا ، في الماضي أو الحاضر ، فهي منا ونحن منها ، ماضينا وماضيها فصلان من كتاب واحد في تاريخ العرب والإسلام .

---

(1) انظر : العرب والترك لعبد الكريم غرايبة ، صدر المقدمة .

ونحن إلى كل ذلك أنسباء وأقرباء وأصهار ، ففي كل دار من دور العرب على اتساع بلادهم عربي يمتّ إلى الترك بخؤولة ، وفي كل دار من دور الترك برغم اعتزالهم في ديارهم تركي يمتّ إلى العرب بعمومة . . فقد اختلطنا نسباً ، وإن قامت بيننا الحدود والسدود والأسلاك الشائكة» .

* * * * *

على أن النظرة العامة للتاريخ العثماني قد أخذت تتعدّل في أوروبا وتركيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وبدأ يشوبها الاتزان والموضوعية . وفي البلقان ، الذي اعتنقت كثير من دوله الإيديولوجية الماركسية ، فُسِّر التاريخ العثماني بأنه العصر الإقطاعي الذي سبق ظهور البورجوازية الصغيرة ، فالرأسمالية في القرن التاسع عشر ثم الاشتراكية بعد ذلك . وترتّب على ذلك ظهور مادة وفيرة ترتبط بالتطور الاقتصادي والاجتماعي . وجرت محاولات مماثلة في البلدان العربية ، وإن لم تف بتعديل النظرة العامة للتاريخ العثماني الذي لا تزال دراسته موضعاً للإهمال .

بيد أن الاهتمام بالوثائق العثمانية ودراستها قد عدّلا النظرة إلى التاريخ العثماني خلال السنوات الأخيرة ، وأضحى التاريخ العثماني خلال العقود الأخيرة المحور المفضّل لأقسام الدراسات الشرقية في جامعات أوروبا وأميركا ، بحيث أصبح في حيّز الإمكان وضعه في مكانته الصحيحة في إطار التاريخ العالمي : إذ أن الدولة العثمانية قد ظهرت في ثنايا رد الفعل الإسلامي إزاء أوروبا الآخذة في التوسع في شرقي البحر المتوسط خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ورغم استعارتها بعض التقنيات الأوروبية بطريق التقليد والنقل ، فإنها تمثل أقوى وأنجع مقاومة لأوروبا من جانب أية حضارة غير عربية . كما أنها لعبت دورها في تكوين ما نطلق عليه اسم أوروبا الحديثة ، وفي إعادة تشكيل مجتمعات جنوب

شرقي أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا ، في الوقت الذي استدامت فيه هوية معظم المجموعات الجنسية واللغوية والدينية الخاضعة لحكمها .

وهنا ، ينبغي لنا التنويه بأن الدولة العثمانية كانت التنظيم السياسي الوحيد في العصور الوسطى والحديثة ، الذي اعترف رسمياً بالأديان السماوية الثلاثة ، وأوجد بينها تعايشاً سلمياً يشوبه شيء من الانسجام . وقد بلغ عدد المجموعات اللغوية والجنسية التي خضعت للحكم العثماني بين وقت وآخر أكثر من ستين مجموعة ، لعبت فيما بعد دورها ، إما في قيام دول قومية حديثة أو في إثارة كثير من مشاكل الأقليات التي استعصى حلّها على الحكومات الحديثة ، كما جرى في عصرنا الحاضر مثلاً في أزمتي البوسنة والهرسك وكوسوڤا بأقلياتها المسلمة البوسنية والعرقية الألبانية ضمن المحيط الصربي المعادي لها . على أن الحكم العثماني كان ، بشكل أو بآخر ، قد أوجد الحلول الملائمة لهذه المشاكل العالقة ، واستعاض في كثير من الأحيان بمفهوم «المواطَنَة العثمانية» عن روابط القومية واللغة وحتى الدين ، بصورة أضيق قليلاً .

أما المدرسة الاشتراكية في دراسة التاريخ ، والتي أفرزت عدداً من الباحثين المعروفين في التاريخ العثماني ، في روسيا وغيرها ، فقد قدّمت نظريات رصينة بعيدة عن التحامل أو التحيّز ، ومن خلال أسلوبها المعهود في تقصي الديالكتيك المادي والتاريخي خرجت بملاحظات جديرة بالنظر .

ويمكن لنا ، من خلال اقتباس بعض أفكار هذه المدرسة [1] ، وصف العلاقات الاجتماعية في الدولة العثمانية بعبارة «الإقطاعية الشرقية» ، التي يمكن إيجازها بأنها كانت شكلاً خاصاً للمجتمعات ما قبل الرأسمالية ، والتي تختلف عن الإقطاع الغربي (الفيودالية) بالمفهوم السوسيولوجي للنموذج الاجتماعي .

---

(1) رجعنا في ذلك إلى دراسة بالروسية للباحث الروسي نيقولاي إيڤانوف : الفتح العثماني للأقطار العربية ، 1516-1574 ، دار المعرفة للنشر ، موسكو 1984 .

والفارق الرئيسي بينهما يتبين في أن هذه الإقطاعية الشرقية تمثلت بصورة «إقطاعية الدولة» ، ففي الشرق لم تكن هناك أرستقراطية النبلاء بالوراثة أو نبلاء الدم التي ارتبطت ملكية الأرض بهم . فالطبقة الإقطاعية الحاكمة في الشرق ، بخاصة الأسر المسيطرة ، قد مثّلت أرستقراطية جيل واحد اكتمل عدده عن طريق الاختيار بالمصادفة أو الجدارة وليس بالحقوق العائلية الموروثة .

تميّزت الإقطاعية الشرقية كذلك بدمج الفرد ، إلى أقصى حد ، بالمؤسسات الاجتماعية والسياسية ذات الطابع الديني والتصوّفي الغيبي (الماورائي) . وتجدر الإشارة كذلك إلى عامل الزمن ، إذ تمّت الفتوحات الإسلامية تحت راية الإسلام ودفاعاً عن حقوق المقهورين والمحرومين . وارتفعت شعارات مجاهدة الكفّار والملاحدة الذين حادوا عن تعاليم الشريعة المقدّسة . ولذا فإن تاريخ الفتوحات العثمانية يقدّم لنا معلومات بالغة الأهمية تدعو إلى التفكير والتأمل ، فالدولة العثمانية شكلت أهم وأكبر دولة إسلامية تستند بالفعل إلى مبادئ الشريعة الإسلامية ، خلال التاريخ الإسلامي الطويل الأمد ، من بعد عصر الدولة الإسلامية الأولى في عصر الرسول (ص) والخلفاء الراشدين ، عندما كانت الدولة الإسلامية في طور التكوين .

وحول مصداقية الدولة العثمانية في تطبيق شعاراتها ومبادئها الإيديولوجية عموماً ، نرجع هنا إلى مقولة للمفكر الفرنسي روجيه غارودي ، بأن مقارنة الواقعية الغربية بالمثالية الذاتية للمشرق هي مقارنة غير صحيحة ، إذ لا بدّ من مقارنة المثالية بمثالية ، والواقعية بواقعية . أما تاريخ الفتوحات العثمانية فهو يتيح فعلاً ، وبسبب توافر المادة التاريخية ، المقارنة بين الشعارات التي رفعها العثمانيون وبين ما تحقق منها على أرض الواقع . وبكلمة أبسط ، يتيح مقارنة «مثاليتها» الذاتية بـ «واقعيتها» الذاتية .

* * * * *

أما حول رأينا الشخصي في الموضوع ، فنرى أن من الواجب إخضاعه لدراسة نقدية باحثة متأنية ، بعيدة كلياً عن الأهواء والنزعات - المتحاملة منها أو المتعاطفة - فإن تاريخ العرب الحديث ما هو إلا تاريخهم أثناء فترة العهد العثماني بذاته ، ودراسة هذه الفترة الحسّاسة الحاسمة في تاريخ العرب كفيلة بوضع الأسس الجوهرية التي ينبغي اتّباعها اليوم وفي المستقبل القريب بخصوص طبيعة المبادئ الأساسية التي تحدد هوية الأمة وتعبّر عن قضاياها ومفرزاتها الإيديولوجية . والتاريخ ما هو إلا سلسلة مستمرة دائمة من المسبّبات والنتائج المرتبطة ببعضها ، فلا يمكن لأي كان فصل الماضي عن الحاضر أو الحاضر عن المستقبل .

ولذا ، فلا بد لأمتنا العربية من إعادة تقييم ماضيها ، بخاصة القريب منه ، للانطلاق نحو مستقبل القرن 21 وتحدّيات «العولمة» بوعي أكبر وانفتاح أعمق . وهذا ما يتيح مثلاً الإجابة على أسئلة هي غاية في الأهمية ، تقع في صميم الحوار الفلسفي الإيديولوجي للأسس النظرية التي تقوم عليها أمتنا :

ما المبدأ الأساسي الذي يحدد انتماءنا كعرب اليوم : هل هو الانتماء القومي العرقي إلى العروبة ؟ أم هو الانتماء الديني إلى الإسلام ؟ أم أنه انتماء إيديولوجي مركب يحمل في جناحيه كلاً من مفردات العروبة والإسلام ؟

ثم ما مدى نجاح الخطاب السياسي القومي العلماني في خدمة قضايا الشعوب العربية وتحدياتها المعاصرة ؟ وهل يقدم الخطاب السياسي الديني حلولاً أكثر نجاحاً وفاعلية منه ، أم أن العكس هو الصحيح ؟

كل هذه أسئلة جوهرية لا ندّعي الإجابة عنها هنا ، إنما نرى ونؤكد أن دراسة تاريخنا تحت الحكم العثماني ، بطريقة نزيهة وموضوعية ، يمكن أن تقدم لنا صورة إجمالية بالغة الوضوح والتعبير حول هذه القضايا بالذات . وكذلك نعتقد بأن ذلك الحكم العثماني كان يحمل إيجابيات كما كانت له سلبيات ، سنحاول فيما يلي إيجاز بعضها قدر الإمكان :

إيجابيات الحكم العثماني

أولاً : إن سيطرة العثمانيين على أقطار الوطن العربي قد وحّدت هذه الأقطار في إطار سياسي واحد ، بعد أن كانت كيانات متنافرة ومتباعدة ، منذ سقوط الوحدة الإسلامية نتيجة لضعف الخلافة العباسية ، قبل ستة قرون من الحكم العثماني . هذا رغم أن هذه الوحدة السياسية التي حققت استقراراً سياسياً نسبياً ، فرضت في الوقت نفسه جموداً وعزلة على نشاط العرب في المجال السياسي بخاصة .

ثانياً : استطاع العثمانيون وقف توغل البرتغاليين في البحار العربية ، بالبحر الأحمر والخليج العربي ، بعد أن كان عجز المماليك وحلفاؤهم العرب من المغاربة وغيرهم عن الوقوف أمام تهديدات البرتغال لأقطار الوطن العربي . وكان العثمانيون بوقفتهم هذه قد بسطوا حمايتهم على أقطار الوطن العربي ضد الأطماع الاستعمارية الأوروبية ، حتى أواخر القرن الثامن عشر عندما بدأ الضعف يدبّ في كيان الدولة العثمانية ذاتها .

ثالثاً : استطاع العثمانيون ملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردهم من ليبيا عام 1551 م ، بعد أن سبق لهم أن طردوهم من جزيرة رودس التي انتقلوا إليها إثر طردهم من فلسطين على زمن سلاطين المماليك في مصر والشام . كما تمكن العثمانيون من كسر شوكة الإسبان في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وفرضوا حمايتهم على الأقطار العربية في شمال أفريقية .

رابعاً : فرضت الدولة العثمانية أثناء صدامها مع البرتغاليين حول مداخل البحار العربية تقليداً جديداً يقضي بمنع دخول المراكب الأوروبية في البحر الأحمر بحجة أنه يطل على الأماكن المقدسة للمسلمين في القرن الثامن عشر . وهذا التقليد أفاد الوطن العربي ومنع الدول الاستعمارية الأوروبية من تحقيق أطماعها فيه .

خامساً : استفادت شعوب الأمة العربية الإسلامية من الحكم العثماني ذي الوجه الإسلامي في تقوية الحياة الدينية الإسلامية . وذلك أن الحكام العثمانيين حافظوا على مشاركة الشعوب العربية الإسلامية في كافة الاحتفالات الدينية ، ومراعاة الشرائع الإسلامية ، وكل ذلك انعكس على تأكيد القيم والمبادئ الدينية في نفوس العرب المسلمين .

وكان الاتصال بين العرب في موسم الحج ، أو التعلم بالجامع الأزهر وغيره من المساجد الكليّة الجامعية ، من عوامل ترابط العرب المسلمين واتصالهم الوثيق بعضهم ببعض ، وتأصيل القيم الدينية في نفوسهم . خاصة أن التعليم كان جوهره دينياً ، وكان يؤدي وظيفة اجتماعية بما يضفيه على المتعلم من مركز اجتماعي ومادي . وخلال فترة الحكم العثماني بالوطن العربي بقي نفوذ العلماء وكبار رجال الدين لدى السلطات الحاكمة التركية قائماً وقوياً ، وأقبل كبار رجال هذه السلطات على تشجيع العلماء ورصد الأوقاف الخيرية والتعليمية ، بل وعلى حضور مجالس العلم العامة والخاصة ، ومنح الهدايا والمنح للعلماء من وقت لآخر .

سادساً : استفادت الشعوب العربية من كون الحكم العثماني للأقطار العربية كان حكماً غير مباشر ، حيث لم يتدخل العثمانيون في تغيير البناء الاجتماعي والاقتصادي السائد في العالم العربي قبل القرن السادس عشر ، ومن ثمّ احتفظ العرب تحت الحكم العثماني بمؤسساتهم السابقة ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم . وليس أدلّ على ذلك من أن العثمانيين أبقوا على التقسيم الشائع في المجتمعات العربية الإسلامية إلى طبقات : رجال السيف ، ورجال القلم ، والتجار ، وأصحاب الحرف ، وأهل الذمّة ، والعبيد . كما أبقوا على انتظام أصحاب الحرف في طوائف لكل منها شيخ ينظّم شؤون العاملين فيها مع كامل هيكليتها الإدارية الأصلية .

هذا ناهيك عن أن نظرة الحكام العثمانيين لغالبية الأقطار العربية في المشرق كانت نظرة إجلال وتقديس واحترام تام ، فالحجاز مهد الإسلام ومهبط الوحي ، والشام الشريف موئل الأنبياء والأولياء والأبدال والصالحين وبوابة الحج ، أما مصر فهي كنانة الله ودرّة المشرق .

ونتيجة لبقاء التراث العربي بعيداً عن تدخل التنظيمات العثمانية ، فقد استفاد العرب في بقاء الفكرة القومية ومقوماتها في نفوسهم ، إلى أن تهيأت لها الظروف في أوائل القرن العشرين لتنطق إلى مجال الإعلان والتحرك نحو الوجود والتحقيق .

سلبيات الحكم العثماني

أولاً : قصور إدراك العثمانيين لمدى حجم وظائف الدولة ومسؤولياتها نحو رعاياها . ذلك أن هذا الإدراك كان يقوم على أن مهمة الدولة تتمثل في ثلاثة أمور فقط :

1 - الدفاع عن الولايات ضد أية اعتداءات خاجية ، وهذا يستلزم وجود قوات عثمانية تدافع عن البلاد أو تشارك في مهاجمة القوى المعادية للسلطنة ، كما تحافظ أيضاً على الأمن والنظام وعلى ضمان تبعية الولايات . فلذا كانت مهمتها عسكرية وأمنية في آن واحد . وبطبيعة الحال فالقوات التي وجدت بالولايات العربية لم تكن عربية ، إنما كانت عثمانية بتشكيلاتها ، مما أفقد المواطنين العرب الإحساس بقدرتهم على حماية بلادهم والدفاع عنها [1] .

---

(1) ونستثني من ذلك بوادر ظهور الهوية المحلية في بلاد الشام مثلاً في القرن الثامن عشر ، والتي تمثلت بالدرجة الأولى ببدء دخول أبناء دمشق في فصيل جديد من اوجاق الإنكشارية ، عُرف باسم (اليرلية) وهي كمة تركية معناها الإنكشارية البلدية أو المحلية Yerli Yeniçeriler ، وتحول هذا الفصيل بالتدريج إلى الفئة التي حملت على عاتقها =

2- تحصيل الأموال الأميرية (الضرائب) على تنوعها ، ثم توزيعها على وجوهها المختلفة عن طريق إدارة مالية . وأهم وجوه إنفاق هذه الأموال هو إرسال الضريبة السنوية للسلطان التي تعرف بالميري ، إلى جانب الرسوم السنوية الأخرى . ولم يكن ذلك يتطلب أكثر من الإشراف على الموظفين الذين يجمعون الضرائب والملتزمين ، ولا يهم ما يقع على الرعايا من ظلم أو إجحاف .

3- الفصل في الخصومات بين الناس ، وهذا أمر يستلزم من الدولة إقامة نظام قضائي حسب ما تقضي به الشريعة الإسلامية ، الأمر الذي يحظى بأهمية خاصة لدى السلطان العثماني ، باعتباره خليفة المسلمين في نفس الوقت .

ولم يكن إدراك العثمانيين لوظائف الدولة ومسؤولياتها ، في ذلك العصر ، ليعي بأن هناك أموراً أخرى على درجة من الأهمية تدخل في وظائف الدولة ، مثل التعليم والصحة والتنمية الاقتصادية والرعاية الاجتماعية ، ولذلك فقد تركت الدولة العثمانية هذه الأمور للأفراد والهيئات تقوم بالصرف عليها ، باعتبارها خارجة عن مسؤولياتها التي حددتها الأنظمة الموضوعة [1] .

ثانياً : طبيعة نظرة العثمانيين إلى المجتمع وتقسيمه إلى طبقتين متميزتين :

1- الطبقة الحاكمة التركية ، التي كوّنت داخل مجتمعات أقطار الوطن العربي أريستقراطيّة حاكمة منعزلة عن بقية أجزاء المجتمع ، بحكم اعتبارها لمكانتها

= مهمة الدفاع عن مصالح الأهالي في وجه الهيئة الحاكمة التابعة للدولة العثمانية ، وبالتالي فكانت في كثير من الأحيان الخصم الألد للجناح الآخر للإنكشارية بدمشق ، وهو القبيقول Kapukulular . وكنا ألقينا حول هذا البحث محاضرة في جامعة إرلانگن Erlangen بألمانيا ، ضمن مؤتمر دولي عن تاريخ سورية في تموز 2000 ، بعنوان :

"The Ottoman Province of Damascus, 1725-1775, from Strife of Political Loyalties to Emergence of Ideological Identities."

(1) وإن كنا بطبيعة الحال لا نستطيع افتراض وجود مثل هذه النظرة الواعية آنذاك ، على غرار ما هو مألوف في أنظمة الحكم الحديثة المتطورة ، بل إن الواجب تطبيق معايير كل عصر على الدول التي قامت فيه ، لا الشطح بالمقارنات والمعايير عدة قرون إلى الأمام .

ووظيفتها وإحساسها بذاتيتها . واستمدّت هذه الطبقة كيانها بالطبع من قوة الدولة وسلطتها المطلقة .

2- الرعايا العرب في بلادهم الخاضعة للحكم العثماني ، الذين كان عليهم خدمة الطبقة الحاكمة ومدّها بكل ما تحتاج إليه ، كما كان عليهم تنظيم أمورهم الحياتية بمفردهم حسب مألوف ما اعتادوه قبل مجيء العثمانيين .

ولا شك أن هذه النظرة القاصرة نحو تقسيم المجتمع قد تركت تأثيرات سلبية على المجتمعات العربية ، أدّت إلى عدم شعور المواطن العربي بالولاء الكامل للدولة العثمانية ، بل أحسّ كل مواطن بولائه لوطنه وقطره الذي ولد فيه .

ثالثاً : الرجعية وعدم التجديد ، اللتان كانتا من معالم السياسة التي جرى عليها الحكم العثماني في البلاد العربية . فلقد رأينا هذا الحكم يستبقي على الأوضاع الاجتماعية والثقافية السائدة في المجتمعات العربية كما كانت قبل الغزو العثماني للأقطار العربية ، بل إننا نرى أن مجموعة النظم والقوانين التي وضعت في عهد أوائل السلاطين الفاتحين ، سليم وسليمان [1] ، قد بقيت نافذة المفعول وظلّت أساساً سار بموجبه السلاطين الذين خلفوا أصحاب القوانين وواضعيها . وإن دلّ هذا على شيء فإنما على أن الدولة العثمانية لم تكن ترحب كثيراً بأي تجديد في نظم الحكم السائدة أو في عادات الناس وتنظيماتهم الاجتماعية .

رابعاً : الطابع العسكري للحكم العثماني في الأقطار العربية ، الذي تمثل في اعتبار الجيش العثماني أداة للحرب وأداة للحكم معاً ، باعتبار أن الجيش العثماني غزا وفتح أقطار الوطن العربي وسيطر عليها ، ومن عقب ذلك تفرعت منه أداة الحكم في الولايات . ولا شك أن ذلك كان له تأثيره السلبي الخطير على الجيش نفسه ، الذي راح يبتعد عن وظيفته الأصلية وهي الدفاع عن البلاد ،

---

(1) راجع : قانون بني عثمان المعروف بآصف نامه ، للطفي باشا وزير السلطان سليمان الكبير ، نشره الأب لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1911 .

وعلى العرب الذين يخضعون لحكم عسكري يبعدهم عن حياتهم المدنية ويقاسون خشونة الحكام العسكريين الأتراك وغلظتهم .

خامساً : سوء الإدارة العثمانية ، التي تجلّت في الاهتمام بالمدن والبلاد الواقعة على سواحل البحار والطرق الرئيسية ، دون الاهتمام بالمناطق الصحراوية الريفية والنائية من أقطار الوطن العربي ، فتركوها في يد رؤساء القبائل والعائلات يدبّرون أمرها بما تعوّدوه من أساليب الحكم القبلية .

سادساً : فرض العزلة على الوطن العربي ، وحرمان الشعوب العربية من الاتصال بالحضارة الأوروبية الناهضة ، بدعوى الخوف على الأقطار العربية من أطماع الدول الأوروبية الاستعمارية . وإذا كانت الأقطار العربية قد استفادت حقيقة ببقائها بعيدة عن أطماع الدول الأوروبية قرابة ثلاثة قرون تحت الحكم العثماني ، أي إلى أواخر القرن الثامن عشر ، فإن العزلة التي عاشتها قد جعلتها تتخلّف مئات السنين عن البلدان الأوروبية الناهضة .

غير أن ثمّة رأياً يقول : إن مسألة ربط تخلّف الأمة العربية عن ركب التطور الحضاري بحكم العثمانيين لها ، أمر يحمل قدراً من المبالغة وشيء من قبيل إلقاء تبعات التقصير على الغير . فتاريخ العرب أثناء الحكم العثماني مليء بالشواهد الحيّة على أن الكيان القومي العربي ومؤسساته الدينية المغرقة في الأصولية آنذاك ، كانت رافضة كل الرفض أي احتكاك بالغرب «الملحد» ، وتعتبر كل ما يتأتى منه من قيم وأخلاق وعلوم ومعارف أمراً مجلوباً مقيتاً ، بل وتصنّفه بكل صرامة تحت خانة «البدع المرفوضة» . فإن كان أبناء ذلك العصر لم يتمكنوا ، ضمن مجتمعاتهم الداخلية المستقلة عن تأثير العثمانيين ، من تجاوز المشاحنات والتحامل والسلبية ما بين المذاهب والأقوام والإفرازات الفئوية والعشائرية والإقليمية ، فمن يتخيّل أنهم بإيديولوجياتهم الثيوقراطية المحافظة كانوا مهيئين لمسألة الانفتاح والتمازج الحضاري مع كيان غريب كأوروبا ؟

سمعنا وقرأنا بعضهم يطرح المقولة التالية : ليت أوروبا أدخلتنا قسراً في فلكها الحضاري وطوّرت شؤون حياتنا بالإكراه عن طريق استعمار بلادنا بدلاً من العثمانيين أنفسهم ! هذا طبعاً منطق مرفوض جملة وتفصيلاً ، فعندما قامت فرنسا ، وهي أرقى دولة في مطلع القرن العشرين حضارة وثقافة وعلماً ، باحتلال سورية (1920 - 1945) تحت اسم الانتداب ، هبّ الشعب العربي السوري وبذل كل ما بوسعه ثائراً في وجه الاستعمار البغيض إلى أن نال الاستقلال .

إن أمتنا العربية لم تكن أبداً مهيئة عشية مطلع العصور الحديثة لتتعاطى معها أوروبا بشكل سلمي وحضاري إيجابي ، فهي كانت محط أطماع الغرب بأسره ، أما الدولة العثمانية فكانت على علاّتها وتخلّفها وظلمها تمثل الحدّ الأدنى المطلوب للوحدة السياسية للمشرق العربي ، تحت إطار الرابطة الإسلامية الجامعة . ويكفي للدلالة على ذلك أنه بمجرد انهيار الكيان العثماني تمزّق الوطن العربي بين براثن الاستعمار الأوروبي ، الذي استولى على أقطارنا الواحد تلو الآخر . وعندها فقط ظهرت الصورة الحقيقية للـ «الغرب المتحضر» ، ومدى ما كان يهيئه للعرب من حضارة ومدنية ، اللهم بالحديد والنار .

لم يكن من الوارد لأمتنا العربية النهوض إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، عندما تنامت حرية الفكر ونضجت ، وبدأ يظهر الفصل بين القومية والدين . ومن المفارقات التي غابت عن أذهان الكثيرين أن الحركات الإصلاحية العثمانية ذاتها ، وبخاصة عهد التنظيمات الخيرية (بدءاً من عام 1839 م) كان لها أبلغ الآثار في خلق الفعاليات الفكرية العربية ، ومهّدت لقيام مناخ إيديولوجي أكثر نضوجاً ، كان من ثماره فهم كل من الترك والعرب على حد سواء وجوب إدراك حضارة الغرب . وتناهى ذلك إلى وعي العرب قوميتهم ووجوب تخطي نطاق «الوحدة الدينية» التقليدية إلى أفق الحرية السياسية البراغماتية ، وضرورة الانعتاق من الحكم العثماني البالي المترهل ، والانطلاق إلى بناء المجتمع الحديث المتحضر .

وختاماً ، فينبغي لكل دارس لتاريخنا العربي والإسلامي ، عدم القفز على القرون الأربعة التي حكمت الدولة العثمانية خلالها مساحات واسعة من وطننا العربي ، وتبرير ذلك بأن الحكم العثماني للبلدان العربية لا يعدو أن يكون فترة جمود وركود ، بل واستعمار أسود واستغلال . إذ لا مراء أن هذه الفترة تشكل جزءاً لا يتجزأ من التاريخ العربي والإسلامي العام ، وبدونها لا يمكن تفسير كثير من الأوضاع والنظم العربية المعاصرة .

وينبغي كذلك لكل دارس ، لا بل لكل مثقف عربي ، أن يعي الفارق الجوهري الكبير ، ما بين التاريخ العثماني ككل والمرحلة الأخيرة من عمر الدولة العثمانية ، والتي تسنّمت مقاليد الحكم فيها جمعية الاتحاد والترقي ، فتعاظمت إبّانها حركة التعصب الطوراني ضد العروبة ، وتم ارتكاب جرائم الإعدامات بحق الوطنيين العرب وغيرهم ، وبخاصة مذابح الأرمن الشنيعة .

هذا مع العلم بأن هذه المرحلة الأخيرة لا تعدو الثماني سنوات ، بين عام 1908 - 1916 م ، غير أنها طبعت التاريخ العثماني برمّته في أذهان الناس بالصور الدموية من جور وعسف وإعدامات وفظائع . رغم أن تاريخ الشام ماقبل ذلك ، في غضون عهد التنظيمات الخيرية (1839 - 1908 م) شهد رخاء ونهضة مدنية وحضارية ، لا مثيل لهما في مجمل ماضيه . وهذا ما نراه بكل وضوح عند تتبع الآثار والأعمال الباقية من فترة التنظيمات [1] ، في كل من دمشق وبيروت والقدس وكافة كبريات المدن في بلاد الشام والحجاز .

* * * * *

---

(1) كنا في نيسان 1999 قد شاركنا بمؤتمر دولي أقامه المعهد الألماني للدراسات الشرقية في بيروت عن العواصم الإقليمية العربية خلال عهد التنظيمات ، وألقينا فيه بحثاً بعنوان :
"The Role of Leading Kurdish Families in Urban Politics of Late Ottoman Damascus, 1807-1918."

كتب الحوادث اليومية
كمصادر لتاريخ الشام في مطلع العهد العثماني
بالقرن العاشر الهجري

يحدد الدكتور صلاح الدين المنجد[1] المصادر التاريخية المكتوبة في تراثنا العربي المخطوط بثلاثة أصناف رئيسية هي :

1- النقوش الكتابية على الأحجار وغيرها .
2- الوثائق والسجلات .
3- التآليف الخطية .

فالكتابات على الأحجار من أهم مصادر التأريخ ، وقد خلّفت لنا حضارتنا العربية نقوشاً كثيرة تؤرخ نواحي كثيرة من العمران أو الوفيات أو المراسيم التشريعية التي كان يصدرها السلاطين والحكام .

أما الوثائق والسجلات فهي المرجع الذي ينبغي أن يبدأ به المؤرخ قبل كل شيء لغزارة المادة التي تقدمها في دراسات التاريخ ، لأنها تنطوي على أمور تشمل نواحي الحياة الاجتماعية كافة . فالسجلات الرسمية ومراسيم الولاة والسلاطين والمراسلات بين الملوك والمعاهدات والرسائل الدبلوماسية وتقارير القناصل وكتب الوقف والبيوع والوصايا والرهون والفتاوى ، وغير ذلك ، كله يمدّ المؤرخ بأصدق وأغزر مادة في البحث الذي يطرقه[2] .

---

(1) في سلسلة محاضرات له ألقاها في عام 1959 على طلبة قسم التاريخ والجغرافية في معهد الدراسات العربية العليا بجامعة الدول العربية بالقاهرة ، ثم قام بتوسيعها ونشرها في كتابه : المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة ، بيروت 1964 .

(2) أهم مجموعة من السجلات المتعلقة ببلاد الشام خلال العهد العثماني توجد في أرشيف رئاسة الوزراء في تركيا Başbakanlık Arşivi ، وكذلك سجلات المحاكم الشرعية في دار الوثائق التاريخية بدمشق . والرجوع إلى مثل هذه السجلات والوثائق بات من =

وأما التآليف الخطية فهي الآثار الأصلية المكتوبة التي أُلّفت في نفس العصر الذي يتناوله الباحث بالتقصي والدرس ، ولا شك أنها تعتبر المصادر الأصلية الأولى لدراسة أحوال ذلك العصر ومجتمعاته وأحداثه وجوانبه الحضارية مع كل ما يتعلق به من شؤون الحياة .

ومن المؤرخين العرب من اختار الكتابة حسب أسلوب الحوادث الحولية أو اليومية ، ومنهم من اختار التأريخ الطبوغرافي للمدن بكتب البلدانيات والجغرافية والرحلات ، ومنهم من اختص بالتراجم والطبقات ، وعمد آخرون إلى نظم التأريخ بالشعر فوضعوا الأراجيز التاريخية .

فأما الصنف الأول ، وهم مؤرخو الحوادث ، فقد قدموا لنا عبر العصور الإسلامية سجلاً حياً لأقطار العالم العربي بحوادثه ووقائعه المختلفة ، السياسية منها والاجتماعية والفكرية والطبيعية . وتعتبر هذه المؤلفات العماد الأساسي لدراسة التاريخ العربي وإعادة كتابته . وفيما يخص بلاد الشام ، ودمشق خصوصاً ، فلدينا سجل تاريخي حولي كامل يرسم معالم تاريخها منذ الفتح الإسلامي لها حتى خاتمة العهد العثماني .

وبلغ هذا الفن أوجه في خلال العهد المملوكي ، فظهرت أهم المؤلفات التاريخية في القرنين الثامن والتاسع ومطلع العاشر للهجرة ، ويجد الباحث حول تاريخ الشام في هذه الفترة زخماً هائلاً من هذه المصادر ، مما لا نجد متسعاً لتعداده هنا ، غير أننا نذكر منه أمثلة سريعة : حوادث الزمان لابن الجزري ، تاريخ الإسلام للذهبي ، عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ، البداية والنهاية لابن كثير ، الدرّة المضيّة لابن صصرى ، عجائب المقدور في نوائب تيمور لابن عرب شاه ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، وغير ذلك كثير جداً .

= أبجديات البحث في تاريخ الشام بالعهد المذكور ، وهي التي تسم البحوث بأصالتها .
ومؤخراً بعام 1999 بدأ المعهد الفرنسي بدمشق بإصدار دليل لسجلات المحاكم العثمانية .

وفي أواخر العهد المملوكي ، في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري ، استمرت مؤلفات الحوادث اليومية بالظهور ، وإن بدأت تتسم بصغر الحجم وعدم الإحاطة بكل أخبار دولة المماليك البرجية الجراكسة في مصر والشام عموماً ، ونعدد من هذه المصادر المختصة بمدينة دمشق :

تاريخ ابن اللّبودي (يبدأ من عام 934 هـ) وجلّه مفقود ، تاريخ العلاء البصروي (871 - 904 هـ) ؛ يوميات الشهاب أحمد ابن طوق (885 - 914 هـ) ؛ تذكرة الإخوان في حوادث الزمان للنعيمي (توفي 927 هـ) وهذا الكتاب مفقود ؛ حوادث الزمان للحمصي (851 - 930 هـ) ؛ وأخيراً مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان لابن طولون (880 - 951 هـ) .

وباستثناء كتابي ابن اللبودي والنعيمي ، فقد تم تحقيق الكتب الباقية ونشرها في أيامنا ، وتحققت بذلك الغاية والفائدة المطلوبة منها . وأما مفاكهة الخلان ، فلم يظهر منه سوى قطعة من القسم الأول تغطي الأعوام 884 - 926 هـ مع خروم ونواقص كبيرة تجتاح متنها . ونحن اليوم عندما ننشر القطع المرممة من القسم الثاني المفقود فإنما نكمل ما ينقص هذه المجموعة من المؤلفات التي جمعت بين أخبار أواخر عهد المماليك ومطلع عهد العثمانيين . وكتاب مفاكهة الخلان تحديداً يعتبر دون شك أول وأهم مصدر عن دمشق خلال الفتح العثماني وبداية حكمهم فيها بأيام السلطان سليم الأول وابنه السلطان سليمان القانوني .

وعقب تأليف ابن طولون لمفاكهة الخلان ، بدأت تظهر في القرن العاشر الهجري كتب جديدة تناولت الحوادث اليومية للشام ودمشق ، وبدأ مستواها العلمي وحسّها الإخباري بالهبوط قليلاً عما عهدناه في العهد المملوكي ، كما فشت فيها لغة ومفردات جديدة لم تكن مألوفة من قبل ، فرضتها مستجدات الحياة الإدارية الجديدة في ظل الحكام العثمانيين ، مع ما رافقها من مصطلحات تركية وفارسية مولّدة دخل بعضها في العاميّة الشامية .

المصادر الخطية للحوادث

أما المصادر الخطية المعروفة حول حوادث دمشق اليومية في القرن العاشر الهجري ، فهي بحسب ما توصلنا إليه :

1- المذكرات اليومية لابن طوق : مؤلفها شهاب الدين أحمد بن محمد الشهير بابن طوق الدمشقي ، الجيرودي الأصل (توفي 915 هـ) . منها نسخة مخطوطة فريدة بخط مؤلفها في المكتبة الظاهرية ، تغطي الفترة الممتدة بين 885 – 908 مع أشياء بين 910 – 914 هـ . وهي عبارة عن مذكرات وتعليقات شخصية لم تكن الغاية منها تأليف كتاب في التاريخ بالمعنى المعهود ، إلا أنها لهذا السبب بالذات تعتبر مثالاً فردياً بالغ الندرة لهذا النوع من التأريخ الشعبي الشيق والممتع ، وهي أشبه ما تكون بصحيفة يومية لأخبار دمشق آنذاك .

أثار هذا الكتاب حيرة الباحثين بدمشق كما أثار شهيتهم لنشره ، ولكن دون طائل ، بسبب العسر الشديد لخطه الذي كان أشبه بالاختزال منه إلى الكتابة العادية المعهودة . وأول من أشار إلى هذه المذكرات كان الأستاذ أبو الفرج العش في فهرسه لمخطوطات التاريخ في الظاهرية ، وسمّاها مذكرات يومية كتبت بدمشق بأواخر عهد المماليك ، ثم نشر حولها الأستاذ عبد الودود يوسف برغوت بحثين في مجلة الحوليات الأثرية السورية وفي المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، بيّن في الثاني منهما نسبة المذكرات لابن طوق ، وأعلن عن عزمه نشر الكتاب ، الأمر الذي لم يكتب له التحقق .

ثم شاءت الأقدار أن تكون أسبقية نشر الكتاب لصديقنا العلاّمة الشيخ جعفر المهاجر البعلبكي الموطن ، الذي قضى من حياته شطراً طويلاً يعمل على حلّ مغاليق الكتاب ، حتى نشر الجزء الأول منه مؤخراً ضمن مطبوعات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق عام 2000 . وحظينا بشرف ومتعة مراجعة تدقيق النص ، حيث كان سبق لنا العمل في المخطوط ذاته .

2- تذكرة الإخوان في حوادث الزمان : مؤلفها محيي الدين عبد القادر ابن محمد النعيمي (توفي 927 هـ) . لم يصلنا هذا الكتاب مع الأسف ولا ندري الفترة التي يغطيها ، وقد ذكره نجم الدين الغزي في كتابه الذائع الصيت الكواكب السائرة (1 : 250) ضمن ترجمته للنعيمي . ومن الجدير بالذكر أن ابن طولون الصالحي نفسه كان تلميذاً للنعيمي واستفاد من مؤلفاته كثيراً ، حتى أن الدكتور صلاح الدين المنجد يرى أن كتاب النعيمي المعروف «الدارس في تاريخ المدارس» ما هو إلا مختصر وضعه ابن طولون على الكتاب الأصلي ، بينما للشيخ دهمان آراء تخالف ذلك (راجع مقدمته للقلائد الجوهرية لابن طولون ، ص 22) .

ومما يلاحظ أيضاً أن ابن طولون لا بد أنه سمّى كتابه «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان» تيمّناً بعنوان كتاب أستاذه ، كما هو واضح ، غير أن الدليل القاطع على ذلك مفقود مع الأسف لضياع مقدمة المفاكهة وخطبته المعهودة ، والتي يذكر فيها مصادره وخطته في تأليف كتابه ، مع أخبار أربع سنوات من مطلعه . وفضلاً عن كل ذلك ، سنذكر أدناه نظرية جديدة لنا عن أن القسم الأول من مفاكهة الخلان ما هو إلا مجموعة من النصوص المنقولة عن كل من كتابي ابن طوق والنعيمي ، الآنفي الذكر أعلاه .

3- حوادث الزمان ووفيات الأعيان من الشيوخ والأقران : مؤلفها شهاب الدين أحمد بن محمد الأنصاري الحمصي (توفي 934 هـ) . يغطي هذا الكتاب فترة حرجة تمتد بين 851 - 930 هـ ، فهو لذلك أول المصادر عن أواخر العهد المملوكي ومطلع العثماني بالشام ، ولا يضارعه في ذلك إلا كتابنا الحالي مفاكهة الخلان ، غير أن هذا الأخير يفوقه باتساع مادته وإسهابه بذكر الأحداث .

ومن الكتاب نسخة من ثلاثة أجزاء توزّعتها الأيام بين مكتبة فيض الله باستانبول ومكتبة جامعة كامبردج في بريطانيا ومكتبة الطهطاوي بسوهاج بمصر ، كما أن منه نسخة كاملة في مكتبة الفاتيكان بروما ، وجزءاً في مكتبة برلين .

ولم ينل هذا الكتاب حظه من الشهرة لبقائه مخطوطاً ، إلى أن قام بنشره مؤخراً في لبنان الدكتور عمر عبد السلام تدمري في 3 أجزاء عام 1999 . غير أننا لا نعتبر هذه النشرة كفيلة بالغاية المطلوبة ، على اعتبار اقتصار المحقق فيها على النسخة الأولى المصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، دون أن يدري بنسختي الفاتيكان وبرلين اللتين تكملان نواقص كثيرة هامة أصابت النسخة الأولى المذكورة ، وهذا ما تبيّن لنا بجلاء لدى مقارنة المخطوطات الخمسة التي درسناها بدقة ، حيث كنا ننوي سابقاً نشر الكتاب .

4- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان : مؤلفه ابن طولون الصالحي ، ولا نريد هنا الاستفاضة بذكره ، ونؤجل ذلك إلى مكانه . إنما نرى أنه أهم حلقة في سلسلة المؤلفات المذكورة هنا لعدة اعتبارات ، أهمها تميّز الفترة التي يغطيها ، وغزارة مادته وتنوعها وغناها إلى حد فاق كل ما سواه . ويكفي للدلالة على ذلك أنه نقل عمّن سبقه ، كالبصروي وابن طوق والنعيمي والحمصي ، ثم نقل عنه من تلاه كالأيوبي والغزّي وابن العماد وابن كنّان .

5- الروض العاطر فيما تيسّر من أخبار القرن السابع إلى ختام القرن العاشر : مؤلفه شرف الدين موسى بن يوسف الأيوبي الأنصاري (توفي بُعيد ستة 1003 هـ) . منه نسخة مخطوطة فريدة بخط المؤلف في مكتبة الدولة ببرلين .

ورغم أن عنوان الكتاب يدل على أنه من مصادر تاريخ الحوادث ، فهو يختص أصلاً بتراجم أعيان عصره في الشام وسواها ما بين 745 - 998 هـ ، بعدد بلغ 334 ترجمة . إلا أن فيه أمرين يتصلان بتاريخ الحوادث اليومية ، أولهما كما ذكر في صدر كتابه (ورقة 2 و) : «وطرّزت بعض التراجم بحوادث حصلت في تاريخ وفاة ذلك الشخص» . وهو يقصد بذلك ذكره لاستطرادات تاريخية نقلها من القسم المفقود من كتاب مفاكهة الخلان تحديداً ، فقدم لنا بذلك أكبر قسط مما جمعناه هنا من نصوصه الضائعة ، كما سنرى في موضعه .

الأمر الثاني هو أنه شرع في تدوين بعض الحوادث اليومية التي جرت بعصره في سنة 998 - 999 هـ ، وذلك في خاتمة كتابه بين الأوراق (305 و - 307 ظ) ، وفي هذه الأوراق فقط خطر للأيوبي أن يدوّن الحوادث اليومية التي عاصرها ، وليته كان استفاض في ذلك أكثر . ولكن على أي حال ، سنجد من ذلك كفايتنا في كتابه الآخر نزهة الخاطر ، كما نذكر أدناه .

وما زال كتاب الروض العاطر مخطوطاً لم ينشر بعد ، ما خلا فقرات كان نشرها منه الباحث التركي أحمد خليل گُونَش في كتيّب صغير طبع في ألمانيا الشرقية بالنصف الأول من الثمانينيات ، وفي نفس الفترة كذلك كان الدكتور رودولف زلهايم من جامعة فرانكفورت يعمل على نشر الكتاب ، إلا أنه لم ينجز ذلك .

6- نزهة الخاطر وبهجة الناظر : مؤلفها الأيوبي نفسه ، وهذا الكتاب أكثر مؤلفات الأيوبي أصالة ، ففيه يقدم لنا تأريخاً يومياً ممتازاً ودقيقاً لدمشق خلال عامي 999 - 1000 هـ ، وصل فيه المخطوط إلى شهر ربيع الثاني من سنة 1000 ثم انتهى بخرم مع الأسف ، ولا ندري إلى أين انتهى المؤلف بتأريخه هذا ، علماً أنه توفي بُعيد عام 1003 للهجرة .

والأسلوب الذي ينتهجه الأيوبي في تأريخه هذا مشابه كثيراً لأسلوب ابن طولون في مفاكهة الخلان ، وكان الأيوبي اطّلع على المفاكهة ونقل منها أشياء كثيرة في كتابه الآنف الذكر الروض العاطر . وقيمة نزهة الخاطر أنه يكمل لنا في خاتمة القرن العاشر صورة دمشق تحت مطلع حكم بني عثمان ، التي كان شرع برسمها ابن طولون نفسه في مبدأ القرن . وفي حال تم استكمالها بنص المقدسي المذكور أدناه فساعتها تتكامل الرؤية إلى حد جدّ واضح ومترابط .

يبقى أن نذكر أن الأيوبي أضاف إلى كتابه نزهة الخاطر صفحات مطوّلة استفاض فيها بذكر قضاة الشام منذ صدر الإسلام إلى أيامه ، ونقل في أواخرها أشياء من مفاكهة الخلان ، استفدنا منها في نشرتنا الحاضرة .

من نزهة الخاطر نسخة مخطوطة بخط مؤلفها في المكتبة الظاهرية بدمشق (آلت إلى مكتبة الأسد) ، ضمن مجموع فيه أيضاً كتاب التذكرة الأيوبية في التراجم للأيوبي (سيرد أدناه) ، وكأنما اعتبر المؤلف نزهة الخاطر تتمة لتذكرته . وقد قام بنشر الكتاب عدنان محمد إبراهيم ، وصدر عن منشورات وزارة الثقافة بدمشق عام 1991 . لكن هذه النشرة تشبه ما اعتدنا عليه من مدرسة الدكتورة ليلى الصباغ وطلابها ، التي تصرّ على «شرح» المخطوط بدلاً من تحقيقه ، بطريقة مغرقة في الإطالة والشطط ، مما يفقد النص روحه وفحواه .

7- يوميات محمد بن داود المقدسي : لا نعلم عنها شيئاً سوى ما ذكره علاّمة الشام محمد كرد علي في كتابه خطط الشام (1 : 17) ضمن تعداده للمصادر التي رجع إليها في تأليفه للخطط : كتاب حوادث يومية من سنة 985 هـ إلى سنة 1006 هـ ، نُقل سنة 1101 هـ من خط محمد بن داود المقدسي ، وهو من كتب نسيب أفندي حمزة بدمشق .

بحثنا طويلاً عن المخطوط في دمشق فلم نعثر عليه ، ويؤسفنا أن نعتبر هذا الكتاب بحكم الضائع ، ولسنا نأمل بالظفر به حالياً .

* * * * *

وهكذا نرى أن المصادر السبعة المذكورة أعلاه (بالإضافة إلى كتاب الباشات والقضاة لابن جمعة المقّار 922 - 1156 هـ) ، تتضافر لتقدم لنا صورة شبه كاملة عن حوادث دمشق اليومية في القرن العاشر الهجري ، مع ثغرة واحدة تشمل الربع الثالث تقريباً من القرن (952 - 984 هـ) . ولا شك أن فائدتها ستعمّ وتزداد في حال تم نشر الحلقات الناقصة منها ، وبخاصة آخرها وهي الحوادث اليومية للمقدسي ، التي نعتبرها من ثمار مدرسة ابن طولون في مفاكهته .

ثم لا ننسى وجود مصادر كتب التراجم التي ترفد كتب الحوادث وتكملها بإعطاء فوائد شتى حول الحياة السياسية والعلمية والثقافية والاجتماعية السائدة آنذاك ، وأشهر هذه المصادر بدمشق في القرن العاشر الهجري :

1 - العنوان في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان : للنعيمي ، مفقود .

2 - التمتع بالإقران بين تراجم الشيوخ والأقران : لابن طولون الصالحي . صدرت منه بدمشق نشرة تجارية غير وافية .

3 - ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر : لابن طولون الصالحي . مخطوط لم ينشر بعد .

4 - الغرف العليّة في تراجم متأخري الحنفية : لابن طولون الصالحي . مخطوط لم ينشر بعد .

5 - ذيل يحيى بن عبد القادر النعيمي على كتاب أبيه في التراجم ، مفقود . (راجع الغزي ، الكواكب السائرة ، 2: 100) .

6 - تعليقة فيها وفيات الشيوخ والأقران : للشيخ شرف الدين يونس العيثاوي ، من المصادر الرئيسية للغزي في كتابه الكواكب السائرة (انظر 1 : 5) ، مفقود .

7 - الروض العاطر : للأيوبي . تقدم ذكره مع مصادر الحوادث أعلاه .

8 - التذكرة الأيوبية : للأيوبي ، كتاب في التراجم يعتبر القسم الأول لكتاب نزهة الخاطر ، ما تزال مخطوطة لم تنشر بعد .

9 - تراجم الأعيان من أبناء الزمان : للحسن البوريني ، ترجم فيه لأعيان عصره من سنة 963 هـ إلى سنة 1024 هـ . نشر منه ثلثاه بدمشق .

10 - الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة : للشيخ نجم الدين الغزي . أشهر وأوسع مصادر تراجم القرن العاشر الهجري . نشر في بيروت .

11 - شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب : لابن العماد الحنبلي . كتاب كبير عام في التراجم من الهجرة إلى سنة ألف . نشر بمصر .

مؤلف الكتاب

ابن طولون الصالحي الدمشقي

كانت الصالحية القائمة على سفوح جبل قاسيون ، المطلّة على دمشق ، مثابة علم مُذ هاجر إليها المقادسة في القرن السادس الهجري ، فراراً بدينهم وأنفسهم من الصليبيين . فعجّت بالعلماء والفقهاء والمحدّثين والصالحين ، وتناثرت في جنباتها دور الحديث والمدارس والخوانق والرباطات والزوايا والمساجد والجوامع ، وظلّت مركزاً علمياً للحنابلة والمحدّثين ، رغم ما أصابها في فترات متباعدة من مصائب التتار والمغول .

في هذه الصالحية ، وفي حي الأمير ابن المقدّم غير بعيد عن مدرسة شيخ الحنابلة أبي عمر المقدسي ، ولد شمس الدين محمد بن علي بن أحمد ابن طولون[1] الحنفي ، في أوائل سنة ثمان مئة وثمانين ، وكان العهد المملوكي يكاد يقترب من نهايته ، في عهد المماليك البرجية الجراكسة .

كان جدّه خمارويه ابن طولون[2] من الأتراك ، وكذلك كانت أمه أزدان تركية (رومية) تحسن لسان الأتراك[3] ، وكان لها زوج آخر قبل أبيه . أما أبوه فلا نعلم عنه شيئاً ، وكان عمّه جمال الدين يوسف من كبار العلماء قد بلغ درجة القضاء وتولّى إفتاء دار العدل .

---

(1) طولون اسم تركي Dolun ومعناه البدر ، من الكنى المعروفة اليوم في تركيا . وقد درج المستشرقون الأوروبيون الذين عنوا بتاريخ دمشق على كتابه اسمه Ibn Tulun ، وهو غلط رسماً ولفظاً ، ولا بأس لو كتب بشكل : Ibn Tolun ، وهذا ما سننحو إليه .

(2) لم يثبت انتماؤه لسلالة الأمير أحمد بن طولون حاكم مصر في القرن الثالث الهجري ، وإنما هو مجرد استنتاج ذكره الأيوبي في الروض العاطر دون أن يؤيده بدليل . انظر ترجمة ابن طولون من الروض العاطر التي نشرناها في كتاب غاية البيان (ص 102) ، وراجع أيضاً ما كتبه الشيخ دهمان في مقدمته لكتاب إعلام الورى (صفحة س) .

(3) أزدان اسم تركي أيضاً Özden ، ويعني : أصيلة ، حسيبة .

كان ما يزال رضيعاً لم يمش حين أصاب أمه أزدان الطاعون ، فنشأ يتيم الأم في كنف والده علي وعمّه يوسف وأخيه من أمه الخواجا برهان الدين ابن قنديل . وقد كانت البيئة والأسرة تحدّدان غالباً وجهة المولود وترسمان طريقه في الحياة ، فلا غرو أن مضى ابن طولون في طريق العلم ، وقد نشأ في الصالحية ورعاه عمّه قاضي القضاة ومفتي دار العدل .

بدأ صاحبنا بتعلّم الخط في مكتب المدرسة الحاجبية ، بالقرب من منزله ، ثم انثنى يحفظ القرآن بمكتب مسجد العساكرة ، فختمه وعمره سبع سنوات . وكان ذلك مبدأ انطلاقه نحو العلوم المعروفة في عصره ، فانصرف إليها يساعده ذكاء لامع وذاكرة قوية ، فقرأها على كبار شيوخ دمشق في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر .

وقامت ثقافة ابن طولون على المشاركة في جميع العلوم ، فقد شاء أن يأخذ منها جميعاً فلا يختص بعلم واحد . فانصرف إلى الفقه الحنفي ، مذهب آبائه ، وإلى القراءات والحديث وأصول الفقه وتفسير القرآن والفرائض وعلوم العربية من نحو وأصوله وعلم اللغة والتصريف والعروض والقوافي والمعاني والبيان والبديع .

ثم ترقّت همّته إلى علوم أخرى ، فقرأ في علم الكلام وفي المنطق والتصوّف والتاريخ . على أنه لم يقنع بكل ذلك ، بل شرع يدرس في علوم وضعية بحتة ، فقرأ في الطب وفي علم الهيئة والهندسة والحساب والميقات والبنكامات والفلك والطبيعيات . وبلغ عدد شيوخه ومسنديه الذين أخذ عنهم العلوم خمس مئة شخص ، منهم مؤرخا دمشق عبد القادر النعيمي ويوسف بن عبد الهادي .

ويذكر في كتابه «الفُلك المشحون» أن العلوم التي قرأها ثمانية وثلاثون علماً ، وفي ضمنها علوم أخر تزيد مع هذه على اثنين وسبعين علماً . وهذه العلوم تؤلف بمجملها الثقافة الإسلامية السائدة آنذاك ، بغض النظر عن عمق هذه

الثقافة أو ضعفها . ونرى من خلال ذلك أن ابن طولون قد ألمّ بألوان الثقافة المعروفة في عصره ، وشارك بها ، وأتيح له عن طريق ذلك أن يقرأ على القرّاء والمحدّثين والأصوليين والفقهاء والنحاة واللغويين والمناطقة والمؤرخين والمتصوّفين والأطباء والمنجّمين وعلماء الفلك والهيئة والطبيعة والموقعين وغيرهم . وأتيح له فوق ذلك أن يتجاوز علماء دمشق ، الذين أجازوه إجازات كثيرة شهدوا بها بعلمه وإتقانه ودرايته ، إلى علماء مصر لينال الإجازة منهم عن بعد . وكان على رأس هؤلاء الحافظ جلال الدين السيوطي علاّمة عصره .

هذا الاهتمام بالعلم ، والأخذ به على اختلاف جوانبه وألوانه ، وما نتج عنه من ثقافة واسعة أتاح لابن طولون نيل وظائف علمية كثيرة في حياته ، منذ عام 891 هـ وكان لم يزل في الحادية عشرة من عمره ، وبقي يتقلب في هذه الوظائف إلى أن عُرضت عليه خطابة الجامع الأموي في عام 946 هـ فامتنع عنها ، ثم عُرض عليه إفتاء الحنفية كذلك في سنة 950 هـ فامتنع أيضاً لمرضه .

وفي كتابه «الفُلْك المشحون في أحوال محمد بن طولون» ، يعدد مؤلفنا هذه الوظائف التي بلغت بمجمل حياته العلمية 33 وظيفة ، كان من أجلّها وظائف التدريس بالجامع الأموي الكبير وبمدرسة شيخ الإسلام أبي عمر بالصالحية .

أما إقبال الطلاب عليه وأخذ الكبار عنه ، فكان من نتائج مراتبه العلمية . ويكفي أن نذكر هنا خمساً من كبار الشخصيات العلمية في عصره ممن أخذ عليه في بعض العلوم :

شهاب الدين الطيبي شيخ الوعاظ والمحدثين بدمشق .
والشيخ نجم الدين البهنسي خطيب جامع دمشق .
وشيخ الإسلام إسماعيل النابلسي مفتي الشافعية .
والشيخ زين الدين ابن سلطان مفتي الحنفية .
وشيخ الإسلام شمس الدين العيثاوي مفتي الشافعية .

أما المؤلفات التي تركها ابن طولون لنا فهي كثيرة جداً ، وقد عدّها أستاذنا الشيخ دهمان وذكر أنها بلغت 746 كتاباً ، منها مجلدات كبيرة ومنها رسائل صغيرة (كان يسميها تعليقات) . ومن مؤلفاته التاريخية نعدّد فيما يلي بعض ما ألّفه في التاريخ والتراجم وتواريخ المدن :

1- الاختيارات المرضية في أخبار التقيّ ابن تيمية .
2- أرج النسيم في ترجمة سيدي تميم .
3- إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين .
4- إظهار المكني من ترجمة الشيخ تقي الدين الحصني .
5- تبييض القراطيس فيمن دُفن بباب الفراديس .
6- تحفة الحبيب بأخبار الكثيب .
7- التتمة فيمن نُسب إلى أمّه .
8- تحفة الكرام في ترجمة سيدي أبي بكر بن قوّام .
9- التيجان المزخرفة في معالم مكّة المشرّفة .
10- جزء فيه ذكر دور الحديث في دمشق .
11- حور العيون في تاريخ أحمد بن طولون .
12- الدرّة النفيسة في ترجمة الستّ نفيسة .
13- الذيل على طبقات الحنفية ، لعبد القادر القرشي .
14- راية النصر في ترجمة سيدي نصر .
15- سلك الجُمان فيما وقع لي من تراجم ملوك بني عثمان .
16- السفينة في تراجم الفقهاء السبعة بالمدينة .
17- الشذرات الذهبية في تراجم الأئمة الاثني عشر عند الإمامية .
18- شرح قصيدة إبراهيم بن صارم الدين في غزو الإفرنج لمدينة بيروت .
19- العقود اللؤلؤية في الدولة الطولونية .

20- عقد النظام في ترجمة سلطان العلماء العزّ ابن عبد السلام .
21- عجب الدهر في تذييل من ملك مصر .
22- العرف العنبري في ترجمة الزمخشري .
23- العون على ترجمة فرعون .
24- غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان .
25- الفتح العزّي في معجم المجيزين لشيخنا أبي الفتح المزّي .
26- الفُلك المشحون في أحوال محمد بن طولون .
27- قيد الشريد من أخبار يزيد .
28- قلائد العقيان لخزانة السلطان سليمان .
29- الكواكب الدراري في ترجمة سيدي تميم الدراري .
30- اللمعات البرقية في النكت التاريخية .
31- المأمونية في الواقعة الطولونية .
32- ملجأ الخائفين في ترجمة سيدي أبي الرجال وسيدي جندل بمنين .
33- المقصد الجليل في كهف جبريل .
34- محن الزمن بين قيس واليمن .
35- المحاسن اللطيفة في معاهد المدينة الشريفة .
36- مطلع السعد في ترجمة سيدي سعد .
37- نهاية العبر في نفوذ القضاء والقدر بمدرسة شيخ الإسلام أبي عمر .
38- النطق المنبي عن ترجمة الشيخي المحيوي ابن العربي .
39- هداية السالك إلى ترجمة ابن مالك .
40- الهادي إلى ترجمة شيخنا الجمال ابن عبد الهادي .
41- هطل الدمعة في أخبار السبعة .
42- هطل العين في مصرع الحسين .
43- الهجاج من أخبار الحلاج .

وأفرد ابن طولون لدمشق وتاريخها وفضائلها ومحاسنها طرفاً صالحاً من مؤلفاته ، لا غُنية عنه لمن يهتم بتاريخ دمشق ، ومن أشهرها :

- إعلام الورى بمن ولي من الأتراك [أي المماليك] بدمشق الشام الكبرى : نشره بدمشق أستاذنا محمد أحمد دهمان عام 1964 ، كما نشره عبد العظيم حامد خطاب في مصر عام 1973 .

- بهجة الأنام في فضائل الشام : ما يزال مخطوطاً ، منه نسخة خطية لدى الدكتور صلاح الدين المنجد .

- التمتع بالإقران بين تراجم الشيوخ والأقران : صدرت منه بدمشق طبعة تجارية سقيمة عام 1986 ، وينبغي إعادة نشره .

- الثغر البسّام فيمن ولي قضاء الشام : نشره بدمشق أستاذنا الدكتور صلاح الدين المنجد عام 1956 .

- ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر : ما يزال مخطوطاً لم ينشر بعد ، ونشرت منه نصوص عن حارات دمشق ومتنزهاتها بدمشق وبيروت .

- ذيل تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنوّاب لصلاح الدين الصفدي : فُقد .

- شرح إعلام الورى الأعلام بمن ولي قضاء الشام لابن اللبودي : فُقد .

- ضرب الحوطة على جميع الغوطة : رسالة نشرت في بيروت ودمشق .

- غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان : نشر بتحقيقنا بدمشق عام 1984 .

- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية : نشره أستاذنا محمد أحمد دهمان بدمشق عام 1949-1956 .

- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان : وهو موضوع بحثنا الحاضر .

- ملخص تنبيه الطالب وإرشاد الدارس : نشر بدمشق منسوباً للنعيمي بتحقيق الأمير جعفر الحسني الجزائري عام 1948-1951 .

- نزهة الأفكار فيما قيل في دمشق من الأشعار : فُقد .

وله أيضاً تعليقات كثيرة عن دمشق طبع منها أشياء ، مثل : الشمعة المضيّة في القلعة الدمشقية ، قرّة العيون في أخبار باب جيرون ، المعزّة فيما قيل في المزّة .

وكتب ابن طولون تعتبر من أهم مصادر تاريخ دمشق عموماً ، وأما من يقصد دراسة تاريخها في عصره فكتبه تعتبر المصدر الأول حول ذلك بلا منازع . وفي كتابه الشهير القلائد الجوهرية ، كان ابن طولون أول من كتب في علم الآثار بمفهومه التقليدي ، فقد أتحفنا فيه بأوصاف معمارية مفصّلة للمباني الأثرية في الصالحية كما كانت بعصره ، مما لا نجده لدى سواه .

كانت كتب ابن طولون كلها محفوظة بخطه في مكتبة المدرسة العمرية بالصالحية ، جامعة ذلك العصر بدمشق ، وقفها ابن طولون نفسه [1] . هذه المكتبة العظيمة سطا عليها ضعاف الضمير في الثلث الأول من القرن العشرين ، وفرّقوها أشتاتاً بين بلدان الشرق والغرب بيعاً أو إتلافاً . فكان من جملة ما ضاع منها القسم الثاني من مفاكهة الخلان . وكان الورّاق المصري محمد أمين الخانجي على رأس المسؤولين عن تشتيت أوصال مكتبتنا العظيمة هذه .

والمؤسف أن علماء الشام لم يعتنوا طوال الفترة التي تلت وفاة ابن طولون بنسخ كتبه ، إلا البعض القليل منها ، ولذلك يرى المتتبع لمؤلفاته أن جلّها إن عُثر عليه فبخط مؤلفه إلا ما ندر ، أما ما فقد منها أصوله فقد باد وضاع نهائياً . وهذا حال تتمة كتاب المفاكهة ، الذي قطعنا الأمل من العثور عليه بعد 22 سنة كاملة من البحث ، وانتهينا إلى اعتباره بحكم المفقود نهائياً .

---

(1) يصف لنا المؤرخ الدمشقي ابن كنان الصالحي في يومياته المخطوطة «الحوادث اليومية من تاريخ أحد عشر وألف وميّة» ، في حوادث 22 صفر سنة 1111 هـ : وفي يوم الإثنين فتح متولي العمرية بالصالحية السيد إبراهيم بن حمزة النقيب خزانتي الكتب الكائنتين بالمدرسة المذكورة . . وفي عهدنا تشتمل كل واحدة على ألف مجلدة من ساير العلوم ، كالقرآن والنحو والحديث ، إلى غير ذلك من الفنون ، وفيها كتب من خط الحافظ جمال الدين المقدسي الحنبلي ، وكذا من خط الشمس ابن طولون الحنفي الصالحي .

توفي ابن طولون في منزله بحي الأمير ابن المقدّم بالصالحية ، يوم الأحد 11 أو 12 جمادى الأولى من عام 953 هـ (أي 9 أو 10 تموز سنة 1546 م) ، كما يذكر الغزّي في الكواكب السائرة (2 : 52) . إلا أن الأيوبي صاحب الروض العاطر ترجم له في كتابه المخطوط (235 ظ) ، ذاكراً : توفي ابن طولون المذكور في سنة خمس وخمسين وتسعمائة ، ودُفن بسفح قاسيون ، وكانت جنازته حافلة حضرها العلماء والأعيان .

وبالرغم مما ذكره الأيوبي فإننا نميل إلى ترجيح رأي الغزّي ، ولو كان متأخراً عن سابقه بأكثر من نصف قرن ، ذلك لأن دقته في النقل تفوق دقة ذاك . وعلى أي حال ، فالأيوبي لم يدرك ابن طولون أصلاً بالمعنى الحقيقي ، وكان عمره في عام 953 هـ لا يتجاوز ست سنوات فقط .

* * * * *

تعود صلتي الشخصية بابن طولون إلى عام 1978 ، وكنت ما أزال وقتها طالباً في الصف العاشر بمدارس دمشق ، فاقتنيتُ أكثر كتبه ، كالقلائد الجوهرية ومفاكهة الخلان وإعلام الورى والثغر البسّام . كما أسعدتني الأقدار باقتناء مخطوط كتبه ابن طولون بيده قبل قرابة الخمسة قرون ، يضم تسعاً من رسائله أولها العقود اللؤلؤية في الدولة الطولونية (انظر النموذج عنها تلو المقدمة) .

ثم في العام 1982 حصلتُ من مكتبة برلين على ميكروفيلم يضم مجموعة من المخطوطات المتعلقة بتاريخ دمشق ، كان من بينها كتاب غاية البيان لابن طولون ، فقمت بتحقيقه عام 1983 وتم نشره في العام التالي 1984 . وكذلك كان من بينها صورة لمخطوط الروض العاطر ، الذي عثرت فيه على ضالتي المنشودة من نصوص المفاكهة الضائعة .

ثم في عام 1998 ، لما كنت عضواً في لجنة تسمية أحياء دمشق في المحافظة ، وجدتُ من الضروري تسمية أحد شوارع المدينة باسم ابن طولون ، من جملة الأعيان المشهورين الذين تركوا في وطننا ومدينتنا آثاراً علمية وحضارية . وهذا ما تم بالفعل ، فأطلقنا اسم (ابن طولون الصالحي) على الشارع الصاعد من ساحة الميسات (ساحة حطين) إلى ساحة شمدين آغا .

وأخيراً ، فها أنا ذا اليوم أيضاً أردّ لابن طولون المزيد من وفائه لمدينتنا الخالدة دمشق ، فأنشر قسماً من تتمة كتابه الثمين الضائع مفاكهة الخلان . وسيليه قريباً ، بعون الله ، نشر نص آخر له ، بعنوان : «الشذرات الذهبية في تراجم الأئمة الإثني عشر عند الإمامية» .

* * * * *

مصادر الترجمة :

- الفُلك المشحون في أحوال محمد بن طولون ، له .
- القلائد الجوهرية لابن طولون ، مقدمة دهمان ، ص 9-19 .
- الشذرات الذهبية لابن طولون ، مقدمة المنجد ، ص 9-26 .
- غاية البيان لابن طولون ، مقدمتنا ، ص 23 ، 102-117 .
- الروض العاطر للأيوبي (مخطوط) ، ورقة 235 ظ .
- الكواكب السائرة للغزي ، 2 : 52 .
- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، 8 : 298 .
- عقود الجوهر لجميل العظم ، ص 226 .
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ، 2 : 680 .
- دائرة معارف البستاني ، مادة ابن طولون للمنجد ، 3 : 318 .
- معجم المؤرخين الدمشقيين للمنجد ، ص 290-298 .
- Brockelmann, Gesch. der Arab. Litt., Sup. II, S. 494

كتاب مفاكهة الخلان

قيمته التاريخية وعملنا في الجزء الثاني

كنا ذكرنا أن كل ما تبقى من النسخة الأصلية لكتاب مفاكهة الخلان ، بخط مؤلفه ابن طولون ، هو مخطوط محفوظ في مكتبة جامعة توبنگن بألمانيا ، برقم : Ma VI, 7 ، يتألف من 87 ورقة تضم أخبار وحوادث الفترة الممتدة بين سنة 884 وسنة 926 هـ ، مع ثغرات كثيرة أهمها مطلع الكتاب الذي يضم مقدمته والسنوات الأربع الأولى منه . ومعنى ذلك أن المخطوط المذكور يمثل نسخة ناقصة من الجزء الأول من الكتاب ، الذي يتألف أصلاً من جزأين اثنين .

وقد أشار الباحث الألماني زيبولد[1] إلى هذا المخطوط ، في الدليل الذي نشره في سنة 1907 للمخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة جامعة توبنگن ، وقال إنه يعتبر هذا المخطوط مرجعاً ذا أهمية خاصة ، في تاريخ الفترة الأخيرة من عصر المماليك في مصر والشام ، وأوائل العصر العثماني في هذين البلدين ، وأنه ربما كان عبارة عن يوميات كتبها أحد كبار الموظفين من العلماء في دمشق .

ثم عكف الباحث ريشارد هارتمان عام على دراسة هذا المخطوط ، وترتيب صفحاته وترقيمها ، ويرجع إليه الفضل في عمل هذا الترتيب النهائي لصفحات المخطوط . وفي سنة 1926 نشر هارتمان نتيجة دراسته[2] ، مع مقتطفات من المتن ، اقتصر فيها على ما يفيد في التأريخ للفتح العثماني للشام ومصر . وقد توصل في هذه الدراسة إلى تحديد اسم مؤلف المخطوط ، وأثبت أنه كتاب في التاريخ من تأليف شمس الدين محمد ابن طولون .

---

(1) راجع : C. F. Seybold, *Verzeichnis der arabischen Handschriften der K. Universitätsbibliothek zu Tübingen*, 1907.

(2) راجع : R. Hartmann, Das Tübinger Fragment der Chronik des Ibn Tulun; in: *Schriften der Königsberger Gelehrten Gesellschaft*, 3. Jahr, Heft 2, 1926.

وبعد ذلك أشار الباحث يانسكي[1] في عام 1929 إلى أهمية مخطوط ابن طولون هذا ، كأحد المراجع العربية التي كتبت تفاصيل ما حدث أثناء حملة السلطان سليم الأول ضد المماليك . وكان ذلك تعقيباً على البحث الذي سبق أن نشره في هذا الموضوع[2] .

أما أول طبعة عربية صدرت للكتاب فكانت ، كما أسلفنا في توطئتنا ، على يد الباحث المصري محمد مصطفى ، وصدرت بالقاهرة عام 1962 - 1964 . غير أن هذه النشرة لم تأت على النحو المطلوب ، ولا شك بأن الكتاب يبقى ينتظر حظه للظهور بطبعة علمية مضبوطة ومحققة[3] .

* * * * *

من خلال إلقاء نظرة فاحصة سريعة على الجزء الأول من الكتاب ، بطبعة مصر ، يتبيّن لنا أن كتاب «مفاكهة الخلان» الذي رتّبه ابن طولون على طريقة الحوليات ، بالأيام والشهور والسنين ، قد جمعه من مذكراته الخاصة ، ومما نقله عن كتب شيوخه : علاء الدين البصروي ، وشهاب الدين ابن طوق ، ويوسف ابن عبد الهادي ، وعبد القادر النعيمي .

وقد تبيّن لنا ذلك بوضوح عند دراستنا لمخطوط ابن طوق الذي راجعنا تجارب طبعه ، ومخطوط الحمصي قبل نشره في لبنان ، ونشرة كتاب البصروي . فتلمّسنا نماذج من الطريقة التي اتبعها ابن طولون في نقل النصوص . وأما النعيمي

---

(1) راجع : H. Jansky, Die Chronik des Ibn Tulun als Geschichtsquelle für den Feldzug Sultan Selims I gegen die Mamluken; in: *Der Islam*, Bd. XVIII, 1929.

(2) راجع : H. Jansky, Die Eroberung Syriens durch Sultan Selim I; in: *Mitteilungen zur Osmanischen Geschichte*, Bd. II, Heft 3 u. 4, 1923-1926.

(3) مما يدعو للأسف أننا بعد انتظارنا الطويل لهذه الطبعة العلمية ، فوجئنا بدلاً من ذلك بظهور طبعة مسروقة وممسوخة أصدرتها دار الكتب العلمية ببيروت في عام 1998 .

فقد أسلفنا أن كتابه ضاع مع الأسف ، غير أن لدينا ما يدل على أن ابن طولون قد استقى منه [1] كثيراً في الجزء الأول من المفاكهة ، كما سنبيّن أدناه .

وكتاب «مفاكهة الخلان» سجل حضاري واسع لدمشق ، يذكر فيه ابن طولون كل ما يمكن أن يخطر على بال مما يكتبه مؤرخ من الأخبار والحوادث والتراجم . فيذكر أخبار الحكام والنواب ، في دمشق وفي نواحي الشام الأخرى ، وولايتهم ونقلهم إلى وظائف أخرى ، أو خلعهم أو وفاتهم . وكذلك أخبار الموظفين الآخرين ، سواء أكانوا من المماليك أو المتعممين ، وأخبار الأدباء والعلماء والأعيان ، وأعمالهم ومؤلفاتهم وأحوالهم ، وأخبار القضاة وكيف كان بعض القضاة الشاميين يعيّنون أيضاً في قضاء مصر ، فيجمعون بين قضاء مصر وقضاء الشام في وقت واحد ، وما يتبع كل هذه الوظائف من نظم إدارية وحربية ، وما بقي منها من القديم ، وما يلغى أو يعدّل ، وما يستجد منها في عصر المماليك أو بعد الفتح العثماني . ثم ما كان يُدفع في ذلك العصر من رشوة ، للسلطان أحياناً وللنائب أحياناً أخرى ، وما نتج عن ذلك من كثرة تعاقب العزل والولاية ، وسجن من لا يدفع المبالغ التي ارتبط بها .

ويتحدث المؤلف أيضاً عن الحالة الاجتماعية ، والحياة العامة اليومية ، والأعياد والمواسم ، والحفلات الشعبية ، والمواكب وإقامة الزينات ، والخلع والهدايا ، وما ابتليت به البلاد من أوبئة وأمراض ، وأثر فتكها في الناس ، وعدد من توفي منهم أثناء الفصول . ويتناول كذلك الحالة الاقتصادية ، فيذكر أخبار التجار والأسواق وأسعار المحاصيل والسلع ، ولا سيما السكّر والقمح واللحم ، والمسكوكات من الذهب والفضة والنحاس ، والمكاييل والموازين ، وتوحيد الصنج في مصر والشام .

---

(1) ومن هذا القبيل يؤكد ابن طولون في المفاكهة (2 : 73) أنه قد قام فعلاً بتلخيص كتاب «الدارس» للنعيمي ، وبالتالي فالمطبوع المتداول منه ما هو إلا مختصر ابن طولون ، بدليل عبارة «انتهى ملخصاً» الواردة في آخر الكتاب .

كل هذا إلى جانب ما يذكره عما كان يُنشأ أو يتم تجديده وإعادة بنائه من مبان وعمائر ومساجد وقباب ومدافن وقلاع . وما يرصده في مذكراته من الأرصاد الجويّة والأخبار الفلكية ، من خسوف القمر وكسوف الشمس ، والبرق والرعد والعواصف ، وسقوط الأمطار والثلج والبَرَد ، وتأثير الصقيع في أشجار الفواكه والمزروعات . ولم ينس ابن طولون - مع كل ما ذكره - أن يثبت لنا أيضاً جميع حوادث الجرائم ، وأعمال السطو والنهب والسلب ، التي حدثت في دمشق وضواحيها ، وذلك بنفس الهدوء والواقعية التي يصف بها الحالة السياسية في دمشق ، وما كان يلاقيه أهلها في بعض الأحيان من طغيان المماليك ، أو تعسّف الجنود العثمانيين .

ويكتب محمد ابن طولون كل هذه الحوادث والأخبار بأسلوب لغوي سهل أنيق ، سليم العبارة بصفة عامة ، وإن كانت تتخلّله في بعض المواضع تعبيرات عامية ، أو مصطلحات «شامية» أصيلة ، من عبارات وألفاظ تتعلق بالعادات والتقاليد اليومية ، وأسماء الأشياء والأعياد والمواسم ، وأصناف المأكل والمشرب والملبوس ، وغير ذلك ، مما يثبت لنا أن الكثير من الألفاظ والتعابير الدارجة التي نستعملها في لغتنا العربية الحاضرة ، إنما يرجع أصلها إلى لغة تلك الفترة التي عاشها ابن طولون ، في أواخر العهد المملوكي ومطلع العثماني .

في الجزء الأول من «مفاكهة الخلان» يرسم لنا ابن طولون صورة حضارية كاملة وواضحة المعالم لما كانت عليه دمشق في الأيام الأخيرة من عمر الدولة المملوكية ، على امتداد أربعة عقود (بين 880 - 922 هـ) . وهو لذلك يصلح أن يكون ذيلاً وامتداداً للأثر النفيس الذي تركه الشهاب أحمد ابن طوق ، في الفترة السابقة لأوج نشاط ابن طولون في التأليف . ومن أكثر الأمور إمتاعاً أن يقتني المرء الكتابين ، ثم يقارن بين عملي الرجلين فيهما ، ويلمس روعة التفصيل في وصف حياة مدينتنا دمشق وأهلها قبل خمسة قرون مضت .

نسخة الأصل من مفاكهة الخلاّن

ذكرنا سابقاً أن ابن طولون كان قد قسم كتابه إلى جزأين اثنين ، لضخامة مادته ، على النحو التالي :

الجزء الأول : يشتمل على حوادث 880 - 926 هـ .

الجزء الثاني : يشتمل على حوادث 927 - 951 هـ .

فأما الأول منهما ، فهو المخطوط المحفوظ في توبنگن بألمانيا ، بنسخة واحدة فريدة في العالم بخط مؤلفها . إلا أن هذا المخطوط قد ضاعت منه خطبة الكتاب وأخبار السنين الأربع الأولى منه ، بين 880 - 884 هـ ، وبالتالي فقد ضاعت أسماء مصادر المؤلف في النقل ، وإن كنا بالطبع نعرفها بالإجمال . وكذلك فإن ما ضاع منه يمكن الاستعاضة عنه بالرجوع إلى مصادره الأصلية كالعلاء البصروي والشهاب الحمصي مثلاً (حيث أن كتاب ابن طوق به خرم مماثل في بدايته) . وعلى أي حال فأخبار هذه السنوات الضائعة لا تمثل أي جهد شخصي لابن طولون ، الذي كان آنذاك لا يتجاوز الرابعة من عمره ، وبالتالي فكلها منقولة عن غيره .

وأصابت الجزء الأول أيضاً نواقص أخرى هامة في متنه ، بسبب عدّة خروم توزعت فيه . وفيما يلي تبيان هذه النواقص :

مطلع الكتاب سنة 880 (كلها) ، سنة 881 (كلها) ، سنة 882 (كلها) ، سنة 883 (كلها) ، سنة 884 (أكثرها) ، سنة 885 (كلها) ، سنة 886 (أولها) ، سنة 889 (آخرها) ، سنة 890 (أكثر من نصفها) ، سنة 891 (أكثرها) ، سنة 893 (أولها وآخرها) ، سنة 894 (آخرها) ، سنة 897 (أكثر من نصفها) ، سنة 898 (كلها) ، سنة 901 (أكثرها) ، سنة 906 (نحو ربعها) ، سنة 910 (آخرها) ، سنة 914 (آخرها) ، سنة 918 (أولها) ، سنة 919 (أولها) ، سنة 922 (آخرها) ، سنة 925 (كلها) ، سنة 926 (آخرها) .

وبذلك تبلغ المادة الضائعة من الجزء الأول ما يعادل 7 سنوات كاملة ، يضاف إليها عدّة سنوات ضاع أغلبها أو نصفها أو ربعها أو أجزاء منها ، تقدّر بنحو 5 سنوات ، بحيث يكون مجموع الضائع 12 سنة من أصل 47 سنة [1] .

هذا بشأن الجزء الأول ، وأما الجزء الثاني فقد ضاع بأكمله مع الأسف الشديد ، ولم يفلح أي من الباحثين في العثور عليه في مختلف مكتبات العالم [2] . كان الكتاب بجزأيه ، كما أسلفنا ، محفوظاً بخط مؤلفه في مكتبة المدرسة العمرية بالصالحية ، من جملة مؤلفات ابن طولون التي أوقفها بنفسه على تلك المدرسة قبل وفاته . ثم قام بعض الكتبيين ، في الربع الأول من القرن العشرين ، باختلاس محتويات هذه المكتبة الوقفية ، وباعوا كنوزها بالباهظ والبخس من الأسعار ، إلى شتى أنحاء العالم .

من المعروف أن قسماً كبيراً من مؤلفات ابن طولون وتعليقاته قد بيع عن طريق الورّاق المصري محمد أمين الخانجي إلى العلاّمة المصري الشهير أحمد تيمور باشا ، صاحب أغنى وأندر مكتبة خاصة في بلاد العرب بعصرنا . غير أن هذه المجموعة ليست تضم أي شيء من كتابنا مفاكهة الخلان ، وهذا يدل على أنه قد فُقد قبل المرحلة النهائية الأخيرة من بيع كتب العمرية آنذاك ، والتي جرت قبل أن يتمكن الشيخ طاهر الجزائري ، مؤسس دار الكتب الظاهرية ، من ضمّها إلى ما جمعه في المدرسة الظاهرية . كان ذلك الفصل الأخير من عمر المدرسة العمرية ، جامعة العصر بدمشق في أيام صاحبنا ابن طولون .

---

(1) قام بعمل هذه الإحصائية الدكتور عمر عبد السلام تدمري في مقدمة نشرته لكتاب الشهاب الحمصي «حوادث الزمان» (1 : 50) ، وعنه نقلناها . ومع شدة الأسف الذي أبداه لضياع الجزء الثاني من مفاكهة الخلان ، نفخر اليوم بما ننشره مجمّعاً منه .

(2) ذكر المستشرق الألماني كارل بروكلمان أنه يوجد بالمتحف البريطاني نسخة من كتاب «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان» لابن طولون ، برقم : Br. Mus., II, 431a . ولكن تبين أنها لمخطوط من كتاب «الكواكب السائرة» لنجم الدين الغزي . انظر :
C. Brockelmann, *G. A. L.*, Suppl., S. 495.

فإذا لاحظنا أن الجزء الأول من المفاكهة قد وصل إلى توبنكن في أواخر القرن التاسع عشر أو حتى أواسطه ، فمعنى ذلك أنه قد اختُلس بشكل مفرد من العمرية . ثم إن عدم وجود الجزء الثاني معه إنما يدل على أنهما كانا مفترقين منذ زمن سبق ذلك حكماً ، وإلا فلماذا لم يباعا معاً ؟ الاحتمال الأكبر في رأينا أن يكون الكتاب بجزأيه قد احتجنه بعض الناس قديماً ، وتوارثه أبناؤه ثم فرّقوا ما بين الجزئين ، وأصاب التلف أنحاء عدّة من الجزء الأول ، إلى أن وصل بشكل أو بآخر إلى ألمانيا .

والسؤال الآن ؟ ما هو مصير الجزء الثاني المفقود ؟

هل هو في إحدى المكتبات غير المفهرسة في أوروبا ؟ أم أنه لا يزال قابعاً على أحد رفوف المكتبات العائلية الخاصة بدمشق ؟ أم أن الأيام قد أبادته وفُقد إلى الأبد إما بحريق أو بفيضان أو سيل شديد ؟ أسئلة لا نملك الإجابة عنها ، ولا يسعنا إلا إبداء أشد الأسف على كنز دمشق الضائع ، الذي بهتت اليوم جميع الآمال بالعثور عليه [1] .

كنا في السنوات الاثنتين والعشرين الأخيرة ، قد بذلنا غاية جهدنا في تقصي هذا الجزء في مكتبات العالم ، دون جدوى . وفوق ذلك فقد حاولنا البحث عن أخباره ومن نقل عنه ، فوجدنا من ذلك عدة أدلّة ترقى إلى 200 سنة من تاريخ وفاة ابن طولون نفسه ، نعددها فيما يلي :

1- أول من نقل عن المفاكهة كان شرف الدين موسى الأيوبي الأنصاري ، الآنف الذكر في كتابه «الروض العاطر» ، ونقل غالباً من الجزء الثاني ، خلا مرات قليلة جداً نقل فيها من الأول . وكان ذلك عامي 998 - 999 هـ .

---

(1) أضحكني صاحب لي حمصي خفيف الظل ، عندما ألفاني أعاني ما أعاني في سبيل العثور على هذا الجزء الناقص ، فقال : طيّب طالما عندك اسم «الزلمة» واسم أمه ، فلماذا لا تحاول استحضار روحه وسؤاله شخصياً عن مكان وجود كتابه ؟

2- ثانيهم كان الشيخ نجم الدين الغـزي ، في كتابه «الكواكـب السـائرة» ، كما سنرى أدناه . وكان ذلك في النصـف الأول القـرن الحـادي عشـر ، حيـث أنه توفي في عام 1061 هـ . والمهم هنـا أن الغـزي يـروي في كتابه اطّلاعـه على الجـزء الثـاني دون الأول مـن الكتـاب أولاً ، ثـم بعـد ذلـك علـى الأول بمفـرده . ولهـذا مدلول واضح كما سنستبين .

3- ثالثهم كان ابن العماد الحنبلي ، في كتابه «شـذرات الذهـب» . وكـانت وفاة ابن العماد عام 1098 هـ . وعلى أي حال لم ينقل منه الكثير .

4- رابعهم كان ابـن كنّـان الصـالحي (المتوفـى سـنة 1153 هـ ، أي بعـد 200 سنة تماماً مـن وفـاة ابـن طولـون) ، في كتابيـه «حدائـق الياسـمين» و «المـروج السندسية» . وقد نقل ابن كنّان عن الجزأين معاً .

5- خامسهم - وآخرهم - كان محمد بن جمعة المقّار ، في كتابه «الباشـات والقضاة» الذي يغطي الفترة الواقعة بين عامي 922 - 1156 هـ . ويـأتي المقّـار في المرتبة الثانية ، بعد الأيوبي ، من حيث أهميتـه في نقـل الحـوادث عـن الجـزء الثـاني الضائع من مفاكهة الخلان .

لسنا هنا في حاجة للاستفاضة في ذكر ما نقله هؤلاء عـن المفاكهـة ، لأن هـذا ما سنفصّل فيه أدناه بعد قليل . غير أن الملاحظ لدينا هنا ، من خلال ما نقلـه كـل من الأيوبي والغزّي ، بأن الكتاب ربما كان مشتت الأجزاء مـا بعـد وفـاة صاحبـه ، أي في خاتمة القرن العاشر وفي خلال القرن الحادي عشر .

فإذا كان الأمر كذلك ، فأنّى لنا العثور علـى مخطوطه الأصلي اليـوم بعـد قرون خمسة انصرمت ؟ لعلنا سنضطر للاكتفاء بما ننشره منه مختصراً هنا !

* * * * *

مصادرنا في تجميع نصوص الكتاب

1- الروض العاطر[1] فيما تيسّر من أخبار القرن السابع إلى ختام القرن العاشر (مخطوط) ، للقاضي شرف الدين موسى بن يوسف الأيوبي الأنصاري (توفي بُعيد سنة 1003 هـ) . راجعنا مخطوط برلين بتمعن فوجدناه يذكر في مقدمته (1 ظ - 2 و) أثناء تعداده لمصادره :

> ومشي على طريقتهم ونسج على منوالهم الشيخ الإمام العالم العلامة شمس الدين أبي (أبو) عبد الله محمد بن علي بن طولون الصالحي الحنفي ، غير أنه سلك فيما أورده على طريقة العوام وألفاظهم الذي اصطلحوا عليها في إيراد الكلام ، وذكر معايب الناس ، مع تساهله في النقل وعدم معرفته لرسم الخط ، ويكتب الخط الدقيق ويخلط النظم بالنثر ، فيعسر على من يطالع كتبه استيعاب القصة بتمامها ، ويحصل الملل والسأم من ذلك . وجمع أيضاً الغث والسمين .

وبعد أن يعدّد مصادره التاريخية في تأليف كتابه يتابع : «وكان ترتيبي له في ثامن عشر ذي القعدة الحرام ، سنة ثمان وتسعين وتسعمائة بدمشق الشام» . والروض العاطر كتاب في التراجم بين عامي 745 - 998 هـ ، استقى فيه الأيوبي من مصادر عديدة ، كان من بينها «مفاكهة الخلان» نفسه .

وأهم ما في الكتاب هو هذه الناحية بالذات ، حيث يضيف : «وطرّزتُ بعض التراجم بحوادث حصلت في تاريخ وفاة ذلك الشخص» . وهذه الحوادث المذكورة نقلها تحديداً من الجزء الثاني من المفاكهة ، وركّز على النقل من هذا الجزء دون الأول (إلا في مواضع يسيرة) ، مما يحمل الدارس على افتراض أن الجزء الثاني كان متاحاً وحده دون الأول للأيوبي ، لسبب أو لآخر ؟

وعلى ذلك ، فقد كان الأيوبي في روضه العاطر مصدرنا الأول في تجميع النصوص الضائعة من الجزء الثاني من المفاكهة ، على امتداد سنواته كلها بين

---

(1) يرجى ملاحظة أن ترقيمنا لهذه المصادر هنا لا يتبع أي تسلسل تاريخي ، وإنما يتعلق بمدى أولوية هذه المصادر بحسب حجم نقل مؤلفيها من مفاكهة الخلان .

عامي 927 - 951 هـ ، وبخاصة في أحداث سنة 927 هـ التي شهدت القضاء على ثورة الغزالي . هذا فضلاً عن مجموعة غير يسيرة من التراجم نقلها من المفاكهة أيضاً . وأضاف إلى كل ذلك تعليقات مفيدة جداً حول حوادث جرت بعصره في النصف الثاني من القرن العاشر ، أثبتناها كلها في الحواشي .

2- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، للشيخ نجم الدين الغزي (توفي 1061 هـ) . يذكر الغزي في خطبة كتابه (1 : 5) عند تعداده لمصادره :

. . الشيخ المحدّث النحوي شمس الدين محمد ابن طولون الحنفي ألّف كتاباً جمع فيه تراجم طوائف من أواخر المائة التاسعة وأوائل المائة العاشرة ، سمّاه بـ «التمتّع بالإقران» . ولم أقف على مجموع هذا الكتاب ، وإنما وقفتُ على نحو كرّاسة منه ، فاستدللتُ بالصبابة على العباب . ووقفتُ له أيضاً على الجزء الثاني من تاريخه الذي جعله حوادث الزمان ، وسمّاه بـ «مفاكهة الإخوان» ، وأوله من مستهلّ سنة سبع وعشرين وتسعمائة إلى ختام سنة إحدى وخمسين ، فرأيته ذكر فيه وفيات من بلغه وفياتهم في تلك المدّة ، لكنه لم يخرج فيه لتراجمهم من عهده . ثم وقفتُ بعدُ على الجزء الأول منه ، فرأيته ابتدأ فيه من أول سنة ثمانين وثمانمائة ، وهي سنة ميلاده ، وانتهى فيه إلى سنة ست وعشرين وتسعمائة .

هذا وقد نقل الغزي عشرات من التراجم عن ابن طولون ، من كتابيه المذكورين ، مفاكهة الخلان والتمتّع بالإقران ، في كتابه الضخم الكواكب السائرة بأجزائه الثلاثة . فكان بذلك مصدرنا الثاني في تجميع نصوص الجزء الثاني من المفاكهة ، واعتبرناه بالتالي الجناح الآخر الموازي للروض العاطر ، حيث تميّز أحدهما بإيراد الحوادث ، بينما اقتصر الآخر على التراجم ، فأكملا لنا بذلك نكهة الكتاب وركّبا هيكله الأساسي بشكل متوازن ومرض تماماً .

قمنا بنقل العديد من هذه التراجم عن الكواكب السائرة ، غير أن من الوارد أن يكون بين تضاعيفه تراجم أخرى منقولة بالأصل من المفاكهة ، ولكن ما دليلنا على هذا النقل ؟ إن ما نقلناه من الكواكب هنا يقتصر على ما صرّح به الغزّي حرفياً بأنه منقول من خط ابن طولون . ولقد وجدنا عديداً من الأدلة على دعوانا

هذه ، من خلال المقابلة بين ما نقله الغزي من المفاكهة وبين ما نقله سواه منها ، وبالأخص الأيوبي ، فقد ثبت لدينا ورود نصوص تكررت بذاتها هنا وهناك وبنسبتها لابن طولون لدى الأيوبي ، غير أن الغزي كان ينقل بعضها أحياناً دون الإشارة إلى مصدرها (انظر مثلاً ترجمة عبد الواحد المغربي ، ص 306) .

حرمنا الغزي بذلك من فائدة نقل المزيد من نصوص المفاكهة الضائعة ، ومنها في كتابه بالتأكيد عدد لا يستهان به ، وهو فوق ذلك قد أوقعنا بالتباسات وشكوك عدّة في حدود نقله من ابن طولون ، كما سيرى القارئ في عملنا أدناه . غير أننا التزمنا جانب التحرّي التام فيما نقلنا ، وما كان فيه شك لدينا أشرنا إليه بالحاشية ، أما ما تجاوز الشك فيه حد التحقق من نسبته لابن طولون فقد اطّرحناه من حسابنا ، لخشيتنا من أن ننسب إليه ما لم يكتبه أصلاً [1] .

3- الباشات والقضاة [2] ، لمحمد بن جمعة المقّار (توفي بعد 1156 هـ) . وضع المقّار هذا الكتاب كتأريخ مختصر لولاة دمشق وقضاتها منذ مطلع العهد العثماني إلى أيامه ، أي بين عامي 922 - 1156 هـ . وقد رجع الكثير من الباحثين إلى الأحداث الهامة (إنما الموجزة) التي أوردها في غضون القرن العاشر الهجري . ولبث هذا الكتاب طويلاً بمثابة المصدر الأول لمطلع العهد العثماني في بلاد الشام ، ينقل عنه الباحثون ويلهجون بذكره في كل مناسبة .

غير أن أحداً لم يكتشف أن المقّار ، وهو متأخر عن القرن العاشر بـ 150 عاماً ، إنما اعتمد في مطلع كتابه على النقل من مفاكهة الخلان بالذات - دون أن يصرّح بذلك - فقدّم لنا ، بالإضافة إلى الأيوبي في الروض العاطر طائفة كبيرة من حوادث الجزء الضائع . ولسائل أن يسأل : ما هو البرهان على صحّة هذه

---

(1) نترك لتقدير القارئ إدراك مدى وعورة المركب الذي أقبلنا عليه في عملنا الحاضر ، إعادة نسج كتاب ضيّعته قرون خمسة ، من خلال نتف ممزقة متناثرة علاها التلف والغبار ، وتداخلت مع نصوص أخرى متأخرة فزادت المعضلة ضغثاً على إبّالة .

(2) رجعنا إلى مخطوطين منه في مكتبة برلين وثالث في الظاهرية ، بالإضافة إلى نشرة المنجد .

المزاعم كلها ؟ نقول : لحسن الحظ قد تكررت بعض النقول بعينها ما بين الأيوبي والمقّار ، فزاد هذا تارة وأقصر ذاك طوراً ، فقدّما لنا بذلك ، بما لا يدع للشك مجالاً ، البرهان الدامغ على أن مصدرهما في النقل كان واحداً ، وهو مفاكهة الخلان بالذات . فتمكّنا بذلك من رد النصوص إلى مصدرها الأصلي ، بكل ثقة واطمئنان .

4- إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، لابن طولون نفسه . هذا الكتاب هو ثاني مؤلفات ابن طولون في الحوادث من حيث الأهمية بعد مفاكهة الخلان ، أرّخ فيه لنواب دمشق وولاتها منذ مطلع العهد المملوكي سنة 658 هـ حتى أيامه في العهد العثماني سنة 943 هـ .

من خلال مقابلة نصوص إعلام الورى مع ما يوافقها من الجزء الأول من مفاكهة الخلان ، نلاحظ تماثلاً كبيراً أو شبه تطابق في هذه النصوص ، ومصدرها واحد بالطبع ، مما دلّنا على أن ابن طولون كان يكرّر ذكر الأحداث في الكتابين ، وبخاصة فيما يتصل بالجزء الثاني من المفاكهة ، وكان عمره آنذاك عند بدايته في عام 927 هـ 47 عاماً ، أي كان في ذروة إنتاجه الأدبي . ولذا ، فقد ركنّا إلى نقل كل حوادث إعلام الورى المتصلة بجزئنا الثاني من المفاكهة ، ولو أن ابن طولون ، كما سنرى في النص ، كان يوقعنا ببعض الإرباكات بسبب ذكره للأحداث فيه بطريقة الاطّراد المتسارع لا التسلسل التوافقي .

5- الثغر البسّام في ذكر من ولي قضاء الشام ، لابن طولون أيضاً . جمع ابن طولون في هذا الكتاب أخبار من تولى قضاء دمشق منذ صدر الإسلام وحتى أيامه في مطلع العهد العثماني إلى سنة 946 هـ .

قمنا بنقل كل أخبار القضاة المتعلقة بالجزء الثاني من المفاكهة ، مطمئنين إلى كون المؤلف واحداً ، كرّر عباراته ذاتها في الكتابين كليهما . ولا غرو ، فقد كان مفاكهة الخلان بمثابة ديوانه الأساسي الذي استقى منه لكل مؤلفاته الأخرى .

6- التمتع بالإقران بين تراجم الشيوخ والأقران ، لابن طولون . لعله كان بمثابة ذيل على كتاب البرهان البقاعي «عنوان الزمان» ، أورد فيه تراجم بعض رجال عصره من أواخر القرن التاسع ومطلع العاشر . وغني عن القول أن تراجمه تتكرر مع التراجم الواردة في المفاكهة ، ولذا فقد استفدنا منه أشياء .

7- ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر ، لابن طولون (مخطوط) . جعله ذيلاً على كتابه التمتع بالإقران . أخذنا منه كذلك بعض تراجم تتصل بالمفاكهة .

8- غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان ، لابن طولون . استفدنا منه بنقل واقعة تجديد مقام الشيخ أرسلان على يد القاضي ابن الفرفور سنة 934 هـ .

9- الفُلك المشحون في أحوال محمد بن طولون ، له أيضاً . نقلنا منه خبراً حول عرض إفتاء الحنفية عليه ورفضه لذلك ، سنة 950 هـ .

10- حدائق الياسمين في قوانين الخلفاء والسلاطين ، لابن كنّان الصالحي (توفي 1153 هـ) . نقل ابن كنّان في كتابه أقساماً هامة من حوادث سنة 927 هـ حول ملابسات ثورة الغزالي ، استفدنا منها كثيراً وقابلناها على ما أورده الأيوبي من نفس الموضوع . ونحب أن نشير هنا إلى ابن كنّان ينتمي إلى نفس مدرسة ابن طولون ، فكلاهما من أبناء الصالحية ولكليهما كتاب في تاريخها ، كما ترك كلاهما أثراً نفيساً في حوادث دمشق اليومية .

11- المروج السندسية الفيحية في تلخيص تاريخ الصالحية ، لابن كنّان أيضاً . في معرض كلامه على التكية السليمية جوار جامع الشيخ محيي الدين ، أورد نصاً هاماً عن مفاكهة الخلان ، فأكمل لنا بذلك بعضاً من الأوراق الناقصة المبتورة من أواخر الجزء الأول من حوادث عام 926 هـ .

12- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي (1098 هـ) . أخذ فيه من مؤلفات ابن طولون أشياء ، كان بعضها نقلاً عن الكواكب السائرة .

وهكذا نخلص إلى النتيجة النهائية ، بأننا تمكنا من خلال هذه المصادر الإثني عشر ، ما بين المخطوط منها والمطبوع ، من إعادة نسج الصورة الإجمالية للجزء الثاني الناقص من «مفاكهة الخلان»[1] . وما تم لنا ذلك إلا بعد عناء كبير وجهود مضنية ، كان العمل فيها أشبه ما يكون بالأحاجي المقطّعة (puzzle) . غير أننا نرى الآن أننا أفلحنا أخيراً في استرجاع ما لا يقل عن نصف الكتاب أو ثلثه في أضعف تقدير ، وهذا وحده بالحق فخر كاف لنا .

الجزء الثاني وقيمته التاريخية

إن الانطباع البديهي الأول الذي ينتاب ذهن القارئ ، إثر مقارنة سريعة بين الجزئين : الأول (بشكله شبه الكامل) والثاني (بصورته المرمّمة الملصقة) ، قد يعطي الصورة الحقيقية غالباً . فلا شك لدينا بأن هناك فارقاً واضحاً بين الجزأين ، ولكن علينا أن نعلن أولاً ، وبكل اطمئنان وارتياح ، أن روح ابن طولون في الجزء الثاني باتت تلوح واضحة جليّة ، رغم تركيبنا نصوصه من مصادر مختلفة ومشتتة وبعضها غير منشور أصلاً .

غير أن هناك جملة فروقات ، سنحاول تقصّيها فيما يلي . ولكن - ليت شعري - هل مردّ هذه الفروقات هو تغيّر رياح العصر ما بين العهدين المملوكي والعثماني ، أم أن سببها نضوج شخصية المؤلف الذي بلغ السابعة والأربعين عند مطلع الجزء الثاني ، أم لعل هذه الفروقات جاءت نتيجة تقطّع أوصال النص الأعرج بين أيدينا ؟ أم ترى يكمن السبب في تغيّر خطة الكتاب لانعدام مصادر النقل السابقة ؟ أعني كتاب النعيمي «تذكرة الإخوان» تحديداً !

---

(1) وهذا اليوم مثال آخر على أن بعض المخطوطات قد تحفظ في ثناياها أحياناً كتباً أخرى ضاعت ، كما هو الحال مثلاً في كتاب «المروج السندسية» لابن كنّان الذي حفظ لنا كتاب «تاريخ الصالحية» الضائع لجمال الدين يوسف ابن عبد الهادي .

ينتهج ابن طولون في الجزء الثاني نفس الخطة الهيكلية في إيراد المعلومات ، كما كان يفعل في جزئه الأول ، فيبدأ بذكر السنة بقوله : «استهلّت هذه السنة ، وسلطان مصر والشام وما مع ذلك ملك الروم أبو النصر سليمان ابن السلطان سليم ابن عثمان . . ونائبه بدمشق . . ونائب الغيبة بدمشق . . والقاضي الكبير بدمشق . . ونائبه من الحنفيّة . . ومن الشافعية . . ومن المالكية . . ومن الحنابلة . . (ثم يسمّي نواب القضاة في مراكز المحاكم المختلفة بدمشق) . . ونقيب الأشراف . . ونائب القلعة . . »

ثم يتابع بعد ذلك بذكر الحوادث والوفيات مرتبة على الأيام ، والمؤسف أن ما وصلنا من حوادث الجزء الثاني هنا لا يرقى إلى ما نجده في الجزء الأول ، لا من حيث الكم ولا الزخم الإخباري . أما التراجم فهي أدعى فيه إلى الاختصار ، كما هو الحال في الجزء الأول أيضاً ، ومردّ ذلك أن ابن طولون كان يفصّل في تلك التراجم بكتبه المختصة الأخرى ، التمتع بالإقران وذخائر القصر والغرف العليّة . وهذا ما حدا بالغزّي إلى أن يعلن بلسان الأسى[1] : «ذكر فيه وفيات من بلغه وفياتهم في تلك المدّة ، لكنه لم يخرج فيه لتراجمهم من عهده» .

ونلاحظ في أواخر الجزء الثاني أن حجم الوفيات بدأ يطغى على حجم الحوادث ، وكأن نفس المؤلف قد زهدت تكاليف الحياة وشؤونها الفانية ، وبات ذكر الموت يخيّم شيئاً فشيئاً على أفكاره . ولبثت روح ابن طولون تركن أكثر فأكثر إلى الدّعة والمسالمة (انظر مثلاً ما يذكره في صفر 949 هـ ، ص 351) .

---

(1) وكذلك كتب الغزّي (1 : 6) في نقد صارم لكتاب درّ الحبب في تاريخ أعيان حلب لرضي الدين الحنبلي : وهوكتاب في مجلد ضخم ثخين ، يشتمل على الغث والسمين والتافه والثمين . . وربما أكمل الأسماء لئلا يخلو الحرف من التراجم بنقّاش أو تاجر أو مغنّ أو مطنبر أو عاشق أو معمار أو غيرهم من العوام . قلنا : يمثل هذا الرأي المدرسة الكلاسيكية المتحجرة في كتابة تاريخ التراجم ، ولسنا ندري ما فائدة الإطالة بذكر مئات الأسماء من المشايخ والحكام والأعيان من ذوي الكروش ، والتغاضي عن ذكر عامة الناس ، وهم مادة المجتمع وحركته الأساسية وصانعو تاريخه الشعبي .

كما نستفيد حول الحياة الشخصية لابن طولون بذكره عن حالته الصحية المتردّية ، فذكر في حوادث سنة 946 هـ (ص 332) أن قاضي دمشق آنذاك عرض عليه منصب خطابة الجامع الأموي ، فامتنع ابن طولون لضعف بدنه ، ولكنه لم يبيّن ما المرض الذي كان يعانيه آنذاك . ثم عاد في عام 950 هـ ، وكان له من العمر 70 سنة ، يشكو توالي الأوجاع من جديد (ص 365) ، ثم كان العام التالي 951 هـ بالنسبة له آخر سنين نتاجه العلمي ، فتوقف عن كتابة يومياته في مفاكهة الخلان ، ثم توفي بعد عامين سنة 953 هـ ، رحمه الله .

أما حول انطباعات ابن طولون وردود فعله على المستجدات السياسية والإدارية التي حلّت بمدينته دمشق ، فنراه في هذا الجزء الثاني كما كان في الأول ، آخذاً جانب الحياد في نقد السلطات الحاكمة ، معتبراً ذلك شيئاً من التقوى ومظهراً من مظاهر الالتزام الديني بطاعة الحاكم طالما كان على دين الإسلام . وهو لم تكن له جرأة نظيره المصري ابن إياس مثلاً ، حينما تناول بالنقد الحاد اللاذع مسلك السلطان سليم فاتح الشام ومصر ، ورقاعة عسكره الرعاع [1] . حتى أن صاحبنا العلاّمة جعفر المهاجر نعت ابن طولون في مقدّمته على كتاب ابن طوق بـ «المؤرخ السلطوي» ، وإن كان في ذلك برأينا بعضاً من المغالاة .

كان ابن طولون في الجزء الأول من كتابه (2 : 34) قد وصف لنا البليّة الكبرى التي مُنيت بها دمشق ، بعدما افتتحها بنو عثمان ، عندما هجم العسكر العثماني في 11 رمضان سنة 922 هـ على دمشق وضواحيها للسكنى بها :

> فأُخرجت أناس كثيرة من بيوتها ، ورُميت حوائجهم ومؤنهم ، وطرح جمع من النساء الحبالى ، وحصل على الناس شدّة لم تقع لأهل دمشق وضواحيها قطّ ، حتى سافر من له قدرة ، وبعضهم سكن الجوامع والمدارس بحريمهم . وأخرجتُ من بيتي ورُميت كتبي . ولم يوقّروا أحداً لا صغيراً ولا كبيراً ولا أهل القرآن ولا أهل العلم ولا الصوفية ولا غيرهم .

---

(1) راجع بدائع الزهور ، 5 : 162 .

فها هو ذا يعود في جزئه الثاني (ص 125) ليصف لنا بليّة أخرى نالت من دمشق عقب القضاء على ثورة الغزالي ، حتى رسخت في أذهان الناس باسم «الفتنة الغزالية» :

> وفي ليلة الأربعاء سابع عشريه [صفر سنة 927] غطّ العسكر ، خصوصاً القرمانية والرُّمليّة ، على الصالحية وجميع الحارات خارج دمشق وجميع القرى التي مسيرة يومٍ وليلة ، فكسروا أبواب بيوتها وحواصلها ودكاكينها وغير ذلك ، وذهبت أموال الناس وأسبابهم . ولم يسلم منهم إلا من أعماه الله عنهم ، وعرّوا النساء فضلاً عن الرجال ، ولم يحترموا صوفياً ولا فقيهاً ولا كبيراً ولا صغيراً . وكانت النساء قد اجتمعت بجامع الحنابلة ومدرسة أبي عمر والصّوابيّة ونحو ذلك ، فهجموا عليهم وعرّوهم حتى جامع السلطان سليم ابن عثمان ، وأخذوا بعض نساء وجوار وعبيد وبعض صبيان . وعُدَّت هذه الكائنة على دمشق مثل كائنة اللَّنك ، بلْ كيوم القيامة .

فكان هذا الكلام المجرّد عن النقد مبلغ استنكار ابن طولون على هذه الفظائع التي ارتكبها عسكر بني عثمان بدمشق ! رغم أنه نفسه قد ناله أيضاً مقدار غير يسير من الأذيّة في هذه الواقعة ، وفقد بعض كتبه ، كما يذكر في كتابه الفُلك المشحون عن بعضها : «فُقد في الفتنة الغزالية» .

غير أن في نص ابن طولون نماذج أخرى تدل على امتعاض ، وإن كان مواربا حيياً ، من بعض الممارسات الإباحية التي قامت بها السلطات العثمانية الحاكمة ، مثل إقامة والٍ للعُلوق (المخنثين) وتخصيص الخان المنجكي لهم (انظر ص 152) ؛ واحتفال الأروام بفتح جزيرة رودس وشربهم الخمر جهاراً في أسواق دمشق (ص 154) ؛ وزفّة طهور والي القحب والعُلوق التي حصل فيها مناكر كثيرة حتى شُرب الخمر على رؤوس الأشهاد (ص 200) .

وتبقى ، إلى ذلك ، صورة دمشق جليّة في صحائف ابن طولون ، إبّان دخولها القسري في فلك الإمبراطورية العثمانية ، طائعة راضية وصامتة غير معترضة ، مع التزامها التام بكل ما يفرض عليها من تغييرات عسكرية وإدارية

واجتماعية واقتصادية ، وتأدية ضرائب وأعشار ، وإقامة زينات وتقديم فروض طاعة . كل ذلك تحت ستار الدين ، وتنصيب العثمانيين حكاماً شرعيين على اعتبارهم فاتحين مسلمين ومجاهدين باسم الإسلام ضد أوروبا «الكافرة» .

حتى أن بعض أعيان المدينة استساغوا الترامي في أحضان الفاتحين الجدد ، ووجدوا فيهم الواسطة المثلى لتحقيق طموحاتهم الوظيفية والمادية ، وكان على رأس هؤلاء القاضي ولي الدين ابن الفرفور (الذي تمذهب حنفياً تشبهاً بالأروام) والقاضي رضي الدين الغزّي والشيخ الصوفي محمد الصّمادي .

بيد أن هناك نماذج أخرى تدل على ردع السلطان سليمان ، وبعض ولاة دمشق وقضاتها من العثمانيين ، لبعض التجاوزات والتعديات التي كانت تقع . مثلاً : توجه شيخ الإسلام بدمشق إلى الوزير الأعظم للشكاية على أخذ الأولاقية لخيول الناس ، ولإبطال يسق النكاح (ص 180) ؛ وانتقاد الناس لإحداث وظيفة نظر النظّار بدمشق (ص 230) ؛ وشكاية التجار للسلطان سليمان على الوالي عيسى باشا ، وأمر السلطان بعزله وإلزامه بدفع أموالهم (ص 243) .

صحيح أن العثمانيين أبدوا عسفاً وظلماً في بعض الأحيان ، إلا أنهم ما برحوا يقابلون باحترام خاص دمشق (شام شريف) وأهلها ، على اعتبار شرفها وقدسيتها الدينية . ولا أدلّ على ذلك من خبر أورده ابن طولون في الجزء الأول (2 : 35) عن أن الوالي العثماني قبض على أحد عساكره كان هجم على امرأة في بيت ، فضرب عنقه وأشهر رأسه على رمح في ضواحي دمشق . وكذلك حكاية الوالي إياس باشا والشخص الصالح ، في الجزء الثاني (ص 135) .

ومع كل ذلك ، بدأنا نلاحظ من خلال نص ابن طولون سرعة دمشق في الاندماج مع حكامها العثمانيين الجدد ، وتداخلهم مع أركان الدولة في جميع مناحيها من إدارية واقتصادية وعسكرية وعلمية ودينية . حتى من الناحية الاجتماعية لم يخلُ الأمر من مصاهرات بين الطرفين (انظر مثلاً ص 202) .

ورغم أن الدمشقيين قد أبدوا امتعاضهم من ممارسات العثمانيين أحياناً ، واعتبر بعضهم أن الأروام بدعيّة (انظر ص 135) ، فإنهم في الوقت ذاته أبدوا ارتياحهم وثناءهم على بعض القضاة الأروام [1] الذين اتصفوا بالنزاهة والدين والحزم (انظر ص 233 ، 281 ، 293 ، 303 ، 365) .

وبالطبع كانت تحركات العثمانيين تتمحور من منطلق كونهم يمثلون الهيئة الحاكمة العليا ، فعمدوا إلى فرض امتيازاتهم في مجتمع دمشق . انظر مثلاً قضية ضبط القاضي لخزانة كتب المدرسة العمرية ، وتعطّل النفع بها إلا لجماعة الأروام ومن يلوذ بهم (ص 239) . كما فرض الحكام الجدد عدداً من النظم الضريبية الجديدة ، مثال : مضاعفة يَسَق (رسم) الصكوك القضائية ومضاعفة يَسَق تزويج البكر والثيّب (ص 127) ؛ وتغيير ذراع دمشق بذراع اصطنبول (ص 133) ؛ وإصدار ضريبة العُشر على الأراضي (ص 246) ؛ وقوانين اجتماعية واقتصادية جديدة وإلغاء بيع البضائع بالمزاد والاستعاضة عنه بالتسعيرة التموينية المحددة (ص 281) . أما العملة الجديدة فهي «العثماني» (ص 181 ، 246 ، 258) ، وإن كان النص الذي وصلنا لا يحدد معادلها من العملة السابقة .

ومن أهم الفروقات التي تميّز الجزء الثاني ، هو أنه بدأ يفشو فيه استعمال عبارات ومصطلحات تركية عثمانية جاء بها العهد الجديد للدولة الرومية ، من أمثال : الخنكار ، باشا ، أفندي ، بك ، آغا ، چلبي ، روملي ، يسق ، أولاق ، إنكشارية ، سپاهية ، آلاي بيك ، صوباشي ، دفتردار ، عسس باشي ، سنجق ، تيمار ، دانشمند . هذا عدا عن أسماء الأعلام التركية . طبعاً مع ملاحظة أن المصطلحات التركية لم تكن بالغريبة على دمشق قبل ذلك في عهد المماليك ، الذين كانت اللغة الرسمية في بلاط سلاطينهم وحلقات أمرائهم وطباق فرسانهم هي التركية أيضاً .

---

(1) انظر مثالاً لذلك ما كتبه الغزي في الكواكب السائرة (1 : 21) عن تقدير أهل الشام الفائق للقاضي الرومي (العثماني) الشهير محمد أفندي الفناري .

كانت حركة أركان الدولة ، كما أسلفنا ، هي المحور الأساسي الذي دارت حوله أحداث ابن طولون في الجزء الثاني ، مع ما يتبعها من تحركات العسكر العثماني وكتائبه المختلفة كالإنكشارية والسپاهية . وأهم حادثة في الفترة التي يغطيها الكتاب كانت ولا شك ثورة الوالي جان بردي الغزالي (926-927 هـ) ، وملابساتها ونتائجها ، التي كان من أهمها تعيين الولاة بدمشق من الأروام حصراً ولفترات قصيرة ، وكان الاستثناء الوحيد بتكرار نفس الوالي على دمشق أكثر من مرة هو في حالتي لطفي باشا وعيسى باشا ، ربما لتميّزهما في إدارة الولاية .

كما حظيت أخبار الحج باهتمام بالغ من المؤلف ، فذكر بعض حوادثها من إغارات البدو على قوافلها ، مع بعض الحوادث الطبيعية كالسيول التي أصابت مكة أعوام 927 و 932 و 935 هـ ، وكذلك بعض أحوالها الاقتصادية .

ونلمح في الكتاب رصداً مفيداً لبعض أحوال الطقس والحوادث الطبيعية ، كذكره لهطول أمطار غزيرة رافقتها صواعق (ص 146) ؛ وهبوب زوبعة عظيمة (ص 158) ؛ وطاعون عام 930 هـ الأكبر (ص 165) ؛ وطوفان كبير لنهر بردى (ص 212) ؛ وهطول مطر غزير أسفر عنه هدم (ص 214) ؛ وظهور مذنّب كبير (ص 215) ؛ وطاعون آخر عامي 939-940 هـ (ص 263 ، 275) .

أما على صعيد التاريخ المدني والطبوغرافيا العمرانية ، فقد أفادنا ابن طولون بذكر أشياء مفيدة عن عمارة بعض الأبنية الرسمية ، كدار السعادة واصطبلها ، وإقامة الغزالي لجسر متحرك للقلعة على مدخلها الشرقي الذي ينفتح إلى المدينة ، وذكر دار أُزْدُبُش ودار الشهابي ابن المزلّق اللتين أضحيتا منزلاً رسمياً لكبار موظفي الدولة كالقضاة ، وعمارة سوق القاضي بالقيمرية ، والعمائر والدور الأخرى التي شيّدها القاضي ابن الفرفور ، وتجديده لمقام الشيخ أرسلان ، وتجديد أهلّة الأموي ، ومسجد العمادي بالفراديس ، وتربة لطفي باشا ، وتربة أحمد باشا ، وتربة حسين نائب القلعة . بالإضافة لذكر عدّة حرائق .

كما تناثرت في الكتاب أخبار أخرى تفيد الطبوغرافيا التاريخية لدمشق ، كذكر المساجد والمدارس والأسواق ، ومنها ما باد في عصرنا كالمدرسة التغري ورمشية ودار الحديث الناصرية (اللتين عثرنا على رسوم نادرة لهما) .

أما أمتع أخبار هذا الجزء ، فهي الحوادث الشعبية الطريفة التي عوّدنا ابن طولون على إيرادها في الجزء الأول ، وإن كان ما وصلنا منها هنا مع الأسف لا يعدو نماذج بسيطة حفظها لنا قلما الأيوبي وابن جمعة . ومن جملة ذلك ما يذكره عن : إقامة وال للعُلوق المخنثين ، وزفّة طهور ابن والي القحب والعُلوق ، وتزيين دمشق في مناسبات انتصار الدولة في فتوح البلقان وجزر اليونان ، وقتل الكلاب بدمشق ، وحضور ابن سلطان الحرافيش ، وقصة القطة الغبراء التي أرضعت جراء كلاب ، وحكاية المرأة التي قطعت ذكر زوجها ، والواقعة الغريبة بجزائر الغرب ، ووقوع أحد فعلة الأموي من سطحه [1] . وفي رأينا أن القيمة الحقيقية لنص المفاكهة إنما تكمن في إحاطته لهذا التاريخ الشعبي ، ورصده حركات المجتمع بكافة طبقاته الحاكمة والمحكومة [2] .

أما على صعيد الحياة الاقتصادية ، فلم يفت ابن طولون هنا أيضاً أن يتناول بالذكر بعض أوضاع الأسعار والغلاء ، والنظم الاقتصادية الجديدة التي فرضها الحكام الجدد ، مثل : تغيير ذراع دمشق بذراع اصطنبول (ص 133) ؛ وتوزيع إقطاعات التيمار (ص 169 ، 258) ؛ وبعض الإقطاعات الخاصة (ص 186) ؛ كما يحدد مراراً مقادير رواتب الوظائف العلمية ، وسيطرة الدفتردار والمفتش (كاتب الولايات) وناظر النظّار على المقدّرات المالية للولاية .

---

(1) تذكرنا هذه الحوادث بما ورد في الجزء الأول من مفاكهة الخلان ، كما يمكن مقارنتها أيضاً بما كتبه البديري الحلاق في حوادثه اليومية بعد قرنين من عصر ابن طولون .

(2) وهذا ما يرسم الفارق الواضح ما بين كتب الحوادث اليومية وكتب التراجم ، كمصادر لتأريخ حياة المدن . فتبقى لكتب الحوادث مكانة أرفع وأهمية أكبر ، فكم يلذّ للمرء قراءة أحداث مضت عليها مئات من السنين ، هي أمتع وأنفع من قراءة مئات السطور في مدح فلان والإطناب في تعداد ألقابه ومزاياه الفريدة وعلومه الغزيرة ، مما لا طائل منه .

واقعة القهوة : من أهم الحوادث الاجتماعية الواردة في هذا الجزء هي الأزمة الفقهية التي سبّبها موضوع انتشار شرب القهوة وبدء انتشار المقاهي (بيوت القهوة أو حوانيتها) بدمشق وبلاد الشام والحجاز . فيروي ابن طولون حول ذلك (ص 290) خلاف علماء مكة ومصر بين تحليلها وتحريمها سنة 941 هـ ، ويضيف رأيه الشخصي : وأنا ممن شربها ولم ير الضّرر منها .

ويروي في نفس السنة (ص 296) قدوم قاضي مكّة وشيخ حرمها لدمشق ، وحضوره عند أحد الشيوخ وشربهم القهوة المتّخذة من البنّ . ويضيف ابن طولون : ولا أعلم أنها شُربت في بلدنا هذه ، يعني دمشق ، قبل ذلك .

كما يضيف (ص 338) أن الشيخ علي ابن عراق في مدّة إقامته بدمشق سنة 947 هـ قد أشهر شرب القهوة بها ، فاقتدت به الناس وكثرت من يومئذ حوانيتها .

وأخيراً ، ذكر ابن طولون في حوادث سنة 950 هـ (ص 357) أن قاضي دمشق نادى على دكاكين القهوة بألا تُشرب بجمعية وغناء وإدارة بالزبادي الصيني . ثم إنه كبسهم ، فضرب كل من وجده في الدكاكين علقة علقة . واستصدرت عقب ذلك فتوى بتحريمها .

والمفيد في هذه النصوص أنها تصحح الاعتقاد السائد بأن مبدأ ظهور المقاهي بدمشق كان في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) ، وصوابه أواسط القرن العاشر ، في مطلع الحكم العثماني للشام .

* * * * *

وثمّة أمر نودّ الإشارة إليه هنا ، أننا علمنا من خلال ما كتبه الأيوبي الذي اطّلع ملياً على النسخة الأصلية من مفاكهة الخلان ، بأن على هذه النسخة عدّة حواش كتبها الشيخ أبو الفتح المالكي التونسي بخطّه ، تتضمن قدحاً خبيثاً بابن طولون ، رغم الصداقة التي جمعت بين الرجلين طويلاً . وقد قمنا بإثبات هذه

الحواشي في أماكنها نقلاً عن الأيوبي . ثم لما راجعنا ترجمة أبي الفتح في الروض العاطر (توفي 975 هـ) بطل عجبنا لثبوت كونه شخصاً مهتزاً غير سوي [1] .

وأخيراً ، فمن خلال مطالعتنا الدقيقة لكل من جزأي مفاكهة الخلان ، قد نخرج بنتيجة ساقنا إليها استطلاع الفارق الواضح ما بين الجزأين ، ففي الجزء الثاني لم نر نفس المستوى الرفيع الذي تميّز به الأول ، بل هناك حشو واستطرادات مطوّلة ، تخرج عن إطار الإيقاع السريع للحوادث .

إن دلّ ذلك على شيء ، فإنما يدل برأينا على احتمال كون الجزء الأول اعتمد فيه ابن طولون بشكل رئيسي على النقل من كتابي ابن طوق والنعيمي ، مع بعض أشياء من الحمصي . وهنا ، لا بد من لفت الانتباه إلى أن النعيمي كان الشيخ الأثير لابن طولون ، تأثر به وبمؤلفاته كثيراً ونقل عنها واختصر بعضها ، فلا يبعد أن يكون كتابه الضائع «تذكرة الإخوان في حوادث الزمان» يمثل المصدر الأول لابن طولون في النقل [2] .

والأهم من ذلك ، نلاحظ أن ابن طولون ختم الجزء الأول من كتابه عام 926 هـ ، وابتدأ الثاني في 927 هـ وهي سنة وفاة النعيمي . فلا يبعد أن يكون في الأول ينقل تلك الحوادث الشيّقة عن النعيمي ، ثم بدأ يعتمد على نفسه ومشاهداته الشخصية في الثاني بعد وفاة شيخه ، وهذا ما جعلنا نرى فيه اعتماداً على الحشو وضعفاً في العبارة وهبوطاً في وتيرة الحسّ الإخباري ؟!

---

(1) كتب الأيوبي (237 و – 239 ظ) : وكان كثير الهجاء ، وعلى هجوه طلاوة ، ويجيد في ذلك بخلاف المدح . . وكان رحمه الله مسرفاً على نفسه يستعمل البرش ويبلعه في كل يوم مراراً متعددة ، وكان كثير السرد ، يسرد في كل أوقاته حتى يصير رأسه عند ركبتيه . وهجا أكابر الشام ، وكان الناس يخافون فلتات لسانه ، وقد هجا القاضي كمال الدين الحمراوي لما كان متولي الجامع الأموي بقصيدة دالية على لسان الجامع ، تنوف على المائتي بيت ، وسمّاها : «وضع المكاوي على لوايا الحمراوي» ، وهي بديعة في بابها .
قلنا : «كان يسرد» يعني بالعامية الدمشقية يغفو بوضعية القعود ، بسبب الأفيون .

(2) وفي الجزء الأول أمثلة على ذلك ، مثلاً (2 : 36) : وذكر لي شيخنا المؤرخ النعيمي . .

قصيدة الشيخ إبراهيم الصيداوي

كنا ننوي أن نضيف إلى نشرتنا هذه نصاً آخر لابن طولون ، يتناول حادثة تاريخية ورد ذكرها في كتابنا الحاضر (ص 102) ، وهو شرحه لقصيدة الشيخ إبراهيم ابن صارم الدين الصيداوي في غزو الفرنج لمدينة بيروت عام 926 هـ .

وبالفعل ، بحثنا عن مآل المخطوط ، ثم حصلنا على نسخته الفريدة بخط المؤلف نفسه من مكتبة لايدن بهولاندة ، وهي فيها برقم (Or. 2506) . غير أننا بعد مراجعتها بتمعّن ، وجدناها مع الأسف لا تعدو كونها شرحاً أدبياً مملاً لقصيدة سقيمة لا تحمل أية قيمة لا من الناحية التاريخية ولا حتى الأدبية .

ولذا لم نر بدّاً أمامنا من إلغاء هذه الفكرة ، والاكتفاء بنشر ما طالته أيدينا من نصوص المفاكهة .

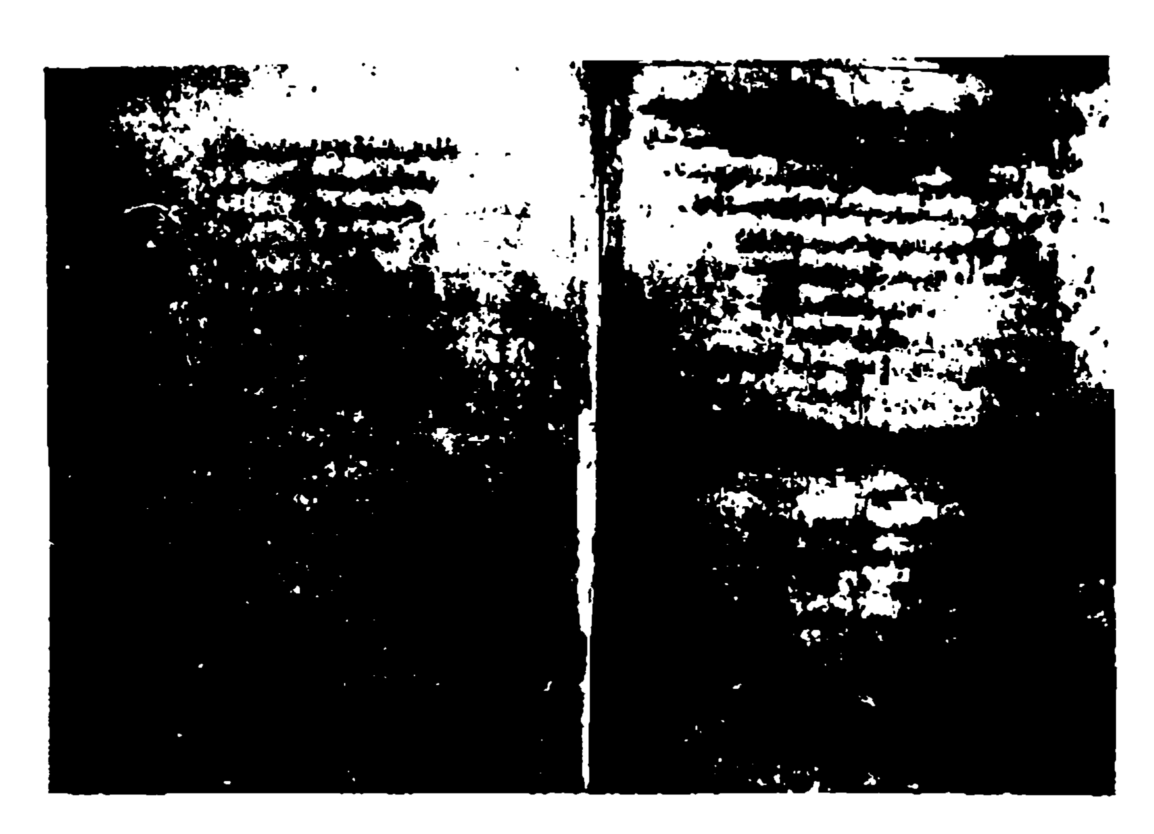
رحلة موزيه باسولا لدمشق

من المصادر النادرة عن دمشق في مكتبتنا ، نص لرحالة إيطالي زار دمشق في نفس الفترة التي استفتح بها ابن طولون الجزء الثاني من كتابه ، وكان ذلك سنة 1521 - 1522 م (927 - 928 هـ) . واسم الرحالة «موزيه باسولا دي آنكونا» Mose Bassola di Ancona . وسوف نقوم بنشر نص هذه الرحلة في كتاب لنا عن دمشق في نصوص الرحالين الغربيين ، لمقارنتها بما يذكره ابن طولون .

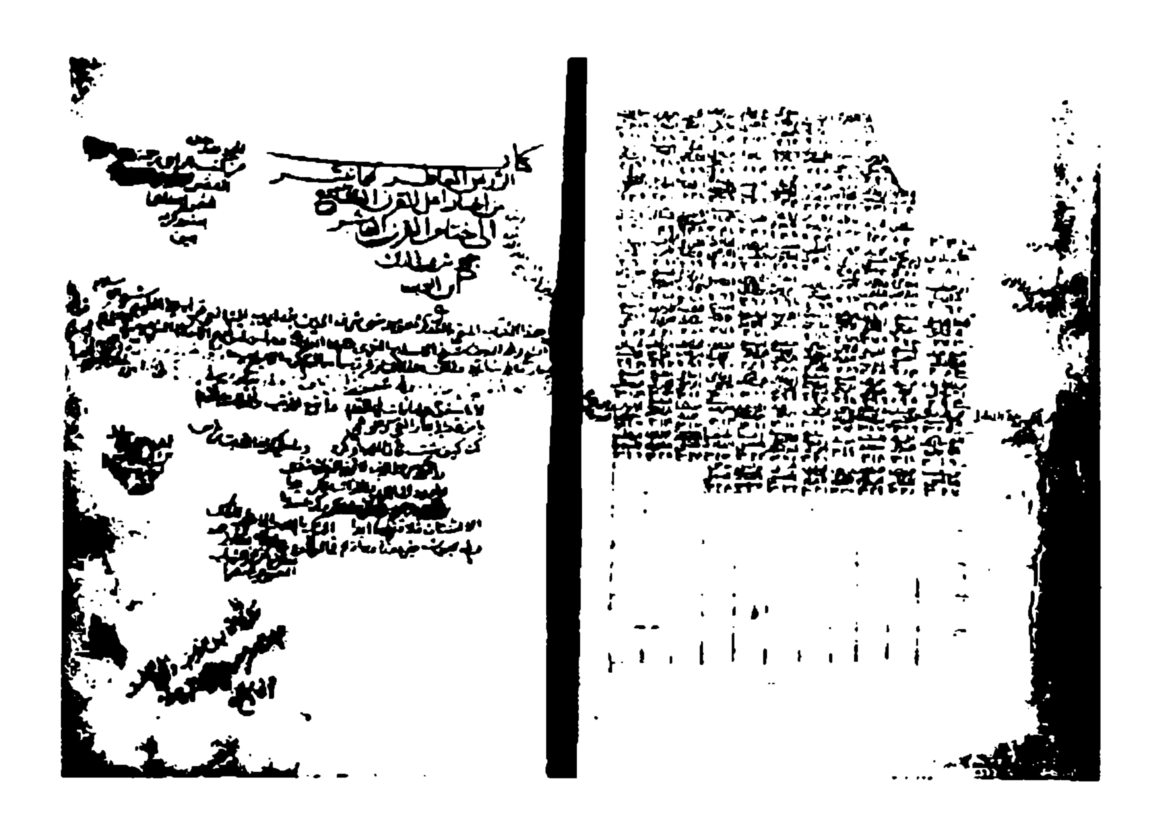
قام بنشر الرحلة مترجمة إلى الإنكليزية برنارد لويس وصدرت في لندن عام 1940 :

Lewis, Bernard, A Jewish Source on Damascus just after the Ottoman Conquest (Travel of Rabbi Moshe Bassola di Ancona, 1521-1522), *Bulletin of School of Oriental Studies (BSOS)*, vol. X (1940), pp. 179-84.

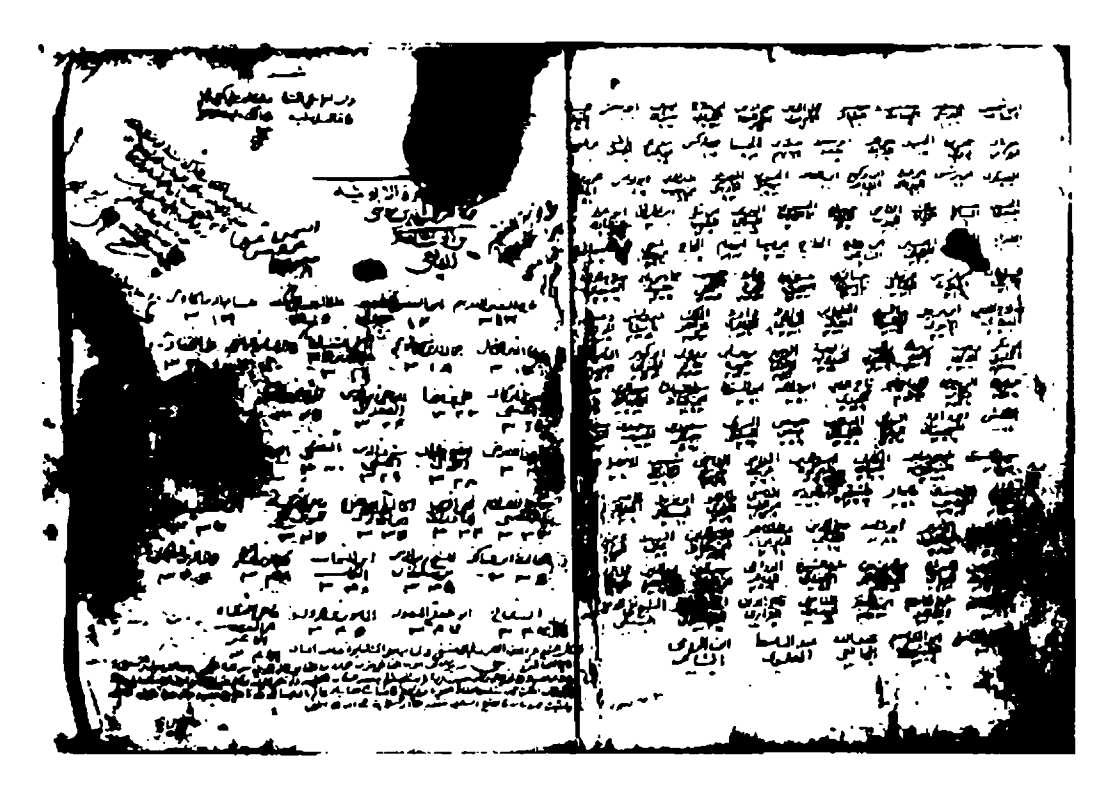
نموذج من خط ابن طولون ، مخطوط «العقود اللؤلؤية في الدولة الطولونية»



نموذج لمخطوط «غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان» ، لابن طولون



نموذج مخطوط «الروض العاطر» للأيوبي ، نسخة مكتبة الدولة في برلين



نموذج مخطوط «التذكرة الأيوبية» للأيوبي ، نسخة مكتبة الدولة في برلين

[مفاكهة الخلان في حوادث الزمان]

[بعض حوادث سنة 924 هـ]

[تعيين جان بردي الغزالي نائباً بدمشق][1]

وفي يوم الثلاثاء خامسه [5 صفر سنة 924 هـ] فوّض الخنكار نيابة دمشق لجان بَرْدي الغزالي[2] ، ومعها من بلاد المعرّة إلى عريش مصر ، على مال معيّن ، قيل قدره مائتا ألف دينار وثلاثون ألف دينار . وأضاف أمر الجراكسة بدمشق من الحجوبية الكبرى والثانية ، ودواداريه السلطان ، وإمرة ميسرة وغير ذلك من الإمريات إليه .

---

(1) قمنا بنقل هذا المقطع من القسم الأول المطبوع من مفاكهة الخلان (2 : 82) ، لإتمام المعنى من مبتدأ أمر جان بردي الغزالي وتوليته منصب والي دمشق من قبل السلطان سليم في السنة المذكورة . وبذلك يكون الغزالي أول ولاة العثمانيين بدمشق ، والوحيد الذي تم تعيينه من الأمراء المماليك السابقين .

(2) الاسم تركي ويتألف من مقطعين : Can-verdi ، ومعناه : الروح أعطت ، عطاء الروح ، أو عطاء الحياة . أما لقبه الغزالي فكما يذكر ابن إياس في بدائع الزهور (5 : 383) : «كان أصل الأمير جان بردي الغزالي من مماليك الأشرف قايتباي . . ثم إن الأمير تغرى بردي الأستادار قرّره شاداً في ضيعة بالشرقية يقال لها منية غزال ، فنُسب إليها وقيل له الغزالي مضافاً لاسم تلك الضيعة» . كما ذكر ابن إياس أشياء أخرى عن مبتدأ أمره . وله ترجمة وافية وهامة لدى الغزي في الكواكب السائرة ، 1 : 168-171 ؛ ودرّ الحبب في تاريخ أعيان حلب لابن الحنبلي ، 1 : 445 .

[دخول جان بردي دمشق نائباً]

وفي يوم الأربعاء عشريه [20 صفر سنة 924 هـ] دخل من مصر إلى دمشق نحو خمسمائة إنكشاري من مماليك الخنّكار [1]، ونزلوا بالمصطبة [2] لاحقين به .

وفي يوم الخميس حادي عشريه نودي بدمشق بأن زُعْر كل حارة تلاقي ملك الأمراء [3] جان بَرْدي الغزالي غداً يوم الجمعة .

وفي بكرة يوم الجمعة ثاني عشريه دخل جان بَرْدي المذكور ، راجعاً من توديع الخنكار إلى دمشق ، وتلقّته الأمراء الباقون بدمشق وشباب حاراتها لابسين العدد ، وقدّامه الإنكشارية ورماة البندق وعدّتهم نحو الخمسمائة ، وهو لابس

---

(1) الخنكار عبارة مختصرة من كلمة تركية قديمة (ذات أصل فارسي) : خُداوندگار Hudavendigâr ، وتعني السلطان . استعيض عنها فيما بعد بعبارة پاديشاه Padişah . ورغم أن هذه اللفظة انقرضت من كل من اللغتين العربية والتركية ، فمن الطريف أن نذكر أن في العامية الدمشقية بقايا من هذه اللفظة ، فهم يقولون : «فلان قاعد ومخنكر وما حدا قدّه» ، أي متوسداً ومتصدراً المجلس بأبّهة بادية .

(2) يريد بها مصطبة السلطان ، كانت في سهل القابون بينها وبين برزة ، وهي مصطبة عظيمة كان الملوك والنواب والقواد في العهد المملوكي ينزلون بها إذا قدموا من جهة حلب ، ثم تخرج جيوش دمشق لملاقاتهم بها ، ويدخلون دمشق بموكب حافل . وكذلك كان شأنهم إذا أرادوا السفر إلى الشمال . وصفها البلداني الشهير أبو البقاء البدري في القرن التاسع الهجري في كتابه نزهة الأنام في محاسن الشام (ص 264) بقوله : وهي مصطبة في قدر فدّان يُصعد إليها في نيّف وعشرين درجة من جهاتها الأربع ، وفيها قصر حسن البناء ينزل به الملوك والسلاطين عند توجههم إلى الأسفار . وفي عصرنا كتب أستاذنا الشيخ محمد أحمد دهمان : وقد بقي أثرها إلى عهدنا الحاضر ، ثم سوّيت بالأرض وأصبحت أرضاً زراعية . ولاة دمشق في عهد المماليك ، ص 31 .

(3) جرت العادة بإطلاق لقب ملك الأمراء على نائب دمشق في زمن سلاطين مصر المماليك ، فتمت المحافظة عليه مؤقتاً ريثما استبدله العثمانيون بلقب الوالي ، غير أن ابن طولون في كتابه هذا بقي يستعمل عبارة (النائب) المملوكية كما سنرى . ولقب (ملك الأمراء) هذا استخدم أيضاً بمصر في مطلع الحكم العثماني بها عام 923 هـ ، كما ذكر ابن إياس في بدائع الزهور (5 : 208) في ذكر خاير بك : المقر السيفي ملك الأمراء خاير بك من ملباي نائب السلطنة بالديار المصرية .

زيّ الأروام . ونزل عند الشامية البرّانية ، (في بيت قانصوه برج)[1] ، وأمر بعمارة دار السعادة[2] واصطبلها ، فشرعوا في ذلك عجلاً . ثم نادى مناداة حسنة بأن لا ظلم ولا عدوان ، وأن رؤوس النُوَب والنقباء ومشايخ الحارات بطّالون .

* * * * *

---

(1) الجملة مضافة من نص نقله ابن كنّان الصالحي عن مفاكهة الخلاّن في كتابه «حدائق الياسمين في قوانين الخلفاء والسلاطين» ، ص 229 . وأما قانصوه فهو المعروف بنائب البرج (الذي بناه السلطان قايتباي في الإسكندرية) ، من أمراء دولة المماليك البرجية الجراكسة . تولى نيابة دمشق أواخر عام 906 هـ في عهد سلطنة الغوري ، وتوفي سنة 910 هـ . راجع إعلام الورى ، ص 136 . وأما بيته المذكور فلا دليل واضح على موقعه عند الشامية البرّانية (شرقي حي صاروجا) ، وكان ما حولها سكناً لعديد من الأمراء .

(2) كانت «دار السعادة» المسكن الرسمي لنواب دمشق في العهد المملوكي ، أي بمثابة دار الحكم أو الإمارة آنذاك ، وأصلها دار أيوبية تنسب للأمير فرّوخشاه بن شاهنشاه ابن أيوب ، ثم آلت إلى الملك الأشرف ومن بعده إلى ابنه ، فقام الأمراء المماليك فيما بعد بوضع يدهم على الدار واشتروها بثمن بخس ، وصارت منذ ذاك الحين منزلاً لنواب دمشق ، وجرى ترميمها مراراً . والظاهر أنها كانت مجاورة دار العدل ، التي كان بناها نور الدين ابن زنكي ، فأضيفتا إلى بعضهما وأصبحتا بناءً واحداً في ملك الدولة . ومكانها يقع بين التكية الأحمدية (مسجد الأحمدية) وبين المدرسة القجماسية ، في الطرف الغربي من سوق الحميدية ، لصيق الجدار الجنوبي للقلعة (انظر الخريطة المرفقة) وكان يقابلها في السور الغربي للمدينة باب فتح في العهد الأيوبي (باب النصر) كان موضعه عند مدخل سوق الحميدية الحالي . ويرجح الشيخ دهمان أن تكون دار محمد باشا العظم والي دمشق العثماني قامت على قسم منها ، ويضيف أنها هدمت منذ بضع سنين وأصبحت مخازن تجارية (وهذا الكلام كتبه في الستينيات) ، راجع : ولاة دمشق في عهد المماليك ، ص 26 . وراجع أدناه حوادث 16 صفر 927 هـ .
وبقيت دار السعادة على وظيفتها الأصلية خلال الجزء الأكبر من العهد العثماني . كما نطالع في مصادر ذلك العهد ومنها كتابنا هذا ، وعرفت في أواخره باسم البيليك بالتركية *Beylik* ، إلى أن قام والي الشام كنج يوسف باشا ببناء سراي جديد خارج السور ، كان موضع بناء العابد جنوبي ساحة المرجة ، خلال فترة ولايته بين عامي 1807–1809 ، وبعد ذلك تم بناء سراي جديد للحكومة في عهد التنظيمات عام 1900 م في عهد الوالي حسين ناظم باشا ، ما زال قائماً إلى يومنا الحاضر وتشغله وزارة الداخلية .

[بعض حوادث]
[سنة 926 هـ]

[أخبار جمادى الأولى سنة 926 هـ][1]

وفي جمادى الأولى أرسل الخنكار لنائب الشام خلعة .

وفي التاسع منه ، يوم الخميس ، رحل من محروسة الشهباء .

ثم أخذ الغزالي يغيّر من يَسَق[2] بني عثمان ، وكان سبب الفتنة وقتله على يد الأروام[3] .

وفيه طبخ ناظر تكيّة السلطان[4] بكرة النهار ليمونيّة ، وعشيّته رزّ بلحم ورز بعسل ، وعيّن لها من اللحم ستين رطلاً ، ونصف قنطار طحيناً للخبز .

---

(1) أضفنا هذه الأخبار نقلاً عن كتاب حدائق الياسمين في قوانين الخلفاء والسلاطين لابن كنّان الصالحي (مخطوطة چستر بيتي الورقة 90 ، والمطبوع منه ص 230) ، وذلك رغم أنها لا تتصل بالقسم الثاني من المفاكهة ، إنما لكونها مفقودة من مخطوط القسم الأول بتمزق أصاب أسفل الورقة 83 ، انظر المطبوع 2 : 104 .

(2) في التركية : yasa ، تعني الدستور والقانون . وأما yasak فتعني في التركية الحديثة : الممنوع ، غير أنها كانت تستعمل قديماً بالمعنى السابق .

(3) الأروام لقب أطلقه المماليك على العثمانيين لكونهم حلّوا بلاد الروم (اليونان) ، وأما الترك فكان المقصود بهم المماليك أنفسهم ، على اختلاف أصولهم المتعددة .

(4) يريد بها تكية السلطان سليم الكائنة بجوار جامع الشيخ محيي الدين ، والتي بناها السلطان سليم عام 923 هـ . راجع القسم الأول من المفاكهة 2 : 68-70 .

ولمّا لبس الغزالي الخلعة جاء بها من داره للسَّرايا ، وجاء الناس للسّلام عليه وقرأ له القرّاء عُشراً من القرآن الشريف ، وشرع الشيخ النُّعيمي[1] بإملاء الأحاديث المسندة بالسند مفرّقة المعنى في العدل ونحوه .

[أخبار أواخر سنة 926 هـ]

وفي يوم الجمعة سلخه [آخر شوّال سنة 926 هـ] جيء برؤوس إفرنج إلى دمشق مع جماعة من أهل بيروت ، وأخبروا أن يوم الأربعاء ثامن عشريه طلع من البحر إلى عند عين البقر هناك هؤلاء الفرنج في زيّ الأروام ، ورامـوا أخذ ميناء بيروت ، ففاق عليهم المسلمون واقتتلوا ، فقتل من المسلمين نحو مائة ، ومن الإفرنج نحو الأربعمائة ، وهرب الباقون . وقد كانوا جاءوا في تسعة مراكب ، منها خمس برشات والباقي أغربة .

وفي يوم الجمعة المذكور أُخبرت أن محب الدين الكَرَكي ، موقّع نائب الشام سيباي - الذي عمّر الحمّام قبلي القيمرية بغرب ، داخل دمشق ، وكان دائراً من أيام اللّنّك ، وبنى إلى جانبه داراً له معظّمة - توفي فجأة يوم الأربعاء ثامن عشريه أيضاً .

وفي يوم الجمعة المذكور أيضاً أُخبرتُ أنه وصل أولاق[2] ، بالحوطة على تركة يونس العادلي[3] ، ناظر الحافظية والفارسية والصابونية .

---

(1) يريد الشيخ محيي الدين عبد القادر بن محمد النعيمي ، شيخ ابن طولون ومصدره الأول في تأليف كتاب المفاكهة ، وأحد أشهر مؤرخي دمشق ومحدثيها بأواخر عهد المماليك . توفي عام 927 هـ . الكواكب السائرة للغزي ، 1 : 250 .

(2) الكلمة تركية ulak : رسول أو ساع ، وهي من المصطلحات الإدارية العثمانية .

(3) ورد ذكر العادلي في القسم الأول من المفاكهة مراراً ، وآخر ذكر له عند حادثة اعتقاله ثم إطلاقه في شوال سنة 922 هـ . راجع 2 : 38-39 .

وفي يوم السبت مستهلّ ذي القعدة منها [1 ذي القعدة سنة 926 هـ] وصل إلى دمشق خمسة أحمال من رؤوس الإفرنج المقتولين بساحل بيروت[1]، وفُرّقت على الحارات، مثل الصالحية، وميدان الحصا، والقبيبات، والشاغور، وحارة النصارى، وحارة اليهود عند بستان القط، وحارة السَّمْرة[2] فوق العنّابة، واستمرّت إلى أن أكل غالبها الكلاب. وتحرّر أنه قتل من المسلمين خمسة أنفس، ومن الإفرنج خمسمائة وستة وثمانون نفساً، وأن عدّة المراكب أربعة عشر، وأنهم نزلوا بثلاثة سناجق[3] وثلاثة طبول.

وفي يوم الأحد ثانيه [2 ذي القعدة سنة 926 هـ] سافر النائب إلى بيروت، ليأخذ سلب الإفرنج المقتولين ويتفقّد أبراج ذلك الثغر من السلاح.

وفي يوم الثلاثاء حادي عشره [11 ذي القعدة سنة 926 هـ] توفي المعلّم عبد الكريم ابن داود، المدعو بشريم الورّاق، وكان آخر المعلّمين القدماء في هذه الصنعة[4]، ولديه دين وصلاح ومحبّة للصوفية، فجأة، ودُفن غربي الروضة بسفح قاسيون.

---

(1) أورد ابن طولون هذا النص بحرفيته في شرحه لقصيدة الشيخ إبراهيم بن صارم الدين الصيداوي في غزو الفرنج لمدينة بيروت (مخطوط لايدن، 8 و)، وأضاف يقول: كذا ذكرته في كتابي «مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان».

(2) ذكر ابن طولون حارة السمرة في القسم الأول من المفاكهة (2: 16، 27)، وكذلك في كتابه إعلام الورى (271، 278)، وفيه بيّن الشيخ دهمان موقعها بحاشيته.

(3) الكلمة تركية: sancak سنجق أو صنجق، وتعني الراية.

(4) يقدم لنا ابن طولون هنا فائدة تاريخية هامة عن صناعة الورق الأصيلة بدمشق، وكانت دمشق في العهد المملوكي تشتهر بها وفيها عدّة ورّاقات آنذاك، ويذكر الرحالة الفرنسي بيير بولون Pierre Belon du Mans الذي زار دمشق بين عامي 1546-1549 (أي عند وفاة ابن طولون تماماً في عام 1546): «في المدينة دكاكين يصنع فيها كاغد الورق الدمشقي، يقومون بحلج القطن فيفصلون عنه البذور، ولديهم لهذا الغرض صفحة من الحديد طولها قدم واحد وثخانتها مقدار إصبعين، يهرسون بها القطن فوق السّندان فتخرج عندئذ البذور المكوّرة أمام الصفحة الحديدية». انظر: وصف دمشق في القرن السابع عشر من مذكرات الرحالة الفرنسي دارڤيو، ترجمة أحمد إيبش، ص 75.

وفيه توفي العلاّمة تقي الدين أبو بكر بن أبي خالد الشافعي ، وكان كتب على الشاميّة ، ثم تسبّب بالشهادة في مركز المؤيدية ، فجأة ، عندما جيء به إلى البيمارستان النوري ، ودُفن عند الشيخ نصر بباب الصغير .

وفي يوم الأربعاء ثاني عشره ، وصل أولاقان من الروم ، وجُهّزا إلى النائب .

وفي يوم الجمعة رابع عشره ، شاع بدمشق أن سلطان الروم سليم خان ابن عثمان توفي إلى رحمة الله تعالى .

وفي ليلة السبت خامس عشره ، عاد النائب إلى دمشق بغتة ، وشاع أنه عزل الأمير سنان الرومي من بلاد البقاع وما انضاف إليها ، وولاّها المقدّم أحمد ابن المقدّم ناصر الدين ابن الحنش[1] ، لما وصل إليه الأولاقان المذكوران ومعهما مرسوم بموت سلطان الروم سليم خان ، وشاع أنه توفي في تاسع شهر شوّال منها ، وأن ولده سليمان تولّى سابع عشر الشهر المذكور ، فيكون بين موت السلطان وتولية ولده سبعة أيام .

وفي يوم السبت المذكور وصل إلى دمشق الأمير سنان ، وسلّم على النائب فأكرمه ، ثم لاح[ت] له منه عين الغدر ، فذهب إلى القلعة وحذّر أهلها من النائب ، فأصبحت يوم الأحد سادس عشره مقفولة ، وقد فُكّ الجسر قدّام بابها الكبير الشرقي[2] . فرام النائب أخذها منهم بالمخادعة فلم يمكنه .

---

(1) سبق أن ذكرنا في المقدمة أن الغزالي كان في عام 1518 م قد جهز حملة ضد الأمير البدوي ناصر الدين ابن الحنش ، وتمكن من قتله وإقصاء أسرته عن مقدّمية البقاع لصالح السلطان العثماني سيم خان ، ثم ها هو يعود الآن لتعيين ابنه في مكانه من جديد ، في محاولة منه لجمع المؤيدين تمهيداً لإعلان العصيان على العثمانيين .

(2) يقع هذا الباب إلى جهة سوق العصرونية ، وهو مسدود منذ العهد العثماني ، وله واجهة جميلة جداً تحمل نقوشاً حجرية بديعة تعود للعهد الأيوبي . أما الجسر المتحرك فقد وصفه الرحالة البرتغالي سيباشتياو مانريك الذي زار دمشق بين عامي 1629-1643 م : «ودمشق محمية أيضاً بقلعة تقوم في وسطها ، وهي مشيّدة على شكل مربع ومسوّرة =

[تمرّد جان بردي الغزالي على العثمانيين][1]

وفي ليلة الإثنين سابع عشره [17 ذي القعدة سنة 926 هـ] شرع في حصارها ، ومعه شباب أهل الحارات من الشواغرة والصوالحة والحصوية[2] وغيرهم ، وجماعة القلعة القدماء من أيام الجراكسة . فعند ضحوة النهار الكبرى من اليوم المذكور ملكها بالحيلة ، وهي أنه شاغلهم بالقتال عند بابها المذكور ، مع الرمي عليه بسبقيّة[3] نُصبت شمالي العادلية الصغرى ، وأرسل جماعة ومعهم المعلّم أحمد بن العطّار ففكّوا شباك النهر عند أسفل سلّم الطارمة ، وقد كان قطع ماؤه وليس بخندق القلعة ماء ، ودخلوا من النهر إلى القلعة[4] .

= بجدران متينة ومحاطة بخندق ، ولها مدخل واحد فقط في جهتها الشرقية ، يُعبر إليه على جسر يمكن رفعه إلى الأعلى عند الضرورة بواسطة سلاسل حديدية» . راجع :
Manrique, Travels, vol. 2, p. 377.

(1) تتابع النقل من القسم الأول من المفاكهة (2 : 124) ، وهي الصحيفة الأخيرة من مخطوط ابن طولون ، الذي ينتهي بخرم في 18 ذي القعدة سنة 926 هـ . وسبب نقلنا لهذا النص أمران : أولهما كمقدمة لفهم ملابسات ثورة الغزالي التي استهلّ بها ابن طولون بالأصل القسم الثاني من كتابه بعام 927 هـ ، وثانيهما لكي نصل ما انقطع من نصه بما عثرنا عليه من أوراق ضائعة تكمل هذا النقص .

(2) أي يقصد شباب ميدان الحصى ، أو «الميادنة» بالدمشقية الدارجة .

(3) يتضح من نص سابق لابن طولون في المفاكهة (القسم الأول المطبوع) أن السبقيات نوع من الأسلحة النارية كالمدافع (المكاحل) الخفيفة ، فهو يذكر (1 : 201) : «وعلّمهم الرمي بالبندقيات والكفيات والسبقيات بالبارود» . وكذلك يذكر (2 : 45) : «ورموا عليه بالمكاحل والسبقيات والكفيات والبندقيات» .

(4) ذكر الحمصي في كتابه «حوادث الزمان» (3 : 22) المعاصر للمفاكهة أشياء مغايرة : ثم يوم الأحد عاشره بلغه أن القلعة التي بدمشق قُفلت وحصّنت ، وأصبح يوم الاثنين حادي عشره زحف عليها بعسكره وبالعوام ، ففتحها وملكها . فنهب أغلبهم ، وأمر عسكره والعامّة بنهب ما فيها . وأخرجت منها الأروام ، وكانوا نحو المائتين ، وقبض على نقيبها ونائبها ونفاهما إلى القدس . وولّى بها نائباً الأمير خُشْقدم الخازندار ، وجهز نائباً ومعه عسكراً إلى مدينة حماة . ويتابع ابن الحمصي : ثم يوم الجمعة خامس عشره رسم لخطباء الجوامع بالدعاء على المنابر ، ففعلوا ذلك ، وبالله المستعان .
ويلاحظ بوجه العموم وجود اختلافات بين نصي الحمصي وابن طولون ، غير أن الأولى مع الأسف يتوقف عند حوادث سنة 930 هـ ، عدا عن أن كتابه أدعى إلى الإيجاز .

فلم تستفق الأروام إلاّ وهم على رؤوسهم ، فسلّموها ، وكانوا نحـو المائة والخمسين مع ما فيهم من الفقهاء والصوفية ، وقُتل منهم اثنان وامرأة ، قيل قتلهـا زوجها ذبحاً خوفاً مـن الفسـق بهـا ، ومُسـك أربعـة وستون منهـم نـائب القلعـة ، وأُطلق الباقون .

ونهب بيوت الجميع ودكاكينهم ، وما عندهـم مـن ودائـع الحجّـاج ، وأخـذ النائب جواري نائب القلعة [1] ، وقُتل مـن أهـل الحـارات ثلاثـة ، قيـل منهـم شيخ القبيبات ، وجُرح خلق كثير . ثم دخل النائب القلعة وأظهـر لبـس الجراكسـة مـن التخفيفات والكلوتات ، وأبطل لبس الأروام من العمائم والقفطانات .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، ولّى النائب أحد جماعته (قانصوه)[2] المقرقع مدينة حماة (وكانت بيده) [2] ، وذهب إليها في هذا اليوم .

وفيه أمر بإبطال التكيّة التي أنشأها سلطان الروم سليم خان ابن عثمـان عنـد ابن العربي ، فبطلت وقُفلت أبوابهـا وخُتـم عليهـا وعلـى حواصلهـا . ثـم أرسـل أخذ ما فيها مـن القمـح ، وهـو مائة وستون غرارة ، ومـن السـمن ، والعسـل ، والزيت ، والطحين ، والحطب ، والحلل ، والزبـادي ، والمغـارف ، (والطاسـات وبقية آلـة النحـاس)[3] ، وغيـر ذلـك . ثـم أرسـل وصـّى[4] علـى وقفهـا وأوقـاف الجـامع الـذي ذُكـر ، وأبطـل العلايف ولـم يُبـق الدّرهـم الفـرد . فقفـل الجامـع المذكور ، وأبطل فيه (الصلوات الخمس والأذان) والجمعة والجماعة والقراءة .

---

(1) أضاف ابن طولون هنا حول الخبر المذكور في كتابه إعلام الورى : «ثـم جهـّز نـائب القلعـة المذكورة ومعه سنان إلـى القـدس منفيـين» . غـير أن هـذا الخـبر سـيتكرر لاحقـاً في نـص المفاكهة .

(2) زيادات من حدائق الياسمين ، 91 ؛ والحمصي ، 23 .

(3) ما يرد بين قوسين إضافة مما نقله ابـن كنّـان في كتابه المـروج السندسـية الفيحيـة في تلخيـص تاريخ الصالحية ، مخطوطة برلين ، ورقة 14 و ؛ والمطبوع ، ص 99 .

(4) حتى هنا ينتهي نص مخطوط الأصل للقسـم الأول من المفاكهة بخط ابن طولون ، وتابعنـا نقل التتمة من حدائق الياسمين لابن كنّان ، مخطوطا برلين وچستر بيتي .

قال ابن طولون [1] :

واستمرّيت أسدّ وظيفتي بالإمامة في الإيوان ليلاً فقط في الثلاثة أوقات من غير أذان [2] ، وباب الحرم مقفول ولا يُصلّى فيه بالنهار إلا خفية .

ثم نفى سنان باشا المعزول بعد نهب موجوده ، وكاد يعود بالنهب لروحه ، وعيّن له كفايته مَدّة النفي . ولم يقدر في جمعة جلوسه أن يتعرّض أحد للسلطات سليم ولا سليمان ، وغالبهم دعا له . وبعضهم أُطلق فلم يصرّح بشيء ، وممّن لم يصرّح بذكره ولا لغيره الشيخ بركات ابن الكمال مع كثرة تردّده إليه ، كان يقرأ له السيرة النبوية للشيخ البكري .

ثم أمر الغزالي بإطلاق المحابيس ، وبقراءة سورة الأنعام ، وكان القاضي بدمشق الشرفي بن مفلح ، فإنه ولاّه القضاء العام موضع ابن الفرفور ، ودفع له على ذلك مالاً على أن يحضر بالدعاء كل يوم بالقصر .

ثم جاء [3] الخبر بأن المقرقع وهو ذاهب إلى حماة قتل الصُّوباشي بمدينة حمص ، وجهّز قاضيها الرّومي إلى النائب ، وولاّها للمقدّم ابن الحرفوش .

ثم وصل الخبر بوصول المقرقع إلى حماة وأنه ملكها من الأروام ، فزفّت البشائر ، وأن نائبها هرب إلى الشهباء ، وأن قُتل من جماعة نائبها نحو الخمسين .

ثم ولّى نيابة طرابلس لدواداره الثاني قائم الدوادار ، فسافر إليها ، بأنه هرب منها واليها من بني عثمان لمّا علم بتوجه قائم إليها ، إلى حلب .

---

(1) المتابعة هنا من «حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين» ، لابن كنّان ، من مخطوطي برلين وچستر بيتي ، أما المطبوع (ص 232) ففيه أغلاط جمّة .
(2) حول كون ابن طولون أول من تولى إمامة جامع الشيخ محيي الدين ، انظر كتابه الفُلْك المشحون في أحوال محمد ابن طولون ، 23 ؛ والقسم الأول من المفاكهة ، 2: 80 .
(3) الخبر من إعلام الورى لابن طولون ، ص 231 .

وكان دخول نائب حماة الهارب إلى حلب نهار الأحد ثالث عشر ذي القعدة منها ، ودخول نائب طرابلس إلى حلب نهار الإثنين ثاني عشر ذي الحجّة منها [1] .

ثم ولّى بيروت لمَامَيْه الأشقر ، فسلّم واليها إليه البلد ، وولي فيه .

ثم ولّى لعماد الدين [ابن] الأكرم [2] قلعة دمشق عوضاً عن مقدّمها المولّى من بني عثمان .

ثم شرع في عمل المدافع وآلات الحرب ، وجيّش الجيوش ، وجرّب «المكحلة البرقوقيّة» [3] ، حيث تعبوا في إخراجها إلى مقابل التَغري وَرْمِشية [4] ،

---

(1) الخبر من إعلام الورى ، ص 232 .
(2) اطلب ترجمته في الكواكب السائرة ، 1 : 161 .
(3) المكحلة نوع من المدافع الثقيلة ، استعملها المماليك على عكس ما هو شائع من عدم معرفتهم بالأسلحة النارية ، إلا أن تمرّسهم بهذا الفن لم يصل إلى ما كان عليه العثمانيون آنذاك . غير أن للمماليك شهرة الفائقة بالفنون الحربية الأخرى من فروسية ومصارعة ومجالدة بالسيف ومطاعنة بالرماح ، مما فاقوا به جميع أبناء عصرهم دون منازع . أما المكحلة البرقوقية فواضحة نسبتها إلى السلطان المملوكي الظاهر برقوق . وتقدم في النص ذكر السبقية ، وهي كما يبدو نوع من المدافع الخفيفة أصغر من المكاحل .
(4) هي المدرسة التغري ورمشية من مدارس دمشق العائدة للعهد المملوكي ، هُدمت . أنشأها حسين بن أحمد المعروف بتغري ورمش (والاسم بالتركية Tanrı-vermiş يعني : الله أعطى ، بصيغة الماضي غير المحقق) ، الذي كان دواداراً لجقمق نائب الشام ، والذي توفي سنة 842 هـ . عددها النعيمي من جملة ترب دمشق (الدارس ، 2 : 239) : «التربة التغري ورمشية» ، قبلي جامع يلبغا ، رغم أنه نقل عن الأسدي كونها مدرسة . وكتب الشيخ دهمان (إعلام الورى ، 55) وهو آخر من شاهدها في عصرنا ممن أدركناهم : والظاهر أنها كانت مدرسة وتربة ، فاقتطعت دائرة الأوقاف قسم التربة وبنتها دائرة لها . أما المدرسة فكانت على هيئة القاعات مثل الجقمقية والشاذبكية ، ثم أصابها حريق في سنة 1928 إذ خرجت النار من سينما زهرة دمشق تحت دائرة الأوقاف ، فاحترقت جميع الجهات وجميع سوق السنجقدار وكانت كارثة عظيمة .
قلنا : وعقب الحريق المذكور تم هدم التغري ورمشية بأكملها (وكان سماها بعضهم الدغمشية) ، ولم يبق لها مع الأسف حتى ولو صورة تفي بتبيان خطة عمارتها ، غير أننا لحسن الحظ ظفرنا لها بنُقيشة قديمة نادرة تعود إلى أواسط القرن التاسع عشر (قمنا بإضافتها بآخر هذا الكتاب) مما يحل أخيراً لغزاً حيّر الباحثين حول هذا الأثر البائد .

فقد كان طولها قامة ونصف وعرضها في دور ثلاثة رجال . ولما أُطلقت سقطت قماري التَغري وَرْمشية ، وكانت قماريها من محاسن دمشق ، وانكسرت قناديلها ، وكذلك قناديل [جامع] يلبغا . ووقع منها حجر غربي طاحونة بالمرجة ، وقيل إنها انشعرت .

ثم عُرِضت عليه الجيوش من زُعْر الحارات ، ومن شباب الصالحية ، ومن كل طائفة بالحرش ، إرهاباً للأروام الذين بحلب .

ثم تقدّم من السفر عليه أمراء الأطراف ، ككتائب صفد والقدس بعسكرها إلى حلب ، ومعه محمد بن (. . .)[1] لأخذها ، أن تحصّنت حلب وسُدّت أبوابها ما عدا واحد .

ثم عيّن لكل ماشٍ عشرين أشرفياً ما عدا أكله ، فتضرّر الناس فأخذوا في الدعاء عليه ، فأبطلها فدعوا له .

ثم جهّز[2] نائب صفد ونائب القدس بصنجقين إلى حلب ، وقد كان لهما ثلاثة أيام قد وصلا إلى دمشق . ثم جهّز الغزالي دواداره الكبير أصلان ومعه مشدّه بصنجقين إلى حلب أيضاً ، ومعهما نحو عشرين مكحلة ، أعظمها ثلاث سُحبت من قلعة دمشق على عجلٍ ثلاث ، أعدّها النائب .

ثم بعد أيام[3] زُفّت البشائر بدمشق ، لأنه أرسل تسعة وثلاثين رأساً من الأروام كانوا كُشافاً لنائب حلب ، انتصر عليهم كُشاف الغزالي عند سراقب ، وأن قلعة طرابلس بيد الأروام .

ثم شرع النوّاب بدمشق بعمارة البوابات تحصيناً للأزقة المتصلة بالقلعة ، بإذن نائبها العمادي ابن الأكرم ، عن إشارة النائب قبل توجهه إلى حلب .

---

(1) الكلمة ناقصة بالأصل في مخطوط حدائق الياسمين ، مصدرنا الوحيد في النقل هنا .
(2) الخبر من إعلام الورى ، 232 ؛ ومن مخطوط حدائق الياسمين ، چستر بيتي ، 92 .
(3) التتمة هنا وما يليها من إعلام الورى أيضاً ومن الحدائق .

ذكر ابن طولون [1] :

وفي يوم الجمعة ثامن عشري ذي القعدة ، سنة ست وعشرين وتسعمائة ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ العارف بالله تعالى المُكاشف بأسرار غيب الله أحمد ابن بترس الصَّفدي ، توفي بصفد رحمه الله تعالى .

* * * * *

[ذو الحجة سنة 926 هـ]

وفي أوائل الحجّة [2] ، سنة ست وعشرين وتسعمائة ، توفي الشيخ شهاب الدين أحمد الطّواقي الدمشقي المتصوّف ، مقتولاً ، عن سنّ عالية . انفرد بإتقان علم الموسيقى ، ورحل بسببه إلى الشرق ثم إلى الرّوم ، ثم قطن دمشق وسكن بمحلّة باب السّريجة . وكان يتشكّل في لباسه ، ويلبس على رأسه مئزراً عسلياً ويضع على أكتافه مئزراً أخضر ، وفي رقبته مسبحة وبيده اليمنى سجّادة . وكان ينظم الشعر ، ويعتقد المحيوي ابن العربي ، ويدّعي أنه من ذريّته .

قال ابن طولون : وليس كذلك ، فقد أخبر الثقة ممّن يعرفه ويعرف أهله أن أصله تركماني . وكان يُنسب إلى معاشرة المُرد ، وتوفي له ولد فوَجد عليه وبنى على قبره بيتاً في تربة التُّوتة قبلي القنوات ، ولازمه مدّة ، وكان النّاس يتردّدون إليه ثمّة . ودُفن عند ولده ، رحمهما الله تعالى .

---

(1) الخبر من الكواكب السائرة ، 1 : 133 .
(2) الخبر من الكواكب ، 1 : 153 .

[قال ابن طولون][1] :

وفي يوم السبت سادس ذي الحجة توفي الشيخ شرف الدين موسى ابن القمحيّة الدمشقي الشافعي ، أحد رؤساء المؤذنين بالجامع الأموي ، ودُفن بمقبرة باب الفراديس عن ستين سنة . كان رجلاً صالحاً ديّناً محبّاً للصوفية ، حضر عندي في ختم البخاري مراراً بجوقه . وحصل له في آخر عمره محنة بذهاب ماله ، قيل إنه نحو ألف دينار ، من خلوته بالمدرسة الصادريّة[2] الحنفيّة ، واتّهم في الباطن محمد ابن السجّان الحنفي الساكن بالمدرسة البلخيّة والناظر عليها .

وفي يوم[3] الأربعاء رابع عشر ذي الحجّة منها ، سافر النائب من دمشق إلى أخذ حلب من الأروام ، وخرج مخرجاً حافلاً ، ولكنه أكثر من البكاء وأوصى . وأقام نائب غيبة دواداره الثالث قَصَا بَرْدي[4] ، ونائب القلعة العمادي ابن الأكرم .

وهذا ما كان من نائب الشام جان بَرْدي الغزالي .

وأما ما كان[5] من نائب حلب قَرَا باشا ، فإنه لمّا بلغه موت سلطان الرّوم سليم خان كان نازلاً بعسكره في حَيْلان ، فرجع إلى حلب يوم الجمعة سابع ذي القعدة منها .

ثم في يوم الجمعة رابع عشره صلّوا صلاة الغائبة على السّلطان سليم ،

---

(1) الخبر من الروض العاطر للأيوبي ، 281 ظ ؛ والكواكب ، 1 : 310 ، رغم أن الغزي لم يُشر فيه صراحة بالنقل من المفاكهة . وفي المطبوع من الغزي ورد الاسم : ابن العجمية ، والصواب ما ذكره الأيوبي ، وكذا عند الحمصي ، 3 : 23 .

(2) الصادرية أقدم مدرسة بنيت بدمشق ، عام 491 هـ ، غربي الجامع الأموي ، أدركنا أطلالها الخربة وصوّرناها ، ثم تم هدم ما تبقى منها في عام 1983 .

(3) الخبر وما يليه أدناه من إعلام الورى ، 232 .

(4) الاسم تركي أيضاً على ما هو مألوف في أسماء المماليك ، Kaza-verdi ، وهو يعني في التركية : القَدَر أعطى ، أو عطاء القدر .

(5) النقل من إعلام الورى ، 232 .

وخطبوا باسم ولده السّلطان سليمان .

ثم شرع في تحصين قلعة حلب ، ثم في تحصين حلب . وكل من كان خارج أبوابها دخل إلى المدينة . وسدّ باب قنّسرين وباب المقام ، وباب النعمة وبقيّة أبوابها بالحجر والكلس . واستخدم خلقاً ، كل إنسان بثلثمائة درهم ، وأنفق عليهم من مال السّلطان شهرين . وأعطى الإنكشاريّة[1] كل واحد ألفين ، والأصبهانية[2] كل واحد زيادة على الجامكيّة .

وفي يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجّة منها ، خرج من حلب إلى قرية سرمين وقرية داديخ ونهبهما ، وأخذ البقر والمعز وجميع دوابهما ، وفسق وقتل لقتلهم القضاة والحكّام العثمانية الذين عندهم .

ثم عاد إلى حلب ، فخرج إليه في الطريق أمير سنجق من جهة نائب الشام الغزالي ، فأخذ منه جميع المكسب وقتل منه جماعة وجهّز رؤوسهم إلى دمشق ، ودخل نائب حلب إليها مكسوراً .

وفي يوم الثلاثا ثالث عشري ذي الحجّة منها ، وصل أول عسكر الغزالي إلى الأنصاري ، وخرج إليه عسكر حلب ، فوقع السّلس في القتال ، وترجّح جانب عسكر الغزالي .

ثم في يوم رابع عشريه زحفوا إلى الميدان .

وفي يوم خامس عشريه داروا على أبواب المدينة .

---

(1) الكمة تركية yeniçeri ، وتعني العسكر الجديد ، وكانوا بمثابة الوحدات الخاصة الفائقة التدريب والقدرات القتالية ، أوجدهم السلطان أورخان واعتمد عليهم سلاطين بني عثمان في مبتدأ دولتهم كقوة ضاربة متميزة ، وكانت توفد منهم حاميات خاصة لكافة الولايات كنوع من الاحتراز الوقائي لدرء أية طموحات استقلالية لدى ولاة الأطراف . ولهم تاريخ مطول لا يتسع المقام هنا لشرحه .

(2) الكلمة محرفة عن السباهية ، وهي في التركية sipahi ، فرقة من الفرسان تمنح لهم الدولة إقطاعات من نوع (الزعامت والتيمار) لقاء خدمتهم في جيوشها .

ثم في يوم سابع عشريه وقع الحصار على باب المقام وقُتل بندقاني[1] بنشّاب من عسكر ابن الحَنَش ، وكان أول من قُتل في الحصار من العثمانية .

ثم في يوم التاسع والعشرين ركّبوا على هذا الباب مكحلة ثقيلة وعدّة صغاراً ، ورموا عليه فلم يفد شيئاً ، ووصل بعض حجارتهم إلى عند باب القلعة ، فوُزن فإذا هو أربعة أرطال .

ثم في يوم الثلاثين منه اشتد الحصار ، مع زيادة الأسهم الخطّائية[2] حتى وصلت إلى الخندق ، وكلّما خرب من الصوْر شيء عُمّر ليلاً .

[قال ابن طولون][3] :

وفي يوم الإثنين خامس عشر ذي الحجّة ، سنة ست وعشرين وتسعمائة ، توفي الشيخ الصوّفي حسين بن حسن الجباوي الدمشقي القبيباتي الشافعي ، الشهير بابن سعد الدين .

قال ابن طولون : مشي على طريقة أهله ، ثم أقبل على الدنيا واستأجر عدّة جهات وتقدّم عند الحكّام . واجتمعتُ به مراراً بمنزله بالقبيبات ، فوجدتُ عنده كرماً ومحادثة حسنة .

توفي عن نحو خمس وثلاثين سنة تقريباً ، ودُفن عند والده برؤوس العمائر عند باب الله ، رحمه الله تعالى .

* * * * *

---

(1) أي الجندي المسلّح بالبندقية ، ويسمى في التركية : tüfekçi تفكجي .

(2) السهام الخطّائية هي سهام تثبت في رؤوسها مواد متفجرة محرقة ، وصفها ابن فضل الله العمري في كتابه التعريف بالمصطلح الشريف (ص 208) : «ولا يفرّق الأعداء ويحرقهم إلا رعدها المجلجل وبرقها» . والخطائية جنس من المغول نسبت إليهم هذه السهام .

(3) الخبر من الكواكب ، 1 : 185 .

[حوادث سنة 927 هـ]

قال الشيخ الإمام العلاّمة شمس الدين محمد بن علي بن طولون الحنفي الصالحي [1]:

استهلّت هذه السنة ، يعني سنة سبع وعشرين وتسعمائة ، وسلطان مصر والشام وما مع ذلك ملك الروم أبو النصر سليمان ابن السلطان سليم ابن عثمان ، تولّى المُلك بعد موت أبيه ، فإن السلطان سليم توفي سنة ست وعشرين وتسعمائة ، وتولّى السلطان سليمان في أثنائها .

وكان النائب بدمشق جان بردي الغزالي خرج عن طاعة السلطان سليمان ، وأخذ قلعة دمشق من يد جماعة الأروام ، وكذا مدينة طرابلس وحمص وحماة . وهو الآن في الديار الحلبية لأجل أخذ حلب منهم . ولم يوافقه نائب مصر خ[ا]ير بك على الخروج على السلطان سليمان [2] .

ونائب الغيبة بدمشق الدّوادار الثالث قَضا بَرْدي ودوادار السلطان خُشْقَدم السيبائي ، وهو غائب مع النائب .

---

(1) النقل هنا من مخطوط الروض العاطر للأيوبي ، 108 ظ ، ضمن ترجمة حسن بن عيسى ابن محمد الفلوجي الصالحي ، المتوفى عام 927 هـ .

(2) يذكر المؤرخ المصر ابن إياس الحنفي ، المعاصر لابن طولون ، في كتابه «بدائع الزهور» أخباراً هامة عن ثورة الغزالي في الشام وتسلطنه بها . انظر البدائع حوادث سنة 927 هـ ، 5 : 376-386 . وراجع ترجمته في درّ الحبب للحنبلي ، 1 : 445 .

والقاضي بدمشق يومئذ الشرفي ابن مفلح ، ونائبه من الحنفيّة التاجي ابن القَصيف والشمس ابن البهنسي وأخوه الشمسي ابن مفلح . ومن الشافعية البرهان ابن الأخنائي .

ونقيب الأشراف السيد تاج الدين الصلتي .

ومن المالكية الشمس ابن الخيوَطي ، والشمس ابن جبران ، وهو غائب في الحج [109 و] قاضياً به .

ومن الحنابلة الزين ابن الرجيحي .

والقاضي بالصالحية كمال الدين الغزّي ، وبمحلّة مسجد الأقصاب الكمال البقاعي ، وبمحلّة قناة العَوْني العزّ ابن حمدان الحنفي ، وبمحلّة الشاغور العلائي ابن القَصيف الحنفي ، وبمحلّة باب السريجة الجلال ابن البصروي ، وبمحلّة ميدان الحصا - لكنه لا يجلس إلا بباب الجابية الشرقي - [الشرفي] الزنكلوني المصري .

ونائب القلعة العمادي ابن الأكرم[1] .

قال ابن طولون[2] :

وفي يوم الخميس ثاني المحرّم من السنة المذكورة ، سلّمت على نائب القلعة العمادي ابن الأكرم ، فرأيته قد أزال التقيسة[3] عن جانب باب القلعة الشرقي ، وكانت من جهة الشمال لها شبابيك من نحاس أصفر وأرضيتها من رخام ، وفكّ

---

(1) لأغلب الشخصيات المذكورة أعلاه من كبار موظفي الحكومة ذكر مستفيض في القسم الأول المطبوع من المفاكهة ، ولسنا نجد هنا من حاجة للإطالة في إعادة نقل تراجمهم ، فليُرجع إلى المصدر المذكور .

(2) النقل مستمر هنا من مخطوط الروض العاطر .

(3) عبارة (التقيسة) هذه مبهمة بعض الشيء ، غير أنه يفهم من سياق المعنى أنها كانت بمثابة باشورة ، أي بناء ملحق بالقلعة من خارجها ملاصق لها . انظر ما يذكره ابن طولون عن تقيسة أخرى أدناه في حوادث عام 936 هـ .

الجسر تحتها وكان مركباً على قناطر ، وجعل عوضه جسراً من خشب بنقّالات من حجر يُشال كل ليلة تحصيناً للقلعة [1].

وفي هذا اليوم دقّت بشائر دمشق لمجيء مبشّر بأخذ الغزالي مدينة حلب من يد الأروام ، وأُسيب نفط كثير بالقلعة لأجل تسكين الزُّعْر وتطييب قلوب العامّة .

وفي يوم الثلاثاء سابع الشهر دُقّت أيضاً بشائر لذلك ، ونودي بالزينة ، فلم تفعل العامّة .

وفي يوم الجمعة عاشر الشهر دُقّت أيضاً كذلك ، ونودي بأن السلطان سليمان ابن السلطان سليم بن عثمان توفي ، فلم تصدّق العقلاء بذلك .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشره دُقّت أيضاً لذلك .

وفيه وصل[ـت] كتب إلى دمشق ، منها كتاب صاحبنا الأمير علي ابن شاهين إلى منزله بالصالحية ، وفيه :

« إنا نزلنا مع نائب الشام جَان بَرْدي الغزالي في جامع الفردوس خارج حلب يوم السبت رابع المحرّم - هذا - . ثم حاصرناها يوم الأحد ويوم الإثنين ، وقُتل من أهلها نحو المائتين ، ومن عسكر النائب جماعة ، من أعيانهم جانم السلّحْدار ، وكبير حارة ميدان الحصا أبو بكر ابن المبادل . وخُرِّبت الحارات خارج حلب وأُخذت أخشابها . ثم تركنا القتال» .

وفي يوم الأربعاء ثاني عشريه ، وصلت كتب أكابر الحج إلى دمشق ، وفيها أنهم وقفوا يوم الأربعاء ، وهو اليوم الذي عيّدنا فيه ، فتم لنا قاعدة «يوم صومكم يوم نحركم يوم رأس سنتكم» في الصوم ورأس السنة ولم تتم في النحر ، فعُلم أنها غير مُطّردة . وأن القماش البياض قليل ، وأن الحمل الطحين

---

(1) وهذا الجسر الخشبي هو الذي رآه الرحالة البرتغالي سياشتياو مانريك الذي زار دمشق بين عامي 1629-1643 م وذكر أن للقلعة مدخلاً واحد فقط في جهتها الشرقية ، يُعبر إليه على جسر يمكن رفعه إلى الأعلى عند الضرورة بواسطة سلاسل حديدية .

بخمسين ديناراً . وأن عمّي[1] وصهره العلائي ابن طالو ، وصاحبنا شيخ الحنابلة الشهاب الشويكاني ، وجارنا القاضي أمين الدين بن عُبادة ، وأعيان التجار جاوروا بمكة .

وأنه وصلهم موت السلطان سليم بالروم ، وأنه [109 ظ] تَسَلْطَن الغزالي بدمشق ، في منزلة أبي عُروة وهم راجعون ، وجاور غالب الحاج بمكّة بسببه . وأن المدينة الشريفة ثارت عليها وسط العام عربان سُمر الوجوه ، ولم يرجعوا عنهم إلا بمال صالحوهم عليه ، ولا قوّة إلا بالله .

وأنه وقع بين الحجّاج وأهل العَلا مقتلة ، بسبب أنهم لّما رحلوا عنها تأخر ناسٌ من الحجّاج عندهم لأخذ ودائعهم فعرّوهم ، فرجع إليهم أمير الحاج وقاضيه فتحصّنوا . فأمر القاضي بالحرق والنهب لأهل العَلا ، ففعلوا ذلك عند بابها ، ثم مسكوا قاضي العَلا وحاكمها وجماعة منهم ، ولم يطلقوهم إلا بألفي دينار عوّضوهم عنها بعبيد وجوار[2] .

ووقع سيل[3] عظيم بين الحرمين ، حتى أنه قلع النخل وصيّرها على رؤوس الجبال ، وأغرق ضيعتين بوادي الصفراء ، حتى لم ينجُ إلا رجل وامرأة .

وفي يوم[4] الجمعة رابع عشريه ، دُقّت بشائر دمشق لمجيء قاصد أخبر بأن

---

(1) هو القاضي جمال الدين يوسف بن محمد بن علي ابن طولون ، مفتي دار العدل ، سترد وفاته أدناه في المحرّم سنة 937 هـ . وله ذكر متكرر في القسم الأول من المفاكهة .

(2) يقدم لنا هذا المقطع ، الوارد في الروض العاطر ، الدليل الساطع على أن ابن جمعة المقّار قد نقل واستقى عن مفاكهة الخلان حصرياً كل ما يتعلق بالفترة الممتدة بين عامي 927–951 هـ في كتابه «الباشات والقضاة» ، وذلك يتبين بمقارنة هذا النص مع ما ورد في الباشات ، ص 2 . غير أن المقّار مع ذلك ينفرد أحياناً بذكر أخبار لا نجدها عند سواه ، ويقدم لنا أشياء جديدة وهامة . فنحن ، والحالة تلك ، نطمئن إلى نقل هذه الأخبار مطمئنين إلى مصدرها .

(3) الخبر من الباشات والقضاة لابن جمعة ، ص 2 ، نقلاً عن المفاكهة . ونقل ابن جمعة اقتصر غالباً على الحوادث الهامة دون التراجم ، فلذا يقدم لنا إضافات ذات شأن كبير .

(4) عودة إلى النقل من مخطوط الروض .

جماعة النائب جان بَرْدي الغزالي بطرابلس ملكوا قلعتها من الأروام ، ثم تبيّن إنما ملكوا بابها الخارج فقط .

* * * * *

ثم في يوم[1] الخميس ثاني محرّم ، سنة سبع وعشرين وتسعمائة ، قطع عسكر الغزالي قناة الماء التي تدخل إلى حلب ، فتضرّر أهلها في الجوامع والحماميم وغيرها .

وفي هذا اليوم عمل نائب حلب حيلة لكشف عسكر الغزالي ، فطلع إلى مكان عال في قلعة الشريف ، وأخرج من باب قنّسرين أميراً شجاعاً معه أربعون خيّالاً ساقت على جماعة من مشاة الغزالي ، فقتلوا اثنين وهرب الباقون ، وقاموا ألبسوا ما في عسكرهم ، فزعق نفيرهم وكانوا متفرّقين في الحارات والبيوت ، والغزالي [. . .][2] . فلمّا سمعوا نفيرهم ماجوا وظنّوا أنهم كُبسوا . ثم ركبوا وجاؤا إلى باب قنّسرين ، وكان أعدّ لهم عسكر حلب مدافع وكفّيات وبندقيات ، فرموهم فانقلبوا هاربين .

وفي يوم الثلاثاء سابعه ، سُدّ باب قنّسرين المذكور ، وكان فُتح باب بانقوس[3] وباب النّصر ، فغُلّقا بلا سدّ والباقي مسدود . ثم نادى مناد من جهة الغزالي تحت الأسوار : يا أهل حلب ، لا تتفرّجوا فوق الأسوار وقتَ القتال ، وإذا قُتل منكم أحد خطيئته في رقبته .

---

(1) تضم هذه الفقرات بقية أخبار حلب والغزالي فيها ، نقلاً عن إعلام الورى (ص 233-235) . ومن الواضح أن هذه الأخبار بلغت ابن طولون لاحقاً في وقت متأخر ، فلذا نرى أنه يصح إبقاؤها هنا .

(2) فراغ في أصل مخطوط إعلام الورى بمقدار كلمة .

(3) أي بانقوسا ، من محلات حلب المشتهرة .

ثم رمى بمكاحل إلى المدينة ، فوُزن بعض أحجارها فبلغ أحد عشر رطلاً حلبيّاً ، وبعضها سبعة ونصف ، وبعضها ثلاث أواق . ثم نصب سلّماً على الصُّور ، ورام جماعته الطلوع فيه ، فرموا عليهم من فوق ، فانكسر السلّم وهربوا . فجاؤا بالسّلّم وأروه لنائب حلب .

ثم في يوم تاسوعا[1] ، وقت الظهر ، رحل الغزالي عن حلب بعساكره من غير قتال ، ورجعوا من المكان الذي أتوا منه . وفرح أهل حلب فرحاً عظيماً لما كانوا فيه من الشدّة ، ووصل الرّطل الخبز إلى خمسة ، والرطل اللّحم إلى ستة وعشرين ، والرَطل الحطب إلى درهمين ، والرّز إلى أوقيّة بدرهم ، والسَّمن إلى أوقيّة بثلاثة ، والزّيت إلى أوقية بدرهمين ، وكل بيضة مقليّة بدرهم ، وكل رطل حمّص مسلوق بأربعة ، وكل وقيّة دبس بدرهم .

ثم في اليوم الحادي عشر منه ، ردّوا قناة الماء إلى البلد ، وخرج الناس إلى بيوتهم فوجدوا أبوابها أُخذت وكُسرت وشبابيكها جُهّزت إلى دمشق وطمائرهم نُبشت ، فافتقر خلقٌ كثير .

ثم قدم أولاق ، وأخبر نائبَ حلب بأن الأمير علي بن سوار واصلٌ اليوم ، فخرج إليه ومعه نائب طرابلس ونائب حماة ونائب حمص ونائب أنطاكية ، وجميع العساكر التي بحلب ، ولاقوه . فدخل بثلاثة صناجق ، واحد له وآخر عن يمينه لولده الأكبر ، وآخر عن يساره لولده الأصغر ، ونزل عند سيدي سعد .

وأهدى له قاضي القضاة بحلب هدية عظيمة ، وشاع أن السلطان سليم كان ولاّه حلب وما عزله من الشام ، والظاهر عزله عنها بالشرفي ابن مفلح[2] .

ثم في اليوم الخامس عشريه ، توجّه الأمير علي باك وولداه قبل الشام ، وقد كان يوم برد وثلج وهو خامس عشر مربعينيات الشتاء ، وصحبته نائب حماة

(1) تاسع المحرّم .
(2) المقصود بهذا الكلام قاضي قضاة حلب .

ثم نائب طرابلس .

ثم في يوم سابع عشريه دخل إلى حلب أولاق من نائب مصر خير بك ، وأخبر عنه أنه جهّز من مصر عسكراً للغزالي ، وكان في غزّة حاكم من جهة الغزالي فقتلوه ، وهم منتظرون عسكر الرّوم حتى يلاقوه . وقد كان الغزالي أرسل إليه ليطاوعه فأبى ، فهذا سبب رحيل الغزالي عن حلب مع وصول العساكر من السّوارية إليه ، ثم العساكر العثمانية .

ثم إن الأمير علي باك ومن معه وصلوا إلى سراقب ، وأقاموا بها ثلاثة أيام ، فأُخبروا أن الغزالي بحماة ، فرجع الأمير علي باك إلى بلاد سرمين ، ونائب طرابلس إلى حلب ، إلى أن يصل باش العساكر فرهاد باشا [1] .

* * * * *

[صفر سنة 927 هـ]

وفي يوم[2] الجمعة مستهل صفر من السنة دخل الحاج ، ودخل محمله إلى القلعة الدمشقية على عادة الجراكسة .

وفي ليلة الخميس سابع الشهر ، عاد نائب طرابلس منها إلى دمشق ، وكان من قِبَل نائب دمشق الغزالي ، وتحقق عدم أخذ قلعتها ، فاراً من الأروام .

وفي يوم الجمعة ثامنه ، عاد النائب الغزالي بنفسه من حلب إلى دمشق أيضاً

---

(1) في غالب الأحيان صحّف الأيوبي اسم فرهاد إلى فرحات باشا ، وهو غلط ، والصواب كما أثبتناه وكما يرد في المصادر العثمانية المعتبرة ، كالسالنامه مثلاً .

(2) عودة إلى النقل من مخطوط الروض ، 109 ظ .

فاراً منهم ، والله يُحسن العاقبة .

وفي يوم الإثنين حادي عشره ، أعاد النائب الجامع السلطاني عند ابن عربي ، وأُلزِمْتُ بالإمامة فيه على العادة ، وأعاد القرّاء الثلاثين به بمعاليم فيها نظر ، ولم يُعد التكيّة وأبقاها مقفلة .

قيل[1] : وكان يُطبخ بها بُكرة وعشيّة ، وخبزها كل رغيف وقيّة .

وفي يوم الأربعاء ثالث عشره ، خرج من دمشق الحج الرومي والحلبي والحموي وغير ذلك متوجهين إلى بلادهم ، فبعث النائب خلفهم وردّهم غصباً بعد أن خرج جماعات ، خوفاً عليهم فيما يظهر ، حتى جرح منهم ناساً وقتل منهم ناساً[2] .

وفي يوم الخميس رابع عشره ، نادى بالعراضة لشبّان الحارات بدمشق بالعُدَد الكاملة ، وأرسل خلف المقدّمين في البر[3] .

وفي يوم السبت سادس عشره ، عُرِضت عليه الشباب بالمرجة وقال لهم : «لا تقاتلوا الأروام من أجلي ، وإنما قاتلوهم خوفاً على حريمكم» .

وفي هذا اليوم شرع في هدم ما حوالي القلعة ، فهدم الحائط من دار السعادة إلى باب القلعة القبلي . (ثم شرع في تحصين قلعة دمشق بسدّ حيطان وفك أخرى)[4] .

---

(1) الخبر من المروج السندسية ، مخطوطة برلين ، ورقة 14 و ؛ والمطبوع ، ص 99 .

(2) العبارة مشوشة بعض الشيء ، والنقل من الأيوبي ومخطوط الحدائق ، 93 .

(3) هنا تتمازج النصوص بين مخطوطي الروض العاطر وحدائق الياسمين ، ثم يضاف إليهما إعلام الورى ، ليشكل ذلك مثالاً حياً للمقارنة بين طريقة كل من ابن طولون والأيوبي وابن كنّان في النقل من المفاكهة ، هذا مع العلم أن ابن طولون هو نفسه مؤلف المفاكهة ، إلا أن تواتر نصوصه بينهما وبين إعلام الورى يفيدنا أيما إفادة في الاستهداء إلى انتقاء النصوص الضائعة من المفاكهة .

(4) إضافة من إعلام الورى ، 235 . والغاية مما فعل حماية القلعة من ارتقاء الأعداء إليها .

وفي هذه الأيام فك حمّام بين النهرين[1] ، وكان أحد متنزهات دمشق ، وحمّام ابن العَيْني بصالحيتها ، وأدثر حمّام القاضي رضي الدين الغزّي شمالي التربة الكاملية لصق الجامع الأموي للرجال الأجانب ، وكان قبل ذلك مخصوصاً ببيته ، وهو لطيف أجره كل يوم بعشرة دراهم .

[110 و] وفي يوم الإثنين ثامن عشره ، نادى النائب للعلماء والفقهاء والتجار وأعيان البلد بالحضور إلى الجامع الأموي ليعقدوا له عقد السلطنة فلم يجئ أحد واشتغل بمجيء الأخبار بقرب الأروام من مدينة قارا .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره ، نادى لأهل الحارات بالحضور في الجامع المذكور ، فحضروا وجاء قاضي البلد (الشّرفي ابن مفلح)[2] ودَوادار النائب الغزالي ، فحلّفاهم على القيام معهم على قتال الأروام .

وفيه نادى بإبطال المحرّمات من الخمر والحشيش والوقافات ، وأبطل المُكوس الذي كان أعاده السلطان سليم بن عثمان على البضائع (بالخان ودار البطيخ)[3] .

وفيه عُرض مشاة الغوطة وعُشرانها وزُعرها على النائب بمصطبة السلطان[4] بأرض برزة .

وفيه جهّز النائب طليعة نحو ألفي فارس لملاقاة العسكر الرومي .

وفي يوم الأربعاء العشرين من الشهر ، أصبح سوق جسر الزلابية وسوق جسر الحديد وسوق النحّاسين وسوق القشاشـ[ـين] محروقين تحت القلعة ، وذهب للناس أموال عظيمة ، فإن حرقهم كان على غفلة ، والظاهر أنه كان من القلعة

---

(1) بين النهرين متنزه مشهور في أيام المماليك بين مسجدي يلبغا وتنكز ، سمي بذلك لتفرّع نهر بردى إلى فرعين وبينهما ما يشبه الجزيرة . موقعه اليوم ينطبق على ساحة المرجة .

(2) إضافة من إعلام الورى ، 236 .

(3) أيضاً هنا يعود النقل من كل من مخطوطي الروض ، 110 و ؛ والحدائق ، 93 . وما بين قوسين زيادة من الحدائق .

(4) تقدم ذكرها في حوادث عام 924 هـ .

بأمر النائب ، وقيل من دكان أبي الصوف ، ولا قوّة إلا بالله .

وفي يوم الجمعة ثاني عشريه ، خُطب بالجامع الأموي للنائب جا[ن] بَرْدي الغزالي وهو حاضر بمقصورته يصلّي الجمعة هناك ، بأنه سلطان الحرمين الشريفين ، ولُقّب بالأشرف من غير بيعة . وخرج من [الـ]ـجامع الأموي في موكب حافل ، ورُعاع الناس يضجّون بالدعاء له وبالنصر .

وفي يوم السبت ثالث عشريه ، عُرض على الغزالي أهل مسجد القصب ، وأهل حارة المزابل ، وأهل قرية برزة ، وأهل قرية المزّة ، وأهل قرية كفرسوسيا ، والصالحية ، وكثير من أطراف البلاد[1] .

وفي يوم الأحد رابع عشريه ، عُقد للنائب جا[ن] بَرْدي الغزالي عقد السلطنة وبايعه الناس ، عقده له قاضي الشام الشرفي ابن مفلح بقلعة دمشق . وجعل نائبه بدمشق دَواداره الكبير أصلان ، ونودي له بالسلطنة بعد أن عُلّق السنجق السلطاني على طارمة القلعة .

وفي يوم الإثنين خامس عشريه ، عُرض بالمصطبة السلطانية على السلطان المذكور مقدّم الجيدور ابن القوّاس في عشير كبير ، ولم يجئ أحد من المقدّمين المعتبرين غيره .

وفي يوم الثلاثاء سادس عشريه ، خرج السلطان الغزالي إلى ملاقاة العسكر الرومي الواصل إلى المصطبة المذكورة (عند القابون الفوقاني)[2] ، وتحقق كذب قولهم إن السلطان سليمان ابن عثمان توفّي .

فلمّا كان وقت الظهر تلاقى أوائل العسكرين الشامي والرومي عند قرية الدُّوَيْر[3] ، ثم تواصل العسكر الرومي ، (وشاليشه محمد ابن قَرَاقاش)[2] ،

---

(1) في النص زيادات من مخطوط حدائق الياسمين ، 94 .

(2) ما بين قوسين إضافة من إعلام الورى ، 236 .

(3) قرية معروفة إلى الشمال الشرقي من دمشق ودوما ، دثرت وتحولت إلى مزرعة .

فركب السلطان من المصطبة ببقية عسكره ، وتلقّاه بأرض النّمور[1] شرقي قرية برزة من ضواحي دمشق واتّقعا[2] .

قال ابن طولون :

فما كان إلا لحظة وانكسر عسكر السلطان جان بَرْدي الغزالي وقُطع رأسه . ثم تلاحق العسكر الرّومي ببقية العسكر الهاربين إلى الصالحية وضواحي دمشق ، وارتجف الناس رجفة عظيمة ، وقُتل من شباب الصالحية نحو الخمسين ، ومن كل حارة من ضواحي دمشق نحو المائة ، وكذا من القرى .

وقيل إن عدّة القتلى سبعة آلاف وسبعة وسبعون ، والظاهر أنها نحو الثلاثة آلاف وستين ، ومنهم دَوادار الغزالي الأكبر أصلان ، ودَواداره الثاني قَضا بَرْدي ، وخزنداره جانم ، ونقيب الجيش الأمير أبو بكر ابن طالو ، وناظر الجوالي المحبّ ابن الخيضري ، وفقيه الأمراء صاحبنا علي ابن شاهين .

---

(1) وردت في إعلام الورى : أرض النور ، ولا ندري ممن التصحيف من مخطوط الأيوبي أم من ناسخ إعلام الورى . وهذه التسمية على كل حال لم تمر بنا رغم أبحاثنا المستفيضة والطويلة في ريف دمشق وطوبوغرافيته التاريخية بموسوعتنا «الريف العربي السوري» .

(2) كتب الأيوبي هنا في روضه العاطر النص التالي : قلتُ : [110 ظ] ولقد حكى لي شيخنا الشيخ أحمد بن عبد القادر ابن التينة ، رحمه الله ، قال : «كنتُ مع أهل محلّة باب توما ، وحضرتُ هذه الواقعة من أوّلها إلى آخرها ، وكنت أنا ورفاقي ممن توارى تحت جسر نهر تورا الذي فوق محلّة السّامرة ، واستمرّينا فيه يوم[ـاً] وليلة حتى اتضح الأمر ونجونا» .

ويتابع الأيوبي : وفي زماننا هذا - أعني سنة ثمان وتسعين وتسعمائة - خلقٌ كثيرون ممن شاهد ذلك عِياناً وقاسى فيه الأهوال والأمور الجسام ، ويقصّون علينا قصّة الغوري والغزالي بحكايات مختلفة . ورأيتُ رجل[ـاً] يسمّى الشيخ بركات المصري ، وكنيته أبو الريش ، اجتمعتُ به بزاوية الشيخ أحمد بن سليمان في سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، وكان من أهل الولاية والكشف ، وكان قد طعن في السن ، أخبرني أنه أدرك السلطان قايتباي ويعرفه معرفة تامة ، رحمه الله تعالى .

قلنا : ومحلّة السامرة التي يذكرها الأيوبي أعلاه هي نفسها محلة السّمرة الوارد ذكرها في أخبار أواخر عام 926 هـ .

وفي ليلة الأربعاء سابع عشريه ، غطّ العسكر ، خصوصاً القرمانية والرُملية[1] ، على الصالحية وجميع الحارات خارج دمشق وجميع القرى التي مسيرةَ يوم وليلة ، فكسروا أبواب بيوتها وحواصلها ودكاكينها وغير ذلك ، (وذهبت أموال الناس وأسبابهم)[2] . ولم يسلم منهم إلا من أعماه الله عنهم ، وعرّوا النساء فضلاً عن الرجال ، ولم يحترموا صوفياً ولا فقيهاً ولا كبيراً ولا صغيراً .

وكانت النساء قد اجتمعت بجامع الحنابلة ومدرسة أبي عمر والصّوابيّة ونحو ذلك ، فهجموا عليهم وعرّوهم حتى جامع السلطان سليم ابن عثمان ، وأخذوا بعض نساء وجوارٍ وعبيد وبعض صبيان .

وفي يوم الأربعاء المذكور ركب النائب فرهاد[3] باشا رأس العساكر إلى دمشق ومعه قاضي القضاة الولوي ابن الفرفور ، الذي كان هرب من الغزالي إلى حلب ، فولي قضاها ، [111 و] فصعدا إلى قلعتها وتسلّماها من نائبها العمادي ابن الأكرم ، وأخذاه معهما من غير ترسيم عليه .

ثم صعدوا [إلى] الصالحية ، وزاروا قبر الشيخ محيي الدين بن عربي ، ورأى الباشا والقاضي ما حلّ بها ، فوضعا فيها صُوباشياً[4] كفّ العسكر بعض

---

(1) القرمانية نسبة إلى قرمان Karaman مدينة في وسط تركستان ، والرُملية نسبة إلى الروم ايلي Rumeli ، أي القسم الأوروبي من السلطنة العثمانية ، تقابله الأناضول القسم الآسيوي . قاموس الأعلام لشمس الدين سامي (بالتركية) .

(2) إضافة من حدائق الياسمين ، مخطوط 94 .

(3) يسميه الأيوبي فرحات ، والتصويب من ابن جمعة .

(4) الصوباشي كمة تركية subaşı ، وتعني الكلمة بالأصل في بلاد الشام بأوائل العهد العثماني قائد فرقة من فرسان السباهية ، غير أنها بالمعنى الأوسع كانت تعنى كبير موظفي الأمن في اللواء أي بمثابة مدير الشرطة . وكثيراً ما يرد هذا المصطلح في كل مراجع تاريخ الشام في العهد العثماني ، غير أنه قد يرد محرفاً بصيغة (شوباصي) ، كما أطلقت التسمية على العناصر التي تعمل تحت إمرة الصوباشي فقيل لهم (الشوابص) .
راجع : Bowen & Gibb, op. cit., vol. I, part II, p. 129.

كفٌ عن الصالحية ، وكذا فَعَلا في كل حارة وقرية . ثم عادا إلى الوطاق[1] عند المصطبة السلطانية ، وجهّزا للقلعة صُوباشياً ومعه جماعة يمسكوها .

وعُدَّت هذه الكائنة على دمشق مثل كائنة اللَّنْك ، بل كيوم القيامة ، لقوله تعالى : ﴿يوم تذهل كلّ مُرضعة عمّا أرضعتْ وترى الناس سُكارى وما هُم بسُكارى﴾ .

إلا أنه حكى الشيخ أبو الفضل المقدسي أن بمحلّته بالقبيبات ذهبت امرأة وتركت ولدها في السرير ، ولم تفتقده إلى أن وصلت إلى داريّا ، فأرسلت والده إليه فوجده يبكي في السرير . ووضعتْ بعض الحوامل ، وبقيت العُقلاء سُكارى وما هم بسُكارى ، ولكن ما دهاهم شديد . وصارت دمشق كما قيل :

دمشــقُ كــانت لســاكنيها	كجنّــة الخُلــد في النّضــارة
فــأصبحتْ كــالجحيمِ نــاراً	وَقُودُهــا النــاسُ والحجــارة

ويُقال إن عدّة عسكر الأروام هذا ثلاثون ألفاً ، وأربعة آلاف إنكشاريّة ، ومعهم مائة وثمانون عربة ، وهي أكثر من العربات التي كانت مع السلطان سليم لّما ملك هذه البلاد .

وفي يوم الخميس ثامن عشريه ، جهّز الباشا رأس الغزالي ومعه ألف أذن من المقتولين إلى السلطان سليمان بن سليم بن عثمان باصطنبول ، وكان تقدّمهم قاصد البشارة بالنصر .

* * * * *

---

(1) الكلمة تركية : otak ، وتعني القباء أو الخيمة .

[ربيع الأول سنة 927 هـ]

وفي يوم السبت مستهلّ ربيع الأول من السنة ، سافر نائب بلاد قَرَمان خُسْرو باشا ، ونائب أدنة وما أضيف إليها (قَرا باشا)[1] ابن رمضان ، راجعين إلى بلادهم .

وفي هذا اليوم نزل الباشا إلى دمشق وسكن بدار السعادة ، وكذلك نزل علايبك الأصبهانية[2] إياس باشا وسكن في بيت يونس ابن الحاجب شرقي المدرسة الشامية البرّانيّة بشمال ، وكذلك نزل آغاة الإنكشارية بهرام وسكن في بيت تنم قبالة باب مدرسة الريحانية . وشرع العسكر ينزل في البيوت ، فتضرّر الناس لذلك ، وليس في الأروام أفحش من ذلك .

وفي هذا اليوم عُيّن لدمشق قاضٍ رومي شاب يدعى مصطفى بن علي الرومي الحنفي ، وعنده شاهدان : التقي ابن الشويكي والشمس[3] ابن مسلم ، ثم أضيف إليهما أبو الفضل ابن الرَّمْلي .

وأُعيد اليَسَق بضعفي ما كان ، فإنه كان خمسة وعشرين فجُعل خمسين درهماً على كل ورقة ، وهكذا [111 ظ] ضوعف يَسَق تزويج البكر والثيّب .

وفيه عُيّن لدمشق محتسب رومي شاب ، وجلس شمالي السقطيّة تحت القلعة ، وهذا الموضع كان يجلس فيه محتسب دمشق أيام السلطان سليم ، وأدار الموازين .

---

(1) إضافة من مخطوط حدائق الياسمين ، 95 . وسيرد أدناه اسم قرا باشا مفرداً في حوادث 4 ربيع الأول .

(2) عبارة (علايبك) هذه مصحّفة عن التركية آلاي بلك Alay bey أي قائد فرقة عسكرية ، وأما الأصبهانية فسبق ذكرها ، وصوابها السباهية . أما في حدائق الياسمين (ص 95) فوردت العبارة : إياس باشا كيهة السباهية .

(3) ذكر ابن جمعة المقار في مطلع سنة 927 : كان القاضي بدمشق بستان أفندي .

وفي يوم الأحد ثانيه ، سافر الأمير علي باك ابن سُوَار راجعاً إلى مدينة مَرْعَش ، والدّعاء عليه كثير بسبب كثرة النهب من جماعته .

وفي يوم الثلاثاء رابع الشهر ، سافر ألف من الإنكشارية إلى مدينة آمد ، لحفظ تلك البلاد من عدوّ ابن عثمان قزل باش المعروف بإسماعيل الصوفي .

وفي هذا اليوم قُبض على القاضي الكبير الشرفي ابن مفلح ، وأودع في سجن باب البريد لما عليه من مال القضاء ، وكان أخذه الغزالي منه فاستعيد عليه به مع ما قيل إنه هو الذي عقد بيعة السلطنة للغزالي ، وأُخذت خيول نوّابه ، ومُسك نائبه ابن جبران المالكي ، وكان من جماعة الغزالي واعتُقل ، ثم أُطلقا بضمان بعد سبعة أيام .

وأما الحجّاج ذهبوا مع قَرا باشا ، وكان الغزالي منعهم وأخذ منهم أموالاً وقماشاً وجمالاً[1] .

ثم إن القاضي الشرعي رُفع للقلعة بعد وزن المال ثم أُطلق[1] .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، أُطلق القاضي الشرفي ابن مفلح بعد أن سُجن بالقلعة مرّة ثانية مع مساعدة غريمه الولوي ابن الفُرفور عليه .

وفي يوم السبت تاسع عشرينه ، ضيّف القاضي الولوي ابن الفُرفور[2] في بيته قبلي المدرسة المسمارية داخل دمشق ضيافة عظيمة للباشا ، على طريقة الأروام من سقي السكّر فيها قبل الأكل ، ولم يؤخّره إلى فراغه كعادة هذه البلاد . وجمع منشدي دمشق كمحمد ابن الجُعَيْدي ، فأنشدوا قدّامه . وحضر قاضي العسكر الكمال وقاضي البلد مصطفى [الرّومي] .

* * * * *

---

(1) إضافات من حدائق الياسمين (95) .

(2) سنرى كيف أن ابن الفرفور سيكون بدمشق أكبر متقرّب من الحكام العثمانيين الجدد .

[ربيع الآخر سنة 927 هـ]

وفي يوم السبت سابع ربيع الآخر من السنة ، توفي فجأة أقضى القضاة وناظر الأيتام المحبّ محمد ابن الشيخ المُعتَقَد إبراهيم الدَّسوقي الشافعي ، ودُفن بباب الصغير عند والده .

وفي هذا اليوم فُتح باب الفرج وباب السلامة وبقيّة أبواب دمشق المغلوقة من وقعة الغزالي ، خلا ثلاثة أبواب ، وهي : باب دار السعادة ، وباب الفراديس ، وباب الصغير ، فإنها كانت مفتوحة دائماً . واستبشر الناس بالفرج من الشدّة التي هم فيها من نزول العسكر عليهم والسلامة من شرّهم .

وفي يوم الثلاثاء عاشر الشهر ، عيّن الباشا عوض ابن الحرفوش الأمير محمد بن محمد بن بَيْدمر[1] ، ومعه عسكر ، لنيابة بعلبك .

وفي يوم الخميس ثاني عشره ، دخل إلى دمشق من جهة بعلبك الدّفتردار[2] محمد قُلَقْسيس[3] ، الذي كان من مدّة بدمشق وذهب إلى الروم ، وصحبته القاضي [112 و] محبّ الدين الأسلمي ناظر الجيش - كان - وقد أُفرج عنه من قلعة حلب وسُومح بما ترتّب عليه من جهة السلطان قانصوه الغوري . وتلقّاهما قاضي القضاة الولوي ابن الفُرفور إلى الصالحية ، ثم أنزل الدّفتردار في بيته شمالي البادرائية[4] .

---

(1) الاسم بالتركية : Bey-demir يعني : أمير - حديد (أو نصل السيف) .

(2) بالتركية defterdar : ناظر أو محاسب مالية الولاية ، بمثابة وزير ماليتها . وكان يعتبر الشخص الثاني في الهيئة الحاكمة المدنية بالولاية بعد الوالي ، ويتبع له في كل صناجق الولاية محصّلون أي جباة . والكلمة وردت مراراً في نص الأيوبي نقلاً عن ابن طولون بلفظة : الدَّفْتَدار ، ولا ندري إن كان تصحيفها من الأصل أم من النقل . أما سبب التصحيف فهو لا شك كونها من المصطلحات الجديدة غير المألوفة لأسماع الدمشقيين غداة الفتح العثماني للشام . غير أننا أثبتناها في النص بالصيغة الصحيحة .

(3) الاسم بالتركية : Kulaksız يعني : بلا أذن ، مصلوم الأذن أو فاقدها ولادياً .

(4) تقدم ذكره في وقائع السبت 29 ربيع الأول ، وراجع حوله حوادث أواخر سنة 935 هـ .

وفي يوم الأحد خامس عشره ، وردت البشارة لإياس باشا بنيابة الشام (من الخنكار)[1] ، وأنه وليها من ثلاثين يوماً عوضاً عن جان بَرْدي الغزالي المقتول . لكنه لم يُعطَ سوى دمشق ومُعاملتها ، (وأُخرج عنه صفد وغزّة والقدس) . وولّى السلطان لصفد نائباً ، وكذا لغزّة والقدس وبعلبك وصيدا على عادة الجراكسة (في تنويب هذه البلدان) ، لكن مرجع هؤلاء إلى نائب دمشق إياس باشا ، بحيث إذا طلبهم يحضرون إليه ويساعدوه[2] . ودُقّت بشائر الشام لذلك .

وشرع العسكر في تجهيز العَوْد إلى بلادهم ، وسُرّ الناس .

وفي يوم الثلاثاء رابع عشريه ، سافر من دمشق إلى مكّة على طريق مصر موقّع الغزالي - كان - أبو الفضل ابن الأخنائي خائفاً من الأروام ، بعد أن أهدى للباشا ما يساوي خمسة آلاف دينار .

وفي يوم الجمعة سابع عشريه ، صُلّي غائبة بالجامع الأموي على قاضي قضاة مكّة وخطيب موقفها الشريف صلاح الدين ابن ظهيرة الشافعي ، توفي بمكّة رحمه الله .

وفي يوم السبت ثامن عشريه ، توفي القاضي تاج الدين ابن القصيف الحنفي فجأة ، ودُفن بمقبرة باب الفراديس سامحه الله تعالى .

وفي هذا اليوم نادى الباشا وقاضي البلد الولوي ابن الفُرفور لأهل الحارات بأن يدفنوا القتلى[3] التي بالمصطبة السلطانية عند القابون الفوقاني وما حولها ،

---

(1) ما بين قوسين إضافات من إعلام الورى ، 237 .
(2) قدّمنا في المقدمة أن هذا الإجراء كان بالدرجة الأولى للحد من طموحات الولاة بعدم وضع مقدرات وعساكر كثيرة بيدهم فتحدثهم نفوسهم بالثورة والعصيان ، فيبقى للمركزية دورها الكبير في ضبط شؤون الولايات البعيدة . وكانت ولاية دمشق إلى فترة قريبة تشمل نيابة دمشق وما معها من بلاد وقرى إلى عريش مصر (إعلام الورى ، 228) كما فوّض السلطان سليم للغزالي في 5 صفر 925 هـ .
(3) يعني قتلى وقعة الغزالي والعثمانيين التي جرت في 26 صفر الفائت .

وقد كان الباشا منعهم من دفنهم وقال : «هؤلاء بُغاة ، ومذهب الحنفيّة [أ]لاّ يُدفنوا» .

* * * * *

[جمادى الأولى سنة 927 هـ]

وفي يوم الأربعاء ثالث جُمادى الأولى من السنة ، فوّض قاضي البلد للقاضي رضي الدين ابن الغزّي[1] الشافعي القضاء في المحكمة ، وقد كانت في أيام السلطان سليم المدرسة الجوزية تجاه الفارسية .

وفي هذا اليوم سافر حريم الغزالي وجماعة الجراكسة في محاير إلى اصطنبول ، باكين على ما أصابهم .

وفي ضحوة[2] نهار الأربعاء ثالث جُمادى الأولى ، سنة سبع وعشرين وتسعمائة ، توفي [شيخنا الشيخ العلاّمة أبو المفاخر محيي الدين] عبد القادر بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن عبد العظيم بن خالد بن نُعيم النُّعيمي ، بمنزله عند السُّويقة المحروقة . وصلّى عليه زوج أخته العلاّمة شمس الدين الكفرسوسي الشافعي ، ودُفن بتربة الحمرية عند جامع الشويكة .

---

(1) اسم القاضي في مخطوط الأيوبي مشطوب بالحبر الأسود بشكل ينم عن حقد وكراهية كبيرة له ، ومثل هذا الأمر يتكرر في الأصل مراراً في حوادث 929 و 930 و931 هـ ، وفي هذه السنة الأخيرة يتبين سبب هذا الحقد .

(2) الخبر من الروض العاطر ، 167 و ؛ والكواكب السائرة ، 1 : 250 .

قال ابن طولون : ولم أعلم بموته إلا بعد الدّفن ، وكذا النـاس ، لاشتغال بالهم برحيل الأروام من دمشق .

ميلاده يوم الجمعة ثاني عشر شـوّال ، سنة خمس وأربعين وثمانمائة . حفظ القرآن الكريم ، ثم اشتغل وحصل وبرع وأفتى ودرّس وأقبل على هذا الشأن . وأخذ عن خلق ، منهم الشمس ابن الخوارقي ، وقاضي القضاة علم الدين ابن سالم المالكي ، والبرهان الباعوني ، والنظام ابن مفلح ، والشهاب (. . .)[1].

وألّف تأليفاً حسناً في أعيان أهل القرن التاسع ، وبعض جماعة من أوائل القرن العاشر ، زاد فيه تراجم وفوائد عن ابن المبرد وعن السّخاوي . وله أشياء عجيبة وفوائد جليلة ، أربى فيها على غيره من المؤرخين . رحمه الله تعالى .

وفي يوم[2] الجمعة خامس جُمادى الأولى منها ، سافر فرهاد باشا من دمشق ومعه العساكر إلى الرّوم .

ثم سكن النائب إياس باصطبل دار السّعادة ، وكان قد جدده النائب المقتول ، وأشهر المناداة بالأمان والاطمئنان وأن لا ظلم ولا عدوان .

وفي يوم الأربعاء سابع عشره دخل إلى دمشق من جهة الصالحية ألف إنكشاري ، جاؤوا في البحر من اصطنبول ، ومعهم نائب القلعة يسمى يوز علي[3] ويلقّب بالطير الأخضر ، ونزلوا بالقلعة .

---

(1) الكلمة مبهمة في مخطوط الأيوبي ، تستعصي على القراءة ، ولعلها : المنزلاوي أو الفندلاوي ؟

(2) الخبران القادمان من إعلام الورى ، 237 ؛ والباشات والقضاة للمقار ، 4 . ثم نعود إلى النقل من الروض العاطر ، 112 و . وهذه الأخبار هنا تتداخل بين المصادر الثلاثة المذكورة ، وتزيدنا اطمئناناً أن كل المادة التي نجمعها هنا إنما هي من الأصل الضائع لمفاكهة الخلان .

(3) في التركية yoz تعني البري أو الوحشي . أما لقبه (الطير الأخضر) فترجمته في التركية : Yeşil-kuş (يشيل قوش) .

وفي يوم السبت سابع عشريه ، غُيِّر ذراع القماش بدمشق إلى ذراع اصطنبول ، وهو أطول من ذراع دمشق بثُمن ذراع وقيراطين ، وتضرّر الناس بذلك .

* * * * *

[جمادى الآخرة سنة 927 هـ]

وفي يوم[1] الجمعة رابع جُمادى الآخرة ، سنة سبع وعشرين وتسعمائة ، صُلّي غائبة بالجامع الأموي بدمشق بعد صلاتها على شيخ الإسلام العالم العلاّمة قاضي القضاة زكريا بن محمد الأنصاري المصري الشافعي . مات في ذي الحجة سنة ست وعشرين وتسعمائة بمصر ، رحمه الله تعالى .

قال ابن طولون : وأُخّرت الصلاة عليه إلى هذه الأيام لاشتغال الناس فيها بفتنة الغزالي المقدّم ذكرها وانقطاع الدرب المصري .

---

(1) الخبر من الروض العاطر 130 ظ ضمن ترجمة مطولة لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري (129 ظ – 131 و) ؛ والكواكب 1 : 207 . ولا ندري مصدر الأيوبي في نقل الترجمة ، والمترجم له شخصية هامة جداً في عصره ، إلا أنه يبدو قد نقل من كتاب تراجم لا حوادث ، ولا يبعد أن يكون التمتع بالإقران لابن طولون . وفي غضون الترجمة يذكر : قال ابن طولون في ترجمة محمد بن إبراهيم بن محمد الأنصاري . . وهذا يخرج عن ترجمة شيخ الإسلام زكريا المذكور . ثم يذكر وفاته والصلاة عليه غيابياً ، دون الإشارة إلى ابن طولون ، بينما صرّح الغزي : «قال ابن طولون : وأُخّرت الصلاة عليه . .» . علماً أن الغزي أيضاً لم ينقل من ابن طولون أكثر من هذه العبارة في ترجمة طويلة استغرقت أكثر من 12 صحيفة . ولذا فلم نعمد إلى النقل أكثر ، ونحيل القارئ إلى ترجمته في المطبوع من الكواكب ، 1 : 196 .

وفي يوم الإثنين سابع جُمادى الآخرة من السنة ، كُبِس البدري ابن شعبان القرنفلي ، أحد طلبة العلم ، وجماعة مع امرأة من بنات الخطا في بيت بالقنوات ، وهم [112 ظ] سُكارى . فأطلق على مائة دينار ، وجُرِّصت النساء بعد أن سُوِّدَت وجوههم[1] ووُضع على رؤوسهم كروش الغنم و[أ]ركبوا حميراً مقلوبين . وقيل إن هذا من يَسَق الأروام .

وفي هذا اليوم ثبت بدمشق بشهادة روميين شرف القاضي علاء الدين ابن التقي[2] الحنفي على القاضي رضي الدين ابن الغزّي الشافعي ، وعُوتب في ذلك فقال : «إني خلّصتُ قلمي بوضع العصابة الخضراء على شاشه» .

وهذه العلامة أمر بها السلطان بمصر الأشرف شعبان ابن الأمير حسين ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي ، في سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، وهي أول تاريخ أبي الفضل ابن حجر المسمى بـ «إنباء الغُمر» ، ليمتاز بها الأشراف عن الناس في مصر والشام وغيرهما من البلدان .

وفي ذلك يقول أبو عبد الله بن جابر الأندلسي الأعمى نزيل حلب :

جعلوا لأبناء الرسولِ علامةً ... إنَّ العلامةَ شأنُ مَنْ لم يُشْهَرِ

نورُ النُّبوّةِ في كريمِ وجوههمْ ... يُغني الشّريفَ عن الطِّراز الأخضرِ

وقال في ذلك جماعة من الشعراء يطول ذكرهم ، ومن أحسن ذلك قول الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم بن بركة المزيّن :

أطرافُ تيجان أتتْ من سُندسٍ ... خُضْر بأعلام على الأشرافِ

والأشرفُ السُّلطان خصّهمُ بها ... شَرَفاً ليفرّقهم عن الأطرافِ

---

(1) كذا بالأصل ورد الضمير المتصل لجمع المذكر بدلاً من المؤنث .

(2) القراءة غير واضحة تماماً ، غير أن هذا الاسم ورد لدى الحمصي ، 3 : 47 .

وفي يوم[1] الأربعاء سادس عشر جُمادى الآخرة منها ، سافر [إياس باشا] إلى بلاد حوران ليكبس على عرب الأمير درباغ بن مهنّا ، بعد أن مسكه وحطّه بالقلعة بإشارة الأمير يونس بن القوّاس مقدّم وادي العجم وما مع ذلك . ولمّا كبسهم رأى منهم شدّة ، ثم اتفق معهم على تسيير الحج بإعطاء رهاين وأخذ صررهم على العادة ، ثم عاد سرعة .

ثم رمى رقبة يونس المذكور بعد مدّة لأجل خاطر العربان[2] .

ولمّا قدم مبشّر السّلطان إلى دمشق بأخذه لقلعة بلغراط[3] ، رمى له على دمشق ثمانية آلاف دينار . فرأى شخص صالح النبي صلّى الله عليه وسلّم [في المنام] ، فقال له : قل للنائب إياس إن النبي - صلّى الله عليه وسلّم - يأمرك أن تبطل هذه الرَّمية ، وإن لم تبطلها فلا تلُم إلا نفسك . فاستيقظ وذهب إلى النائب وأخبره بذلك ، فوضع النائب يديه على رأسه وقال له : قد أبطلتها[4] .

ثم طلع في هذا اليوم ، وصحبته السيد كمال الدين ابن حمزة الحسيني ، إلى مغارة الدّم أعلا جبل قاسيون ، فزارها وفرّق دراهم . ثم تقصّد زيارة بقية الأماكن الشريفة بدمشق .

وبلغه عن العلاّمة تقي الدين القاري الشافعي أنه ينتقص الحنفيّة ويقول : إن الصّلاة خلفهم غير صحيحة ، ويسمّي الأروام بدَعيّة ، فبهدله بالترسيم عليه وإخراج وظائفه عنه . فشفع فيه الشمس الشيرازي ، أحد المحبّين للشيخ المحيوي ابن العربي ، فقبل شفاعته فيه وأعاد إليه بعضها .

---

(1) بقية أخبار جمادى الثانية هنا نقلها من إعلام الورى ، ص 237-238 .

(2) من الواضح أن هذا الخبر متأخر عن التاريخ المذكور ، ويخرج عن سياق التسلسل التاريخي لكتابة اليوميات ، وسببه أننا ننقل هنا عن إعلام الورى .

(3) أي مدينة بلغراد المعروفة Belgrade ويرد اسمها أحياناً (بير الأغراض) في المصادر العربية المكتوبة في العهد العثماني . فتحها السلطان سليمان في 29 آب 1521 م .

(4) قوله وضع يديه على رأسه أي دلالة على الإقرار والإذعان ، وهي حركة متداولة يصاحبها قول : على راسي .

وفي يوم[1] الأربعاء سادس عشر جمادى الآخرة ، أتى الخبر بعزل قاضي القضاة ولي الدين ابن الفرفور ، وتولية قاضي أماصية يوسف سِنان البُرْصاوي ، ولهذا القاضي الجديد أربعة وعشرون يوماً متولياً .

* * * * *

[شعبان سنة 927 هـ]

وفي يوم[2] الجمعة سابع شعبان من السنة المذكورة ، صُلّي غائبة بدمشق بعد صلاة الجمعة في الجامع الأموي على الشيخ العارف بالله تعالى الولي المُعتقَد إسمعيل الفرّا المعروف بالزّاهر القاهري ، كما ذكره ابن طولون في تاريخه ، رحمه الله .

وفي يوم[1] السبت ثامن شعبان منها ، وصل القاضي الجديد إلى دمشق ، واسمه يوسف ، ونزل في بيت الخَوّاجا عيسى القاري ، ثم انتقل إلى بيت أردبش[3] تجاه العزيزية .

---

(1) الخبر من الثغر البسّام لابن طولون ، ص 310 .

(2) الخبر من الكواكب السائرة ، 1 : 162 .

(3) الاسم بالتركية Ordu-baş يعني قائد جيش ، وهو مجرد اسم لا رتبة . وأردبش هذا كان الدوادار الكبير لنائب الشام المملوكي سيباي . ذكره ابن طولون مراراً في القسم الأول من مفاكهة الخلان . أما داره المذكورة فيبدو أنها كانت من الدور الفارهة الكبيرة بدمشق في أواخر عهد المماليك ، كما يتضح من سياق النص . ذكر ابن طولون في المفاكهة (2 : 28) قدوم متسلّم دمشق من طرف السلطان سليم ونزوله بـ «بيت أردبش شمالي المدرسة العزيزية» ، فلو لم تكن الدار من أفخم دور دمشق لما اختيرت لذلك . وبقيت منزلاً رسمياً للقضاة حتى خاتمة القرن العاشر كما يرد في نزهة الخاطر للأيوبي (1 : 153) . أما موقعها فلعله موضع دار القوتلي الشهيرة شمالي ضريح السلطان صلاح الدين ، التي تضم عناصر معمارية وزخرفية لعلها الوحيدة بدمشق التي ترجع للعهد المملوكي .

ثم درّس بالجامع الأموي في «حاشية الكشّاف» للسيّد الشريف في أول البقرة ، وحضر عنده مدرّس المقدّمية الجوّانيّة عبد الرحمن الأشقر ، والخاتونية العصمتية حمزة الأسمر ، والماردانية حسن السمين ، وجماعته وخلق من الأروام . ثم ظهرت نسخهم مخالفة لنسخ القاضي المدرّس ، فاعتمدها في التدريس ولم يعرّج على غيرها ، فطاحت مطالعتهم ، ونقل كلام السّعد التفتازاني ، ولم يتعرّض لنقل شيء من حاشية الطيبي ولا غيرها .

ثم حضر عنده من مدرّسي أولاد العرب ، إلاّ الشيخ تقي الدين القاري الشافعي ناظر الحرمين الشريفين ، ولم يعرف لسان الأروام ، فعتب على أبناء العرب في عدم حضورهم .

* * * * *

[شوال سنة 927 هـ]

وفي يوم[1] السبت سادس شوّال من السنة ضرب شخص حشّاش القاضي شمس الدين ابن مفلح الحنفي بمحكمة المؤيدية بخنجر في وجهه ، وكان قصده قتله لأجل دعوى وقعت عليه فألزمه بها . فمُسك في الحال وجُهّز للنائب فشنقه[2] .

* * * * *

---

(1) عودة إلى النقل من الروض العاطر ، 112 ظ .

(2) علّق الأيوبي في الروض العاطر : قلتُ : هو القاضي شمس الدين محمد بن عمر ابن إبراهيم بن مفلح الرّاميني الحنفي ، شقيق القاضي برهان الدين ، المقدّم ذكره في حرف الهمزة . توفي في إحدى الجمادين سنة ثمان وستين وتسعمائة ، رحمه الله تعالى .

وفيها[1] ، [أي سنة 927 هـ] ، وردت البشائر بأخذ السلطان [من] أنكروس إحدى عشرة قلعة ، ونودي بالزينة ، فزُيّنت دمشق خمسة أيام .

* * * * *

(1) الخبر من الباشات والقضاة ، 4 . وذكر حول ذلك القرماني في كتابه أخبار الدول وآثار الأول (ص 317) : وفي هذه السنة قصد السلطان سليمان خان قتال قرال انكروس ، لاوش . ثم قال في حوادث سنة 932 (ص 318) : خرج السلطان إلى قتال الطائفة الطاغية انكروس ، فلما وصل إلى بلغراد لم يزل مشغولاً بفتح الحصون . وأما انكروس فهي هنگاريا (المجر) .

[حوادث سنة 928 هـ]

[استهلّت سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، وسلطان مصر والشام وما مع ذلك ملك الروم سليمان ابن سليم خان ابن عثمان].

وفي سنة[1] ثمان وعشرين وتسعمائة استقام إياس باشا المذكور والياً ، وأعيد وليّ الدين ابن الفُرفور قاضياً المرّة الثانية .

[ونقيب القلعة الأمير حمزة الرّومي][2].

وفي يوم[3] الثلاثا ثالث المحرّم ، سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، قدم إلى دمشق متسلّم النائب الجديد فرهاد باشا نائب طرابلس ، بغتة ، وأخبر أن أستاذه ولي نيابة دمشق عوضاً عن إياس باشا من عشرين يوماً ، وأن الخبر جاء له في البحر .

وفي رابع عشر[4] المحرّم ، سنة ثمان وعشرين [وتسعمائة] ، ورد أولاق بعزل القاضي [سِنان البُرْصاوي الرّومي] وهو في طريق الحجّ ، وولي عوضه أحد

---

(1) الباشات والقضاة ، ص 5 .
(2) الإضافة من الحمصي ، 3 : 48 ، الذي يذكر وفاة حمزة في حوادث صفر 929 هـ .
(3) إعلام الورى ، ص 238 .
(4) الثغر البسّام ، ص 311 ، ولعلها تكون : في رابع المحرّم ؟

المدرّسين باصطنبول الشّهاب أحمد بن كوج ، ومعناه بالعربي الكلاّس [1] ، الأرزنكي - نسبة إلى مدينة[2] كان مدرّساً بها - الحنفي . ومع هذا الخبر كتاب منه بإقامة الولوي ابن الفرفور عوضه ، فأبقى المحكمة على حالها .

وفي يوم[3] السبت خامس عشره ، دخل النائب الجديد إلى دمشق ، ونزل بالمرجة إلى أن سافر في ثانيه النائب المعزول إلى اصطنبول ، فانتقل إلى دار السّعادة في موكب حافل . وأكثر الناس الدّعاء له ، لثناء أهل طرابلس عليه .

ثم إن النائب المعزول لمّا وصل إلى اصطنبول ولي وزيراً ، وكثر الثناء عليه بدمشق لمحبته لأهلها ، ولم يظهر لذلك نتيجة بدمشق .

ثم توفي بعلّة الطّاعون [4] .

* * * * *

[ربيع الأول سنة 928 هـ]

وفي ليلة[5] الثلاثاء تاسع عشري ربيع الأول منها ، دخل القاضي الجديد [حمزة الرّومي] إلى دمشق ومرّ على الصّالحية ، ونزل ببيت القاضي المنفصل . وتحرّر أنه يُقال له الشمس أحمد بن يوسف (. . .) الرّومي الحنفي .

---

(1) وليس ذلك بالصحيح ، فالكلاس في التركية kirecci من kirec كِرَجْ أي الكلس ، ولعلها تصحفت في نسخة الثغر البسام عن كرججي أو عن كرج .

(2) هي مدينة إرزنجان Erzincan ، في شرقي تركيا .

(3) متابعة من إعلام الورى ، 238 .

(4) من الواضح أن هذه الأخبار لاحقة للتاريخ المذكور ، وذلك لأن ابن طولون في إعلام الورى يرويها بالاطراد المتلاحق لا بالتسلسل اليومي .

(5) الثغر البسّام ، 311 . وتتمة الاسم من الحمصي ، 3 : 38 .

[جمادى الأولى سنة 928 هـ]

وفي يوم[1] الجمعة بعد صلاتها ، تاسع عشر جُمادى الأولى ، سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، صُلّي غائبة بالجامع الأموي على الإمام العالم العلاّمة قاضي القضاة خير الدين محمد بن عبد القادر ابن جبريل الغزّي ثم الدمشقي .

مولده ثاني عشر شوّال ، سنة اثنتين وستين وثمانمائة . واشتغل وحصّل وبرع ، ثم قدم إلى دمشق ومعه كتب كثيرة ، ونزل بمشهد شيخ الإسلام الشيخ تقي الدين القاري بالجامع الأموي ، فباع بعضها .

قال ابن طولون : وحضر دروس شيخنا علاّمة المالكية عبد النبي ، وظهرت فضيلته ، وخصوصاً في علم الفرائض والحساب بالقلم . ثم عاد إلى عند والده بغزّة .

ثم ولي قضاء الشام عوضاً عن قاضي القضاة شمس الدين الطّولقي ، في ثاني عشر ربيع الآخر سنة أحد عشر وتسعمائة ، وهو بغزّة . ثم دخل منها إلى دمشق في يوم الإثنين ثاني عشر جُمادى الأولى من السنة ، ومعه خلعة[2] . ثم دخل إلى دار العدل ، فأرسل له نائب الشام أركماس الخلعة . ثم ركب ودخل الجامع الأموي وقُرىء توقيعه ، ثم سار في القضاء سيرة حسنة بعزّة وصرامة وزُهد وإقامة للحقّ . واستمرّ إلى أن عُزل في أول رمضان ، سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، ثم توجّه إلى بلده غزّة ، ثم إلى مكّة المشرّفة .

وفي يوم الجمعة صُلّي عليه غائبة بالجامع الأموي ، وأُخبر أنه توفي بمكّة المشرّفة في صفر ، ودُفن بباب المعلاّ ، فكثر الترحّم عليه .

---

(1) الروض العاطر ، 230 و .

(2) في القسم الأول من مفاكهة الخلان (1 : 293) : وفي يوم الإثنين ثاني عشريه (جمادى الأولى سنة 911 هـ) دخل من غزّة إلى دمشق قاضي المالكية الجديد خير الدين أبو الخير محمد بن جبريل الغزي . قلنا : وأسرة جبريل اليوم من العائلات المعروفة في غزّة .

[شعبان سنة 928 هـ]

وفي يوم[1] الأربعاء ثالث عشري شعبان ، سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، توفي قاضي القضاة أبو عبد الله شمس الدين محمد بن يحيى بن عبد الله المغربي الطّولقي المالكي ، فجأة كما قيل .

قال ابن طولون : قدم علينا دمشق ، واتّجر بحانوت بسوق الذّراع ، ثم ولي قضاء دمشق عوضاً عن قاضي القضاة شمس الدين المريني ، وعُزل عن القضاء ثم وليه مراراً ، ثم استمر معزولاً مخمولاً إلى أن توفي . وكان له مدّة قد أضرّ ، وصار يستعطي ويتردّد إلى الجامع الأموي . وكان يُكتب عنه على الفتوى بالأجرة له .

وصُلّي عليه بالجامع الأموي ودُفن بمقبرة باب الصغير .

* * * * *

[رمضان سنة 928 هـ]

وفي يوم الإثنين حادي عشر رمضان ، سنة ثمان وعشرين وتسعمائة[2] ،

---

(1) الكواكب السائرة ، 1 : 72 .

(2) الروض العاطر ، 85 ظ ؛ ونقل الترجمة أيضاً الشيخ نجم الدين الغزي في الكواكب ، 1 : 114-118 ، وفيه نقل أشياء عن والده ثم كتب : وأخذتُ من تاريخ ابن طولون وغيره جملاً من سيرته ، رضي الله تعالى عنه . وفي نص الغزي المنقول من المفاكهة تطابق تام مع ما نقله قبله الأيوبي هنا في الروض العاطر . وكل من الرجلين زاد من عنده أشياء ، إلا أن المصدر واحد بوضوح من ابن طولون ، وهذا ما يعزز ثقتنا بما نثبته في المتن أعلاه .

توفي شيخ الإسلام تقي الدين ابن قاضي عجلون ، أبو بكر بن محمد عبد الله ابن عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن شرف بن منصور بن محمود بن توفيق ابن محمد بن عبد الله الزرعي الأصل الدمشقي الشافعي ، الشيخ الإمام العلاّمة المتقن المحرّر شيخ الإسلام على الإطلاق ، الجامع لأشتات تحقيقات الأفاضل ، حائز قصب السبق في تحرير الدلائل ، تقي الدين أبي الصّدق ولي الدين ابن قاضي القضاة زين الدين أبي هريرة ابن شمس الدين ، الشهير بابن قاضي عجلون الشافعي الدمشقي .

مولده بدمشق في شعبان سنة إحدى وأربعين وثمانمائة ، اشتغل وحصّل وبرع ودرّس بالمدرسة الشاميّة البرّانية ومدرسة أبي عمر بالصالحية والجامع الأموي وغير ذلك . وإليه انتهت مشيخة الإسلام بدمشق ، بل في سائر الأقطار . طار ذكره وبَعُد صيته واشتهر اسمه ونال الوجاهة العريضة عند الحكّام . ثم لمّا ولي ولده قاضي القضاة نجم الدين بدمشق رتّب عليه مالاً الأشرف قانصوه الغوري ، ثم عجز عن أدائه ، فما وسع والده إلا أن باع كتبه وأدّى ثمنها عنه ، ومن ثمّ انخمل ذكره وصار وجوده في دمشق كعدمه .

وسمع على العماد ابن بردس مسند الشافعي وبعضاً من سيرة أبي داود وبعضاً من جامع الترمذي وأحاديث من مسند أحمد ، وجمع مشيخة الفخر ابن الحاكم تخريج أبي العبّاس والذيل عليهما لأبي الحجّاج المقري . وأجاز له جماعات ، منهم أبو الفضل ابن حجر والشمس ابن ناصر الدين . ثم إنه صنّف عدّة مصنّفات اشتهر بها في حال حياته ، [ومنها] «الزوائد على المنهاج الفرعي» . وانتفع به خلق كثيرون .

قال ابن طولون : وعرضتُ عليه محفوظاتي ، وأجازني وكتب لي خطّه بذلك . وفي غضون ذلك حضرتُ عنده عدّة مجالس من دروسه ، واستفدتُ منه فوائد ، وكثيراً من فتاويه ، وقد جمعها شيخنا الشهاب ابن طوق ، وذيّل عليها ما

قاله أخونا النجمي ابن شكم[1] .

ولمّا قدم دمشق العالم الرّحّال [86 و] جار الله ابن فهد المكّي ، قرأ عليه مسند الشافعي وغالب مشيخة الفخر ابن البخاري وبعض مناسك الحج له ، وغير ذلك .

توفي ضحوة يوم الإثنين حادي عشر رمضان ، بمنزله بالدَّولعيّة[2] داخل دمشق . وصلّى عليه ولده قاضي القضاة نجم الدين محمد[3] ، شمالي مقصورة الجامع الأموي ، ودُفن بمقبرة باب الصغير غربي القلندرية ، وحُملت جنازته على الرّوس ، وكان الجمع وافراً ، ولم يحضر جنازته القاضي الكبير ولا النائب كما هو عادة الجراكسة عند موت مشايخ الإسلام .

قال ابن طولون : وكنتُ حاضر[اً] الجنازة ، وغالب أفاضل البلد ، وكان الحرّ شديداً[4] ، وتأخّروا في دفنه لأجل إصلاح القبر . ولم يحضرها تلميذه الشيخ شمس الدين الكفرسوسي وأبو الفضل القدسي ، وهما من أخصّائه ، ولعلّ لهما عذر[اً] فلا لوم .

قال : ونقلتُ من خطّه ، قال أهل الحكمة والتجارب : إن الأسباب التي تمنع من الرّياسة سبعة ، وهي : الحداثة والفقر والظّلم والحُمق والبخل والزّنا والكذب .

---

(1) ابن طوق الآنف الذكر هو شهاب الدين أحمد بن محمد ابن طوق الدمشقي الجيرودي الأصل ، كان من أخص تلاميذ الشيخ ابن قاضي عجلون ، وقد أكثر من ذكره في يومياته المخطوطة الثمينة التي تؤرخ لدمشق بأواخر العهد المملوكي بين 885-915 هـ ، أي حتى وفاته . ترجمته في الكواكب ، 1 : 126 ، وانظر ما كتبناه عنه في المقدمة .

(2) كتب الأيوبي تعليقاً على ذكر منزل الشيخ ابن قاضي عجلون : جوار دارنا في دخلة الأمير أبي بكر ابن منجك ، ولدار الشيخ بابان : أحدهما من الدّخلة المذكورة ، والثاني من زقاق الدّولعيّة .

(3) كتب الأيوبي تعليقاً أيضاً : الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف الميم .

(4) فالتاريخ المذكور يوافق 5 آب .

قال الشيخ صلاح الدين الصّفدي في تذكرته : وقد أحببتُ نظمها ، فقلتُ :

منع النّاسُ أن يسودَ عليهمُ سبعةٌ قالهُ ذوو التّبيانِ
أحمقٌ كاذبٌ فقيرٌ صغيرٌ مُمسكُ الكفّ ظالمُ النَّفس زاني

كان [1] ، رحمه الله تعالى ، مرجع الناس في حلّ المشكلات والمعضلات ، وبيان الأحكام الشرعية والقيام في أمور العامّة على الحكّام وغيرهم ، وكان يُنكر على كثير من المتصوّفة المتحلين لأمور ينكرها ظاهر الشّرع . وقام على الشيخ شمس الدين العمري المتصوّف مراراً ، ومنعه من التكلّم وأدّبه وزجره عن مطالعة كتب ابن العربي وعن ما كان يقع منه من الشّطحيات . ثم لمّا وقع اعتقاد العمري في قلب السّلطان قايتباي وسافر إليه العمري وشكى من الشيخ تقي الدين ، فطلب الشيخ تقي الدين هو والشيخ محبّ الدين الحصني بسببه إلى القاهرة ، مع أن الشيخ تقي الدين كان مذهبه السكوت في أمر ابن العربي وعدم الإنكار .

ولمّا قدم الشيخ العلاّمة برهان الدين البقاعي دمشق في سنة ثمانين وثمانمائة ، تلقّاه الشيخ تقي الدين هو وجماعة من أهل العلم إلى القنيطرة . ثم لمّا ألّف كتابه في الردّ على حجّة الإسلام الغزالي في مسألة «ليس في الإمكان أبدع ممّا كان» وبالغ في الإنكار على ابن العربي وأمثاله حتى كفّر بعضهم ، كان الشيخ تقي الدين ممّن أنكر على البقاعي ذلك وهجره بهذا السبب ، خصوصاً بسبب حجّة الإسلام [الغزالي] [2] .

* * * * *

---

(1) النص السابق للأيوبي ، وهنا عقبه تتمة من الغزي ، 1 : 116 .
(2) بعد ذلك ينقل الغزي بعض أخبار عن المترجم له ، عن الحمصي والعيثاوي .

[شوال سنة 928 هـ]

وفي يوم[1] السبت ثالث عشر شوّال من السنة وقع مطر غزير عام في البلاد الشامية ، ووقع في أثنائه صاعقة مرّت على أربع جوزات عند قرية بيت إيما[2] من إقليم الزبيب فقلعتهم من شروشهم .

ثم دخل منها قطعة إلى داخل الجامع الأموي[3] ، فأصابت العضادة القبلية الشرقية لقبّة النسر من الجهة الخارجة عن المقصورة ، فاحترق طرازها المذهب واسودّ بعض رخامها وانفكّ بعض شيء منها ، ولم يُرَ لها أثر في أسفلها . وهو المكان الذي كان شيخنا علاء الدين البصروي الشافعي يدرّس فيه ، ثم بعده ولده جلال الدين .

ولم يُعلم من أين دخلت مع التفتيش الزائد على ذلك من قاضي دمشق وجماعة الجامع ، وقيل إنها غاصت في العضادة . وهذه ثالث مرّة وقعت في عصرنا على المعابد ، فإنها وقعت قبل هذه المرّة على ماذنة الناصريّة ، وقبلها على ماذنة الحاجبيّة ، كلاهما بسفح قاسيون .

* * * * *

(1) الروض العاطر ، 230 و ، عقب ترجمة القاضي محمد بن عبد القادر بن جبريل الغزي ، وهي منقولة عن ابن طولون ، فلذا أثبتناها أدناه في محلها .

(2) بيت إيما قرية في حوض الأعوج تتبع ناحية سعسع ، إلى الجنوب الغربي من دمشق . تعرف اليوم باسم بيت تيما أو بتيما . وما كتبه ابن طولون هو الصواب في اسمها السرياني . لها ذكر في القسم الأول من المفاكهة ، 1 : 240 .

(3) ذكر الواقعة الحمصي في تاريخه (3 : 45) بتاريخ مغاير : رابع عشر ذي القعدة : وقع بدمشق رعد وبرق ومطر عظيم ، ونزل على العضادة الشرقية المسامتة لدكّة المؤذنين بالجامع الأموي [صاعقة] أحرقت بعض القصدير وسوّدت بعض الرخام وقلعت سفر الحمام بها ، وكان نهاراً مهولاً .
أما ابن جمعة ، فنقل الخبر في الباشات (ص 5) نقلاً عن ابن طولون .

[ذو القعدة سنة 928 هـ]

ثم قدم[1] علينا دمشق [الشيخ غرس الدين خليل بن أحمد بن شجاع الحلبي] ، في ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، فتصدّر بالجامع الأموي ، فانتفع الناس به . وتردّد إلى عندنا بالعمارة السّليمية ، فانتفع عليه أناس من الصالحية ، ورام أن يعمل بها بسيطة فلم يقدر على تتميمها . وعاد إلى مصر ، ثم رحل إلى حلب وتصدّر بها ، ثم ذهب إلى الرّوم .

وسمعتُه يقول : أقسام الدّلالة من حيث هي أربعة : فعليّة : كدلالة الخطوط والعقود ، وعقلية : كدلالة اللفظ على لاقطه ، وطبيعية : كدلالة الضعيف على وضعه ، وصنعية : كدلالة الاسم[2] .

* * * * *

---

(1) الروض العاطر ، 122 ظ ، ضمن ترجمة الشيخ غرس الدين خليل بن أحمد بن خليل ابن أحمد بن شجاع الحلبي ، المتوفى باصطنبول عام 969 أو 970 هـ (ترجمته 122 و – 123و) . وترجم له الغزي في كواكبه (3 : 148) ، لكنه لم ينقل عن ابن طولون مباشرة ، وقال انه كان يشتهر بلقب (ابن النقيب) .

(2) بعد ذلك يستطرد الأيوبي بالترجمة حتى ذكر وفاة غرس الدين باصطنبول ، وينقل من كتاب التمتع بالإقران لابن طولون حاشية مكتوبة بخط القاضي كمال الدين ابن مفلح ، عن اجتماعه بغرس الدين بمدينة قسطنطينية في سنة 965 هـ . ولأجل ذكره لهذه الحاشية نقلاً عن التمتع ، فليس يبعد أن يكون ما نقله أعلاه عن ابن طولون من التمتع نفسه وليس المفاكهة ؟ لكن على أي حال ، كان من عادة ابن طولون تكرار الحوادث في المفاكهة وإعلام الورى والثغر البسّام ، ثم ما يتعلق بها من تراجم في كتابيه التمتع بالإقران وذيله ذخائر القصر ، في آن واحد .

[ذو الحجة سنة 928 هـ]

وفي يوم[1] الثلاثا مستهلّ ذي الحجّة منها ، مسك النائب فرهاد الخَواجا علم الدين ابن الخَواجا شهاب الدين ابن سليمان ، بسبب هدم جانب من بيته كان بعض الأروام نازلاً فيه فرحل عنه ، فخاف من نزول غيره عوضه .

وجيء به إلى النائب ، فرسم بشنقه على باب دار السّعادة لأجل ذلك . فعُرّي وكُتّف ، ووُضع الحبل في رقبته وطيف به دورة دمشق ، وهو في أثنائها حصلت له شفاعة من بعض التجّار فأُطلق . وقيل إنه غُرِّم ألف دينار ، ولم يُراعَ لأجل والده ، مع أنّي لا أعلم في دمشق أكثر برّاً منه .

وضُرب بسببه معلّم السّلطان شهاب العطّار ، لما قيل إنه أرسل إليه فَعَلَة لأجل الفكّ .

وكان غالب الناس قد صغّر باب داره وفكّ إصطبله ، فنادى بإعادة ذلك .

ولمّا تقاتلت فقراء الشيخ أحمد الجبائي مع فقراء ابن عمّه ، أوجع هذا النائب ضرباً للجميع وأُخذت بعض ثيابهم . وأُطلق الشيخ أحمد ، ورُسم على ابن عمّه يوميات .

ثم هذا النائب سافر للحمّة ليغتسل منها ، فإنه متضعّف في نفسه .

ثم عاد إلى دمشق ، ثم خرج إلى الخربة[2] لما قيل له إنها عذيّة[3] .

* * * * *

---

(1) إعلام الورى ، ص 238-239 .

(2) يقصد ابن طولون خربة غزالة في حوران ، كما يبدو ، وسيرد ذكرها أدناه .

(3) من الواضح أن هذين الخبرين لاحقان للتاريخ المذكور بشهر ذي الحجة 928 هـ ، ولعلهما يكونان تابعين للعام الآتي .

قال ابن طولون [1] :

وفي هذه السنة ، يعني سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، سافر قاضي القضاة الولوي ابن الفُرفور الشافعي من دمشق إلى عند السلطان ليسعى في قضاء مصر أو قضا عسكر بلاد العرب ، وكان له مدّة يتأهّب لذلك .

وأخذ معه [230 ظ] من الهدايا شيء كثير ، منها أربع شاشات في قشور جوز الهند ، طول كل واحد مائة ذراع في عرض ثلاثة أذرع . ومنها الصحيحان للبخاري ومسلم في مجلد واحد ، والشجرة النبوية في أخرى ، كلاهما بخط الكاتب شمس الدين ابن سعود الصالحي ، وتجليد الأستاذ أويس العجمي . ومنها ثلاثة ثياب منسوجة بالذهب ، إثنان للسلطان وواحد للوزير الأعظم بيري باشا . ومئين من القماش البصري والأطلس وغير ذلك . وراح على طرابلس .

* * * * *

(1) الروض العاطر ، 230 و ، عقب ترجمة القاضي محمد ابن جبريل الغزّي ، السالفة الذكر .



[حوادث سنة 929 هـ]

قال ابن طولون [1] :

استهلّت سنة تسع وعشرين وتسعمائة ، وسلطان مصر والشام وما مع ذلك ملك الروم سليمان ابن سليم خان ابن عثمان ، وهو مقيم على حصار مدينة رودس .

ونائبه بدمشق فرهاد باشا الذي كان نائب طرابلس .

والقاضي بها الشهاب أحمد بن يوسف الرومي ، ونائبه من الحنفية بيري الرومي ، ومن الشافعية رضي الدين الغزّي ، ومن الحنابلة زين الدين عبد الباسط البعلي ، وليس له في المحكمة من المالكية نائب عنه . والقاضي بالصالحية الشمس ابن جبران المالكي ، وبمحلّة ميدان الحصا الشمس ابن مفلح الحنفي .

[ونائب القلعة الأمير ابراهيم الرّومي] [2] .

---

(1) الروض العاطر ، 155 ظ - 156 و ، عقب ترجمة زين الدين عبد الرحمن ابن الأكرم الحنبلي الدمشقي ، المتوفى في مستهل شعبان من السنة ذاتها . ولما لم نجد ما يدلنا على أن الترجمة منقولة من المفاكهة فقد أمسكنا عن إثباتها ها هنا . ولابن الأكرم ترجمة مقتضبة في الكواكب ، 1 : 234 ، غير أنه جعل وفاته في 12 محرم سنة 930 هـ ، وفيها يفيدنا الغزي بأنه «ابن عم نائب القلعة الأمير إسماعيل ابن الأكرم» الذي ورد ذكره في حوادث سنة 927 هـ . ولذا فسوف نؤجل الترجمة إلى سنة 930 هـ .

(2) نقلاً عن الحمصي (3 : 56) الذي أورد ذلك في حوادث شوال من السنة .

وفي يوم الجمعة سادس عشر المحرّم أُودع العلاّمة تقي الدين القاري أحد أئمة الجامع الأموي بحبس باب البريد ، بعد أن حُوسب على مال الحرمين فبقي عليه نحو المائة ألف درهم غالبها باقٍ في الجهات ، ومنها أربعة وعشرون ألفاً أصرفها قدوماً للمكّيين والمدنيّين الوارديْن إلى دمشق على العادة ، فلم يُمْضَ له ذلك ليورد جميع ذلك للمفتّش .

وأُخرج عن نظر الحرمين لناظر الجامع الأموي ابن التّادفي الحلبي ، واستمرّ ثمانية أيام في السجن ، ثم شفع فيه الشيخ تقي الدين البلاطنسي فأُطلق ، وهو مع ذلك ساعٍ في إيراد ما عليه .

* * * * *

وفي يوم السبت سادس عشر صفر منها أقيم للعُلُوق[1] بدمشق والٍ منهم ، والتزم في كل شهر بخمسمائة عثماني ، ونودي له بذلك بعد أن أُلبسَ خلعة . وعُيِّن لهم الخان المنجكي شرقي جامع [تنكز][2] .

ثم إنه في يومه تعرّض لواحد منهم تحت القلعة ، فقامت الناس عليه . وبلغ النائب فبطّل ذلك ولله الحمد .

---

(1) العُلوق : جمع العلق ، وهم المتخنثون الشاذون جنسياً . واللفظة ما تزال متداولة في العامية الدمشقية ، وتعتبر من أفحش الشتائم . وهذا الخبر مثال على التهتك الذي بدأت دمشق تشهده في مطلع العهد العثماني ، مما لم يكن معروفاً بها قبل .

(2) ما بين حاصرتين فراغ بأصل الروض العاطر مقدار كلمة ، استدركناه من خلال البحث عن موقع خان منجك المذكور . ورغم أن المصادر الدمشقية المعتبرة لم تذكر عموماً هذا الخان ، فقد عثرنا له على ذكر في كتاب الدرّة المضيّة لابن صصرى (41 ، 188) : «ونزل منهم فرقة من على حكر السمّاق إلى خان منجك وخان البيض» ، وحكر السمّاق كما هو معلوم ينطبق اليوم على شارع النصر ، وبالتالي فالجامع المقصود ما هو إلا جامع تنكز المعروف . ونسبة الخان إلى نائب الشام المملوكي الأمير الكبير منجك ، بناه في 770 هـ .

وفي يوم[1] الجمعة ثاني عشري صفر ، سنة تسع وعشرين وتسعمائة ، صُلّي غائبة بالجامع الأموي بدمشق على الشيخ الإمام العلاّمة أمين الدين ابن النجّار الدّمياطي الشافعي خطيب جامع الغمري بمصر[2] .

ونقل ابن طولون عن الشيخ الفضل ابن أبي اللّطف أنه كان من أهل العلم ، قال : وجرت له محنة في أيام السّلطان قانصوه الغوري ، وهي أن بعض التجّار أودع عنده مالاً له صورة ، وقال له : إذا بلغ ولدي بعد موتي فادفعه إليه . فجاء الولد إليه وهو دون البلوغ يطلب منه المال ، فقال له : حتى تبلغ !

فذهب إلى السّلطان فاشتكى عليه ، فطلبه السّلطان وطالبه بالوديعة فأنكرها ، وحلف عليها . ثم لمّا بلغ الولد أقرّ بها ودفعها إليه ، فعلم السّلطان بذلك فطلبه ، فقال له : كيف تحلف ما عندك وديعة ، والآن قد أقررت بها ؟ فقال له : إن فقهاء الشافعية كالنّووي في الرّوضة قالوا إن الظالم إذا طلب الوديعة من الوديع ، وخاف منه عليها ، له أن ينكرها ويحلف على ذلك . وأنت ظالم ! فرسم عليه السّلطان ثم شُفع فيه فأطلقه .

* * * * *

وفي يوم الجمعة سادس ربيع الأول منها ، والناس في خطبتها ، وصل مبشّر السلطان إلى دمشق ، وأخبر بأن السلطان سليمان بن سليم خان بن عثمان مَلَك مدينة رودس[3] بالسيف ، وسلمت قلعتان في جزيرتها . وهي فيما قيل مسيرة ثلاثة أيام .

---

(1) الخبر من الكواكب ، 1 : 33 .

(2) ورد الخبر أيضاً لدى الحمصي ، 3 : 48 .

(3) رودس Rhodes جزيرة معروفة في البحر الأبيض المتوسط من جزر الأرخبيل اليوناني . معجم البلدان لياقوت ، 2 : 832 ؛ قاموس الأعلام لسامي (بالتركية) ، 3 : 2274 .

وكان سبب أخذها أنه نقب تحت الأرض من نحو نصف بريد إلى صُورها ، ووضع تحته البارود ، وجعل له ذخيرة في قساطل ، ثم أُطلقت النار فيها فخربت السور من جهة هذا النقب ، وبَانَ داخل رودس . وأنهم بنوا خلف هذا السور سوراً آخر ، فنقب من هذا النقب إلى داخل رودس ، ثم اشتغلوا [156 و] بالقتال ، وطلع جماعة من هذا النقب فمُلكت رودس وفرّ ملكها في البحر ، فقاطع عليه بعض الأمراء ومسكه ومن معه ، فقُتل وأُخذت أمواله .

ثم وضع السلطان فيها سنجقاً ، ووضع جنده من الإنكشارية ألفاً وكذا من العُزبان وخمسة آلاف من الإصباهية وقاضياً . وأمر بجعل كنيستها العظمى جامعاً ، وعمارة ما انهدم في الحصار منها ، ووضع في كل قلعة سنجقاً . وكان دخوله إليها يوم الخميس رابع عشر صفر الماضي ، وصلّى بها جمعتين ثم توجّه إلى اصطنبول [1] .

فسُرّ الناس بهذا الخبر ، ودُقّت بشاير دمشق وأُطلق نفط كثير بقلعتها نهاراً ثم ليلاً ، ونودي بالزّينة سبعة أيام ، فزُيّنت دمشق زينة حافلة حتى عمارة السلطان سليم بالصالحية . غير أن الأرْوام قابلوا هذه النعمة بإظهار المعاصي في أسواق دمشق ، خصوصاً سوق باب الفرج ، من شرب الخمر مع النساء والصبيان مع إيقاد الشموع نهاراً فضلاً عن الليل . وكان غالب من مرّ عليهم إن لم يشرب منهم رشّوا على ثيابه الخمر [2] .

قال ابن طولون : واتفق لصاحبنا الزين عبد القادر القُوَيْضي الحنفي أنه مرّ عليهم فأعرضوا عليه الخمر ، فأبى وأنشد لنفسه ، ومنه كتبت :

---

(1) ورد خبر فتح رودس لدى الحمصي (3 : 49) بتفاصيل أخرى ، ومنها أن القاضي ولي الدين ابن الفرفور كان من جملة حاشية السلطان عند دخول الجزيرة ، وأنه خطب يوم الجمعة بها فخلع عليه السلطان خلعة عظيمة . وكذلك نقل ابن جمعة الخبر عن ابن طولون ، الباشات ، ص 5 .

(2) وهذه أيضاً كانت مثلبة أخرى مما ارتكبه العثمانيون بدمشق . فلاقى من أهلها استنكاراً ، وإن كان مجرد استنكار معنوي لم يجرؤ أبداً على الخروج إلى حيّز العلن .

دعـاني إلـى خمـر فقلـتُ محـرّمٌ | وما كان هذا في ضميري ولا قصـدي
وحلّفنـي بالخُندكـار وقـال لـي | بغلظـة اشـربْ قلـتُ في جنّـة الخُلـد

وقُتل في هـذه الغـزاة نحـو الستين ألفـاً مـن المسلمين ، ومنهـم حسين شيخ التكيّة ، والناظر على الركنية محمد بن خُشْ كَلْدي [1] .

ثم رمى نـايب دمشـق على دمشـق وأعمالهـا بقـاصد البشـارة خمسـة آلاف دينار ، فأُخذت منها .

وفي يوم[2] الأحد ثامن ربيع الأول ، سنة تسـع وعشـرين وتسعمائة ، تـوفي الشيخ العالم الصالح الواعظ زين الديـن بركـات بـن أحمـد الدمشـقي الصـالحي ، الشهير بابن الكيّال .

وكـان في ابتـداء أمـره تاجـراً ، ثـم تـرك التجـارة بعـد أن ترتّـب عليـه ديـون كثـيرة . ولازم الشيخ برهان الدين الناجي زماناً طويلاً وانتفع به .

قال ابـن طولـون : ورأس بعـد مـوت شيخه ، ولازم الجـامع الأمـوي تجـاه محراب الحنابلة ، ووعظ بمسـجد الأقصـاب وجـامع الجـوزة وغيرهمـا ، وخطـب بالصابونية سنين ، وحصّل دنيا كثيرة ، وصنّف عدّة كتب [3] .

وذكر ابن طولون أنه قبل موته بثلاثة أيام حصل من مشدّ الزّبالة في حقّه قلّة أدب ، بسبب زبالة وجدها عند بـاب بيتـه . وذكـر أن الـذي ضربـه وحـلّ عمامتـه

---

(1) هذا أيضاً اسم تركي : Hoş-geldi ، ومعناه : قدوم ميمون ، على الرحب !
(2) الكواكب ، 1 : 165 .
(3) نقل الغزي عن الحمصي في تاريخه (3 : 50) : وسـبب موتـه أنـه خرج من بيتـه لصـلاة الصّبح بالجامع الأموي ، فلقيه اثنـان فـأخذا عمامتـه عن رأسـه وضُرب على صـدره ، فانقطع في بيتِه . ثم بعد ذلك أراد الخروج إلى الجامع فما استطاع ذلك ، فتوضـأ وصلّـى الصّبح والضحى في بيته ، وتوفي بعد صلاة الضحى ، ودُفن بمقبرة بـاب الصغير بـالقرب من ضريح سيدي أوس بن أوس الثقفي ، رحمه الله تعالى .

رجلٌ مجذوب كان من أتباع الشيخ العقيبي ، لأن الشيخ بركات كان يُنكر على الشيخ عمر ما كان يعتاده من أمر بعض فقرائه ، أن يطوفوا في الأسواق وفي رقابهم المعاليق وغير ذلك ، وهم يجهرون بالذكر . حتى ربما صرّح الشيخ بركات بالإنكار في مجالسه العامة . فأضمر ذلك له ذلك المجذوب حتى ظفر به وقال له : مالك وللشيخ عمر ؟

وكانت هذه الحادثة سبب موته ، رحمه الله تعالى ، وصلّى عليه الشيخ شمس الدين الكفرسوسي في صحن الجامع الأموي ، وكانت جنازته حافلة .

قال ابن طولون : ولم يخلّف بعده في دمشق مثله في الوعظ وحُسن صوته وإدراكه لفنّ النّغمة .

ورثاه الفاضل الشيخ شهاب الدين ابن التدمري بقصيدة أنشأها بعد الفراغ من الفراغ في صبحته[1] .

* * * * *

وفي ليلة[2] يوم الإثنين تاسع عشر جُمادى الآخرة ، سنة تسع وعشرين وتسعمائة ، عاد [نائب دمشق فرهاد باشا] وهو ضعيف . ثم استدعى أطباء دمشق ، الشمس ابن مكّي ، والزّين القويضي ، وخليفة اليهودي ، ولم يمكّنه[م] من الذهاب من عنده ليلاً ونهاراً .

وأراد قتل اليهودي الذي كان ملازماً له حَضَراً وسَفَراً ، فهرب ، قيل إلى مدينة صفد .

---

(1) يعدد الغزي 23 بيتاً من الشعر الغث ، لم نر في إيرادها أية فائدة .
(2) إعلام الورى ، ص 239 .

وفي يوم الخميس ثاني عشريه توفي بُكرةً ، وصُلّي عليه بدمشق ودُفن في حوش المحيوي ابن العربي ، تحت قنطرة إيوانه . وطلع في جنازته قاضي دمشق والأكابر ، ووُضع شاشه على عمود تابوته وبه ورد مغرز على عادة الأروام [1] .

وأعتق مماليكه ، وأوصى بعشرين مقرياً يقرؤون عنده ليلاً ونهاراً . وكانت وصاياه بمائة وخمسين ألفاً عثمانياً ، خمسون للقبر وأخرى للأصبهانيّة ، وأخرى لمماليكه . وطلع عنده مال جزيل ، وخمسة من كاسات الخمر ذهباً مرصّعة بالجواهر يساوي كل منها ألف دينار ، وثلاث شربات فضّة بألف وخمسمائة دينار ، وشمعدانات ، وزبادي ، وصحون ، وسكرجات ، ومعالق ، الجميع من فضّة .

وكان في غيبته أقام عوضه صوباشي البلد جعفر ، ورأيت بعض الأفاضل يشكر منه وأنه محبّ لطلبة العلم .

ونودي لعلي باشا بنيابة الغيبة ، وكانت الناس اختشوا من نهب الأروام البلد ، لما قيل إنه عادتهم عند موت كبيرها ، فطمّن خاطرهم نائب الغيبة بإشهار المناداة بالأمان .

وفي يوم الأحد خامس عشريه ، وصل إلى دمشق نائب طرابلس ، ونزل ببيت يونس الحاجب عند الشامية البرّانيّة ، فقامت عليه الأصبهانية [2] لكونه جاء مرسوم السّلطان إلى دمشق .

---

(1) ورد الخبر لدى ابن جمعة (ص 5) : وفي يوم الخميس توفي نائب دمشق فرهاد باشا ، ودُفن بجوار الشيخ محيي الدين [ابن] العربي .

(2) تكرر القول أن المقصود بهم السباهية . وحول نائب طرابلس ذكر الحمصي (3 : 52) : خامس عشرينه ، وصل إلى دمشق نائب طرابلس ليمسك بلد دمشق إلى أن يحضر إليها نائب . فركب عليه عسكر السلطان المقيمين بدمشق وأخرجوه منها إلى ظاهر البلد . ثم خرج إليه الأمير ابراهيم نائب قلعة دمشق ، وأمره بالعود إلى يرد مرسوم السلطان . فعاد إليها واستمر إلى أن وصل المرسوم الشريف . قلنا : وهذا مثال واضح على دور أوجاق الإنكشارية في القلعة بمنع أي تحرك عسكري أو سياسي طارئ إلا بأمر السلطان .

فرجع إلى بلده ثاني يوم ، وودّعه القاضي الكبير في حال مطر ، ثم خرج إليه أكابر الأصبهانية ومعهم (الحكيم) اسكندر ، ورجّعوه إلى دمشق .

وفي يوم[1] الأربعاء حادي عشري جُمادى الآخرة ، سنة تسع وعشرين وتسعمائة ، توفي الشيخ العلاّمة شرف الدين يونس ابن محمد ابن شعبان ، ابن سلطان الحرافيش[2] بدمشق .

قال ابن طولون : كان من المتغفّلين في المجالس ، ولكن حصل به النفع في آخر عمره بملازمة المشهد الشرقي بالجامع الأموي لإقراء الطّلبة . وكان في ابتداء أمره شاهداً تجاه باب المؤيّدية [3] .

قال ابن طولون : وصلّى عليه التقوي البلاطنسي ضحوة النهار بالجامع الأموي ، ودُفن بباب الصغير ، رحمه الله تعالى .

* * * * *

وفي [يوم][4] السبت ثامن رجب حصل زوبعة عظيمة حملت الرِّحال في بعض أماكن وألقتها في مكان آخر ، وصار الناس لا ينظرون بعضهم بعضاً ، ولم يُرَ مثلها .

---

(1) الكواكب السائرة ، 1 : 320 . والخبر ورد لدى الحمصي ، 3 : 52 .
(2) ذكر ابن طولون في القسم الأول من المفاكهة (1 : 114) : وفي بكرة يوم الأربعاء (16 محرم سنة 895 هـ) ، دخل من مصر إلى دمشق ابن شعبان سلطان الحرافيش ، وهم والأوباش حوله ، والصفّاقات والطبول تضرب بين يديه والأعلام الصفر عليه ، ثم أوصلوه إلى بيته . ثم رجعوا إلى تلقي زوجته أيضاً بالصفاقات والطبول ، وخرج إليها نحو مائتي امرأة بخرق صفر ملفوفة على عصائبهن وهن ركوب حولها إلى أن وصلت إلى بيتها .
(3) المؤيدية محكمة أحدثت كما يلوح في مطلع العهد العثماني ، عند مسجد السلطان المملوكي المؤيد شيخ في محلة خان الباشا (عند سوق الهال) انظر المفاكهة ، 1 : 136 ؛ تراجم الأعيان للبوريني ، 1 : 203 ؛ ثمار المقاصد لابن عبد الهادي ، 142 ، 256 .
(4) الباشات والقضاة ، ص 5 .

وفي يوم[1] الخميس عشري رجب منها ، وردت بشارة لتولية نائب طرابلس ، وهومقيم بدمشق ، نيابة الشام عوضاً عن فرهاد باشا . واسم هذا النائب الجديد خُرَّم باشا ، بالخاء المعجمة المضمومة ثم راء مشدّدة مفتوحة ، ابن الوزير اسكندر باشا . ومعنى اسمه بلسان الكُرج : فرح الفرح .

فانتقل إلى دار السّعادة ، وأُطلق نفط كثير بالقلعة .

* * * * *

قال ابن طولون [2] :

وفي يوم الإثنين ثاني عشر شوّال ، سنة تسع وعشرين وتسعمائة ، توفي بدمشق الشيخ العلاّمة المحدّث الواعظ أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن محمد ، الشهير بابن المبيِّض ، الحمصي الأصل ثم المقدسي ثم الدمشقي الشافعي ، أحد الوعّاظ بدمشق .

ومن شعره ما كتبه عنه ابن طولون من إملائه ، عاقداً للحديث المسلسل بالأوّلية :

جاءنا فيما روينا أننا ... يرحم الرّحمنُ منّا الرُّحَما

فارحموا جملة مَن في الأرض مِن ... خلقه يرحمكم من في السَّما

ودُفن بتربة باب الصغير ، رحمه الله تعالى .

---

(1) إعلام الورى ، ص 240 . وخُرَّم بالفارسية وليس الكرجية : سعيد ، مسرور .

(2) الكواكب السائرة ، 1 : 314 . أما عن رمضان فلم نجد شيئاً من المفاكهة ، ويذكر الحمصي (3 : 56) في 18 رمضان : حُرق سوق المناخلية وسوق الخضرية والخان وما يليه خارج باب الفرج بدمشق . وهو خامس حريق وقع بدمشق ، وذهب للناس فيه أموال كثيرة . وبالله المستعان .

وفي يوم[1] الخميس سابع عشري ذي الحجّة منها ، سافر [النائب خُرَّم باشا] للكبس على الشُّوف الجبلي[2]، بعد أن جمع مشاة من دمشق ومُعاملتها .

* * * * *

وفي هذه السنة[3] كان فتح قلعة سياه كوي[4]، وقلعة يودُم[5]، وقلعة أندروس[6]، وقلعة يختالوا ، وقلعة سونياك ، ببلاد روم ايلي . وكان التاريخ : يفرح المؤمنون بنصر الله .

* * * * *

(1) عودة إلى إعلام الورى ، ص 241 . وذكر صاحب الباشات (ص 5) : ولمّا استقام خُرَّم باشا بدمشق صرف همّته إلى قتال الدّروز ، فجهّز عسكراً وخرج وكبس الشّوف .

(2) وسبب هذه الحملة الكبرى ، التي ستمر تفاصيلها في حوادث عام 930 هـ ، يرويه الحمصي في تاريخه (3 : 58) بحوادث ذي الحجة 929 هـ : فيه وقع حادثة عظيمة ، ملخصها أن رجلاً رومياً سافر إلى وادي التّيم يتكلّم على ضيعة من ضياعها ، فرأى بنتاً جميلة ففسق بها ، فعلم بذلك أهلها فقتلوه . فبلغ الخبر لنائب دمشق خُرّم الرومي ، فجهز لهم عسكراً من الأروام إلى الضيعة التي قُتل فيها الرومي المذكور ، لينهبوا الضيعة المذكورة ويقتلوا من فيها ومن حولها من الضياع .

(3) الباشات والقضاة ، ص 5 .

(4) في أصل مخطوط الباشات : اسياه ، وهي في التركية Siah-köy تعني قرية السواد ، وهي على الساحل الشرقي من بحر الخزر . قاموس الأعلام لسامي (بالتركية) ، 4 : 2718 .

(5) لا ندري إن كان هذا الاسم (يودم) مصحفاً في نص المقار عن «بود» ، وبود هي عاصمة بلاد المجر (هنگاريا) التي أضحى اسمها فيما بعد بودابشت (تلفظ باللغات الأوروبية بودابست) . غير أن فتح بود كان بعد 3 سنوات في 3 ذي الحجة سنة 932 هـ .

(6) بالأصل : لندروس والصواب Andros جزيرة في بحر إيجة . قاموس الأعلام 1 : 421 .

[حوادث سنة 930 هـ]

قال ابن طولون[1] :

استهلّت السنة ، يعني سنة ثلاثين وتسعماية ، والخليفة على حاله ، وهو مقيم باصطنبول . وسلطان مصر والشام وما مع ذلك ملك الروم أبو النصر سليمان ابن السلطان سليم ابن عثمان ، وهو مقيم بمدينة أدرنْهْ فاراً من الطاعون .

ونايبه بدمشق خُرَّم باشا الذي كان نايب طرابلس ، وهو الآن بالبقاع متوجهاً للكبس على الدُّروز بالشُّوف الجبلي .

والقاضي بها الشمس أحمد بن يوسف الرومي الحنفي ، ونائبه من الحنفية بيري الرومي ، ومن الشافعية رضي الدين الغزّي[2] ، ومن الحنابلة زين الدين عبد الباسط البعلي . ونائبه بالصالحية الشمس ابن جبران المالكي ، وبمحلّة ميدان الحصا الشمس ابن مفلح الحنفي ، وبمحلّة مسجد القصب التقي ابن شهلا ، وقد كان قاضياً ببابه فلمّا حوّلت المحكمة إلى بيته فأظهر نفسه قاضياً بالمحلّة المذكورة .

ونائب القلعة الجديد إبراهيم كاسم [سابقه الأمير إبراهيم الرّومي][3] .

---

(1) الروض العاطر ، 33 ظ - 35 و ، عقب ترجمة أحمد بن عبد الوهاب الدمشقي الحنفي ، وقد أثبتنا الترجمة في محلها أدناه .

(2) الاسم مشطوب تماماً بالحبر ، ومثل ذلك سنراه أدناه في أخبار هذه السنة وتاليتها 931 هـ .

(3) في الأصل نقص في مخطوط الروض العاطر ، والتتمة من الحمصي ، 3 : 56 .

وفي يوم[1] الثلاثاء [9 المحرم] أتت البشائر بأن الباشا انتصر على الدُّروز ، وأحرق قرية الباروك ومعها ثلاث وأربعين قرية . وأرسل أربعة أحمال من رؤوسهم فعُلِّقت على القلعة .

ورجع خُرَّم باشا وصحبته مجلدات من كتب الدُّروز فيهـ[ـا] ردّ على أهل السنّة ، وأنهم يعتقدون إلهية الحاكم بأمر الله وينكرون فرضية الصلاة والصوم والحج وغير ذلك من الكفريات[2] .

وفي يوم[3] الثلاثا تاسع المحرّم سنة ثلاثين ، أتت البشارة بنصرة [خُرَّم باشا] على الدُّروز قرب عين قرحتا . ثم وصلت أربعة أحمال من رؤسهم ، وعُلِّقت على القلعة وفي شوارع دمشق[4] .

---

(1) الباشات والقضاة ، ص 6 .

(2) بعد ذلك ينقل ابن جمعة المقار عن المفاكهة الفتوى الشهيرة لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية عن مذاهب الأقليات الإسلامية في بلاد الشام ، ويختمها بعبارة : جرى ذلك وحرر في زمن كافل المملكة الشامية ، ملك الأمراء كنز الفقراء خرّم باشا ابن عبد الغفار في أوائل شهر محرم الحرام سنة ثلاثين وتسعماية . ويعدد أسماء فقهاء دمشق الذين صادقوا على مضمون هذه الفتوى : وكذا أجاب شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، والفقير محمد بن قاضي عجلون ، والفقير شهاب الدين أحمد القزويني الحنفي ، وبرهان الدين ابن إبراهيم بن عبد الحق ، وبدر الدين بن رضي الدين الغزي العامري الشافعي ، والفقير عبد الصمد بن محب الدين الحنفي ، وبدر الدين ابن مزلّق الشافعي ، وقطب الدين محمد ابن سلطان الحنفي ، والفقير تقي الدين بن نجم الدين الحنفي ، والفقير محمد بن أحمد الفلوجي الشافعي ، والفقير علي بن عماد الدين الشافعي .

(3) قمت بتكرار الخبر هنا من إعلام الورى (ص 241) ، لوجود بعض اختلاف به .

(4) يروى الحمصي (3 : 58) أن هذه الوقعة كانت في سادس المحرم سنة ثلاثين وتسعمائة ، ويفصّل بعض الشيء في وقائعها : فلما سافر إليهم ، نهبوا ما قدروا عليه من الضياع المذكورة ، فلم يكلموهم أهل تلك الضياع . فلما أرادوا أخذ النساء والأولاد وحملهم وسبيهم إلى دمشق ، وثب إليهم أهل تلك الضياع غيرةً على نسائهم ، وقتلوا منهم جمعاً كثيراً . فلما بلغ ذلك لنائب دمشق الأمير خرّم المذكور ، جمع من بلد دمشق وضواحيها مشاة ، وجمع عساكر البلد ومقطعيها وتجهز لقتالهم . فلما وصل إلى قرى وادي التيم ، وسمعوا بقدومه والعساكر التي معه ، تأهبوا لقتاله . فاقتتل الفريقان ، فقتل من جماعة وادي التيم جمع كثير ، فقطعت رؤوسهم وأحضرت إلى دمشق =

وفي يوم الجمعة ثاني عشر المحرّم من السنة ، خطب بالجامع الأموي العلاّمة شمس الدين الكفرسوسي الشافعي [34 و] عوضاً عن المسند شهاب الدين الحمصي الشافعي بعد عزله لكونه كُفّ بصرد ، وصلاة من هو كذلك مكروهة عند أبي حنيفة ، وغالب الأروام من مقلّديه ، فشكوا ذلك إلى قاضي البلد فعزله . ومُسك على هذا الخطيب الجديد بعض لحنات في القرآن ، وهو معذور فإنها أول خطبة خطبها فيما بلغني .

وفي يوم[1] الجمعة ثاني عشر المحرّم سنة ثلاثين وتسعمائة ، توفي القاضي زين الدين عبد الرحمن ابن الأكرم ابن عم نائب القلعة الأمير إسماعيل ابن الأكرم[2] . توفي بالعقبة بدرب الحجاز ، رحمه الله .

وفي يوم[3] الإثنين خامس عشره ، عاد [خُرَّم باشا] إلى دمشق في موكب حافل ، وكان في اللّيل تقدّمهم المشاة . ومعهم مجلّدات من كتب الدُّروز ، فبعضها ردّ على النصيرية ، وبعضها ردّ على أهل السنّة ، وظاهرها أنهم يعتقدون أُلوهيّة الحاكم بأمر الله ، وينكرون الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ ، وغير ذلك من الكفريات .

فشكره الناس على ما فعل ، وكان قد مدحه صاحبنا الشمس ابن القرّاء الصّالحي الحنفي - عند عصيان هؤلاء الدُّروز عليه ، وقتل صوباشيه وجماعته ، وعزم على الركوب عليهم - ملتزماً في أوائل الأبيات أحرف ترجمته ، واسمه والدّعاء له ، وفي أوائل أشطرها الثواني : محبّكم محمد الصّالحي . وقد ذكرتُها في غير هذا الموضع .

= مشهورين ثم نُصبت . وانهزم بقيتهم ، فعند ذلك أمر نائب دمشق المذكور بحرق رؤوسهم ونهب أموالهم وقطع أشجارهم ، ففعلوا ذلك .

(1) الكواكب ، 1 : 234 .

(2) انظر ما تقدم حوله في مطلع سنة 929 هـ . وهذه الترجمة لم يصرّح الغزي بمصدرها ، لكننا أثبتناها على غلبة الظن بأنها من المفاكهة .

(3) إعلام الورى ، ص 241 .

وفي يوم الخميس ثامن عشره قرر القاضي الكبير والخوجا بالجامع الأموي بضعاً وستين مقرئاً[1] يقرون القرآن كل يوم بعد الظهر ، عوضاً عن الوظائف التي أُهدرت منه .

* * * * *

وفي يوم[2] الجمعة سابع عشر صفر من السنة ، صُلّي غايبة بالجامع الأموي على الولي الصالح دَمرْدَاش ، وكان من مماليك قايتباي ، وكان رحمه الله تعالى إذا غلب عليه الحال يأكل نحو إردبّ أرز مفلفل . توفي في معاملة مصر ، فكان رجلاً صالحاً مباركاً .

ثم صُلّي عليه بالعمارة السليمية بالصالحية في الجمعة التي تليها .

وفي ليلة[3] الثلاثاء تاسع عشري صفر ، سنة ثلاثين وتسعمائة ، مات الشيخ الصالح أحمد بن محمد المدعو الشيخ مبارك ثم الشيخ إسمعيل الأوغاني ثم الدمشقي الحنفي . ودُفن بحوش تربة ابن العربي ، رحمه الله تعالى .

قدم دمشق وهو طفل ، فحفظ القرآن بالجامع الأموي ، وولي خدمة المصاحف ، ثم عمل بوّاباً عند الأمير عبد القادر ابن منجك . ثم لمّا قدم السّلطان سليم إلى دمشق ، خدم قاضي عسكره ابن زيرك ، فقرّره في بعض الوظائف . ثم أُعطي نظارة التكيّة بصالحية دمشق .

* * * * *

(1) علّق الأيوبي في روضه : قلتُ : وقد صاروا اليوم مايه وستين مقرىء ، والله أعلم .
(2) الروض العاطر ؛ والكواكب ، 1 : 192 ؛ والباشات ، 8 . غير أن الغزي جعل تاريخ وفاته في 17 المحرم وليس صفر . وقريب من ذلك ما أورده الحمصي ، 3 : 59 .
(3) الكواكب ، 1 : 302 .

وفي يوم[1] الخميس تاسع عشر في ربيع الأول من السنة المذكورة ، وصل كتخدا نايب مصر أحمد باشا وأخبر عنه أنه عصى على السلطان ، وأنه ضرب السكّة باسمه وكتب على الدراهم في الوجه الأول كلمتي الشهادة ، وفي الثانية : لا أفلح من ظلم السلطان أحمد قرمان . وأنه قتل كتخدا الإنكشارية والإصباهية وقتل من تحقّق أنه من جهة السلطان ، وقدّم الجراكسة وتحيّل على أخذ اسكندريّة .

وفي يوم الجمعة ورد مبشّر من الجراكسة بأن الذي تسلطن بمصر كُبس عليه الحمّام وهرب ، فأُخذت منه القلعة وقُتل . مسكه مقدّم بعض العرب أحمد ابن بغداد ، وكان قد عصى عليه قبل ذلك .

* * * * *

ثم إن الفلكيّة[2] قالوا في ربيع الثاني سنة ثلاثين يحصل قرانات خمسة بين الكواكب السّبعة خلال القمر ، ينشأ عنه طوفان . وجاء من الرّوم كتاب يؤيّده .

فانتقل القاضي [الشهاب أحمد ابن كوج] مع كثرة الطّاعون بدمشق ، وشيّع ولديه إلى داريّا ، وسكن ببيت عبد الرّحيم ابن شيخنا البرهان ابن المعتمد ، واستمرّ فيه اثنين وأربعين يوماً . فغلب على ظنّه عدم حصول الطوفان بدمشق ، فعاد إلى سكنه بها .

* * * * *

(1) الباشات ، ص 7 . وذكر الحمصي (3 : 62) الخبر بتفاصيل أكثر ، فلتراجع .
(2) الثغر البسام ، 311 .

وفي هذه[1] السنة [في يوم الأحد حادي عشر جُمادى الأولى ، سنة ثلاثين وتسعمائة] توفي بالديار المصرية الأستاذ الكبير سيّد علي المَرْصِفي .

* * * * *

وفي يوم الثلاثاء ثامن جمادى الآخرة من السنة توفي الولد محمد بن محمد ابن محمد ابن الخيضري شمس الدين ابن القاضي محبّ الدين ابن قاضي القضاة قُطب الدين مطعوناً ، وكان ولداً ساكناً محبّاً للاشتغال بالعلم وله رغبة في شراء الكتب . قرأ على الشيخ شمس الدين محمد بن طولون الحنفي الصالحي[2] بعض ألفية ابن مالك حلاً بالجامع الأموي ، وكان عُرض عليه الغاية في الفقه بالصالحية ، ثم شرع في حلّها على الشيخ تقي الدين القاري .

وحضر جنازته السيد كمال الدين ابن حمزة وجماعة من الأعيان ، ودُفن من غده بتربة ابن المُزَلّق عند مسجد الذبّان . وتأسّف الناس عليه ، ولم يكن بدمشق أحسن شكلاً منه ، ورثاه الولد أحمد بن الصفّوري صاحبه بقصيدة طنّانة .

قال ابن طولون : أعرضها علي .

وفيه بلغني أن الطاعون تزايد حتى وصل إلى مائتين بدمشق وإلى ثلاثين بصالحيتها ، وأن القاضي الكبير والمتولّي (عثمان ابن مُلاّ شمس)[3] ذهبا إلى معلولا بحريمهما ، ثم عادا إلى حرستا (الزيتون) لوجود الطعن في تلك الناحية .

---

(1) الكواكب ، 1 : 269 ؛ والباشات ، 8 . والخبر نقله المقّار بإيجازه المعتاد عن ابن طولون ، أما التاريخ فقد نقلته من الغزي الذي حرّره من تاريخ العلائي . ولا يبعد أن يكون ابن طولون نفسه لم يعرف تاريخ وفاته ، فلماذا لم ينقل عنه الغزي مثلاً ؟

(2) هذا ما كتبه الأيوبي ناقلاً عن المفاكهة ، وبالأصل منطقياً : قرأ على كاتبه .

(3) ما بين قوسين إضافة من الثغر البسام ، 311 .

ثـم فرّا إلى وادي بَرَدا ، ثـم أخـذا حريمهمـا إليـه وأسـكناه بالهامـة إلى أن ارتفـع الطاعون وسلما . وأنكر عليهما عقلاء أبناء العرب ذلك من حيث الشرع .

وفي يوم الأربعـاء ثـالث عشـريه ، ورد أولاق ضخـم بعـزل القـاضي الكبير الشمس ابن يوسف الرومي ، وتولية دمشق لقاضيهـا الأسبق الولـوي ولـي الديـن ابن الفُرفور ، وتاريخ توليته ثاني عشري جمادى الأولى مـن هـذه السـنة ، كـذا في المرسوم . [34 ظ] ومعه كتاب منه باستمرار من كان متوليّاً من النوّاب على عادتـه إلى أن يحضر القاضي .

لكن حُوِّلت المحكمة – قيل بإشارة النايب والخُجَا شـيخه – إلى البادرائيّـة ، ثم انثنى عزمهم إلى الشميصاطيّة .

ثم تكلّم في عزلهم ، خلا القاضي رضي الدين الغزّي [1] ، وبُدئ بعزل عبد الباسط البعلي الحنبلي وعُيِّن عوضه الزين ابن الرُّجيحي ، فلم يتم ذلك واستمرّوا على عادتهم بعد خمسة أيام .

قال ابن طولون [2] :

وفي يوم الإثنين ثامن عشـريه مـررتُ قبلـيّ المدرسـة القيمريّة الكبرى داخـل دمشـق ، فرأيـتُ هنـاك قطّـة غَـبراء وفيهـا بعـض سـواد ، متضعّفـة ، وهـي ترضـع خمس جراء من الكلاب ، كل واحد أكبر منها ، قيل لموت أمّهم . فسبحان المحنّن لمخلوقاته بعضهم على بعض وإن اختلفت الأنواع .

وفي هذا اليوم بلغني أن الخُجَا متولي الجـامع الأمـوي عـزل ابـن الرَّمْلـي مـن نصف الإمامة ، وجعلها مستقلّة لشريكه الشيخ تقيّ الدين ابن القـاري ، فصـارت محصورة إمامة الشافعيّة فيه ، كما أن إمامة الحنفيّة محصورة في أخينـا أمـين الديـن

---

(1) الاسـم في مخطوط الروض العاطر ممسـوح ، غير أنه مـا زال مقروءاً بصعوبة . انظر مـا تكرر من ذلك وسببه في حوادث سنة 931 هـ الآتية تلوه .

(2) مثل هذه الأخبار العامية والمشاهدات الشخصية هي التي تغني كتاب المفاكهة بالفعل .

ابن عَوْن . ثم عوّض ابن الرَّمْلي بأذان الجامع الأموي على العادة ، وعزل الشمس الكفرسوسي من خطابة الجامع وولاّها لجلال الدين البصروي .

* * * * *

وفي يوم[1] الثلاثاء ثالث عشر رجب ، سنة ثلاثين وتسعمائة ، توفي الولد شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد القادر الدمشقي الحنفي ، ابن القاضي تاج الدين سرّ ديوان القلعة [33 ظ] سبط شيخ الإسلام زين الدين ابن العيني الحنفي .

حفظ القرآن على الشيخ معروف الجبرتي إمام الصابونيّة ، ثم كتاب المختار والأجروميّة وغيره ، وعرضهم على ابن طولون وغيره . وقرأ بدمشق على القطب ابن سلطان ، وحضر بالجامع الأموي وسمع الدروس من علماء عصره .

وتوفي مطعوناً ، ولم يُدفن بتربة والده ولا جدّه لأمّه ، بل دُفن في تربة يحيى ابن أخت والده بعد أن صلّى عليه بالجامع الأموي السيّد كمال الدين ابن حمزة . وكان له جنازة حافلة ، وتأسّف الناس عليه لحسن شكله وعقله ، وعمره ثمانية عشر سنة .

قال ابن طولون ، رحمه الله : وكان سألني قبل أن أصيب بيوم عن العمامة للميّت ، فقلت له : ذُكر في المبسوط أنه استحسنها بعض المشايخ لحديث ابن عمر أنه كان يعمّم الميت ويجعل ذنب العمامة على وجهه بخلاف حياته ، فإنه يرسل ذنب العمامة من قبل القفا ، يعني الذنب . ومنهم من قال : لا يُعمّم ، لأن السنّة أن يكون الكفن وتراً ، ولو كانت لكان شفعاً .

---

(1) الروض العاطر ، 33 و .

وفي ليلة[1] الخميس رابع عشر رجب من السنة ، احترق باب البريد وما انضاف إليه من باب الجامع إلى العصرونيّة ، ومن خان ابن البارزي إلى أول سوق الجسر ، واحترق في ضمنه قيساريّتان والجبس ودار الحديث المعروفة بدويرة حَمَد[2] . وقيل إن النار طلعت من الطّباق فوق دكّان المكفّناتي ، وأصلها من طَبَقَة أمرد يقال له ابن السُّيوفي ، علّق النار فيها بعض محبيه من الإنكشاريّة . ولم يثبت ذلك ، بل ثبت أنها من طَبَقَة شخص بالطواقيّين يقال له ابن السَّجّان .

وذهب للناس فيه مال كثير ، وشرع الخُجَا ناظر الجامع في عمارته قَبْواً ، وكان قد شرع في عمارة قيساريّة بالطواقيّين للجامع ، وكانت خَرِبة من أيام اللّنك ، فتركها وأراد شراية جدران القصر الأبلق بالمرجة لأجل عمارة هذا السوق ، فغلّى ثمنه الأمين فتركه .

وفي يوم الأحد رابع عشريه ، عاد الدَّفْتَردار نوح جلبي إلى دمشق ، وشرع يُخرِّج أراضي ضواحي دمشق ، كأرزة والنَّيْرَب [35 و] عُشْراً وخَرَاجاً ، على أن الشّام خَرَاجيّة ، ولم يُعوِّل على مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه من أنه لا يجوز الجمع بين العُشْر والخَرَاج .

وكذا خرَّج أوقاف ما تهدّم من المعابد ، كجامع بيت لَهْيَا ، تِمَارات[3] للمُقاتلة .

---

(1) عودة إلى النقل من مخطوط الروض العاطر .

(2) بالأصل : حميد . ودويرة حمد هذه ذكرها النعيمي في الدارس (2: 146) باسم الخانقاه الدويرية المعروفة بدويرة حمد . وأصلها كما يبين النعيمي خانقاه للصوفية وليست داراً للحديث كما يرد هنا . وحول الحريق انظر الحمصي (3: 65) لكنه ذكره في 14 شعبان : حُرِق سوق باب البريد وسوق الخريزاتية وقاسارية الماحوزي وسجن الحاكم ، ووصل الحريق إلى باب الجامع الأموي الذي من جهة الغرب وحرقه . ولولا لطف الله لحرق الجامع الأموي ، وذهب للناس من الأموال والقماش ما لا يُعد ولا يحصى ، والله المستعان . وحول ترميم باب البريد انظر الكواكب 2: 109 في ترجمة خجا كمال .

(3) التيمار كلمة تركية timar ، نوع من الإقطاع العسكري الخاص بفرسان الساهية ، الذين تمنحهم الدولة إقطاعات مقابل خدمتهم في جيشها . وهناك أيضاً الخاص والزعامت .

وفي يوم[1] الثلاثاء سابع عشري رجب منها ، عزم القاضي المنفصل على التوجّه إلى الرّوم ، من الهامة لوادي بردى ، فوصل له أولاق باستمراره بدمشق مفتشاً .

وفي ليلة الأربعاء ثامن عشريه ، وصل القاضي الجديد [الولوي ابن الفرفور][2] ، فأصبح في بيته .

ثم إن هذا القاضي الكبير حوّل المحكمة إلى الجوزيّة .

* * * * *

وفي يوم[3] الإثنين ثامن عشر [شعبان] المذكور ، توجّه خُرَّم باشا لقتال الدُّروز بالشوف ، لقتلهم الصُّوباشي .

وفي يوم[4] الإثنين ثامن عشر شعبان منها ، توجّه لقتال الدُّروز بالشُّوف لقتلهم صوباشيّه ، وودّعه القاضي الكبير وهو لابس صوفاً أبيض بفرو سمّور ، على بغلة أهداها له هذا النائب بالأمس . وكذا الحُجَا شيخُه . بعد أن أخذ من دمشق وضواحيها أربعمائة ماشٍ بجامكيّة من عنده .

---

(1) الثغر البسام ، ص 312 .

(2) زيادة يقتضيها السياق .

(3) الباشات ، ص 8 . وهي الحملة الثانية على الشوف في جبل لبنان .

(4) الخبر نفسه من إعلام الورى (ص 241) نقلناه لاختلاف بعض التفاصيل ، وفي المطبوع : توجه لقتال الدروز بسوق البن . فهل هي مصحفة عن الشوف أم عن سوق الغرب ؟ وأما الحمصي فيذكر في تاريخه (3: 65) : شعبان ، ثاني عشره سافر نائب الشام خرّم الرومي هو وعسكر دمشق إلى بلاد الدروز قاصدين تخريبها وقتل أهلها . وسبب ذلك أنهم قتلوا رومياً بسبب أنه أراد اللواط بصبي منهم ، فمنعوه فلم يمتنع فقتلوه . قلنا : وفي هاتين الحملتين وأسبابهما التي يندى لها الجبين أبلغ دليل على تمادي الروح الطائفية آنذاك ، وإذكاء الدولة العثمانية لها بدلاً من الحدّ من غلوائها .

وفي يوم[1] الثلاثاء سادس عشر[ي] شعبان ، وصل إلى دمشق ثلاثة أحمال رؤوس من الدُّروز ، فأُحرق نحو ثلاثين قرية ، ثم نهب قرية البُرج[2] ، وكان النّهب قريباً من ثلثماية من النساء والأطفال ، وما لا ينضبط من البقر والجمال والغنم وغير ذلك .

وفي يوم[3] الثلاثا سادس عشريه ، وصل إلى دمشق ثلاثة أحمال من رؤس هؤلاء الدُّروز ، وطيف بها على أرماح ، وفُرِّقت في الأسواق والحارات ، ثم عُلِّقت بالقلعة ، وأُطلق بها نفط لأجل البشارة بالنّصرة .

وكانت هذه المرّة بغير قتال ، وحُرق نحو ثلاثين قرية ، ونُهب عدّة أخرى ، وفسق بعضهم في النساء والأطفال . وجيء منهم ببعض كتب تدلّ على اعتقادهم الفاسد كما قدّمنا ، ولهذا أفتى الشيخ تقي الدين البلاطنسي الشافعي بحِلّ دمائهم وأموالهم .

ثم عاد النائب وتلقّاه من ودّعه .

* * * * *

وفي يوم الإثنين ثالث عشرين رمضان من السنة ، مات الخُجَا شيخ النايب ، ناظر الجامع الأموي ، وغالب من بدمشق ترحّم عليه مقلوباً[4] ، لأن لسانه كان زَفِراً ويزدري الأكابر فضلاً عن الأصاغر ويستنقص منهم ، ووجهه غير مقبول ، ونُسب إلى الرّفض وإلى شُرب الخمر .

---

(1) الباشات ، 8 .

(2) في جبل لبنان عدة قرى بهذا الاسم ، فلا مجال للجزم بالمقصود بهذه هنا .

(3) الخبر من إعلام الورى (ص 241) ، كررناه لمقارنة الاختلاف .

(4) يعني بقولهم : لا رحمه الله .

ودُفن ببيته قبلي الشاذبكيّة بالقنوات بعد أن صلّى عليه قاضي البلد والصُّوباشي ، ولم يصلِّ عليه النَايب . وطلع معه مال جزيل ، ورُتّب على قبره قنديل وثمان مُقرئة .

* * * * *

وفي يوم الخميس رابع شوّال من السنة ، سافر محمل الحاج ، وطلع معه القاضي والنايب وجمعٌ من الفقهاء ، وأميره نايب صَفَد ، وقاضيه القسّام . واستمرّ ثلاثة أيام على القبّة التي عمّرها يَلْبُغا اليحياوي نائب الشام ، ثم سافر في ليلة الرابع على الطريق الغزّاوي .

وهذا الحج غالبه من الشاميين والحلبيين ، وهو كثير جداً لكونه عقيب نَصْل وطاعون على ما جرت به العدة ، وأما الأروام فقليل . وحجّ معهم الولد وليّ الدين ابن بنت الحُمْراوي ، والأخ شهاب الدين بن سالم . انتهى ذلك .

* * * * *

وفي يوم[1] السبت سادس القعدة الحرام ، سنة ثلاثين وتسعمائة ، توفي الشيخ الصالح عمر الحموي الحائك ، أحد مجاذيب دمشق ، كان من جماعة الشيخ علي ابن مكنا الحائك .

قال ابن طولون : كان يقبل من الناس الصدقات ، ولكن كان يؤثر بها . وربما حصل منه كشف ، وكان يقول : قال لي القديم كذا . ويرفع يديه إلى

---

(1) الكواكب ، 2: 228 .

السماء ويكاشف .

وصُلّي عليه بالجامع المظفّري بسفح قاسيون ، ودُفن بتربة العجمي التي كان مقيماً بها حال حياته . وحضر جنازته جماعة من الصّلحاء ، منهم الشيخ عمر العقيبي الإسكاف .

* * * * *

ذكر ابن طولون في تاريخه المرتّب على الأيام [1] :

وفي يوم الأحد حادي عشر ذي الحجّة ، سنة ثلاثين وتسعمائة ، توفي الشيخ الصالح المبارك المعتقَد أبو سنقر البعلي الدمشقي ، بالبيمارستان النوري .

وقال الشيخ شمس الدين ابن طولون : كان يقال إنه من الأبدال ، وأنه خفير الشام . قال : ولا شك في صلاحه ، قال : وكان عليه عمامة كبيرة فيها ورقة ، فإذا أراد أحداً يكتب وحضّر دواة استكتبه فيها ما تيسّر . قال : وكان يتكلّم بكلام فيه كشف .

ودُفن بباب الصغير .

* * * * *

---

(1) الكواكب ، 1 : 121 . وفيه كتب الغزي ملاحظة هامة حول دقة ابن طولون في النقل : وكانت وفاته في يوم الأحد حادي عشر ذي الحجة ، سنة ثلاثين وتسعمائة بالبيمارستان النوري بدمشق . . كذا قال الشيخ موسى ، لكنه أرخ وفاته في صفر سنة إحدى وثلاثين أخذاً مما وجده مكتوباً على قبره بالحبر . والأول أصح ، لأنه الذي أرّخه ابن طولون في تاريخه المرتب على الأيام ، وكذلك الحمصي . قلنا : أما الشيخ موسى فهو صاحبنا الأيوبي صاحب الروض العاطر ، وشهادة الغزي في قيمة المفاكهة لها شأن لا ينكر .

وفي هذه السنة [1] المذكورة وقعت أُعجوبة ، أن شخصاً من قرى جزائر الغرب اجتاز ببعض الأودية فرأى جرو سبع بقدر القطّ ، فحمله وجاء به إلى زوجته وكانت ترضع ، فرضّعت الجرو مع ولدها . فلمّا كبر الولد صار يسير مع الغلام ، وكان الغلام يرعى الأغنام وهو معه لا يفارقه .

فمرّ الغلام على قرية من القرى ، فرأى امرأة وسط دار فشُغف بها ، وصار كل يوم يجيء إلى تلك الدار ، وكان السّبع يحرس الأغنام . فدخل الغلام [يوماً] تلك الدار ولم يخرج أبداً ، فاستنظره السّبع يوماً كاملاً إلى المساء ، فعاد السّبع ساق [الغنم] وتوجّه إلى دار صاحبه . فلمّا رأت أم الغلام السّبع وليس معهم الغلام ، طاش عقلها والتفتت إلى السبع وقالت له : أين أخوك ؟ . . اخرج وائتني به .

فخرج السّبع هائماً على وجهه إلى أن وصل إلى تلك القرية ، ونزل الدار التي فيها الغلام فوجده قتيلاً . فقتل السّبع كل من كان في تلك الدار ولم يُبقِ فيها أحداً ، وخرج منها وذهب ولم يشعر به أحد .

* * * * *

(1) الباشات والقضاة ، ص 8 .

[حوادث سنة 931 هـ]

قال ابن طولون[1]:

استهلّت هذه السنة ، يعني سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ، والخليفة على ما هو عليه ، وهو مقيم باصطنبول . والسلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان ، وهو مقيم باصطنبول .

ونايبه بدمشق خُرَّم باشا[2] ، وهو مقيم بها .

والقاضي بها الولوي ولي الدين ابن الفرفور ، ونايبه من الحنفية النجم ابن الزُّهيري ، وبالمحكمة مدرّس العينية عبد الرّحمن الرّومي ، ومن الشافعية القاضي رضي الدين الغزّي ، ومن الحنابلة الزين ابن الرُّجيحي . ونايبه بصالحيتها الشمس ابن جبران المالكي ، وبمحكمة ميدان الحصا الشمس ابن مفلح الحنفي ، وقناة العوني العلاء ابن [حمص] .

ونايب القلعة حسين العجمي ثم الرّومي .

---

(1) الروض العاطر ، 31 ظ - 33 و ، عقب ترجمة أحمد بن عبد الرحمن الشويكي ، وقد أثبتنا ترجمته في محلها أدناه .

(2) يذكر المقار (ص 8) : وفي سنة 931 هـ تولى دمشق سليمان باشا الطواشي ، وقاضيها ولي الدين ابن مفلح . وسيرد تولي سليمان باشا أدناه في حوادث ربيع الأول .

وفي يوم الأربعاء سابع عشري المحرّم من السنة ، وصل مبشِّر الحاج ومعه كتب بعض الأكابر ، وفيها أن الوقفة كانت الجمعة كما كانت في دمشق ، وأنه حصل موت عظيم في الجمال في الطلعة ، وعطش شديد بمكّة عند الذهاب إلى عرفة ، حتى أُبيع الكراز الماء بقطعة . ثم لطف الله تعالى بحصول بعض مطر ، كما وقع كثيراً بحلب ودمشق .

وأن القماش قليل ، وأنه أُبيع الحمل الطحين بنحو الألفين ، والصاع التمر والجوزة الواحدة بنحو العشرين . وجاور خلقٌ لقلّة الجمال ، ولم يأت من المجاورين سوى الولد عز الدين ابن الباعوني . وأنه طلع عليهم أمير العرب جُفَيْمان بوادي العُقَيِّق ، بضم العين المهملة وفتح القاف وتشديد الياء المثنّاة من تحت ، بين المُنَيْبع ومنزلة الوحة . فرموه بعربة كانت معهم ومكاحل البندق الرصاص ، فولّى هارباً ولم ينل من الحجّ قصده ، وكان مُرامه أخذ الحج الشامي لكونه ذهب على ذلك الطريق ولم يُعطَ صُرره .

ثم بعد يومين في سَلْخ الشهر وصلت كتب الحاج جميعهم وأخبرت بما ذكرناه .

وفي يوم الخميس ثامن عشريه من السنة ، طلع أمين السلطان الساكن بباب البريد ، ومعه القاضي رضي الدين الغزّي الشافعي إلى مدرسة الحنابلة ، مدرسة [32 و] الشيخ أبي عُمَر ، للتفتيش على أحوالها . فابتدوا بتكسير الخلاوي التي على البلاط ، وأرموا ما فيها من الكتب والحوايج ، وسكّنوها لسَفَلة الأروام ، وابتدأوا بخلوة ابن عُبادة ثم الزين الشُّويكي ثم العماد ابن الذّنابي [1] .

---

(1) كتب الأيوبي معلقاً في الروض العاطر ترجمة طويلة ، منها : قلتُ : ومنشئ هذه المدرسة شيخ الإسلام أبي عمر عبد الرحمن ابن أبي عمر محمد بن أحمد بن قُدامة بن مقدام ابن نصر بن فتح بن محمد بن يعقوب بن القاسم بن إسماعيل بن إبراهيم بن إسماعيل ابن حسين بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطّاب ، القُرَشي المقدسي الجُمّاعيلي الصالحي ، شيخ الإسلام . توفي سنة اثنتين وثمانين وستمائة .

وفي صفر[1] سنة أحد وثلاثين عُزل [نائب دمشق خُرَّم باشا] ، ثم سافر، ثـم أُعيد إلى دمشق للتفتيش عليه بالمرجة ، ثـم طُلب كل من له عليه حق أو علفـة وأرضاهم بإشارة الوزير إبراهيم باشا للشكاية عليه إليه .

ثم سافر ، وأشيع قتله في رجب منها[2] ، والله أعلم بصحته .

* * * * *

وفي يوم[3] الثلاثا تاسع عشري [ربيع] الأول منها ، دخل النائب الجديد سليمان باشا الطواشي عوضاً عن خُرَّم في موكب عظيم ، أُشعل لـه سوق مسجد القصب وما اتصل به ، وبيده جرزة ورد ، وهو مجلوب إلى دمشق . وقد كان سكن المطر ، وكان له من أول المربعينيات يمطر غزيراً ، ثم عاد سرعة واستمر إلى أن انسلخت .

ثم صلّى أول جمعة بالعمارة السّليمية بالصالحية وهي ماطرة ، وضيّفه بها المتكلّم عليها الكمال ضيافة حافلة ، فتشكّر له وانصرف .

ثم صلّى ثاني جمعة بالجامع الأموي ، وأوقد له شمع كثير بباب البريد ، ثم زار قبر يحيى بن زكريا عليهما السلام ، وشاع أنه متكلّم عليه .

واستمر إلى أن خرج إلى الخربة ، بعد أن فرض على السُّوقة ترحيلة لأخذهم معه[4] .

---

(1) إعلام الورى ، 242 .

(2) واضح أن هذه الأخبار لاحقة للتاريخ المذكور ، وهذا إرباك اعتدنا عليه هنا لدى النقل من إعلام الورى ، ومردّ ذلك إلى كونه تاريخاً حولياً لا ينتهج اليوميات كالمفاكهة .

(3) إعلام الورى أيضاً .

(4) هذه الأخبار أدناه تالية لهذا التاريخ .

ثم انتقل إلى المرج ، ووصل إليه في يوم الخميس ثامن عشر رجب منها .

ثم ورد عليه مرسوم بعزله عن نيابة دمشق وتوجهه إلى مصر .

ثم جاء نائب طرابلس للحكم بها إلى أن يحضر نائبها الجديد .

* * * * *

قال ابن طولون في تاريخه ، في حوادث سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة [1] :

[وفي] يوم الجمعة ثاني جُمادى [الأولى] صُلّي غائبة بالجامع الأموي على الشيخ الصالح محمد المنيّر ، توفي بزاويته قرب الخانكاه من أرض مصر . وكان في كل عام يصوم رمضان بالجامع الأزهر ، ويختم في كل يوم وليلة ختمةً ، ويحجّ كل عام ماشياً ، ويزور قبر النبي صلّى الله عليه وسلّم .

ولما كان آخر عام حجّ فيه ، نام في مسجد المدينة ، فرأى النبي صلّى الله عليه وسلّم في المنام ، وقال له : ياشيخ محمد لا بقيت تتعب نفسك ، قد قبلناك . انتهى .

* * * * *

وفي يوم[2] الإثنين سادس عشري جُمادى الآخرة ، سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ، توفي الشيخ الصالح تقي الدين أبو بكر الحمصي ، أحد صوفية الشميصاتية والنازلين بها . وكان يحفظ القرآن حفظاً جيداً .

---

(1) الكواكب ، 1 : 97 . وللغزي قول مغاير في تاريخ وفاته .
(2) الكواكب ، 1 : 120 .

قال ابن طولون : وهرع الناس إلى جنازته والصّلاة عليه ، ولم أر أحداً بدمشق إلا شهد له بالصّلاح . ودُفن بباب الصغير ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

* * * * *

وفي يوم[1] الأربعاء سابع شعبان ، سنة واحد وثلاثين وتسعمائة ، توفي [الولد] شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن بن عمر الشويكي الأصل الصالحي الحنبلي . حفظ القرآن ، ثم المقنع للموفق ابن قُدامة ثم شرع في حلّه على ابن عمّه العلاّمة شهاب الدين الشويكي ، وقرأ الشفاء للقاضي عيّاض على الشهاب الحمصي ، وقرأ على الشيخ شمس الدين محمد ابن طولون في العربية . وبرع في الفقه [31 ظ] وعنده سكون وحشمة وميل إلى فعل الخير .

ودُفن قبلي صُفّة الدُّعاء بالرّوضة بسفح قاسيون ولم يكمل العشرين سنة ، فإن عمره تسع عشرة سنة ونصف سنة . وتأسّف الناس عليه ، وصبر والده واحتسب . ولو عمّر لكان يترقّى إلى التدريس .

قال ابن طولون[2] :

وفي يوم الأربعاء رابع عشر شعبان من السنة ، أعني سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ، وصل الوزير الأعظم إبرهيم باشا[3] إلى دمشق ونزل بالمرجة ، وعزمه عدم الإقامة لما قيل إن السلطان سليمان أرسل يستعجله .

وأُشيع أن عسكر اصطنبول نهب البيوت وقتلوا أم الوزير ، وهي نصرانية

---

(1) الروض العاطر ، 31 و .

(2) الروض ، 32 ظ .

(3) ذكر الغزي مجيء إبراهيم باشا في غير موضع من كتابه ، انظر مثلاً 1 : 42 ، 55 .

غير مسلمة وتُنسب إلى السّحر في المعرفة ، بسبب أنهم طلبوا من السلطان جامكيّة فأوقفها إلى خُجَى هذا الوزير .

ووصل معه قَفْلٌ كبير .

وفي يوم الخميس خامس عشره ، توجّه شيخ الإسلام السيّد كمال الدين ابن حمزة ، والشيخ شمس الدين الكفرسوسي وجماعة من الصُّوفية وغيرهم ، للسلام على الوزير الأعظم إبرهيم باشا . وعزموا على أن يذكروا له أشياء ، منها أخذ الأولاقية لخيول الناس ، ومنها خطف الأروام العمائم الكبار .

وفي عشيّة هذا اليوم خُطفت عمامة القاضي أمين الدين ابن عُبادة عند جسر الشِّبليّة ، وكانت تساوي نحو الثلاثين ديناراً .

ومنها إبطال يَسَق النّكاح ، فإن بعض الفقراء قد يقع عليه الطّلاق ويستمرّ مع زوجته في الحرام لعدم قدرته على وزنه . ومنها إبطال المفتش عبد الغني لتشديده على الناس ، وقصده أخذ جهاتهم .

فلمّا وصلوا إلى مخيّم الوزير تحجّب منهم ، فتوجّهوا إلى عند الدّفتردار الأعظم إسكندر باشا ، فسلّموا عليه ووجدوا عنده المفتّش عبد الغني . وقد كان القاضي رضي الدين الغزّي سبقهم إليه ، وأعلمه بأن قصدهم الشكيّة عليه . فتوجّه قدّامهم إلى عند هذا الدّفتردار ، فاستطال عليهم وأفحش مع السيّد . فسلّموا وانصرفوا إلى قاضي العسكر ، فسلّموا عليه وأخبروه بما وقع ، فطيّب خواطرهم وأوعدهم بأن يذكر ذلك للوزير عند العصر .

ثم رجعوا وقد تأثروا من ذلك .

وفي يوم الجمعة سادس عشره ، أي شهر شعبان المكرّم سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة [33 و] لم يُصلِّ هذا الوزير الجمعة ، وشرع في السفر ، وقد أخذ المال الذي في القلعة وعزل نائبها وأعاد المنفصل عنها . وعيّن نائباً للشام يُقال له لُطفي

باشا ، وهو الآن أمير الأمراء ببلاد قَرَمان ؛ وسَنجقاً لصَفَد ، وسَنجقاً لنابلس ، وسَنجقاً للغَوْر ، وسَنجقاً للكَرَك ، وسَنجقاً للصَّلْت وعجلون .

وفي يوم السبت سابع عشره ، رحل من دمشق متوجّهاً إلى الرّوم ، وخرج معه لوداعه نايب الغيبة وعاد من القُطَيْفة ، وناظر التكيّة وعاد من قارا .

* * * * *

وفي يوم الأحد سادس عشر شوّال من السنة ، وصل قاضي البلد من توديع الوزير ، وقد فارقه من عنتاب . ثم عزل القاضي رضي الدين الغزّي الشافعي وولّى عوضه في المحكمة قريبه البرهان ابن الأخنائي . وسبب عزله ما قيل إن المفتش عبد الغني قال : أنا ليس لي ذنب في التقييد والتشديد على أهل دمشق ، إنما الذنب للقاضي رضي الدين الغزّي[1] فإنه كان يغريني على ذلك . والله أعلم .

ووصل معه مرسوم من الوزير المُشار إليه ، للسيد كمال الدين ابن حمزة بثلاثين عثمانياً مرتبة على الجوالي في كل يوم ، وثانيهما للشمس الكفرسوسي بعشرين عثمانياً مرتبة عليها أيضاً ، جَبْراً لخاطرهما من الوزير لمّا تحجّب عنهما كما قدّمناه .

ووصل صحبته يونس الخيّاط ، وقد ولي نظر مدرسة الشِّبلية بالسَّفح عوضاً عن القاضي شمس الدين ابن مفلح ، وابن الترجمان وقد ولي نظر دار الحديث الأشرفية أيضاً عوضاً عن الشرفي قاضي دمشق - كان - أخي القاضي شمس الدين ابن مفلح المذكور ، وهو الآن في اصطنبول .

---

(1) اسم الغزي مشطوب هنا أيضاً ، كما سلف في الأعوام السالفة ، وربما كان هذا الأمر المذكور هنا هو السبب في ذلك ، شطبه بعض من تضرر به ؟ انظر أيضاً شوال 936 هـ .

ووصل صحبتهم مرسوم لحسن الرّومي ناظر العذراوية بالنظر على الأتابكية . فصولحوا الثلاثة وأُخذت مراسيمهم ، واستمرّ من كان على ما كان .

وتبيّن أن الدّفتردار نوح توجّه إلى الرّوم ، وقيل إن الوزير عيّن موضعه مفتي طرابلس .

* * * * *

وفي يوم[1] الأحد سابع ذي القعدة من السنة ، أُتي بامرأة من قرية برزة قطعتْ ذَكَر زوجها ، فجيء بها فأنكرت ولم تعترف . فعُذّبت بالضرب ثم بوضع القطّ في لباسها ثم بحرق أصابعها مع القَصَب ، ثم جُرَّت في ذَنَب فَرَس إلى أن ماتت . ثم مات زوجها عقبها .

وفي يوم[2] الخميس تاسع عشر ذي القعدة منها ، قدم النائب الجديد لطفي إلى دمشق ، وتلقّاه قاضي القضاة ونائب غيبته والأكابر . ولم يصلٍّ هذه الجمعة .

ثم صلّى النائب بالجامع الأموي وزار المصحف العثماني .

ثم الجمعة الثالثة بالعمارة السّليمية بالسّفح ، وزار الشيخ المحيوي ابن العربي ، وضيّفه المتكلّم عليها الكمال ضيافة هائلة .

---

(1) الخبر من الروض العاطر ، تتمة النقل من أعلاه ، وكذلك ساقه ابن جمعة ، 8 . وهو لعمري حادث خطير ينبغي لكل زوج الاحتراس من وقوع مثله . والطريف أن مثل ذلك وقع بدمشق غير مرة ، فيذكر البديري الحلاق في حوادثه (ص 147) في جمادى الآخرة سنة 1163 هـ : وفي تلك الأيام جيء لحضرة الوزير بامرأة قتلت زوجها ، فسألها عن السبب ، فقالت له إنه تزوج علي فلما كانت ليلتي نام وتركني ، فقمتُ وقطعتُ ذكره وقلت : لا لي ولا لها . فمات من ذلك !

(2) إعلام الورى ، 243 .

ثم فرض ترحيلة على السُّوقة ، ثم رحل بهم إلى الخربة[1] لتربيع الخيل .

ثم عاد على المرج لقمع عرب آل علي ، فإنهم زادوا في تعدّيهم ، وقد وقع بينهم وبين أهل المرج مقتلة عظيمة قبل وصوله . ثم مسك شويخ وابن عمّه أبو حمرا ، كبيري آل علي[2] ، ثم قتلهما بعد دخوله إلى دمشق[3] .

* * * * *

(1) تقدم ذكرها ، وهي غالباً خربة غزالة في حوران .

(2) المقصود بآل علي دون شك عشيرة الولد علي المعروفة ، إحدى بطون ضنا مسلم العنيزية من بني وهب . راجع عشائر الشام لأحمد وصفي زكريا ، 2: 59 .

(3) يبدو أن هذه الأخبار تتجاوز شهر ذي القعدة .

[حوادث سنة 932 هـ]

قال الشيخ شمس الدين محمد بن طولون الحنفي الصالحي [1] :

استهلّت سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة والخليفة على ما هو عليه ، ولا أعرف من خبره شيئاً ، غير أنه باصطنبول . والسلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان ، وهو مقيم بالبلد المذكورة .

ونائبه بدمشق لطفي ، وهو مقيم بها .

والقاضي بها الولوي ولي الدين ابن الفرفور ، ونائبه من الحنفية ببيته النجم ابن الزُّهيري ، وبالمحكمة أحمد الرّومي الحنفي ، ومن الشافعية برهان الدين الأخنائي ، ومن الحنابلة الزين ابن الرُّجيحي . ونائبه بصالحيتها الشمس ابن جبران المالكي ، وبمحلّة ميدان الحصا الشمس ابن مفلح الحنفي ، وبمحلّة مسجد القصب وقناة العَوني العلاء بن حمص .

ونائب القلعة بها حسين الرّومي .

---

(1) الروض العاطر ، 35 ظ - 36 و ، عقب ترجمة أحمد بن إبراهيم الأقباعي ، وقد أثبتناها في محلها أدناه ، على اعتبار غلبة الظن بكونها منقولة من المفاكهة ، ولو أن الأيوبي لم يصرّح بذلك عياناً .

وفي يوم الخميس مستهلّ المحرّم منها سافر الشيخ محمد الصّمادي الصّوفي إلى الرّوم ، وخرج على طريق بعلبك ، وودّعه الأكابر والمشايخ أرباب الأعلام ، ليخلّص قرية كناكر[1] التي أقطعه إيّاها الوزير إبراهيم باشا ، فإنه عارضه في الاستيلاء على جميعها نائب الشام إياس باشا .

فبلغ ذلك النائب ، فأرسل خلفه وردّه من بعلبك ، ثم أهان [36 و] جماعة من أصحابه . واطّلع على قصّة معه كتبها صاحبنا المحبّ البزوري في الشكيّة على النائب والأمناء وغيرهم ، بسبب مظالم عدّدها كعَسَس باشي[2] ومشدّ الزبالة ويَسَق المحتسب . فطلبه وضربه وغُرِّم نحو ألف درهم[3] ، وكفّ عن معارضة الشيخ محمد الصّمادي في القرية المذكورة ، ولم يتعرّض له بسوء . انتهى ذلك[4] .

وذكر ابن طولون في تاريخه ، في وقائع سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة[5] :

وفي يوم الجمعة ثالث عشري المحرّم ، صُلّي غائبة بالجامع الأموي على الشيخ المسلك أحمد الدبّاسي المغربي التوزي . توفي بمعاملة نفزاوة من الجناح الأخضر من الغرب ، وقد جاوز المائة سنة ، وشاع أنه شيخ السيّد علي ابن ميمون ، رحمه الله تعالى .

---

(1) قرية في حوض الأعوج ، شرقي بلدة سعسع بـ 8 كلم ، إلى الجنوب الغربي من دمشق .

(2) عسس باشي : مصطلح عثماني قديم Ases-başı ، يعني قائد الحرس الليلي . وكان اللقب أيضاً يطلق في بعض الأحيان على قائد الشرطة عموماً . وأما مشدّ الزبالة فتعني ناظرها أو متوليها ، والمشدّ من مصطلحات العهد المملوكي ، راجع التعريف بالمصطلح الشريف وصبح الأعشى للقلقشندي .

(3) لا يفهم بالضبط قول ابن طولون هنا ، من طلب من ، ومن ضرب وغرّم من ؟ ولعله يريد أن النائب إياس باشا طلب وضرب وغرّم المحب البزوري كاتب الشكاية ؟

(4) أضفنا بعض التفاصيل الأخرى من ترجمة الشيخ محمد بن خليل بن علي الصمادي (توفي 989 هـ) في الروض العاطر (ورقة 257 و) ، نقل بها الأيوبي مرة ثانية من مفاكهة الخلان ثم تابع من عنده حتى وفاة الصمادي عام 989 هـ (حتى الورقة 257 ظ) .

(5) الكواكب ، 1 : 129 .

وفي أوائل[1] سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ، دخل إلى دمشق المولى عبد الكريم مفتي التخت السّليماني الملقّب بمفتي شيخ . وزار المحيوي ابن العربي ، ونزل في بيت ابن الكاتب في محلّة مأذنة الشّحم . وتردّد إليه الأفاضل ، ورُفعت إليه عدّة أسئلة فكتب على بعضها أجوبة عجيبة ، وعزا النقول فيها باختصار إلى أهله ، كما ذكر ذلك ابن طولون .

وذكر أنه اجتمع به هو والقاضي نجم الدين الزُّهيري ، قال : فرأيناه ذا شيبة نيّرة كبيرة وتواضع وعلم ، ومعه كتب عظيمة . وسأله القاضي نجم الدين المُشار إليه في الإقامة بدمشق مدّة ، فقال : خلفي عيال ، وقد توفي رفيقي في الإفتاء مُنلا علي وانفردتُ بالإفتاء ، وقد أرسل السّلطان يستعجلني . انتهى .

* * * * *

[وفي صفر ، دخل محمل الحاج . ووصل من مكّة كتاب من محدّثها ومؤرّخها صاحبنا المحبّ جار الله بن فهد][2] .

وقال[3] محدّث مكّة جار الله ابن فهد في كتابه إلى الشيخ شمس الدين ابن طولون : وكان شيخ الإسلام الشيخ عبد الحق ابن محمد السُّنباطي القاهري الشافعي جاور بمكّة سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ، وكان نازلاً في دار بني فهد ، فتوعّك في ثامن عشر شعبان ، وبقي متوعّكاً اثني عشر يوماً ، منها ثلاثة أيام كان

---

(1) الكواكب 2: 179 .

(2) تتمة يقتضيها سياق الخبر الآتي أدناها مباشرة . وليس فيما بين يدي أن ابن طولون وصله كتاب من ابن فهد في هذه السنة 932 ، ولكن جعلته كذا جرياً على ما اعتاد ذكره من وصول كتب من ابن فهد مع عودة الحجاج في كل عام ، وإخباره لحوادث العام الفائت ، وهو هنا 931 . انظر خصوصاً عام 935 .

(3) الكواكب السائرة ، 1 : 222 .

فيها مضطجعاً ، لا يدخل جوفه فيها شيء ولا يخرج منه شيء ولا ينطق بشطر كلمة. ثم فتح عينيه في أثنائها وقال : لا إله إلا الله . . إقض ، إمض ، إقض . . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، مادّاً السبّابة والإبهام . فما أتمّها إلا مقبوضاً إلى رحمة الله تعالى .

فقدّر الله وفاته في ليلة الجمعة غرّة شهر رمضان ، عند إطفاء المصابيح أوان الفجر . قال : وكان ذلك مصداق منام رؤي له في أول السنة ، يؤمر فيه بزيارة النبي صلّى الله عليه وسلّم ، قال : إطفاء المصابيح .

قال : وضمّن ذلك بعض الشعراء في أبيات ، وهي :

توفي عبد الحقّ يوم غروبه	بمكّة بعد الصبّح بدء صيامه
وزِدْ واحداً فوق الثلاثين مردفاً	بتسع مئٍ واجعله عام حِمامه
قضى عالم الدنيا كأن لم يكن بها	سقى الله قبراً ضمّه من غمامه

قال الشيخ جار الله : وصُلّي عليه عقب صلاة الجمعة عند باب الكعبة ، وشيّعه خلق كثير إلى المعلاّ ، ودُفن بتربة سلفنا عند مصلّب سيدنا عبد الله ابن الزُّبير الصحابي ، رضي الله تعالى عنه ، بشعب النّور . ورثاه جماعة من الشعراء ، وحزن الناس عليه كثيراً ، فإنه خاتِمة المسندين والقرّاء أيضاً . وقد جاوز التسعين . انتهى .

وفي صفر[1] سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ، توفي الشيخ الفاضل بدر الدين حسين بن سليمان بن أحمد الأسطواني الصالحي الحنبلي .

قال ابن طولون : حفظ القرآن بمدرسة أبي عمر ، وقرأ على شيخنا ابن أبي عمر الكتب الستّة ، وقرأ وسمع ما لا يحصى من الأجزاء الحديثية عليه . قال :

---

(1) الكواكب السائرة ، 1 : 185 .

وسمعتُ بقراءته عدّة أشياء . ولي إمامة محراب الحنابلة بالجامع الأموي في الدولة العثمانية . انتهى .

ودُفن بباب الفراديس ، رحمه الله تعالى .

* * * * *

وفي ليلة[1] الأربعاء ثامن عشر[2] ربيع الأول ، سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ، توفي [الشيخ] أحمد بن إبراهيم بن أحمد الأقباعي الدمشقي ، أحد مشايخ الصوفية بها ، وتولّى مشيخة زاوية جدّه بعد أبيه خارج باب السّلامة ، بالقرب من عين الورّاقة . وكان رحمه الله على طريقة حسنة ، لكنه تصرّف في أوقاف هذه الزاوية تصرفاً شيناً .

ودُفن عند والده ، وكانت جنازته حافلة . وقد ناهز السبعين ، رحمه الله .

وفي ليلة[3] السبت الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول ، سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ، توفي الشيخ الفقيه المدرّس شمس الدين محمد ابن عبد الرحمن الكفرسوسي الشافعي .

ودرّس بالكلاّسة قديماً ، نيابة عن الشيخ رضي الدين الغزّي ، حين كان صغيراً ، بإشارة شيخه الشيخ زين الدين ابن خطّاب ، كما ذكره ابن طولون في مواضع من تاريخه .

---

(1) الروض العاطر ، 35 ظ

(2) في الأصل : ثامن عشري ، والصواب ما أثبتناه على اعتبار حساب أيام الشهر مع ما سيرد تلوه لاحقاً .

(3) الكواكب ، 1 : 54 .

وصلّي عليه في الجامع الأموي ، ودُفن قبل الظهر بمقبرة باب الفراديس .

وفي أواخر[1] شهر ربيع الأول من السنة المذكورة ، وقع سيل عظيم بمكّة المشرّفة ، حتى دخل باب الكعبة الشريفة ، وعلا الماء على عتبتها مقدار ذراع ، بحيث غطّى قناديل المطاف ومقام إبراهيم عليه السلام . وأقام يوماً كاملاً . وهُدمت منارة باب علي ، وبُني غالبها بحجارة صُفر منحوتة . وعُمل لمقام المالكية أربعة أعمدة عليها سقف بالرصاص .

* * * * *

وفي ليلة[2] الأربعاء ثامن عشر ربيع الآخر ، سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ، توفي القاضي كمال الدين محمد ابن سلطان الدمشقي الحنفي الصالحي[3] . [229 ظ] مولده في شعبان سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، واشتغل وحصّل وبرع وناب في الحكم ، وجمع منسكاً في مجلّد سمّاه «تشويق السّاجد لزيارة المساجد» .

ودُفن بتربتهم تحت المعظّمية ، وحضر جنازته جمع من الأكابر وطلبة العلم ، وصلّى عليه ولده قطب الدين محمد . وكان لا بأس به ، وعنده حشمة ورئاسة ، وصبر على موت ولده محيي الدين الذي توفي بمكّة ودُفن بباب المعلّى ، رحمه الله .

* * * * *

---

(1) الباشات لابن جمعة المقّار ، 9 .

(2) الروض العاطر 229 و ، 278 ظ ؛ الكواكب 1 : 51 .

(3) تكررت ترجمة ابن سلطان لدى الأيوبي ، وسها في الثانية عن وضع ترجمة ابن سلطان الابن فكرر ترجمة الأب . كما أنه في الأولى جعل وفاته : سنة 933 أو 932 ، إلا أنه في الثانية أكّدها في 932 ، وهذا ما أثبته الغزّي أيضاً ، وقد تأكد لنا ذلك بمطابقة تواريخ الأيام على التقويم الهجري .

وفي يوم[1] الأربعاء سادس عشري ذي القعدة ، وصلت إلى دمشق البشائر بأن السلطان قد انتصر على ملك مدينة بدون مع مدينة قرون وأربع وعشرين قلعة . وقُتل فيها من المشركين مايتان وثمانون ألفاً ، ومن المسلمين ثمانون ألفاً . وبعد أن رحل عنها ولّى بها يحيى باشا .

فنودي بالزّينة [بدمشق] سبعة أيام ، ثم بعد خمسة أيام قدم البشير فنودي بالزّينة سبعة أيام أُخر .

* * * * *

وفي يوم[2] الأربعاء خامس ذي الحجّة ، سنة اثنين [وثلاثين وتسعمائة] ، قتل [نائب دمشق لطفي باشا] الوحوش التي كانت عنده في حوش اصطبل دار السّعادة ، وهم ما بين فهد وطاووس وكركي وغزلان ، وأبقى الخنزير فقط ، قيل لتألّفه على الخيل . ورفع ما يخاف عليه إلى القلعة .

وفرض ترحيلة على السُّوقة ، وأرسل إلى نائب طرابلس بالحضور إلى دمشق لمسكها .

ثم سافر إلى حلب لأجل خروج آليه الجلالي ومعه ولد علي دولات على أرض مرعش ، وودّعه القاضي الكبير ونائب القلعة .

* * * * *

(1) الباشات والقضاة ، ص 9 .
(2) إعلام الورى ، 243 .

ثم شرع [قاضي الشام ولي الدين ابن الفرفور] [1] في سنة [75 و] اثنتين وثلاثين وتسعمائة في عمارة سوق تجاه باب جيرون [2] ، وبنى عوض الجَمَلُون قباباً مبنيّة بالآجرّ ، وهو أحكم في البناء من حيث أنه لا يحتاج إلى طين ، ويُؤمن من حرقه . ولم يسبقه أحد إلى مثل هذا في الأسواق بدمشق [3] .

* * * * *

نقل ابن طولون [4] في وقائع سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة من تاريخه ، عن الشيخ تقي الدين القاري ، أن مفتي الرّوم عبد الكريم أثنى على عمّه [القاضي جمال الدين يوسف بن محمد بن علي ابن طولون الزّرعي الدمشقي الصّالحي الحنفي] ثناءً جميلاً ، وأنه لم ير في هذه المملكة أمثل منه في مذهب الإمام أبي حنيفة ، رضي الله تعالى عنه . وذلك حين اجتمع القاري بالمفتي المذكور بمكّة ، وكان القاضي جمال الدين ابن طولون مجاوراً بها إذذاك .

---

(1) من ترجمة قاضي الشام ولي الدين ابن الفرفور ، الروض العاطر ، 73 ظ - 77 و ؛ وراجع كذلك الثغر البسّام ، ص 312 ؛ ونزهة الخاطر للأيوبي ، 157 .

(2) ما زال هذا السوق يعرف إلى اليوم باسم سوق القاضي ، وبالقرب منه زقاق يعرف باسم تلّة القاضي ، في حي القيمرية إلى الشرق من باب جيرون ومحلة النوفرة . وكان ابن الفرفور بنى هذا السوق وحماماً عرف بحمام القاضي وجدّد ضريح الشيخ أرسلان . انظر نزهة الخاطر للأيوبي ، 2 : 157 ؛ الكواكب السائرة 2 : 22 .

(3) كتب الأيوبي في الروض العاطر معلقاً بأواخر القرن العاشر (998-999 هـ) : قلتُ : وقد اضمحلّ حال هذا السوق في زماننا هذا ، وصارت غالب حوانيته داثرة ، وقد سكنه أرباب الحرف الدنيّة ، مثل بائع البَرْش والحشيش والخضري والفاخوري ، وبعض الحوانيت صار يُخزّن به الفحم والحطب إلى غير ذلك ، والله أعلم .

(4) الكواكب ، 2 : 261 ، وقد أوردنا هذا الخبر بأكمله في حوادث سنة 937 هـ لدى ذكر وفاة العم جمال الدين ، وكررنا بعضه هنا لمناسبة وروده كما هو واضح أعلاه .

[حوادث سنة 933 هـ]

[استهلّت هذه السنة والخليفة على ما هو عليه ، والسلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان][1] .

[ونائبه بدمشق لطفي باشا] .

[والقاضي بها الولوي ولي الدين ابن الفرفور] .

[ونائب القلعة حسين الرومي][2] .

ذكر ابن طولون[3] في تاريخه عن الشمس ابن القُوَيضي الطبيب ، أنه أخبره حين قدم دمشق مع قاضيها يوسف ، عاشر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ، أنه اجتمع في بلد الخليل بالشيخ علاء الدين علي العسقلاني الخليلي المعروف بابن شُتّي ، بضم أوله وفي آخره ياء مشدّدة تحتانية .

قال ابن طولون : وكان جدّه صالحاً ، وكان الشيخ علي هذا قد ارتكبته ديون ، فلازم ضريح سيدي إسحاق الغيّور . ففي بعض الأيام قيل شاهد سيدي

(1) إضافات يقتضيها السياق .
(2) زيادة نظن فيها الصواب ، على أساس ذكره في أعوام 931 ، 932 ، 934 هـ نائباً للقلعة .
(3) الكواكب ، 2: 214 .

إسحاق وأنه شاهد نوراً طلع من عنده ، فادّعى رؤيته يقظةً ، فأُنكر عليه ذلك ، فصار كل من أنكر ذلك عليه يقع إلى الأرض مصروعاً . فامتنع الناس من الإنكار عليه ، وتلمذ له جماعة ، وصار حالهم كحاله .

قال ابن طولون : وقد كان صنّف العلاّمة الجلال السّيوطي شيخنا في معنى ذلك كتابه [المسمّى] بنور الحَلَك في جواز رؤية النبي والمَلَك . انتهى[1] .

* * * * *

وفي يوم[2] الجمعة ثاني عشر جُمادى الآخرة من السنة المذكورة ، صُلّي غائبة بعد صلاتها ، على السيّد الشريف الحسيب النسيب محيي الدين عبد القادر ابن الشيخ شمس الدين الحموي القادري الشافعي . كان له حشمة ونورانية .

قال ابن طولون : وذكر لي الشيخ تقي الدين البلاطنسي أنه لا بأس به في باب الديانة والخير .

وتوفي صاحب الترجمة بحماة في السنة المذكورة ، وكان أكبر من يوجد من ذرّية الشيخ عبد القادر الكيلاني ، رضي الله تعالى عنه ، كما قال ابن طولون ، رحمه الله تعالى .

* * * * *

---

(1) كتب الغزي معلقاً : قلت : وقفتُ على هذا الكتاب ولخصته في شرح ألفية جدي المسماة بالجوهر الفريد في آداب الصوفي والمريد .
(2) الكواكب ، 1 : 251 . وأورد الغزي له ترجمة وافية .

قال ابن طولون ، رحمه الله [1] :

وفي هذه السنة ، يعني سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ، أنه وقع الغلاء بدمشق واستمر نحو شهر يُباع الرّطل الخبز بستة دراهم ، وقد وصلت الغرّارة القمح إلى أربعة وعشرين ديناراً [2] .

قال : ومع ذلك فالشعير أبيع الكيل منه بسبعين درهم ، والرطل اللحم بخمسة عشر درهماً وكذلك الرطل الدّبس . وأبيع الرّطل السمن بخمسة وثلاثين درهماً ، وكذلك الرّطل العسل . وعلى هذا النحو غالب المأكولات .

وكان السبب في ذلك أن المطر تأخر في هذا العام ، خرجت كوانين ولم يقع بهما عدّان مطر ، فقنطت أرباب البيع والشراء من حصوله ، ومسكت الجلاّبة أنفسها من الجلب [3] .

* * * * *

---

(1) الروض العاطر ، 229 ظ – 230 و ، عقب ترجمة القاضي محمد بن سلطان الحنفي المتوفى سنة 933 هـ ، وكنا نقلنا هذه الترجمة في السنة الفائتة .

(2) كتب الأيوبي معلقاً : قلت : الدينار عشر قطع .

(3) كتب الأيوبي : قلتُ : وأين هذا من غلاء زماننا ، وهو سنة تسع وتسعين وتسعمائة ، وصلت الغرّارة القمح إلى العشرين سلطانياً ، وغرّارة الشعير بثلاثة عشر سلطانياً ، مع قلّة فيه . وأبيع حمل التبن بستين قطعة ، و[رطل] اللحم بتسع قطع ، ورطل الخبز بخمس قطع ، ورطل السمن نحو الأربعين قطعة . وعمّ الغلا في ساير الأصناف مع طول الأيام .
فانتدب للقمح ملك الأمراء محمد باشا نائب الشام ابن الوزير سنان باشا ، جزاه الله عن المسلمين خيراً ، وختم حواصل القمح جميعاً ، وسعّر كل غرّارة بخمسة عشر سلطانياً ، وفتح حواصل والده وباع منها قبل الناس بهذا السّعر . وحصل بذلك النفع العام لسائر الناس ، والله أعلم .

قال ابن طولون :

وفي هذا العام ، يعني سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ، قصد علي باك النقّاش تركيب باب الجامع الأموي من جهة باب البريد ، وكان عمله قديماً [230 و] من جهة باب البريد من ماله بخشب الجوز ، بالمعجمتين ، مطعّماً ودائره ملبّس من نحاس أبيض ، مكتوب عليه من نظم الولد أبي البقاء محمد البقاعي [1] :

أنشأ الباب عليٌّ مخلصاً	في فعله لله ربِّ العالمين
تاريخه أخاس حُسْن فبنا	ادخلوها بسلامٍ آمنين

* * * * *

وفي سنة [2] ثلاث وثلاثين شرع [القاضي الولوي ابن الفرفور] [3] في عمارة مدرسة معلّقة في وسط [سوقه تجاه باب جيرون] ، وبنى تحتها جرناً للسبيل . وكان قديماً لصيق الباب من جهة القبلة يُنزل إليه بدرج ، والانتفاع به قليل ، والآن كثُر الانتفاع بالذي جدّده .

وشرعت زوجته ستّ حلب في عمارة تربة لها عوض بوّابة ابن النَّيْربي بالقرب من مدرسة زوجها شمالي القيمرية الكبرى .

---

(1) كتب الأيوبي معلقاً : قلتُ : وهذا من بحر الرَّمَل ، والمصرع الثاني من بحر الرَّجَز . وقوله «أخاس حسن فبنا» عدده بالجُمَل سنة أحد عشر وتسعمائة ، مع الركاكة والنقص في التاريخ اثني عشر سنة . وقد تقدم ذلك جميعه في هذا الديوان ، فلا حاجة إلى إعادته ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى ذلك .
قلنا : الجملة المذكورة مجموعها 913 وليس 911 وتنقص 20 عن سنة 933 . ولا شك أن الأيوبي نقلها مصحفة ، فلعلها تكون مثلاً : أخاف حسن فبنا ، أخاس حسنك فبنا .

(2) من ترجمة القاضي الولوي ابن الفرفور : الروض العاطر ، 75 و ؛ الثغر البسام ، 312 .

(3) أي سوق القاضي ، الذي بناه ابن الفرفور في السنة الفائتة شرقي باب جيرون ، في محلة القيمرية . راجع أخبار سنة 932 هـ .

وفي ثالث ربيع الأول من السنة توفيت ودُفنت بها . وهي خوند بنت أحمد ابن غُلْبك الحلبية [1] ، جهة كاتب السرّ بمصر ابن أجا محمود قبل قاضي دمشق هذا . وكانت الصلاة عليها بالجامع الأموي ، والمصلّي عليها زوجها قاضي القضاة ، وهي محمولة في وسط نمط مزركش بالذهب على أربعة أرماح . وكان لها إحسان إلى الفقراء وقرّاء الحديث ، وأوقفت عليها أوقافاً ، وأعتقت أرقّاءها .

* * * * *

وذكر ابن طولون[2] في تاريخه «مفاكهة الأخوان» ، أنه توضأ يوم الجمعة عشرين شوّال ، سنة ثلاث وثلاثين ، لصلاة الجمعة من الظاهرية الجوّانيّة . قال : فرأيتُ ناظرها مُنلا يني الرّومي قد عمل على إيوان الحنفية القبلي درابزين لصيانته ، قال : وأُخبرتُ أن بها نازلاً مُنلا رسول ، مفتش بلاد بيروت ، ومُنلا أحَد ، أحد المدرّسين بجامع الأموي المطالبي الحنفي ، عوضاً عن الشمس الكفرسوسي المتوفى إلى رحمة الله تعالى .

قال : وقد كان يُنكر – يعني الكفرسوسي – على شيخنا الشيخ عبد النبي هذه التسمية ، فكيف بهذه الأسماء الثلاثة[3] ؟ قال : وممّن رأيتُ يُنكرها مدرّس هذه المدرسة صاحبنا القطب ابن سلطان الحنفي . انتهى .

* * * * *

---

(1) كتب في الحاشية بخط مغاير : ست حلب هذه بنت أحمد بن غلبك ، هي زوجة القاضي ولي الدين ابن الفرفور ، هو الجد الرابع لأم والدة الوالد الشيخ عبد القادر ، ابنة القاضي عبد الرحمن الفرفوري خطيب مدرسة السليمانية ، وقد خطب فيها نحو أربعين سنة ولله الحمد والمنّة . الفقير السيد سليمان المدرّس بمدرسة السليمية بدمشق المحمية .
ولها ترجمة لدى رضي الدين الحنبلي في درّ الحبب ، 1 : 575-578 ، فيها ما يستطرف .

(2) الكواكب السائرة ، 1 : 256 .

(3) كتب الغزي تعليقاً مفيداً حول هذه التسميات ، فليراجع .

وفي هذه السنة[1] المذكورة توفي بالديار المصرية صاحب الأحوال والكرامات المشهورة سيدي الشيخ أبو السعود الجارحي ، رضي الله عنه .

(1) الباشات والقضاة ، ص 9 .

[حوادث سنة 934 هـ]

قال الشيخ شمس الدين محمد بن طولون [1] :

وفي هذه السنة ، أعني سنة أربع وثلاثين وتسعمائة ، استهلّت والخليفة على ما هو عليه ، ولا أعرف من خبره شيئاً ، غير أنه مقيم باصطنبول . والسلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم بن عثمان ، وهو الآن بأدرْنة مشتّياً فيها .

ونائبه بدمشق لطفي باشا [2] .

والقاضي بها الولوي ولي الدين ابن الفرفور ، ونائبه ببابه النجم ابن الزُّهيري ، وسعدي الرّومي الحنفي واسمه أحمد ، ومن الشافعية البرهان الأخنائي ، ومن الحنابلة زين الدين الرُّجيحي . ونائبه بالصالحية أبو الجُود البعلبكي المالكي ، وبمحكمة ميدان الحصا الشمس ابن مفلح الحنبلي الحنفي ، وبمحكمة مسجد القصب وقناة العوني الشيخ معروف البلاطنسي .

ونائب القلعة حسين الرّومي .

---

(1) الروض العاطر ، 27 ظ – 28 و ، عقب ترجمة أحمد بن عبد العزيز بن محمد الدمشقي المالكي ، وهذه الترجمة منقولة من ابن طولون ، أثبتناها في محلها أدناه .

(2) يذكر ابن جمعة في الباشات والقضاة (ص 9) : وفي سنة أربع وثلاثين وتسعمائة تولى دمشق عيسى باشا ابن إبراهيم الفنري . وهذا ما سيرد لاحقاً في حوادث شعبان القادم .

وفي يوم الجمعة كان مستهلّها ، وسعر القمح الكيل ما بين خمسين درهماً عتيقة إلى ستين ، وهو في انحطاط . والشعير بثلاثين ، والدّبس والزيت رخيص .

وفي ليلة[1] الجمعة خامس عشر المحرّم ، سنة أربع وثلاثين وتسعمائة ، توفي القاضي شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن عبد العزيز بن محمد الدمشقي المالكي ، ابن أخي القاضي شعيب الشافعي .

وكان من رؤساء المؤذنين بالجامع الأموي . وفي آخر عمره حجّ ورجع من الحج متضعّفاً ، واستمر مدّة إلى أن توفي ليلة الجمعة ، وصُلّي عليه بالجامع الأموي عُقيب صلاتها ، ودُفن بمقبرة باب الصغير . وخلّف ولدين ، وكان عنده تواضع وربما كتب على الفتوى فلا يُلتفت إلى ما يكتب لقلّة علمه ، وهو في عشر السبعين .

قال الشيخ شمس الدين محمد ابن طولون : وأوقفني على منظومته في علم المعاني والبيان .

وفي يوم[2] الخميس حادي عشرين المحرّم احترق السوق الذي داخل باب الفرج ، وكان ساكنه إسكافيّة الأروام ، واحترق فيه طاحون التكيّة وحمّام القزّازين وقف البيمارستان النُّوري ، ويُعرف الحمّام أيضاً بحمّام المالكي . وفي السّوق دكاكين وقف الجامع الأموي ، وهو غالبه . وتضرّر بعض المستحقّين لذلك .

وفي يوم السبت ثالث عشريه كانت زفّة طهور ولد والي القُحْب والعُلُوق [28 و] الشهاب ، وحصل فيها مناكر كثيرة حتى شُرب الخمر على روس الأشهاد ، وهم دائرين بها ، والنساء حاسرات عن معاصمهنّ وهن بالنقوش

---

(1) الروض العاطر ، 27 ظ ؛ الكواكب 2: 112 .
(2) الروض العاطر ، 27 ظ .

الخُضر يضربن بالدُّفوف والشبّابة [1]، والمردان تنسج في العنبر وتدق الذهب وتمدّه .

وأطلق بارود كثير تجاه أبواب الجوامع ، خصوصاً جامع يلبغا لقربه من بيته . ولم ينكر ذلك أحد حتى ولا باللّسان فيما أعلم ، لتجاهيه[2] بالأروام ، ولا قوّة إلا بالله .

* * * * *

وفي يوم[3] الخميس تاسع عشري صفر ، توفي الشيخ المفيد العالم عماد الدين إسماعيل بن مُقبل بن محمد الغزّاوي الحنفي المصري .

قال ابن طولون : صاحبنا ، حفظ القرآن ببلده غزّة ، وتلا للسّبع ثم مجمع البحرين . وقدم دمشق في سن الطفولة ، فحلّه على الشمسي ابن رمضان شيخ القجماسية ، وكان نازلاً بها ، وسمع عليه أشياء وعلى غيره . ثم عاد إلى غزّة إلى أن توفي والده ، فعاد إلى دمشق وأمّ بالجامع التنكزي إلى أن مات . ودُفن بتربة باب الصغير . انتهى .

* * * * *

(1) ينكر صاحبنا ابن طولون كشف النساء معاصمهن في عصره ، فما تراه يفعل لو عاش في أيامنا وأبصر النساء والفتيات كاشفات الشعور والصدور والنحور والخصور ؟ لا بل السوق والبطون والظهور ، حتى لم يترك لهن مصممو الأزياء سوى ما يكفي لستر القليل الباقي من أجسادهن . ناهيك عن «صرعات الموضة» العجيبة من الفوزو والبدي والتايت والسيكليست والميكرو جوب والميني شيرت الكاشف عن البطن وحتى السرّة !

(2) أي استناده إلى جاه الأروام (العثمانيين) وسلطتهم .

(3) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، طبعة الأرناؤوط ، 8 : 202 . والترجمة لم ينقلها ابن العماد عن الكواكب السائرة كما يذكر المحقق ، إنما من مخطوط متعة الأذهان .

وفي يوم الخميس خامس ربيع الأول من السنة ، خُتم درس الحاوي عند الولد بدر الدين ابن الغزّي ، وحضر عن يمينه مصاهره ناظر النظّار الكمال ، وتحته الشهاب المكّي مفتي المالكيّة ، وعن يساره أبو الفتح المالكي ، وجمع من الأفاضل . ثم خلع على القارئين وضيّف الجميع .

وفي يوم[1] الثلاثاء ثامن عشري ربيع الأول ، سنة أربع وثلاثين وتسعمائة ، توفي الشيخ الفاضل مجير الدين الرَّملي ، أحد العدول بدمشق ، فجأة .

قال ابن طولون : كان صالحاً وعنده فضيلة ، وبصره فيه تكسير .

* * * * *

وفي يوم الخميس سابع عشر ربيع الآخر من السنة ، توفي الشاب الصالح يوسف بن تُبل[2] ، بالمثناة الفوقانية ثم باء موحدة ثم لام ساكنة ، الصالحي الحايك . وتوفي قبله بجمعة الشاب سعد الدين ابن الشيخ تغلب ، بالمثناة الفوقانية المضمومة ثم غين معجمة وفي آخره باء موحدة ، الصالحي . وقبله بجمعة الشاب بركات البيطار الصالحي .

وكان هؤلاء الثلاثة اجتمعوا قريباً في مكان ، وعاهدوا الله على أن من توفي منهم قبل الآخر يشتريه من بقي بسبعين ألف تسبيحة ، لما بلغهم في ذلك عن بعض الصالحين . فلمّا توفي الأول فعل رفيقاه ذلك ، فلمّا توفي الثاني فعل رفيقه ذلك ، فلما توفي ذلك الثالث فعل جماعته ذلك . ودُفن ثلاثتهم بالسفح .

---

(1) الكواكب ، 2 : 246 .

(2) الاسم تركي topal ، معناه الأعرج . ولا زالت الكنية بذاتها باقية بدمشق إلى أيامنا بصيغة فيها بعض تحريف : طَبل .

وذكر ابن طولون في تاريخه[1] :

وفي يوم الجمعة حادي عشري[2] ربيع الآخر من السنة المذكورة ، خطب بالجامع الأموي الشيخ الإمام شمس الدين ابن أبي اللّطف الحصكفي المقدسي الشافعي ، وشُكر على خطبته . (وكان دخل دمشق في السنة المذكورة) .

* * * * *

وفي يوم[3] الخميس ثامن جُماد الأول من السنة نودي بإبطال المحرّمات بدمشق ، وصيام ثلاثة أيام لأجل الاستسقاء ، فإن اليوم آخر الكانونين ولم يقع مطر ولم تنبت حشيشة مما زُرع بدمشق وضواحيها . ثم قروا صحيح البخاري ، وحضر القاضي الكبير في ثياب مذلّة ، والأفاضل بالجامع الأموي . فوقع بعض مطر ، ثم أعادوا ذلك فوقع أيضاً بعض مطر ، ثم تراسل وحصل الإنعام من الله تعالى .

* * * * *

وفي يوم[4] الجمعة خامس شعبان منها ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ عبد القادر ابن أبي بكر الحلبي الشافعي ، المشهور بابن سعيد ، كان جدّه سعيد هذا يهودياً فأسلم . واشتغل صاحب الترجمة بالعلم في حلب على العلاء

---

(1) الكواكب السائرة ، 3: 11 .

(2) لا يستقيم التاريخ على هذا الشكل المذكور .

(3) عودة إلى النقل من الروض العاطر .

(4) الكواكب ، 2: 173 .

الموصلي ومنلا حبيب العجمي ، وأخذ عن الكمال ابن أبي شريف ببيت المقدس ، وكان ذا همّة عالية في النسخ حتى كتب البخاري وما دونه في القدر . ورحل إلى دمشق والقاهرة .

قال ابن طولون : قدم دمشق إماماً لقصروه نائب حلب ، وقرأ عليه صاحبنا العلاّمة القاضي نجم الدين الزُهيري المتوفى قبله ، وكانت له شهرة ولديه رئاسة . ثم عاد إلى حلب ، وصار مفتي دار العدل بها في الدولة الجركسية . ثم ولي المناصب في الدولة العثمانية ، مشيخة التغري ورمشية ومشيخة الزّينبية ونظرها ونظر جامع الأطروش .

مات سنة أربع وثلاثين وتسعمائة بحلب .

وفي تاريخ ابن طولون المسمّى بـ «مفاكهة الأخوان» [1] :

وفي يوم الثلاثاء سادس عشر شعبان ، يعني سنة أربع وثلاثين وتسعمائة ، قدم دمشق عالم الشرق ، فيما قيل ، مرجان القبابي التبريزي الشافعي ، وقيل إنه كان إذا طلع محل درسه نادى منُادٍ في الشوارع : من له غرض في حلّ إشكال فليحضر عند المنلا فلان .

قال : ووقفتُ له على تفسير عدّة آيات على طريقة نجم الدين الكبري في تفسيره . قال : وعنده اطّلاع . انتهى .

وفي العشرين من شعبان [2] ، سنة أربع [وثلاثين وتسعمائة] ، ورد عزل [نائب دمشق لطفي باشا] ، وتولية عيسى باك ابن إبراهيم بن خليل الفَنَري ، ويقال إنه طالب علم . وأقيم كيخية الدّفتر قاسم نائب غيبته عوضه .

---

(1) الكواكب ، 2: 132 .

(2) إعلام الورى ، 243 .

ثم بعد سبعة أيام سافر [لطفي باشا] وودّعه الأعيان .

* * * * *

وفي يوم[1] الإثنين عشرين رمضان ، ذكر رجل طبيب أن في ليلة سبع وعشرين من هذا الشهر يدخل دمشق رَحْلٌ غريبة بخيام حُمر ويحصل بينها وبين أهل دمشق مقتلة عظيمة ونهب أطفال وغيرها . وشاع ذلك حتى اختبطت دمشق ، فبلغ القاضي فطلبه وقال له : من أين لك هذا ؟ قال : وجدته في ملحمة عندي . فكذّبه وضربه وحبسه .

ثم حضر عياله فأطلقه لأجلهم ، واتفق عند إطلاقه وصول قَفْل حلبي أخبروا أنه قُتل منهم جماعة نحو العشرين تجاه القَسْطل لقيام عرب آل علي عليهم ، وأن خيامهم حُمر .

* * * * *

وشرع [قاضي الشام ولي الدين ابن الفرفور][2] في سنة أربع وثلاثين وتسعمائة في فك قبّة الشيخ أرسلان ، أعاد الله علينا من بركاته ، خوفاً من وقوعها ، وأعادها قبّة معظّمة ، وبنى إلى جانبها من جهة الشمال تربة له مركّبة على نهر عَقْرَبا ، وكان موضعها ناعورة يسيل ماؤها إلى جرن السبيل . وعمل

---

(1) الباشات والقضاة ، ص 9 .

(2) من ترجمة قاضي الشام ابن الفرفور ، الروض العاطر ، 75 ظ ؛ الثغر البسام ، 313 ؛ غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان لابن طولون ، 67 .

لهذه التربة شبابيك بواجهة معظّمة ، وبنى أعلاها وأعلى قبّة الشيخ قبراً من حجارة ، وكان سقفاً من خشب .

وفي عيد فطرها مدحه الشيخ علاء الدين الجوبري بقصيدة .

وفي عيد الأضحى مدحه الشيخ أبو الفتح المالكي بأخرى ، ذكر فيها محاسنه ، وعدّ منها سوقه والقبّة المذكورين .

وشاهدت[1] قاضي دمشق الولوي محمد بن أحمد بن الفرفور ، لمّا هدم هذه القبّة التي كان بناها الشيخ أرسلان ، وكانت تداعت للسقوط ، ثم أعادها بأحسن ممّا كانت بحجارة بُلق[2] ، وساعده في بعض آلاتها عزّ الدين ناظر الجيش والجوالي الحنفي .

وكان قدّام شباك هذه القبّة الشمالي قبر محجّر ومنزل إلى النهر المعروف بنهر الشيخ أرسلان ، وفيه ناعورة تغرف الماء منه إلى سبيل الجرن في الطريق ، وخلف الجرن مئذنة .

فعمد إلى منزل النهر فجعله قبراً له قدّام الشبّاك حدّ القبر المحجّر المذكور ، وأبطل الناعورة من هناك ، وعقد النهر قبواً له وجعل أعلاه تربة له ولمن يلوذ به ، وأعاد الجُرن مكان المئذنة ، وعمل جُرناً لطيفاً تجاه باب قبّة الشيخ من جهة الغرب . وعقد تجاه القبّة والتربة المشار إليها قبواً ، وحصّن تلك الأمكنة ببوّابات ، وعزم أن يسوق الماء من مكان بعيد إلى الجرنين المذكورين .

---

(1) ننقل هنا النص بتمامه كما ذكره ابن طولون نفسه في كتابه غاية البيان ، 67-69 .

(2) هذا الترميم المذكور كان باقياً إلى أيامنا الحاضرة ، إلى أن قام بعض المتفيهقين من جهابذة الهندسة في مطلع التسعينيات فمسخوا واجهة التربة المذكورة وأعادوا بناءها بحجارة حديثة لا تمتّ بصلة إلى وضعها الأصلي ، الذي كان يمثّل نموذجاً أنيقاً لفن العمارة المملوكية المتأخرة . وكنا أدركنا البناء الأصلي في مطلع الثمانينيات (انظر الصورة بآخر الكتاب) وقمنا بعدة دراسات عنه وعن مسجد خالد بن الوليد لصيقه ، ونشرنا ذلك في كتابنا «غاية البيان» عام 1984 ، وفي بحثنا عن المسجد ، الحوليات الأثرية 35 (1985) .

فاخترمته المنيّة قبل إتمام ذلك وإتمام تربته ومصالحها ، فتوفي بقلعة دمشق مُرسّماً عليه ، ليلة الثلاثاء سَلْخ جُمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وتسعمائة ، ودُفن بالقبر الذي أعدّه لنفسه . وفي ذلك اليوم عُقدت خشخاشته ، تغمّده الله برحمته .

وفي يوم[1] الأربعاء سابع عشر ذي الحجّة منها ، دخل إلى دمشق نائبها الجديد [عيسى باك] في موكب حافل ، وقدّامه القاضي الكبير ونائب القلعة والأعيان .

ثم ربّع خيله بالخربة [2] .

ثم عاد وسافر إلى حلب وعاد .

ثم إلى القدس وعاد .

ثم إلى بيروت ، وعاد لمصالح السّلطنة .

* * * * *

(1) إعلام الورى ، 244 . ومن الواضح أن في الأخبار الواردة أعلاه ما يتجاوز التاريخ المذكور .
(2) هي خربة غزالة في حوران على الأغلب ، تقدم ذكرها .

[حوادث سنة 935 هـ]

[استهلّت هذه السنة والخليفة على ما هو عليه ، والسلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان][1] .

[ونائبه بدمشق عيسى باشا][2] .

[والقاضي بها الولوي ولي الدين ابن الفرفور] .

ذكر الشيخ شمس الدين محمد بن طولون في تاريخه[3] :

سنة خمسة (كذا) وثلاثين وتسعمائة ، قال :

وفي يوم الجمعة تاسع صفر منها ، دخل محمل الحاج قبل صلاتها ، وتلقّاه النائب والقاضي الكبير ونائب القلعة والأكابر على العادة ، في موكب حافل .

---

(1) إضافات يقتضيها السياق .

(2) إعلام الورى ، 244 ، وفيه عن بقاء عيسى باشا حتى عام 937 هـ . وكذلك ورد في الباشات والقضاة ، ص 10 : وفي سنة خمسة وثلاثين وتسعمائة ، استقام عيسى باشا بدمشق وابن فرفور .

(3) الروض العاطر ، 12 و - 13 ظ ، عقب ترجمة إبراهيم بن موسى الصلتي السيد برهان الدين القصير الحسيني ، وقد أثبتناها في موضعها .

ووصل من مكّة عدّة كتب ، أولها من إمام الحنفيّة بها الشهاب البخاري ، وثانيها من إمام الشافعية محيي الدين الطبري ، وثالثها من محدّثها ومؤرّخها صاحبنا المحبّ جار الله بن فهد ، وفيه :

أني كنت توجّهتُ في أوّل العام الماضي مع الحاج المصري إلى القاهرة المحروسة ، ثم إني وصلتُ إلى مدينة اصطنبول من البحر ، وقاسيتُ شدّة ذهاباً وإياباً ، لكن سلّم الله تعالى ومنّ عليّ بالعَوْد إلى الوطن صحبة الحاج أيضاً .

ولم يحصل لي طائل ، وكان القصد طلب الإنعام من الأبواب الشريفة . وتعذّر ذلك لتغيّر الأحوال من وسايط الخير ، فإن الباب جميعه يتصرّف فيه إبراهيم باشا الوزير الأعظم ، وهو ليس له خبرة بمخالطة الناس ومعرفة أحوالهم ، فإنه نشأ عزيزاً من تربية سرايا الخنكار إلى ولاية الوزر ، ويظنّ الناس مثله . وهو متحجّب ومتعاظم لا يصل إليه كل أحد ، وبابه الدّفتردار الأعظم إسكندر باشا ، وهما حركة الرّوم ، وبقيّة أركان الدّولة ليس لهم كلام مع وجودهما .

والخنكار لا يظهر إلا قليلاً ، وقد رأيته في مدّة إقامتي في بلاده نحو ستّة أشهر ثلاث مرّات ماراً بالطريق . والناس في حَصْر بسبب ذلك ، والله تعالى يلهمه العدل في رعيّته ويبصّره بأحوالهم ويجعل له بطانة تأمره بالخير .

وأحسن من رأيته من أركان الدّولة قاضيا العسكر ، وهما ليس لهما تصرّف إلا بأمر الوزير إبراهيم باشا ، وأحسنهما حالاً قاضي العسكر الرُّملي محيي الدين ابن الفناري .

وقد سافرتُ من اصطنبول في رابع عشري رمضان ، ووصلتُ إلى القاهرة في عشرين يوماً ، قبل خروج الحاج بأربعة أيام . وعدّيتُ ذلك من لطف الله بي ، لكنه حصل لي كَدَر بوفاة ولدي الذكر ، وليس لي غيره ، قبل وصولي إلى مكّة بيومين .

ولا تسألوا عمّا جرى لي مع السيّد شهاب الدين البخاري ، فإنه هجرني بغير سبب نحو سنتين ، لكوني أنكرتُ عليه تعدّيه بسبب أخذ وظيفة تصوّف لولده من شيخه مفتي [12 ظ] الحنفيّة القاضي قوّام الدين ابن الضياء عم قاضيها الآن ، وتواصلا إلى الشيخ محمد بن عراق رحمه الله ونفع به ، فأمره بالصّلح ، فلم ينقاد (كذا) لإجابة الشّيخ . فترك خصمه الخصام ، فعادت بَركة الشيخ عليه ورُدّت له الوظيفة في موسم تاريخه .

ولا يخفى عليكم ما في نُصرة الظالم والمظلوم ، وقد رددتُه عن ظلمه فلم ينته وقابلني بالهَجْر ، وكنتُ بحمد الله أُنوّه بقَدْره ، بحيث خرّجتُ له أربعين حدَيثاً مُسلسلة سمّيتُها المواهب السنيّة في مسلسلة إمام الحنفيّة ، وقد شاركتُه فيها قراءة وسماعاً وأعنتُه في تخريج فهرست مرويّاته الذي ذكر في خطبته أنكم السبب في تخريجه .

والله يعلم أنّي لولا مساعدتي له فيه ما كمل تخريجه بفهرست مرويّات الوالد ، وقرضتُه له مع جماعة من الأعيان ومزجت له به ليكثر المحدّثون ، كثّر الله منهم ، وليس في بلدنا أحد له التفات إلى الصّناعة غيره ، وهو الآن مُسْتَرْوِح . انتهى ملخّصاً .

وتحرير وفاة الشيخ الإمام العارف بالله تعالى محمد ابن عِراق الدمشقي(1) نزيل المدينة المنوّرة ، كما كتب به المحدّث جار الله ابن فهد إلى صاحبه الشيخ شمس الدين ابن طولون ، ونقله عنه في تاريخه : يوم الثلاثاء رابع عشري صفر ، سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة . ودُفن من الغد بباب المعلّى ، وحضر جنازته سلطان مكّة أبو نُمي ابن بركات .

* * * * *

(1) الكواكب ، 1 : 67 .

قال [ابن طولون][1] :

وفي يوم الجمعة مستهلّ ربيع الأول منها ، حصل على صاحبنا العلاّمة تقي الدين القاري الشافعي شدّة ، فوُضع في التَّرسيم بأمر المفتّش بعد [أن] ألزمه بمال قيل باقي عليه من إجارة جهة الحرمين بقايا . واستمرّ فيه إلى أن وزنه غالبه ، وهو غير لازم له بالشرع ، وإنما عومل بالقانون .

قيل والمغري له عليه ناظر النظّار الكمال ، لما قيل إنه تلقّى النائب في قارا واجتمع به وقرأ عليه قصيدة نظمها فيه ، وحاول فيها على تشبيهه بعيسى ابن مريم ، وذمّ ناظر النظّار هذا عنده .

* * * * *

وفي يوم الخميس ثامن عشر ربيع الثاني منها ، طلعت زيادة من نهر بَرَدا ، ملأت تحت القلعة ووصلت إلى عمارة ابن الأخنائي ، وهدمت عدّة دكاكين[2] .

قال [ابن طولون] :

وفي يوم الأربعاء ثالث عشريه منها ، وصل إليّ كتاب من المحدّث زين الدين

---

(1) متابعة من الروض العاطر .

(2) كتب الأيوبي في الروض : قلتُ : وفي سنة ست وخمسين وتسعمائة ، طلعت زيادة من نهر بَرَدا المذكور ، ملأت المرجة وأخذت سوق المرستان الذي في تحت القلعة ، وأخربت الجسر الذي تجاه باب الفراديس ، وسقطت الحوانيت الرّاكبة عليه من الجهتين . ورأيت نهر عَقْرَبا طلعت زيادته حتى وصلت إلى عند باب الدّيناريّة ، وأخربت أيضاً مسجد الشمّاعين . ورأيتُ رجلاً أخذه النهر ، فتعلّق في جبّ تين أصوله بسور المدينة تجاه [13 و] مقشر حارة المزابل ، رأيته يصيح ويبكي ، فناولوه حبلاً شدّه في وسطه وتشبّث بيديه بطرفه ، وجرّوه فخرج سالماً . وكان عمري يومئذ تسع سنين ، والله أعلم .

قلنا : أما عمارة ابن الأخنائي فتنسب إلى شمس الدين محمد الأخنائي ، بناها في القرن الثامن الهجري خارج باب الفراديس ، فباتت المحلة تنسب إليها باسم حي العمارة .

ابن الشمّاع الحلبي ، وتحقق عندي أنه لم يحضر وقت فتنة المفتّش أحمد قَرَا بمدينة حلب ، بل كان بمدينة حماة عند الشيخ علوان الصوفي ، فإنه قال فيه :

وقد توجّهتُ في العام الماضي إلى حماة في أوّل رمضان ، وأقمتُ عند شيخ الوقت سيّدي علوان الشافعي ، فأكرمني وأنزلني في خلوته ، وسمعتُ منه أشياء . وقد أذكرني حاله قول علي بن الفضل بن عيّاض لأبيه : يا أبتي ، ما أحلى كلام أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلّم . قال : يا بنيّ ، وتدري لِمَ حَلا ؟ قال لا ، قال : لأنهم أرادوا به الله تعالى . وكذلك أقول في سيدي علوان ، فنفعني الله وإيّاكم وجميع الأحبّة وسائر المسلمين ببركاته .

ثم قرأ علي ولداه ، أبو الوفا محمد وأبو الفتح محمد ثلاثيّات البخاري وغيرها ، وأنشدتُ في معنى بعض حديث الثلاثيّات «لو أقسم على الله لأبرّه» نظم الشّهاب الحجازي :

رُبَّ ذي طمرين نضو	يأمنُ العالمُ شرَّه
لا يُرى إلاّ غنيّاً	وهو لا يملكُ ذرَه
ثم لو أقسم في شيءٍ	على الله لأبرَّه

قال ابن طولون :

وقد أنشدني هذه الأبيات قاضي قضاة مصر الكمال الطويل الشافعي للحافظ زين الدين العراقي ، والأول أصحّ والله أعلم . (قال ابن الشمّاع) : وسمع ذلك من لفظي سيدي الشيخ علوان ، فنظم في معنى ذلك في يومه فقال :

رُبَّ ذي طمرين أشعث	يعتريه وصف غبره
ترك الدنيا اختياراً	فهو لا يملكُ ذرْه

خاملُ الذكرِ حقيرٌ مهملٌ يُجهلُ قدرُه

إن يَرُم إذناً علينا فهو مدفوعٌ بصدره

وله جاهٌ وقدرٌ عند مولانا وشُهرَه

فهو لو آلى على الله في يمين لأبرَّه

هكذا قد صحَّ نقلاً في قرون مستمرَّه

[13 ظ] فمن كان كذلك يرتجي رزقاً ونُصرَه

قالهُ المختارُ حقاً ناصحاً صحباً وعتره

فعليه الله صلّى ضعف ألفي ألف مرّه

وكذا أضعاف هذا حيث لا يحصى لكثره

وكان سيدي علوان قد سمع الحديث من الشيخ زين الدين ابن الشمّاع . انتهى .

* * * * *

وفي أوائل[1] جُمادى الأولى من هذه السنة ، حصل مطر غزير نحو ثمانية أيام ليلاً ونهاراً ، ولم يسلم أحد من الهدم . وقيل قُتل تحت الرَّدم نحو الخمسين نفساً ، ووقع بالقُدس منارة باب حُطَّة ، وخرج من أراضي غزّة أفاعي وحشرات ففرّوا منها إلى ظاهر البلد . ووقع من الرُّكن الشامي من الكعبة عند الميزاب جانب .

---

(1) الباشات والقضاة ، ص 10 . ومطلع جمادى الأولى من عام 935 هـ يوافق 11 كانون الثاني من عام 1529 م . ومثل هذه الأخبار الوصفية عن المناخ وحوادث الطبيعة وظواهر الفلك نجد منها الكثير في القسم الأول المطبوع من مفاكهة الخلان ، وأما القسم الثاني الذي نحن بصدده الآن فقد فقد ، مع الأسف ، الجزء الأكبر من هذه الأخبار الحيّة .

وفي سادس عشره طلع سهم أبيض في السّماء تحت كوكب الجَوْزاء إلى جهة الغرب ، على صفة عمود من نور مركّب من خمسة ألوان[1] ، قيل إنه دالٌّ على الوباء .

* * * * *

قال [ابن طولون][2] :

وفي يوم الخميس سادس عشري جُماد الثاني من السّنة ، أعني سنة خمس وثلاثين وتسعمائة ، أخبرني الشيخ شمس الدين الوفائي الواعظ أن شيخنا توفّي له ولدٌ في هذا اليوم ، فغسّله وكفّنه ولفّه في فوطة حرير ، وأتى به إلى باب جامع جرّاح ، ووضعه هناك ليصلّي عليه . فلم يتيسّر له أحد ، فدخل إلى زاوية المغاربة ليستدعي أحداً للصلاة عليه ، فجاء بجماعة وإذا الميت قد سُرق لأجل الفوطة الملفوف بها ، ولم يُوقَف له على أثر . انتهى ذلك .

وفيه[3] جاءت امرأة إلى سوق الذّراع ، وفي حضنها ولد ملفوف في لحاف حرير ، فرأت جارية هناك فقالت لها : يا جارية ساعديني على حمل هذا الولد وأنا أُحسن إليك . فحملته عنها وسارت خلف تلك الامرأة ، إلى أن وقفت على

---

(1) هذه الملاحظة الفلكية الهامة تسجل ظهور مذنّب (comet) بتاريخ 27 كانون الثاني 1529 . وبحسب الوصف فهو من المذنبات الساطعة مثل مذنّب 1811 الأكبر أو مذنب 1843 الأكبر أو مذنب De Chéseaux أو Donati أو Coggia . وهنا نذكر أن مذنب هالي الكبير Halley (ودورته الفلكية تبلغ 76 سنة) سيظهر بعد عامين في سنة 1531 م ، غير أن ما وصلنا من أوراق القسم الثاني المفقود من المفاكهة لا يحمل أي خبر عن ظهوره ، ولو أننا نجزم بأن مؤلفاً مدققاً كابن طولون ما كان ليفته تسجيل مثل هذا الحدث الاستثنائي . غير أننا ننبّه أيضاً إلى احتمال كون الخبر المذكور أعلاه مرتبطاً بظهور مذنب هالي ذاته ، على افتراض حصول خطأ من المقّار في نقل ترتيب السنين من مفاكهة الخلان ؟

(2) الروض العاطر ، 13 ظ ؛ وكذلك نقل الخبر ابن جمعة في الباشات والقضاة ، ص 10 . ومن الواضح لدى المقارنة بين كل هذه المراجع بأن المصدر واحد وهو مفاكهة الخلان .

(3) الباشات والقضاة ، ص 10 ، وهنا ينفرد ابن جمعة بالنقل .

تاجر ، وقالت : أريد منك ثلاث شقف عجمي من شغل الإفرنج . والقيمة عنهم نحو المائة دينار . فأراها إياها ، فقالت : أريد أن أريهم إلى جماعة البيت وآتيك بالثمن ، وهذه الجارية التي معها ولدي تستمر واقفة عندك إلى أن أعود بسرعة .

ثم إنها ذهبتْ فاستبطأها كثيراً ، فالتفتَ إلى الجارية وقال لها : أين بيت ستّك هذه ؟ فقالت : لا أعلم ، وإنما حملتُ معها هذا الولد من أول السّوق . فكشفوا اللّحاف عن الولد الذي معها فإذا به ميّت ، ولم يُوقف للمرأة التي أخذت الشُّقف على خبر ، فرأيتُ هذه القصّة من أكبر العجائب .

* * * * *

وفي يوم[1] السبت حادي عشر رجب ، سنة خمس وثلاثين [وتسعمائة] ، دخل اثنان من المناحيس على الشيخ شمس الدين البلبيسي المقدسي الوفائي الشافعي واعظ دمشق ، وكان مجاوراً في خلوة بالخانقاه الشميصاتية لصيق الجامع الأموي ، وانقطع بها خمس سنوات وقد تعطّل شقّه الأيسر . دخلا عليه وهو على هذه الحالة ، فأخذا منه منديل النفقة بما فيه ، وعدّة من كتبه وذهباً كان عنده .

وكان ذلك قبل صلاة الصبح ، فأقام الصّوت عليهما فلم يُدركا ، كما ذكره ابن طولون في تاريخه . وكان ذلك زيادةً في ابتلائه .

* * * * *

(1) الكواكب السائرة ، 2 : 20 ، بتصرف .

وفي يوم[1] الثلاثاء تاسع شوّال سنة خمس وثلاثين وتسعمائة ، توفي السيّد برهان الدين القصير الحسيني ، إبراهيم بن موسى الصلتي . كان في خدمة القاضي أقضى القضاة شهاب الدين أحمد ابن الفرفور الشافعي ، ثم في خدمة ولده أقضى القضاة ولي الدين محمد ابن الفرفور ، يتوكّل للناس . وكان يدّعي النظم ، ويكتب في رسم شهادته «الواعظ» .

وولي نظر البادرائية إلى أن توفي ، ودُفن بتربة الشيخ أرسلان ، وحضر جنازته الأكابر والأعيان . وخلّف ولدين هما السيد شرف الدين موسى والسيد محمد[2] .

وفي يوم[3] الإثنين خامس عشر شوّال ، سنة خمس وثلاثين وتسعمائة ، توفي شيخ الإسلام القاضي رضي الدين الغزّي ، أبو الفضل محمد بن محمد ابن أحمد بن عبد الله بن مفرّج بن بدر بن عثمان بن بن جابر بن فضل بن ضوي ، ينتهي إلى عامر بن ربيعة ، الغزّي الشافعي العامري .

مولده سنة اثنتين وستين وثمانمائة بدمشق المحروسة ، وفوّض إليه القاضي سراج الدين الصيرفي نيابة القضاء بكتاب ورد إليه من قاضي القضاة قطب الدين الخيضري . ثم ولي النيابة أيضاً لقاضي القضاة شهاب الدين أحمد ابن الفرفور ، ثم وقع بينهما فعزله .

قال ابن طولون : وصار في أيامه المرجع إليه في دمشق . ثم تولّى في أيام الولوي ولي الدين ابن الفرفور ، ووقع بينهما فعزله من النيابة . ووقفتُ له على ألفية في الطبّ سمّاها «عَرف النَّفحة في حفظ الصحّة» ، وأشحنها من غرائب الفوائد . ثم وقفتُ له على ألفية أخرى في التصوف .

---

(1) الروض العاطر ، 11 ظ .
(2) يتابع الأيوبي بذكر وظائف شرف الدين حتى وفاته سنة 977 هـ ، أما محمد فيقول سيأتي ذكره في حرف الميم .
(3) الروض العاطر ، 229 و .

توفي يوم الإثنين خامس عشر شوّال ، وصلّى عليه ولده شيخ الإسلام الشيخ بدر الدين ، ودفنه من الغد بتربة الشيخ أرسلان بعد أن أُعلم له بالمواذن الثلاث . وكانت له جنازة حافلة حضرها الأكابر والأعيان .

* * * * *

وشرع [قاضي الشام ولي الدين ابن الفرفور] [1] في سنة خمس وثلاثين [وتسعمائة] في بناء قصر على مربّع ببيت جدّه بالنحّاسين ، داخل باب الفراديس مطلّ على نهر بَرَدا ، وجعل من هذا البيت سرداباً تحت الأرض إلى بيته شمالي الناصرية الجوّانية . وجعل من أعلى هذا البيت دهليزاً على أعالي بيوت الناس ، يصل منه إلى داخل الجامع الأموي .

* * * * *

ذكر ابن طولون [2] :

في يوم الإثنين حادي عشر [ذي] الحجّة ، سنة خمس وثلاثين ، سافر [المنلا] مرجان الكبابي [3] التبريزي الشافعي راجعاً إلى بلاده من دمشق ، وودّعه ناظر النُّظّار الكمال وجماعة إلى نحو القُطَيْفة .

---

(1) الروض العاطر ، 73 ظ - 77 و ؛ الثغر البسام ، ص 313 . وهذا من الأخبار الغريبة والنادرة عن إقامة مثل هذا السرداب وذاك الدهليز بدمشق . أما بيته الذي كان شمالي المدرسة الناصرية الجوانية (الباقية آثارها إلى اليوم) فكان يقع في زقاق حمل فيما بعد اسم زقاق الفرفور نسبة إلى البيت المذكور الذي توارثه أحفاد القاضي حتى أوائل القرن العشرين . راجع تاريخ العلاء البصروي (ص 114) عن عمارته سنة 891 هـ .

(2) الكواكب السائرة ، 2 : 132 .

(3) تقدم ذكره باسم القبابي .

قال : وقد كان شاع عنه أنه يمسح على الرِّجلين من غير خُفّ ، وأنه يقدّم علياً ، رضي الله تعالى عنه ، واستخرج ذلك من آية من القرآن .

* * * * *

وفي سنة [1] خمس وثلاثين وتسعمائة توفي السيد الشريف يحيى محيي الدين المصري ، موقّع نائب الشام جان بردي الغزالي وناظر الجامع الأموي بدمشق ، ذهب إلى الروم فأنعم عليه السلطان ابن عثمان بوظائف نحو خمسين عثمانياً ، وتوفي بأذنة[2] وهو راجع من الروم ، رحمه الله تعالى .

* * * * *

(1) الكواكب ، 2 : 260 . ولم يصرّح الغزي بنقل هذا الخبر عن المفاكهة بالذات ، ولكننا مع ذلك نكاد نجزم به ، لأنه يكاد يكون المصدر الأول للغزي في حوادث النصف الأول من القرن العاشر الهجري ، هذا فضلاً عن رتبة المترجم له لدى الغزالي ، الذي كان ابن طولون شاهد عيان لواقعته وأهم من أرّخ لها ، هذا إن لم نقل الوحيد .

(2)ورد في الكواكب بالأصل : أدرنه ، ونعتقد أن الصواب أضنة (أذنة) ، لأنها تقع في الأناضول على طريق القادم من عاصمة السلطنة اسطنبول إلى الشام ، بينما تقع أدرنه على أقصى الحد الغربي الأوروبي من تركيا الحالية ، فلا يستقيم بذلك ما أورده الغزي .

[حوادث سنة 936 هـ]

[استهلّت هذه السنة والخليفة على ما هو عليه ، والسلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان] [1] .

[ونائبه بدمشق عيسى باشا المذكور] [2] .

[وقاضي دمشق الولوي ابن الفرفور] .

قال ابن طولون [3] :

وفي سنة ست وثلاثين وتسعمائة ، وهي السنة التي توفي فيها الشيخ علوان ابن عطيّة الحموي . .

وفي يوم [4] الخميس سادس محرّم ، زُيّنت دمشق ثلاثة أيام ، وسببها أنه وصل إلى السّلطان مفاتيح ثلاثين قلعة بالأمان .

---

(1) إضافات يقتضيها السياق .

(2) ذكر المقار (ص 11) : استقام عيسى باشا المذكور ، وقاضي دمشق فخر الدين ابن إسرافيل ، وسيرد تعيينه لاحقاً .

(3) الروض العاطر ، 176 ظ - 177 ظ ، عقب ترجمة الشيخ علوان الحموي ، وفيها نقل من ابن طولون ، فلذا أثبتنا ما جاء عن المفاكهة منها في محلها أدناه .

(4) الباشات والقضاة ، ص 11 .

وفي يوم[1] الثلاثاء ثامن عشر المحرّم من السنة ، مسك القاضي الكبير عبداً له فاعترف بالزّنا وغيره ، فأمر برجمه ، فحُفر له تحت القلعة حفيرة إلى صدره ، وكُتّف ووُضع فيها ، ورُجم بالحجارة إلى أن مات . وكان حقه أن لا يُحفر له حفيرة ، ولم نرَ أحداً في عصرنا رُجم غيره .

وفي أوائل[2] سنة ست وثلاثين وتسعمائة ، توفي القاضي بدر الدين محمد ابن قاضي القضاة بدر الدين ابن الفرفور الحنفي الدمشقي ، سبط القاضي كمال الدين ابن خطيب جامع الورد[3] . توفي وهو راجع من الحجّ الشريف .

كان قاضياً على بلاد الكَرَك الذي يقال إن سيدي نوحاً عليه السّلام مدفون به .

قال ابن طولون : قيل إنه كان كثير البَلْصة .

* * * * *

رأيتُ في تاريخ ابن طولون المرتب على الأيام ، قال[4] :

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر صفر سنة ست وثلاثين وتسعمائة ، جاء إلى القاضي الكبير ، وكنتُ جالساً عنده ، شخصان عليهما سيما الصلاح ، وأوقفاه على نسبة معظّمة تشهد لهما بأنهما من ذرّيّة الشيخ أرسلان ، أعاد الله علينا من بركاته . فقال لهما : المشهور أن الشيخ أرسلان لم يُعقب .

---

(1) عودة إلى الروض العاطر .
(2) الكواكب ، 2 : 246 . ولا تحديد للتاريخ ، فلذا أثبتنا الواقعة هنا عقب المحرّم من السنة .
(3) جامع الورد هو الاسم الشائع لمسجد برسباي الحاجب في حارة الورد بسويقة صاروجا .
(4) الروض العاطر ، 7 و ، ضمن ترجمة الشيخ إبراهيم الناجي (توفي 900 هـ) .

قال [ابن طولون] : ووافقتُه على ذلك ، فإنه سُئل عن ذلك شيخنا المحدّث برهان الدين الناجي ، فأجاب بذلك . وصورتها :

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين ، رضي الله عنهم أجمعين ، في ولي الله سيدي الشيخ أرسلان ، هل أعقب أم لا ؟ أفتونا مأجورين ، وابسطوا لنا الجواب مُثابين ، أحياكم الله لإقامة الدين ولردع الجهلة والمفسدين .

فأجاب : الحمد لله الهادي للصواب ومؤتي الحكمة وفصل الخطاب ، وصلواته وسلامه على سيدنا محمد الفارق بين اليقين والارتياب ، وعلى جميع الآل والأصحاب والتابعين لهم بإحسان إلى يوم المآب ، وبعد : فهذه أحرف مقرّرة أن سيدي الشيخ أرسلان لم يُعقب ، ولكل شيطان جاهل كذاب يريد أن يستأثر بالسُّحت الذي يحصل لخدّام قبره أو يشارك فيه .

ولا بأس بذكر شيء من ترجمته ، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركته [1] :

وهو أرسلان ، ومعناه بالتركية أسد ، بن يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد الله الجعبري الأصل من قلعة جعبر من أولاد الأجناد ، ثم الدمشقي النشّار في الخشب ، الزاهد القُدوة . وقلعة جعبر مشهورة على الفرات بين بالس ، بكسر اللام ، والرَّقّة بفتح اللام ، قرب صفّين ، ملكها رجل أعجمي يقال له جعبر فنُسبت إليه لاستيلائه عليها . صحب شيخه أبا عامر المؤدّب ، وهو مقبور في تربته المشهورة بظاهر باب توما في القبر القبلي ، والشيخ أرسلان في القبر الأوسط ، وخادم الشيخ أرسلان أبو المجد في القبر الثالث .

ويقال إن هذه القبّة التي عليه بناها الشيخ أرسلان على شيخه [7 ظ] أبي عامر لمّا أعطاه بعض التجّار مبلغاً من المال ، ولمّا احتضر الشيخ أبو عامر المذكور ،

---

(1) وهذا النص في ترجمة الشيخ أرسلان يكرره ابن طولون من كتابه «غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان» . وكنا نشرناه بدمشق عام 1984 .

سألوه أن يوصي لولده عـامر المكنّى به ، فقـال : عـامر خراب ورسلان عـامر . فلمّا توفي قام الشيخ رسلان مقامه ، ولم يجئ من ولده حالة ، والمُراد مُراد الله .

والشيخ أبو عامر صحب الشيخ ياسين ، وهو صحب الشيخ مسلمة ، وهـو صحب الشيخ عقيل ، وهو صحب الشيخ علي بن عليم ، وهو صحب الشيخ أبـا سعيد أحمد بن عيسى الخرّاز ، بالخاء المعجمة والـراء المهملـة ثـم الـزاي المعجمـة ، والخرّاز صحب السريّ السقطي .

وذكروا أن الشيخ أرسلان بقي مدّة عشرين سنة ينشر الخشب ويقسم أجرتـه أثلاثاً : ثلث ينفقه ، وثلث يتصدّق به ، وثلث لكسوته ومصالحه . وقـد قيـل إنه كان في هذه المدّة يأخذ ما يحصل له من أجرتـه ويعطيه شيخه أبا عـامر ، وشيخه يطعمه ، فتارة يجوع وتارة يشبع .

وكان أولاً يتعبّد بمسجد صغير داخل باب تومـا ، وهـو معـروف الآن بمقامه جوار بيته ودكّان النشر ، وحفـر البئر التي هنـاك بيـده ، وكـان أهـل تلـك النـاحية يشربون منها للبركة ، ومن أوجعه جوفه أو حصل له ألم فشـرب منهـا عـوفي بـإذن الله تعالى . وقد جرّبه جماعة إلى الآن [1] .

وكان بيت الشيخ طبقة ، وإلى جانب الطبقة دكان حياكة ، وفي هـذا المكـان كان ينشر ، وهناك كلّمـه المنشـار مرتـين ، وفي الثالثـة كلّمـه وتقطّـع ثـلاث قطـع ، وقال : يا أرسـلان ، ما لهـذا خُلقتَ ولا بهـذا أُمرتَ ! فـترك العمـل وجلس في هذا المعبد ، وكـان مسجداً صغيراً ، ثـم اشـترى نـور الديـن الشـهيد داراً مجـاورة للمسجد ، ووسّعه وبنى له منارة ووقف عليه .

وذُكر أن الشيخ أرسلان أعطى نـور الديـن الشـهيد قطعـة من المنشـار الـذي كلّمه وتقطّع ، فأوصى نور الدين أهله وأصحابه إذا مات أن يضعوها في كفنه .

---

(1) كتب الأيوبي : قلتُ : وهذا المسجد داخـل بـاب تومـا أول حـارة الجنيـق ، والله أعلـم .
قلنا : وفي أيامنا يعرف هذا المسجد بمسجد الإمام جعفر الصادق ، بعد ترميمه في 1984 .

ثم انتقل الشيخ أرسلان إلى مسجد درب الحجر ، وجلس بالجانب الشرقي منه ، وكان ينام هناك ، والشيخ أبو البيان بالجانب الغربي منه . وبقيا على ذلك زماناً يتعبدان ، وكل واحد منهما بأصحابه في ناحية من المسجد المذكور . ثم خرج الشيخ أرسلان إلى ظاهر باب توما إلى مسجد خالد بن الوليد ، أحد أمراء الأجناد الخمسة الصحابة الذين سيّرهم أبو بكر الصدّيق واقتسموا [8 و] فتح الشام من عريش مصر إلى الفرات ، وهم : خالد بن الوليد ، ويزيد بن أبي سفيان ابن حرب أخو معاوية ، وعمرو بن العاص ، وشُرَحبيل بن حَسنة ، وأمير الأمراء أبو عُبيدة بن الجرّاح . وهذا المسجد مكان خيمة سيدنا خالد بن الوليد لما حاصر دمشق .

وعَبَد الله الشيخ فيه إلى أن توفي بعد الأربعين وخمسمائة (1) .

وذكروا أنه لما شرع في بناء المعبد المشار إليه ، بعث إليه الشيخ أبو البيان ذهباً مع بعض أصحابه حتى يصرفه في عمارته . فلما اجتمع به وعرض عليه الصرّة ، قال الشيخ أرسلان : ما يستحي شيخك يبعث لي هذا ، وفي عباد الله من لو أشار إلى ما حوله لصار ذهباً وفضة ؟ فرأى المملوك الحيطان والطين ذهباً وفضة ، فتحيّر وقال : يا سيّدي ، قد علّق عتقي على قبولك هذا الذهب ! فأخذه وصرفه في الحال على المساكين والأرامل والأيتام ، وفُرّق بحضور المملوك .

وقال الشيخ داود بن يحيى بن داود الحريري ، وكان صدوقاً : كان الشيخ أحمد بن الرفاعي قد دار النخل التي له ، وعيّن واحدة منها وقال لأصحابه : إذا استوت هذه أهديناها إلى الشيخ أرسلان . فمرّ بها بعد مدّة ، فوجد أكثر ما عليها ذهب . فسألهم ، فقالوا : لم يطلع إليها أحد ، لكن في كل يوم يجيء إليها باز

---

(1) كتب الأيوبي معلقاً : قلتُ : وقد ذكرتُ الشيخ أرسلان في التذكرة التي لي المرتبة على حروف المعجم ، في حرف الهمزة ، وذكرتُ بعض مناقبه على سبيل الإيجاز وتاريخ وفاته ، فليُطلب من هناك ، والله أعلم .
قلنا : يريد بها التذكرة الأيوبية ، وهي ما تزال مخطوطة لم تنشر بعد .

أشهب يأكل منها ولا يقرب إلى غيرها ثم يطير ! فقال لهم : الباز الذي يجيء هو الشيخ أرسلان . فلذلك يقال له «الباز الأشهب» .

هذا ملخّص ما ذكره الحافظ شمس الدين الذهبي والشيخ شمس الدين ابن الجوزي وغيرهما من الأئمة في ترجمته ، ولم أقف بل ولا غيري ممن يفهم فيما أعلم إلى الآن ، مع كثرة التتبع ودوام الاستقراء والبحث على أنه أعقب ، بل ويقتضي ما ذكرته فيما تقدّم أنه لم يتزوّج أصلاً ، والعلم عند الله .

وفي زماننا يطلع كل أيام شيطان طُرقي مدّعٍ كذاب لا يتوقف [8 ظ] في الحرام من أين حصل ، ولا يبالي إن انقطع عن الله أو اتصل بنسبة بطريقة مكشوفة قد عملها وخسر عليها مالاً حراماً وأثبتها على بعض قضاة بلادهم بشهود متواطئين على ما اتفقوا عليه ، والكل لا يعرفون هذا العلم أين زُرع ولا أين نبت فيثبت بمثل النسب أو يقول به فقيه :

فضيلةٌ لم تزدهم غير منقصةٍ عند الدعيّ وعند الله والناس

أويحسب هؤلاء الهمج الرّعاع أتباع الدجّال الذين هم من قبل قول الله تعالى في عدوّه فرعون ﴿فاستخفّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أن حملة الشريعة الشريفة [و] نقّادها وحُماتها ماتوا ؟ وليس كما ظنوا ، فقد ألقى الله لهم ما يسوؤهم ، لا كثّر الله منهم ولا بارك الله فيهم وأرغم أنوفهم ، وعافانا مما ابتلاهم ، وجعلنا ممّن يتقرّب إليه سبحانه ببغضهم وهجرهم وسبّهم وكشف زيفهم والتبرّي منهم والقيام عليهم بكل ممكن وهتكهم في الدنيا والآخرة .

إن عادت العقربُ عدنا لها وكانت النّعل لها حاضره

ومن أصرّ على هذه الدعوى الكاذبة والعصبيّة الفاحشة التي هي من أكبر الكبائر وأقبح القبائح ، بعد تعريفه والوقوف على ما قرّرته وما سأذكره من

الأحاديث النبويّة في تغليظ تحريم ذلك ، ثم استحلّه ولم يُبادر إلى التوبة والإتيان بشروطها ، ومن جملتها إكذاب نفسه الخبيثة عند من أضلّ ، مثل شاهد الزّور والقاذف ، واستبراؤه بسبّة كفر وجرت عليه أحكام المرتدّين في الدنيا والآخرة ، والدنيا بحذافيرها أقلّ وأخسّ ﴿وتحسبونه هيّناً وهو عند الله عظيم﴾ .

وقد قال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم : من ادّعى دعوى كاذبة ليكبّر بها ، لم يزده الله إلا قلّة . وقال : ليس من رجل ادّعى لغير أبيه إلاّ كَفَر . ووقع في رواية أبي ذُرّ الهروي للبخاري : في أوائل المناقب كفر بالله . وقال : لو يُعطى الناس بدعواهم لادّعى قوم دماء قوم وأموالهم . وقال : من ادّعى أباً في الإسلام ، يعلم أنه غير أبيه ، فالجنّة عليه حرام . وقال : من ادّعى إلى غير أبيه ، أو انتمى إلى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً . وفي حديث آخر : فعليه لعنة الله المتابعة إلى يوم القيامة . وفي حديث : [9 و] من ادّعى إلى غير أبيه لم يرح رائحة الجنّة ، وإن ريحها ليوجد من قدر أو مسيرة سبعين عاماً . وفي رواية : من مسيرة خمسمائة عام .

إلى غير ذلك مما تضيق عنه مدّة الفتيا ، التي لا يخالف فيها في مملكة الإسلام أحد من أهل هذا الفن الأعلام ، ولا يروّج ما يخالفها إلا على الهمج الرعاع أتباع الدجّال وأشباههم ، ممن ينبغي تقطيع رقبته بالنعال . وأخزى الله تعالى من عادى وليّ الله الشيخ أرسلان بانتسابه إليه باطلاً وكذباً ، وجعله أكبر خصمائه . وقد أخبر المصطفى عن ربّ العزّة فيما رواه البخاري وغيره أنه قال : من عادى لي وليّاً فقد آذنته - أي أعلمته بالحرب - ويلٌ لمن شفعاؤه خصماؤه . انتهى[1] .

---

(1) يتابع الأيوبي في الروض العاطر بعد نقله هذا النص المطوّل عن ابن طولون ، فيروي عن بعض مشايخ الصوفية في عصره ممن ادّعى بنسب كاذب إلى الرسول واتخذ الشعار الأخضر على عمامته ، ومن ذلك يذكر : «وقد فعل ذلك طائفة الدسوقية وطائفة =

وذكر ابن طولون[1] في تاريخه أنه وصل إليه الكتاب من حلب أن الشيخ المحدّث زين الدين عمر ابن الشمّاع الحلبي الشافعي ، رحمه الله تعالى ، توفي في صبح يوم الجمعة قبيل أذانه ، ثاني عشر صفر الخير من سنة ست وثلاثين وتسعمائة .

[ووصل الكتاب يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول] .

قال : ودُفن بالسبيل خارج باب أنطاكية ، وبعده بسبعة عشر يوماً توفيت زوجته ، ولم يُعقبا .

ومن اللّطائف[2] أن الشيخ علوان بعث مكتوباً إلى دمشق ، أخبر فيه بموت صاحبه شيخه في الحديث ومريده في الطريق المحدّث زين الدين ابن الشمّاع ، أنه مات بحلب . فوصل مكتوب الشيخ علوان إلى دمشق يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول ، سنة ست وثلاثين المذكورة .

= الصمادية ، كل ذلك فيما بين سنة خمس أو ست وثمانين وتسعمائة ، إلى سنة إحدى وتسعين وتسعمائة أو نحوها . ولقد كان على طائفة الصمادية قبل ذلك المهابة والجلال والأنس والحشمة ، وقد ذهب بهذا الفعل جملة واحدة . وكذلك رجل يقال له تاج الدين بن عين المُلك ، اختلق له نسبة وأوصلها على بعض قضاة السوء ، ينتسب فيها إلى [أبي] أيوب الأنصاري ، وسافر بها إلى بلاد اصطنبول ليتصيّد بها المناصب فلم ينجح . فجاء إلى زاوية جده ، وجعل حبلاً جرّاراً وأدخله في السقف بين الطين والقصب ، وعلّق في طرفه الواحد قنديلاً ، وللزاوية شباك مطلّ عليها ، فوضع خلفه جارية وأمسكها طرف [9 ظ] الحبل ، وكان حضر عنده في الزاوية جماعة من أكابر الأروام ، مثل ناظر الجيش والدفتردار ، فيقول الشيخ تاج الدين المذكور مخاطباً للقنديل : يا قنديل اصعد إلى السقف ! والجارية تسمع كلامه فتجرّ الحبل يصعد طالعاً ، ثم يقول له : يا قنديل اهبط إلينا ! فترخي الجارية الحبل فيهبط راجعاً إلى أسفل . فيبكي ناظر الجيش ومن معه ويحصل لهم خشوع وتواجد ، فيحسنون فيه الاعتقاد ويقبّلون أقدامه ويقعون على يديه ويبذلون له المال والدراهم . واستمر على ذلك إلى أن مات» . ثم يتابع الأيوبي عن ابن عم تاج الدين ، وأنه أبطل حيلة القنديل من بعده ، وعدم صحة نسابته لأبي أيوب الأنصاري ، وعن توجهه إلى اصطنبول وأخذه الجوالي بها عام 997 هـ .

(1) الكواكب السائرة ، 2 : 226 . وفيه ترجمة طويلة ص 224 .

(2) الكواكب ، 2 : 213 .

[وفي يوم الجمعة صلّي غائبة على][1] الشيخ علوان المدعو بعلي بن عطيّة ابن حسن بن محمد الحموي الشافعي .

قال ابن طولون في حقّه : كان عالماً زاهداً ورعاً متقلّلاً من الدنيا ، صحب الصوفية وأخذ الطريق عنهم ، وصحب الشيخ العارف بالله تعالى علي بن ميمون المغربي وانتفع به ، وهبّت عليه ببركته [175 ظ] نسمات القبول ، صحبه في آخر الوقت . وقرأ الفقه والنحو وعلوم الحديث على مشايخ ذلك العصر . وله تصانيف ، منها شرح تائية الشيخ شرف الدين عمر ابن الفارض ، وشرح تائية عبد القادر بن حبيب الصفدي ، وهو من أخوانه وأصحابه ، وله منسك ، وله قصيدة مسهبة نحا فيها على منحى الصوفية ، مشتملة على آداب وسلوك ، وله غير ذلك .

وكان له أوراد من صيام وصلاة وقراءة القرآن وملازمة الذكر والأوراد ، وكان يتكلّم على الخواطر ويربّي الفقراء ويرشدهم إلى الله تعالى . وكان يعظ الناس بالجامع الكبير بحماة ، وعلى وعظه القبول ، وله وقع في القلوب . وكان له أحوال عجيبة ، وكان من خلفائه عمر العقيبي الإسكاف الزاهد المشهور ، وحصل له بصحبته الخير ، وكذلك سيدي محمد بن عراق ، وغيرهما .

توفي يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الأول سنة ست وثلاثين وتسعمائة بحماة ، وقد جاوز الثمانين ، عن ولدين نجيبين ، أكبرهما الشيخ وفا العارف بالله تعالى . وصُلّي عليه بعد يومين غائبة بعد صلاة الجمعة بالجامع الأموي ، وعرّض خطيبه الجلال ابن البصروي بذكره في الخطبة فانتحب الناس بالبكاء عليه ، ودُفن بالمكان الذي كان يعظ فيه . وسافر عقيب هذه الخطبة الشيخ عمر الإسكاف تلميذه إلى تعزية ولديه ومعه الفقراء ، وعاد بسرعة فإنه لم يلبث في حماة سوى ليلة واحدة وأسرى صبحها .

---

(1) الروض العاطر ، 175 و .

وفي ليلة [1] الخميس تاسع عشري ربيع الآخر ، سنة ست وثلاثين وتسعمائة ، توفي أحمد ابن منلا شيخ المعروف بخُجَا كمال - هكذا سمّاه ابن طولون - ناظر النُّظّار بدمشق ، وهو أول من ولي نظارة النظّار بها ، ومتولي الجامع الأموي والتكيّة السّليمية والبيمارستان إلى جانبها .

قال ابن طولون ، بعد أن ذكر ما انتقده عليه بعض الناس من إحداث وظيفة نظر النُّظّار بدمشق ، ثم حدثت بعد ذلك بمصر ثم بحلب ، ومن ترتيب أخذ زوائد أوقاف الجوامع والمدارس والرُّبُط ونحوها إلى خزينة السّلطان في كل عام ، ومن تكبّره على بعض مرتزقتها ، قال :

لكنه كان محبّاً للمجذوبين ، كثير الإحسان إليهم ، كالشيخ عمر الحارّ والشيخ الصالح علي ابن مكين وغيرهما .

قال : وصار الشيخ تقي الدين القاري الشافعي يفتي بعد موت الكمال ويصرّح بأنه كان رافضياً ، بسبب أن خاتمه كان مكتوباً عليه : عشق علي .

* * * * *

وفيها [2] وصل إلى دمشق رجل يُقال له حَمّاد البَصري ، وهو أعمى ، ونزل بالبادرائيّة . وكان يلعب بالشّطرنج ، فتقدّمت إليه أكابر دمشق ومصر والحجاز ولعبوا معه بعد أن ربطوا عينيه ربطاً مُحكماً ، فغلبهم . وذكروا أنه يتمكن من

---

(1) الكواكب ، 2 : 108-109 . وسبق ذكر خجا كمال ناظر النظار ومتولي الأموي في حوادث سنة 930 هـ ، عند ترميمه لسوق باب البريد إثر احتراقه . وينقل الغزي عن الشيخ يونس العيثاوي أنه أثنى على صاحب الترجمة لما أن حُرق سوق باب البريد واحترق أبواب الجامع معه . وكان المتكلم عليه الخجا العجسي من قبل خُرّم باشا ، وأحسن النظر فيه وعمّر ما احترق من مال الوقف الذي كان مرصداً عنده .

(2) الباشات ، 11 .

يتمكن من اللّعب مع خمسة أنفس على خمس رُقع . ثـم إنه توجه إلى الرّوم ، ولعب قدّام السّلطان . وكتـب أربعة عشر مُصحفاً للسّبعة قبـل أن يعـرض لـه العمى .

وشرع [القاضي][1] ولي الدين ابن الفرفور] في سنة ست [وثلاثين وتسـعمائة] في فك جسر شبابة [على] نهر يزيد ، وكان على قنطرتين فجعله على قنطرة ، ليمرّ المَرْكَب الذي جدّده بالدّهيشة إلى المنيقبة[2] بالرَّبْوة . كمـا كـان يقـع ذلـك لقـاضي القضاة نجم الدين ابن حجّي ، ويمرّ إلى بستانه الدّهشة مكبراً فيه ، فإنه بنى بهـذا البسـتان تقيسـة[3] عجيبـة بشـبابيك مطلّة على سـواقي مـاء وبـرك مـن جوانبهـا الأربعة . وقد كان بين الدّهشتين بستان حايل لم يملكه .

* * * * *

وفي يوم[4] الأربعـاء ثـامن شـعبان مـن السّنة وصـل الخبر بعزلـه عـن قضـاء دمشق ، وتوليته للفخري عثمان ابـن إسـرافيل البُرْصـاوي الرُّومـي الحنفـي ، وأنـه ولي دمشق من غُرّة رجب منها ، وأن قاضي المحكمة سعدي الرّومي الحنفي يضبط المحكمة وما انضاف إليها ، ويبقى النّيّاب على حالهم .

* * * * *

---

(1) الروض العاطر ، 73 ظ – 77 و ؛ الثغر البسام ، ص 313 .
(2) المنيقبة اسم للنقب الصخري الذي يهبط منه نهر ثورا في الربوة بعد تفرعه من بردى . ذكره ابن جبير في رحلته وابن الوردي في خريدة العجائب والبدري في نزهة الأنام وابن عبد الهادي في غدق الأفكار (وفيه اسم المنيقبة ساقط بخرم) وابن طولون في المفاكهة (1 : 320) . راجع كتابنا دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين العرب ، ص 654 .
(3) سبق ورود ذكر هذا المصطلح في حوادث مطلع سنة 927 هـ . ويبدو من سياق النص أنه يعني ما يشبه الجوسق الصغير ، وهو بالتركية الكشك köşk ، وبالفرنسية pavillon .
(4) المرجعان السابقان .

وفي يوم[1] الثلاثاء عاشر شهر رمضان ، سنة ست وثلاثين وتسعمائة ، توفي السيّد الشريف أحمد العاتكي الدمشقي ، أحد المجذوبين بها . كان بمدرسة أبي عمر بالصالحية ، وكان للناس فيه اعتقاد زائد ، خصوصاً ناظر النظّار الكمال التبريزي .

قال ابن طولون : وصرّح أهله أنه ليس بشريف . قال : وكان كثيراً ما يسألني عن أحكام العبادات على مذهب الشافعي ، فإنه كان متديّناً به .

توفي بالبيمارستان القيمري ، وجهّزه الكمال المذكور ، وكانت جنازته حافلة . ودُفن بمقبرة الشيخ أبي عمر ، خارج الحواقة من جهة السفح ، رحمه الله تعالى .

وفي يوم[2] الجمعة تاسع عشرين رمضان من السّنة ، وقع بحلب أن خطيب الجامع الكبير لمّا ترضّى على الصّحابة وثب عليه شخص رافضي بخنجر ورام قتله ، ففرّ وكل من في الجامع ، حتى نائب حلب . ثم أُمسك وأُحرق ، ولم يُصبح من رماده شيء ، فقيل إن الرّافضة أخذته للتبرّك به .

وفي هذا اليوم وصل أولاقيّة بالتفتيش على القاضي المنفصل الولوي ولي الدين محمد بن الفرفور ، وكان قد توجّه لنحو الباب العالي ، فجهّز النائب خلفه أولاقيّة للعَوْد به إلى دمشق لأجل ذلك .

* * * * *

وفي يوم الأحد ثاني شوّال من السّنة مُسك السيّد تاج الدّين الصّلتي الوكيل عن القاضي المنفصل ابن الفرفور ، ورُفع إلى القلعة . ثم تتبّعت جماعة هذا

(1) الكواكب ، 2 : 117 .
(2) الروض العاطر 176 ظ - 177 ظ .

القاضي ، كشمس الدين ابن شيخ الجسر ، ووكّل الناس في الخصومات الدَّمَنْهُوري والخَوَاجا نور الدين الحنفي خادم الشيخ أرسلان ، والموقِّع عند هذا القاضي السيّد محمود بن السيّد الموقِّع . فمُسكوا [177 و] وغيِّب آخرون ، وسُلِّموا للصُّوباشي ، وبعضهم ضُمن إلى أن يحضر القاضي المنفصل فأُطلق .

وشرع النائب يتتبّع جرائمهم فيضبطها ، وأرسل جاويشاً كشف على المُرشدية للحنفيّة ، الجارية تحت نظر شمس الدين ابن القُوَيْضي الطبيب ، فرآها خراباً وقد خربت قاعتها ووقعت درابزين ماذنتها وأُخذت آلاتهما ، ولها سنين لم يُشعل بها قنديل ، ووقّعها بعمل نحو عشرة آلاف درهم ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله .

وفي يوم الأربعاء ثاني عشر شوّال منها ، قدم إلى دمشق القاضي الجديد فخر الدين ابن إسرافيل ، ونزل ببيت الشهابي ابن المُزلّق أسفل الطواقيين من جهة الغرب وقبلي النُّورية الكبرى[1] . وتلقّاه الأكابر فلم يكترث بهم . وذهب إلى النائب وقت العصر وسلّم عليه . وجاءته الهدايا فلم يقبل لأحد شيئاً ، وهذا ابتداء حسن .

وفي يوم الخميس ثالث عشره ، رُسم لابن المنقار بتسليم نظر الماردانية عوضاً عن يوسف الكاتب ، وتسليم نظر البيمارستان القَيْمري عوضاً عن كمال الدين الدُّويري ناظر النّظار .

---

(1) كتب الأيوبي معلقاً : قلتُ : [75 ظ] وهو إلى الآن [في سنة 998 هـ] مستمرّ بسكن القضاة فيه . وكان النائب وقضاة أولاد العَرَب يحكمون بالقاعة في الإيوان الصغير الشرقي ، والأفندي في الإيوان الكبير القبلي . فلمّا كان في أيام القاضي حسن ، أخرج النوّاب إلى خارج القاعة ، وبنى لهم هذا الإيوان الجالسين فيه اليوم ، وحجب الناس من الدخول إليه إلا وقت الدّيوان فقط ، ومن أراد الدخول إليه من الأكابر والأعيان يستأذن لهم ، فإن أذن وإلاّ رجعوا . وكان ذا حُرمة وديانة ومهابة ، رحمه الله تعالى .
وتابع : قلتُ : وسيأتي ذكر التفتيش على أقضى القضاة ولي الدين محمد ابن فرفور في ترجمته إن شاء الله تعالى .

وفيه بلغني أن القاضي الكبير عزل القاضي شمس الدّين ابن مفلح من قضاء حارة الميدان وولاّه قضاء الصّالحيّة ، وولّى قاضيها ابن الموصلي مكانه . وتضرّر الأوّل لكثرة محصول حارة الميدان وقلّة محصول الصالحية [1] .

ثم بعد أربعة وعشرين يوماً بلغني أنه أُعيد كل منهما إلى محل ولايته التي كان بها أولاً .

قال [ابن طولون] [2] :

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره ، رجع قاضي دمشق المنفصل الولوي ابن الفرفور ، بعد أن توجّه إلى الرّوم من حلب ، للتفتيش عليه وعلى جماعته . ودخل دمشق بعد العصر محترماً ، وكان أُشيع أنه يدخل في قيد وزنْجير . وتحقق أن البدرين ، أحدهما ابن شعبان الحنفي اختفى ، ثم ظهر باصطنبول ، وثانيهما القاضي رضي الدين ابن الغزّي توجّه إلى الرّوم في أمن [177 ظ] وعزّ .

ثم وُضع هذا القاضي في قاعة السّلطان بالقلعة ، ونُودي في غده : من كان له عنده أو عند أحد من جماعته حقٌّ من دَيْن أو بيت أخذه أو بستان استطال عليه أو بلص تجرّأ عليه ، فليحضر يوم السبت للدّعوى عليه ، ليتخلّص على الوجه الشّرعي .

وفي يوم السبت ثاني عشريه ، شُرع في التفتيش على قاضي دمشق القاضي

---

(1) كتب الأيوبي في الروض العاطر معلقاً : قلتُ : وقد جلستُ أنا بمحكمة الصّالحية شاهداً موقّعاً ستة أشهر في سنة ست وثمانين وتسعمائة ، وجلستُ بها نائباً من قبل المرحوم أحمد ابن المرحوم حسن بك مدّة ، وعُزلتُ منها ، ثم عُدتُ إليها ثانياً في زمن أقضى القضاة مصطفى أفندي ابن بُستان .
ولم يبلغ محصول قاضي الشام بها خمسين قطعة ، بل أقلّ ، وفي بعض الأيام يبلغ السّتين ، وربما بلغ الثمانين ، وفي بعض الأيام لم يحصل لها ما يكون ثمن طعام الخدمة ، وربما استدانوا من بعض السّوقة وتغدّوا به . فالذي يحصل لقاضي دمشق منها في الشهر أربع وعشرين قبرصيّاً ، مع تعطيل أربعة جُمَع في الشّهر ، والله أعلم .

(2) الروض العاطر ، والثغر البسام .

الولوي ابن الفرفور بحضرة النائب والقاضي الكبير ونائب القلعة والدّفتردار علي باك ، والعم القاضي جمال الدين ابن طولون مفتي دار العدل - إلى أن بطل أمرها - الحنفي ، والشيخ تقي الدين القاري الشافعي ، ووجوه الناس .

وانتُدب للكلام معه القاضي معروف الصّهيوني والمُباشر محمد ابن الذّهبي الطّرابلسي ، وقلّلا الأدب عليه ، وقُبلت عليه البيّنات المُنكرة ، ورُمي بأشياء فاحشة لم يثبت عليه شيء منها ، وغالب جماعته وجيرانه ادّعوا عليه بأشياء عجيبة . واستمرّ التفتيش عليه نحو الخمسة عشر مجلساً بإيوان اصطبل دار السّعادة [1] ، وصار كلّما أُثبت عليه شيء يبيع من أملاكه ثم كُتُبه وثيابه وخيله ويوفي ، ثم استمرّ في القلعة [2] .

وفي شهر شوّال [3] ، سنة ست وثلاثين وتسعمائة ، توفي السيّد الشريف عبد الله ابن عبد اللطيف ابن أبي بدرون الحسيني الفاسي المكّي ، قريب مؤرخ مكّة القاضي تقي الدين .

مولده كما نقلته من خط ابن طولون ، عن كتاب العلاّمة شهاب الدين البخاري المكّي الإمام بمقام الحنفية ، أنه في شوّال سنة سبع وأربعين وثمانمائة . وأجازه الحافظ أبو الفضل ابن حجر ومن في طبقته ، باستدعاء المحدّث نجم الدين عمر ابن فهد في سنة خمسين وثمانمائة . وله سماع على الشيخ أبي الفتح المراغي العثماني وغيره .

* * * * *

---

(1) تقدم ذكر دار السعادة ، وهي مسكن الوالي آنذاك ، في حوادث صفر سنة 924 هـ .

(2) من الواضح أن ابن الفرفور لم ينفعه في خاتمة أمره تقربه من الحكام العثمانيين الجدد طوال فترة حكمهم منذ عام 922 هـ إلى هذه السنة 936 هـ ، فها هم يقلبون له ظهر المجنّ ويحوز سخطهم وسخط أهل الشام فوق كل ذلك .

(3) الكواكب ، 2 : 155 .

وفي يوم[1] الجمعة ثامن عشر ذي الحجّة الحرام ، سنة ست وثلاثين وتسعمائة ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ الإمام كمال الدين محمد ابن علي الطويل القاهري الشافعي ، قاضي الشافعية بالديار المصرية في أواخر الدولة الجركسية[2] .

* * * * *

(1) الكواكب ، 2 : 46 . وله هناك ترجمة مفصلة فلتراجع .

(2) هذا آخر ما عثرنا عليه من أخبار سنة 936 هـ ، وفيها قام العثمانيون بقيادة الصدر الأعظم إبراهيم باشا بمحاصره مدينة ڤينا (في التركية العثمانية تكتب ويانه) للمرة الأولى من 22 المحرم حتى 10 صفر . ولا ندري إن كان الخبر بلغ ابن طولون وسجّله في وقائعة بالنص الأصلي للكتاب ، غير أن أمامنا مثالاً واضحاً مما سلف بذكره لفتوح السلطان سليمان في فلاخيا والبلقان والجزر اليونانية ، مما يحملنا على افتراض ذلك .

[حوادث سنة 937 هـ]

[استهلّت هذه السنة والخليفة على ما هو عليه ، والسلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان] .

[ونائبه بدمشق عيسى باشا][1] .

[والقاضي بها فخر الدين ابن إسرافيل] .

ذكر ابن طولون[2] :

وفي ليلة الأحد رابع محرّم ، سنة سبع وثلاثين وتسعمائة ، توفي [العمّ] القاضي جمال الدين يوسف بن محمد بن علي ابن طولون الزّرعي الدمشقي الصّالحي الحنفي ، توفي بعلّة الإسهال ولم يوصِ ، ودُفن بتربته بالصّالحية [بالسفح قبلي الكهف والخوارزمية][3] .

ترجمه ابن أخيه الشيخ شمس الدين [ابن طولون] بالفضل والعلم ، ونقل

(1) الباشات والقضاة (ص 11) : استقام عيسى باشا والقاضي فخر الدين أفندي .
(2) الكواكب ، 2: 261 .
(3) إضافة من الكواكب في ترجمة الغزي لابن طولون ، 2: 54 .

في وقائع سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة من تاريخه ، عن الشيخ تقي الدين القاري ، أن مفتي الرّوم عبد الكريم أثنى على عمّه المذكور ثناءً جميلاً ، وأنه لم ير في هذه المملكة أمثل منه في مذهب الإمام أبي حنيفة ، رضي الله تعالى عنه . وذلك حين اجتمع القاري بالمفتي المذكور بمكّة ، وكان القاضي جمال الدين ابن طولون مجاوراً بها إذذاك .

وقال النعيمي إن ميلاده تقريباً سنة ستين وثمانمائة ، وفوّض إليه نيابة القضاء قاضي القضاة الحنفية تاج الدين ابن عرب شاه ، في يوم الإثنين رابع عشر جُمادى الآخرة ، سنة خمس وثمانين وثمانمائة . انتهى .

قال ابن طولون [1] :

وفي يوم السبت سابع عشر المحرّم ، سنة سبع وثلاثين وتسعمائة ، خَتَمَ الألفيّة لابن مالك الولد علاء الدين علي ابن التاجر عماد الدين ابن الغَرْس الشافعي [200 ظ] بالدّهيشة ، على كاتبه محمد بن علي بن طولون ، وحضر جمعٌ من الطّلبة أزيد من الأربعين . وجلسنا في المَرْكَب الذي جدّده القاضي ولي الدين ابن فرفور هناك ، وكان يوماً مشهوداً . انتهى .

* * * * *

ثم إن قاضي [2] دمشق استطال في أوائل هذا العام على خزائن الكتب الموقوفة على طلبة العلم ، وأول ما ابتدأ بخزانة شيخنا العلاّمة زين الدين ابن

---

(1) الروض العاطر ، 200 و- 200 ظ ، ضمن ترجمة علي بن عماد الشافعي (توفي 971 هـ) .
(2) الثغر البسام ، ص 315 .

العَيْني . ثم ذهب إلى خزانة الشيخ علاء الدين البخاري ، ثم ذهب إلى خزانة الكتب بمدرسة أبي عُمر وضبط كتبهم بعد أن أخذ منها ما أراد ، ولم يعتبر شرط واقفيها ، وتعطّل النّفع بها إلاّ لجماعة الأروام ومن يلوذُ بهم ، ولا قوّة إلا بالله .

* * * * *

وفيها[1] اعترض أمير العرب ملحم للحجّاج في منزل[ـة] ذات حجّ ، ورام أخذه فلم يمكنه ، ففرّ إلى تبوك وقطع النخيل ووضعه بالبركة ، ثم فرّ إلى الأخضر ووضع بالبركة الحَنْظَل المدقوق ، ثم فرّ إلى بركة المُعظَّم فملأها قَطايس ، وصار بين العرب والحاج مقتلة عظيمة ، لكن الحاج ترجّح على العرب ، غير أن المُشاة هلكت من العطش ، وجاء على درب الغزّاوي .

* * * * *

قال ابن طولون[2] : وفي يوم الجمعة سابع صفر ، سنة سبع وثلاثين وتسعمائة ، صلّي غائبة بدمشق بالأموي على الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الرحيم الفصّي البعلي الشافعي . توفي يوم الأحد ثاني صفر ، ودُفن بمدينة بعلبك .

---

(1) الباشات والقضاة ، ص 11 . وليس في الخبر تحديد لتاريخه ، غير أن قوله «جاء على درب الغزاوي» يدل على أن الحادثة وقعت عند العودة ، أواخر المحرم أو في صفر من السنة الحالية .

(2) الكواكب ، 2 : 42 . واسم البعلي نسبة إلى مدينة بعلبك كما هو واضح في النص ، أما في عصرنا فالنسبة إليها بعلبكي ، على وجه الإطلاق .

قال ابن طولون : وقد وقفتُ على مصنّف لطيف مشهور لمرشده في التصوّف والصفاية ، سمّاه «رقائق الحقائق» .

وفي يوم[1] الأربعاء سابع عشر صفر ، سنة سبع وثلاثين وتسعمائة ، توفي الأديب المتقن الرحلة علاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن موسى بن محمد المديري ثم الجويري الدمشقي الشافعي . مولده بقرية الشويكة من بلاد نابلس ، في جُمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، اشتغل وحصّل وبرع في علم الرواية ، ونظم وجعل لنفسه ديواناً ، إلا أنه تسبب بباب البريد وبالأذان بالجامع الأموي .

قال الشيخ شمس الدين محمد بن علي بن طولون الحنفي الصالحي ، رحمه الله :

وأوقفني على ديوانه ، وأنشدني منه لنفسه مخمّساً لأبيات الحافظ ابن حجر التي اشتهرت بين الناس :

أمرٌ يطولُ ومدّةٌ متقاصره ... وبصائر عميتْ وعينٌ باصره
فإلى متى يا نفسُ ويحك حائره ... قَرُبَ الرّحيل إلى ديار الآخره
فاجعل إلهي خير عمري آخره

فالعيش والدنيا كلذّة حالم ... وسواك يا مولاي ليس بدائم
وإليك مرجعنا بأمر حازم ... فلئن رحمتَ فأنت أكرم راحم
وبحار جودك يا إلهي زاخره

يا ربّ إن الدّهر أبلى جدّتي ... وعصيتُ في جهل الشباب وحدّتي
وإذا تصرّم ما بقي من مدّتي ... آنس مبيتي في القبور ووحدتي

(1) الروض العاطر ، 197 ظ .

وارحم عظامي حين تبقى ناخره

إن كنت ترحم من مضتْ أعوامه في لهوه حتى نمت آثامه

والعفو منك رجاؤه ومرامه فأنا المسكين الذي أيامه

ولّت بأوزار عَدَتْ متواتره

فبوجهك الباقي وعزّ جلاله ومحمّد سرّ الوجود وآله

رفقاً بمن أنت العليم بحاله وتولّه باللّطف عند مآله

يا مالك الدّنيا وربّ الآخره

توفي يوم الأربعاء سابع عشر صفر ، ودُفن بمقبرة باب الصغير . وعند إهالة التراب عليه أذّن العصر ، وكان مؤذّنو الجامع الأموي مع رئيسهم ابن قليبُو حاضرين دفنه ، فأذّنوا عند قبره . وهذا علامة الخير ، وكان من أهله ويحبّ أهله .

* * * * *

وفي يوم[1] الثلاثاء سلخ جُمادى الأولى ، سنة سبع وثلاثين [وتسعمائة] ، توفي [القاضي ولي الدين محمد ابن الفرفور ، بقلعة دمشق مُرسّماً عليه] ، ثم حُمل إلى منزله وغُسّل . وصلّى عليه بالجامع الأموي القاضي الكبير ، وكان النائب حاضراً ، فصلّى عليه ثانياً لأن الحقّ له في الصلاة على الجنازة . ودُفن تحت شبّاك الشيخ رسلان الشمالي في التربة التي أنشأها هناك ، وإلى الآن لم تكمل ، وكذا مدرسته أعلا سوقه .

---

(1) الثغر البسام ، 314 .

وكانت جنازته حافلة ، هرع إليها الصالحون والمجذوبون والعلماء ، وكان أولها وصل إلى قبره وآخرها لم يخرج من الجامع . ورثاه جماعة ذكرتُهم ومراثيهم في غير هذا الموضع .

وميلاده في ثاني عشر جُمادى الأولى سنة خمس وتسعين وثمانمائة . وحفظ القرآن ، و«المنهج» للشيخ زكريّا ، و«جمع الجوامع» لابن السبكي ، و«ألفية ابن مالك» . وقرأ في الحديث على أشياخي البرهان الناجي ، وأبي الفضل ابن الإمام ، وأبي الفتح المزّي ، والجمال ابن عبد الهادي ، وخلق ، وأجاز له جماعات . وولي قضاء دمشق أربع مرّات غير التي مات فيها ، وقضاء حلب مرّة .

* * * * *

[قال ابن طولون] في تاريخه المرتّب على الأيام [1] :

وفي ليلة خامس عشر جُمادى الآخرة ، سنة سبع وثلاثين وتسعمائة ، ألزمني ناظر التكيّة – يعني السُّليميّة – بصلاة اثني عشر ركعة ، أقرأ في كل ركعة سورة القدر اثني عشر مرّة . وهو مخالف لما في كتاب البَركة ، عن النبي صلّى الله عليه وسلّم :

« من صلّى ليلة النِّصف من شعبان اثني عشر ركعة ، يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرّة وقُل هو الله أحَدٌ أحد عشر مرّة ، مُحيت عنه سيّئاته ، وبُورك له في عمره » .

* * * * *

---

(1) الروض العاطر ، 236 و ، والخبر ضمن ترجمة الأيوبي لابن طولون في الروض العاطر ، حيث جعل وفاته 955 هـ بدلاً من المشتهر 953 هـ . وذكر تجريح أبي الفتح المالكي عليه .

وفي رجب[1] سنة سبع وثلاثين وتسعمائة ، توفي الشيخ شمس الدين البلبيسي المقدسي الوفائي واعظ دمشق[2] ، وكان من عباد الله الصالحين ، رحمه الله تعالى .

* * * * *

وفي ثالث[3] عشر شوّال ، سنة سبع [وثلاثين وتسعمائة] ، عُزل [نائب دمشق عيسى باشا] وأُلزم بخمسة وسبعين ألف دينار للتجّار الذين أخذ متجرهم بدرب الحاج سنة خمس [وثلاثين وتسعمائة] ، بعد ذهابهم إلى السّلطان وشكايتهم عليه . فوزنها ، وسافر إلى الرّوم .

* * * * *

وفي رابع[3] عشر ذي القعدة منها ، وصل إلى دمشق عوضه النائب الجديد مصطفى أبْلاق[4] ، بموحّدة وآخره قاف . وتلقّاه الأكابر[5] .

* * * * *

---

(1) الكواكب ، 2: 20 .

(2) تقدم خبر سرقة ماله في حوادث سنة 935 هـ .

(3) إعلام الورى ، ص 244 .

(4) الاسم تركي ablak ، ويقال في التركية : ablak-yüzlü ، أي ذو الوجه المستدير .

(5) يتابع ابن طولون الخبر عن حادثة بناء البركة في الجامع الأموي ، وسيأتي ذكر ذلك لاحقاً في حوادث سنة 938 هـ .

قال ابن طولون في تاريخه [1] :

وفي سنة سبع وثلاثين وتسعمائة ، سألني الشيخ محمد بن قَيْصَر القُبَيْبَاتي الحنبلي [الصوفي] في عمل شرح على أبيات ثلاثة نظمها في عقيدته ، وهي :

في الله أعتقد الذي قد قاله	عن نفسه وكذا الذي قال الرُّسُل
عنه بغير تأوّل في ذاته	وصفاته أو كل فعل قد فعل
فهو الإله الفرد ليس كمثله	شيء سواه وغير هذا لم أقل

* * * * *

(1) الروض العاطر ، 262 و ؛ وأورد الغزي الخبر في الكواكب السائرة (3 : 59) وعلّق عليه :
قلت : ووقفتُ على شرح ابن طولون على هذه الأبيات في تعاليقه بخطه . وحول المترجم له ابن قيصر قال : وكان يقيم الذكر بعد صلاة الجمعة بالمشهد الشرقي داخل الجامع الأموي تحت المنارة الشرقية ، بحيث عُرف المشهد به ، ثم يركب حماره ويذهب إلى منزله بالقبيبات فلا يخرج منه إلى يوم الجمعة . وكان نائب الشام عيسى باشا يحبه ويتردّد إلى زيارته ، وكذلك الأمراء والقضاة ، وللناس فيه اعتقاد تام .
قلنا : ويخيّل لنا أن تكون أسرة قيسر المعروفة في الميدان من أعقاب ابن قيصر هذا .

[حوادث سنة 938 هـ]

قال ابن طولون [1] :

استهلّت هذه السنة ، يعني سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة ، والخليفة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عبد الله محمد ، وهو مقيم بمصر . والسلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السّلطان سليم ابن عثمان ، وهو الآن مقيم باصطنبول .

ونائبه بدمشق مصطفى أبلاق [2] .

والقاضي بها فخر الدين ابن إسرافيل ، ونائبه بالمحكمة من الحنفية أحمد جلبي الرّومي ، ومن الشافعية التقي ابن شهلا ، ومن المالكية البهاء البعلبكي ، وبمحكمة ميدان الحَصا عبد الكريم الرّومي الحنفي ، وبمحكمة قناة العَوْني الكمال البقاعي الشافعي .

ونائب القلعة حسين الرّومي .

---

(1) الروض العاطر ، 29 ظ - 31 و ، عقب ترجمة أحمد بن بدر الطيبي ، وهي منقولة من المفاكهة ، أثبتناها في محلها أدناه .

(2) سبق ذكر مجيئه في أواخر السنة الفائتة .

وفي يوم الخميس تاسع عشرين المحرّم من السنة ، عُزل الكمال البقاعي من محكمة قناة العَوْني ، ووُلي عوضه الشمس ابن مفلح الحنفي [1] .

قال [ابن طولون] :

واستمرّ القاضي شمس الدين بن مفلح يحكم خمسة أيام ، [30 و] ثم قال القاضي الكبير : أنا ما عزلتُ الكمال ، وهذا تدليس عليّ . فعاد الكمال .

* * * * *

قال ابن طولون في هذا التاريخ [2] :

وفي يوم السبت خامس صفر سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة ، كانت سبتانة ختم شرح إيساغوجي بالدّهيشة ، [236 ظ] قرأها علي الولد علاء الدين علي ابن عماد الدين الشافعي ، وسمعه الولد ناصر الدين محمد بن أبي الجود الشلاّح ، والده المولى عبد البرّ التاجر بسوق جَقْمَق .

وفي يوم الإثنين ثامنه [3] ، نادى المفتش ، وهو المعروف عند الناس بكاتب الولايات ، بأن من له وقف أو ملك من القرى يحضر لينظر فيه . ثم شرع في عدد شجر البساتين والجنينات ، قيل وعيّن على كل شجرة عثمانياً ، خلا الجوز فإن عليه قطعة ، وتضرّر الخلق بذلك . وأرسل يطلب مني «شرح الكنز» للزّيْلَعي ،

---

(1) كتب الأيوبي معلقاً : قلتُ : توفي القاضي شمس الدين بن مفلح المذكور في إحدى الجُمادتين سنة تسع وستين وتسعمائة ، عن ولدين هما القاضي زين الدين عمر والشيخ الصالح الولي موفق المجذوب المشهور ، وتوفي عمر المذكور في رمضان سنة ست وثمانين وتسعمائة ، وتوفي الشيخ موفق المجذوب سنة أربع وتسعين وتسعمائة .

(2) الروض العاطر ، 236 و – 237 و .

(3) هناك غلط في النقل ، فالثامن من صفر ليس يصاقب الإثنين .

لينظر فيه كلام أئمتنا في العُشْر على الأراضي ، فذكرتُ للقاصد أن هذا الشّرح لم أملكه ، وأن دمشق خَراجيّة ، وما للناس ملجأ غير الله .

* * * * *

وفي ليلة[1] الجمعة ثاني ربيع الأول ، سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة ، توفي القاضي عبد الوهاب ابن تاج الدين العنّابي الدمشقي الأسلمي ، أبوه كان ديوانياً بقلعة دمشق هو وأبوه من قبله ، ثم تولى عدّة وظائف ، منها إمرة التّركمان ، واستمرّ على ذلك في الدولة الجركسية . ثم أخذه السّلطان سليم في المركز إلى اصطنبول ، ثم أطلقه فحجّ وجاور ، ثم عاد إلى دمشق وبقي بها إلى الممات . قال : وقد نقصت هيبته .

قال ابن طولون : وسمع في صغره على جماعة عدّة أجزاء ، ولم يقف إلا على الجزء الثالث من أحاديث علي ابن حجر . قال : ولذلك استجزتُه لجماعة . قال : ومدحه الشّعراء الأفاضل ، منهم شيخنا علاء الدين ابن مليك ، وأكثر منه الشيخ شهاب الدين الباعوني .

ودُفن في تربتهم لصيق الصابونية من جهة القبلة ، ولم تحتفل الناس بجنازته[2] .

* * * * *

(1) الكواكب ، 2: 187 .

(2) له ترجمة في مخطوط ذخائر القصر ، نسخة التيمورية ، 38 ظ - 39 و . أما تربته المذكورة فلا وجود لها في أيامنا ، ولسنا ندري متى زالت .

وفي يوم[1] السبت ثاني ربيع الثاني من السنة ، كبس المفتش علي باك النقّاش بيت القاضي برهان الدين ابن مفلح ، وأخذ ما عنده من مستندات وقوائم لخلفه مع إخوته ، وكان يقول : «هم عندي وداعة لأخي الذي في اصطنبول» . وعلى بيت القاضي عز الدين محمد ابن قاضي نابلس ، أحد أعيان شهود دمشق ، وخلوته بالحاجبية بالصالحية ، وأخذ ما عنده من الأوراق المسوّدة والمستندات ، ليتسلّط بذلك على أخذ جهات الخلق ، وهم في ضرر منه ، ولا قوّة إلا بالله .

وفي يوم الجمعة خامس عشر ربيع الثاني من السنة اجتمع القاضي قطب الدين ابن سلطان الحنفي ، والشيخ تقي الدين القاري الشافعي ، والشيخ أبو الفتح المالكي ، عند النائب بالشبّاك الكمالي بالجامع [الأموي] ، وعرّفوه بأن البِرْكة التي عزم على بنائها وسط صحن الجامع الأموي لا تجوز . وقد كان رمى آلتها ، وجيء بالحجارة من عمارة جامع بيت لهيا . فقام مغتاظاً .

واجتمعوا ثاني يوم ، ومعهم جلال الدين البصروي خطيب الجامع ، وخُوجا النائب ، والقاضي الكبير ، فعضدهم في المنع من البركة بالجامع . فكتب النائب إلى مفتي اصطنبول ، يسأل عن جواز ذلك . وصنّف القطب فيها مؤلفاً سمّاه «البرق اللامع في المنع من البِرْكة بالجامع» [2] .

* * * * *

(1) عودة إلى النقل من الروض العاطر ، 136 و - 137 و . وكذلك تكرر الخبر عينه في الروض ، 236 ظ ، ضمن ترجمة ابن طولون . راجع نشرتنا لكتاب غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان لابن طولون ، ص 109 .

(2) ورد الخبر في الكواكب (2: 13) . وفي نص الروض العاطر أضاف الأيوبي معلقاً : قال الشيخ أبو الفتح المالكي ، ومن خطه نقلت : «كذب علينا - يعني ابن طولون - والله لم نجتمع ولم نتكلم في ذلك ، لكن المؤلف على عادته في الكذب ونقل ما لم يقع ولم يكن . ولم أدر ممّن كان سمع هذه المهملات التي أثبتها في كتابه هذا - يعني تاريخه -» انتهى . قلنا : ونقلُ الأيوبي من خط المالكي كان على هامش نسخة مفاكهة الخلان .

وفي أوائل[1] جُمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة ، توفي الشيخ محمد بن عبد الله القاضي شمس الدين ابن الشيخ جمال الدين العسكري الصالحي ، فجأة . حفظ القرآن وأسمعه والده على جماعة منهم المحدّث ناصر الدين ابن زُرَيق ، وقرأ المختار في فقه الحنفيّة ، وحلّ قطعة منه على الشيخ شمس الدين ابن طولون . وولي القضاء ببعض النواحي .

قال ابن طولون : ولكنه كان يُنسب إلى شرب الرّاح ، عفا الله عنه .

وفي ليلة[2] الخميس سادس جُمادى الأولى ، سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة توفي الشيخ شهاب الدين أحمد بن بدر بن ابراهيم الطيبي الشافعي المقرئ ، تلا بالسَّبع على العلاّمة إبراهيم بن أحمد بن محمود القدسي كاتب المصاحف المشهور ، وعلى إمام الجامع الأموي غرس الدين خليل . وكان انتهى إليه علم التجويد في هذا العصر ، ولكن لا ينتفع به المبتدىء لبذاءة لسانه .

وكان يتسبّب بدكّان له بباب البريد ، ويقرئ الناس بها .

وصُلّي عليه بالجامع الأموي ، ودُفن ليلة الخميس بباب الفراديس .

قال ابن طولون : ولم أحضر جنازته ، لحصول مطر غزير حينئذ بعد توقّعه أياماً ، حتى استسقى الخطباء وبعض الصّالحين . رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

[قال ابن طولون][3] :

وفي يوم السبت حادي عشر جُمادى الأولى من السنة ، وهي سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة ، توفي المولى ناصر الدين ابن قُشْقار الصالحي فجأة ، ودُفن بتربة ابن سلطان الحنفي .

---

(1) الكواكب ، 2 : 38 .
(2) الروض العاطر ، 29 ظ ؛ والكواكب ، 2 : 103 .
(3) الروض العاطر ، 30 ظ . أما الاسم (ابن قُشقار) فهو تركي koçkar ويعني الكبش المناطح ، ولعله من بقايا تسميات المماليك الذين بادت دولتهم بالأمس القريب .

قال ابن طولون : وكان أفادني عن بعض الصُّلحاء من أهل مصر أن من قرأ بعد العُطاس فاتحة الكتاب ثم قوله تعالى : ﴿قال مَنْ يُحيي العظام وهي رَميم - الآية﴾ ، ومرّ بلسانه على أسنانه جميعها فإنه يأمن من الآفات ولا يصيبه منها سوء [1] .

ثم في اليوم بعده [الأحد ثاني عشر جُمادى الأولى] توفي الشيخ محمد ابن سحلول ، بلامَيْن ، الجديثي [2] ، بالجيم ، البقاعي الشافعي فجأة أيضاً ، ودُفن بمقبرة البيمارستان القَيْمري . وكان أفادني عن بعض الصّلحاء المصريين في دفع الفُوَاق أن يقبض الإنسان بإبهاميه على ظهر أصليّ بنصريه بقوّة . وكان هذا المتوفى صالحاً يحفظ القرآن حفظاً جيّداً ، يقرأه في كل ثلاثة أيام .

* * * * *

وفي ليلة الأربعاء تاسع جمادى الآخرة من السنة ، قال : توفي العلاّمة شيخنا شهاب الدين الحسن بن مكّي الشافعي بغتة ، وكان شيخ الأطباء بدمشق بل وغيرها . واشتغلتُ عليه مدّة ، وتلمذ له الأفاضل ، ولم تر عيني أمثل منه في تقرير هذا العلم ، ولكنه كان قليل الحظ في العلاج . وكان يُنسب إلى الرّفض ، ويقال إنه قتل بعلاجه جمعاً من العلماء ، كالبرهان ابن عَوْن ، ولم أتحقق ذلك منه . وكان يعرف الهيئة والهندسة والفلك ، وبضاعته في غير ذلك مُزجاة . وهو قد جاوز الثمانين كما أخبرني ولده [3] .

---

(1) ترجمته في الكواكب ، 2 : 254 .

(2) نسبة إلى بلدة جديتا في البقاع الشرقي من لبنان ، عند السفوح الشرقية لجبل الكنيسة ، إلى الشمال الغربي من بلدة شتورة . وربما يدلنا ذلك على أن أصول أسرة سحلول المعروفة بدمشق تعود إلى جديتا في البقاع الشرقي ؟

(3) وردت الترجمة في الكواكب (2 : 59-60) نقلاً عن المفاكهة بحرفيتها .

وفي يوم[1] الجمعة ثالث عشر جُمادى الآخرة من السنة ، بلغني أن النائب شرع في حرث ميدان القصر الأبلق ليعمله بستاناً ، بعد أن احتكره من أمناء السّلطان بألفي عثماني في العام ، وكان أُلحق بأرض المرجة . ووقع في أيامنا أنه حُرث وزُرع قصيلاً فلم ينتج لكون أرضه مائية . ثم زرع النائب في جانبه الشرقي ما بين مشمش وتوت وحمض وغير ذلك ، ودائره صفصافاً[2] .

وفي يوم[3] الجمعة ثالث عشر جُمادى الآخرة منها ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ العلاّمة زين الدين عمر الصّعيدي الحنفي ، إمام الصخرة المعظّمة بالقدس الشريف .

قال ابن طولون : كان من أهل العلم والعمل ، وقرأ بمصر على جماعة منهم البرهان الطرابلسي .

* * * * *

---

(1) عودة إلى الروض ، 30 و .
(2) كتب الأيوبي معلقاً : قلتُ : وفي سنة اثنتين وستين وتسعمائة هدم السّلطان سليمان ابن السّلطان سليم بن عثمان القصر الأبلق ، وكان عمّره الملك الظاهر بَيْبَرس ، وصوّر في حيطانه بالنقش على الأحجار صفة نمر وسبع وضبع وغير ذلك ، لكنه خرب ودثر ولم يبق منه غير الجدران والأقبية فقط .
وعمّر مكانه هذه التكيّة ، وتكلّف على عمارتها جملة من المال . ولقد حكى لي بعض الكتّاب المباشرين لدفتر الصّرف أنه صُرف عليها من المال ثلاثة وثلاثون حملاً ، وعلى بناء المدرسة المجاورة لها عشرة أحمال مال .
وقد أفرد لها المرحوم المغفور له السلطان سليمان من الخاص ستة (كذا) وثلاثين قرية ، جعلها وقفاً جارياً عليها ، من أجلّها قرية زرع من معاملة حوران ، ولقد استُغلّ منها في بعض السنين من الحنطة والشّعير ألف غرارة وخمسمائة غرارة ، وقرية دوما والمزّة وقَرَحْتا والمعرّة وصَيْدَنايا وعَقْرَبا وقبر الستّ ، وأحسن بلاد الزّبداني وبعلبك .
ولعلّ ارتفاع الوقف في السنة يحصل منه سبعون ألف سلطاني أو أكثر من ذلك ، [30 ظ] والمصرف في كل صباح مائة سلطاني وعشرة سلطانية . والله أعلم .
(3) الكواكب ، 2 : 228 .

وفي يوم[1] الجمعة ثاني رجب منها ، كما ذكره ابن طولون ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ شهاب الدين أحمد الزُّبيدي المكّي . كان مُتَرْجَماً بالعلم ، ودخل دمشق متوجهاً إلى الرّوم ، فمات بحلب سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة .

وفي شهر[2] رجب سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة ، قرأ الشيخ الفاضل العلاّمة عبد اللطيف ابن أبي كثير المكّي [كتاب] الشّفاء على الشيخ شمس الدين ابن طولون الصالحي في مجلسين .

* * * * *

قال [ابن طولون][3] :

وفي يوم السبت تاسع عشري شعبان من السنة وُسِّعت أهلّة مادنة العروس ، وهي خمسة أوسطها أكبرها ، وكانت قبل ذلك بهلال واحد . وهي أول مادنة بُني رأسها على هذه الهيئة بدمشق ، وذلك بإشارة القاضي الكبير ومباشرة عامل الجامع جلال الدين العامل .

وقال فيه بعض العصريين أشعاراً ، منهم الولد علاء الدين علي بن عماد الدين الشافعي :

عروسةٌ قد تردّتْ	من المحاسن حُلَّه
تقول ميقاتُ وَصْلي	قد آنَ هَذي الأهلَّه

---

(1) الكواكب ، 2 : 118 .

(2) الكواكب ، 2 : 180 .

(3) الروض العاطر ، 30 ظ .

وقال ناصر الدين محمد بن أبي الجُود الحنفي [31 و] :

عروسُ جلَّقَ لمّا أن قضى ومضى ... قاضي القضاة ابن فرفور رعايتها

بكت عليه وناحت حُرقة وأسى ... من شدّة الحزن قد أرمت عصابتها

وقال أيضاً ، وعرّض بذكر جلال الدين العامل :

وَفَتْ للوَرى بعد التّجافي عروسةٌ ... تفوق ملاح العصر وهي من العين

وأحيتْ قلوب العاشقين بوَصلها ... وأمست تنادي وهي تدعو بتمكين

كساني جلال الدين منه جلالة ... فيا ذا العلا أبق جلال الدين

* * * * *

قال [ابن طولون][1] :

وفي العشر الأخير من رمضان من السّنة ، أخبرني القاضي كمال الدين البقاعي الشافعي ، وهو محبّ للصّوفية والأفاضل مكرّم لهم مع شدّة تواضع ، أنه كان بقرية الكسوة ماراً فشاهد القمر وقد انشقّ فرقتين وصار بينهما تباعد ، ثم عادتا إلى الالتصاق بعد ساعة[2] . وأنه في صبيحة هذه الليلة شاهد الشمس عند طلوعها ، وفي أعلا وسطها حاجبان[3] فوق عينين ، وهي في كيفية وجه الآدمي ، وهو غريب .

---

(1) الروض العاطر ، 31 و . وأورد الخبر المقار بحرفيته في الباشات ، ص 12 .

(2) ليس في الموضوع أية معجزة أو كرامة ، إنما هي ظاهرة بصرية طبيعية تعرف بالتداخل الضوئي optical interference ينجم عنها أهداب ضوئية light fringes بسبب تشكل أشرطة أفقية متوازية من الغيم عند الأفق ، مما يؤدي إلى تشويه الشكل المرئي للقمر .

(3) في أصل المخطوط : حاجبين . وهذا لا أكثر من البقع الشمسية sun-spots المعروفة .

وأخبرني الشيخ محمد العجلوني الشافعي الإمام بالشاغور ، وكان ممن يحفظ القرآن غائباً ويتقن قراءة الحديث على طريقة شيخنا المحدّث برهان الدين الناجي ، أنه كان بالبقاع في ذلك الحين ، وأنه شاهد القمر وقد افترق نصفاه وخرج من بينهما صورة شخص ، فرقصت ساعة ثم عادت إلى داخل القمر فالتأم نصفاه عليها ، وهو عجيب والله أعلم .

* * * * *

وفي يوم[1] السبت تاسع عشر شوّال من السنة توفي بدمشق صاحبنا الشيخ شمس الدين ابن الشيخ بركات ابن الكيّال الشافعي ، ولم أعُدْهُ لعدم علمي بمرضه ، فجأة . وأتاني خبره ، وصُلّي عليه بالجامع الأموي ، ودُفن عند والده بباب الصغير . وزوجته بنت شيخنا المحدّث برهان الدين النّاجي . وسمع عليه وعلى غيره ، واشتغل ووعظ بهذا الجامع وغيره ، وخطب بالصّابونية وبهذا الجامع أيضاً أياماً نيابة . وكان عنده تودّد للناس وكتب كثيرة .

وفي تاريخ ابن طولون [2] :

[وفي] يوم الجمعة تاسع عشر[3] شوّال ، سنة ثمان وثلاثين [وتسعمائة] ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ المحدّث الواعظ شمس الدين المقدسي الشافعي الصوفي الشهير بابن العجيمي . [وكان] توفي ببيت المقدس يوم السبت قبله .

---

(1) عودة إلى الخلف قليلاً في الروض العاطر ، 31 و .
(2) الكواكب ، 2 : 12 .
(3) سبق أعلاه : السبت 19 شوال .

قال ابن طولون : وكان عنده فضيلة ، وأخذ الحديث عن شيخنا ناصر الدين ابن زُرَيق . وتوجه إلى الرّوم ، وحصل له به الإقبال . وعاد وتردّد إلى دمشق مراراً عديدة ، ووعظ تجاه محراب الحنفية ، ودرّس مدّة بالفصوص ثمّة . انتهى .

* * * * *

وفيها[1] ، سافر الأمير علاء الدين ابن طالوا والأمير ابن قراجا والمعمارية وآلاتهم ، لبناء قلعة على بئر ماء الأخضر ، حسب ما رسم به حضرة السّلطان .

* * * * *

(1) الباشات والقضاة ، ص 12 . غير أن ابن جمعة لم يحدد تاريخ هذا الخبر ، وإن كان من المفترض حصوله قبل موسم الحج لزوماً ، غير أننا اضطررنا لتأخير ذكره حتى خاتمة السنة لانعدام وجود الدليل .

[حوادث سنة 939 هـ]

قال ابن طولون [1] :

استهلّت سنة تسع وثلاثين وتسعمائة والخليفة على حاله ، وهو أمير المؤمنين المتوكّل على الله العبّاسي ، وهو مقيم بمصر .

والسلطان على مصر والشام وما مع ذلك ، ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن سليم خان ابن عثمان ، وهو الآن في الغزاة في بلاد الأنكرس .

ونائبه بدمشق مصطفى أبلاق [2] ، وهو الآن مقيم بظاهر حلب .

والقاضي بها الفخر ابن إسرافيل ، ونائبه بالمحكمة من الحنفية محمد جلبي الرّومي ، ومن الشافعية البرهان ابن الأخنائي ، ومن المالكية البهاء البعلبكي ، ومن الحنابلة الزّين ابن الرُّجيحي . وبالصالحية الآن أبو الثّنا محمود ابن الشيخ جلال الدين البصروي ، وبمحلّة ميدان الحَصا زين الدين عبد الكريم الرّومي الحنفي ، وبمحلّة قناة العَوْني ومسجد القصب الشيخ معروف البلاطنسي ، وبمحلّة المؤيّدية الكمال البقاعي .

---

(1) الروض العاطر ، 41 ظ - 42 ظ ، عقب ترجمة أحمد النابلسي الشويكي ، وهي منقولة من المفاكهة ، أثبتناها في محلها أدناه .

(2) ذكر المقار في الباشات (ص 12) : تولى دمشق لطفي باشا المرة الثانية ، والقاضي بها فخر الدين المذكور . وسيرد ذكر ذلك أدناه حول عزل أبلاق وتولية لطفي في 26 ذي القعدة .

ونائب القلعة حسين كما مرّ .

استهلّت يوم السبت .

قال ابن طولون : وفيه بلغني أن القاضي محمود البصروي ولي قضاء الصّالحية عوضاً عن محيي الدين عبد القادر بن مفلح الحنبلي .

وفي يوم السبت ثامن الشهر المذكور وصل من الرّوم إلى دمشق قاضي صفد جمال الدين يوسف ابن المنقار ، وهو مقيم على وظائفه من نظر البيمارستان القَيْمري بالصالحية ، والماردانية بها ، والعزّيّة بالشرف الأعلى . وزيد على ذلك أنه رُتّب له على صندوق السّلطان في كل يوم ثلاثة وثلاثون عثمانياً .

وأخبر أن الأمير علي باك المفتّش وصل إلى حلب في مستهلّ هذه السنة ، وأنه قُبِل دفتره بباب السّلطان ، وأنه شرع في توزيع التّيمار [1] .

* * * * *

وفي يوم الخميس حادي عشر صفر من السنة ، دخل إلى دمشق [42 و] محمل الحاج دخولاً حافلاً ، وأُبيع الرّطل التمر برطل دمشق بأزيد من الأربعين درهماً عتيقة ، والجوزة الهنديّة بنصف ذلك .

قال ابن طولون :

ووصل مع الشيخ شمس الدين صاحبنا ، ورفيقه الشيخ علي الأسمر ، وولد الشيخ علوان ، ونزلا جوار مسجد القصب ، وسلّمتُ عليهما . وأبلغني

(1) الخاص والزعامت والتيمار ، من مراتب الإقطاع العسكري آنذاك ، تقدم ذكرها لاحقاً .

أكبرهما السّلام من الشيخ شهاب الدين الشّويكي ، ومن الشيخ علي بن عِراق ، وكان الشّيخ علي في العام الماضي بمصر لحاجة له ، وهما الآن مقيمان بالمدينة الشريفة .

ثم إن أكبرهما خطب في اليوم التاسع من وصوله بجامع مسجد القصب ، وبعد صلاة الجمعة عمل ميعاداً به ، تكلّم فيه على قوله تعالى : ﴿ولله على النّاسِ حِجُّ البيت - الآية﴾ ، بسؤال بعض الحاضرين له ، وحضره الأفاضِل والقاضي زين الدين معروف البلاطنسي . ثم هرعت أعيان البلد ، حتى القاضي الكبير ، للسّلام عليه وعلى أخيه .

ثم سافرا بعد خمسة عشر يوماً من دخولهما دمشق .

ثم وصل إليّ كتاب المحدّث محبّ الدين جار الله بن فهد من مكّة ، وفيه أن الأسعار كانت في هذه الحجّة رخيّة في القوت والماء والقماش ، وأن الوقفة الشريفة كانت بالجمعة ، وأن هلال ذي الحجّة لم يره أهل مكّة والمدينة والحاج المصري والشامي ، إلا ستّة أنفس من المصريين واليمنيين ، رأوه بالمسجد الحرام وأدّوا الشهادة عند قاضي القضاة الشافعي عند نزوله من جبل أبي قبيس ، بعد رؤيته على العادة وأثبت ذلك . وأدرك مراكب الهند الحج ، وقصدهم السّفر في آخر ذي الحجّة عام ثمان [وثلاثين] الماضي .

وبلغنا أن الفرنج المخذولين دخلوا إلى بندر السّحْر [1] ، بالمهملات وسكون وسطها ، في شهر رمضان مرتين .

وقد اندرج بالوفاة إلى رحمة الله تعالى رفيقنا في الطلب وصديقنا في البلد

---

(1) ليس بين المدن والمواقع الساحلية في نواحي الخليج العربي بندر (ميناء) بهذا الاسم ، والغالب أن المقصود «الشّحر» في خليج عدن على الساحل اليمني المطل على المحيط الهندي وبحر العرب ، إلى الشرق من مدينة المكلاّ الساحلية . أما الفرنج المذكورون فلا بد أنهم من بعض القراصنة البرتغاليين الذين كانوا يجوبون سواحل أفريقيا الشرقية وبحر العرب ، عقب اكتشافهم رأس الرجاء الصالح على يد فاسكو دا غاما عام 1498 م .

السيّد إمام الحنفيّة بالمسجد الحرام أحمد البخاري ، في بندر جدّة في عاشر ربيع الثاني ، وهو قاض بها عن مستنيبه . فحُمل منها إلى مكّة على أعناق الرّجال ، فوصلها في ليلة ثانيّ تاريخه ، فجُهّز بمنزله ودُفن صُبح يومه على أبيه بالمصلّى [1] .

كتب[2] الشيخ جار الله ابن فهد المكّي إلى الشيخ شمس الدين ابن طولون ، في سنة تسع وثلاثين وتسعمئة ، أنه اجتمع بمحدّث اليمن ومؤرخها الشيخ عبد الرّحمن بن علي الشيباني الزُّبيدي الشافعي المعروف بابن الدَّيْبَع ، بكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحت وفتح الموحدة وفي آخره مهملة ، ومعناه بلغة النّوبة المبيّض ، لقب جدّه علي بن يوسف . اجتمع به في سنة أربع عشرة وتسعمائة في رحلته إلى اليمن ، وأخذ عنه .

وفي يوم[3] السبت العشرين منه ، توفي إلى رحمة الله تعالى رئيس المؤذنين بالجامع الأموي أبو البقا ابن عفلقون الدمشقي الحنفي ، وصلّى عليه بالجامع المذكور مفتي الحنفية الشيخ قطب الدين ابن سلطان الصالحي . ودُفن بالقرب من ضريح سيدي بلال الحبشي ، رضي الله عنه ، بمقبرة باب الصغير ، بوصيّة منه ، ولم يُدفن بتربة أهله شمالي الشيخ رسلان رضي الله عنه . وهو شاب لم يبلغ الخمسين ، عن دنيا طويلة [42 ظ] وولد ، فتفرّقت وظائفه ولم يبق لولده سوى عثماني . وكان ناظراً على ضريح قبر الست بالمرج ، وكان يتأنق في أدعيته بعبارات لطيفة مع حُسن صوته ، وعنده تودّد للناس . ولم يطُل مرضه ، وأوصى إلى سيدي محمود ابن العدوي ، فجهّزه جهازاً حسناً .

* * * * *

(1) نقل الغزي الترجمة عن ابن طولون في الكواكب (2: 117) قائلاً : كتب بذلك محدّث مكة جار الله ابن فهد ، إلى صاحبه الشيخ شمس الدين ابن طولون ، ومن خطه في تاريخه نقلت . وهناك إضافات منه على نص الأيوبي نقلت منها أعلاه .

(2) الكواكب ، 2 : 158 .

(3) المتابعة من الروض العاطر . وكذلك تكررت ترجمة ابن عفلقون فيه ثانية ، 281 ظ .

وفي يوم الأحد عشري ربيع الأول من السنة ، وصل مرسوم للشيخ أبي الفتح المالكي ببوابة الشيخ محيي الدين بن عربي ، وكان معلومها عثمانيين ، فكتبوا له فيها خمسة تعظيماً له .

وفي يوم الأربعاء رابع عشريه ، قدم من الرّوم السيّد علي ابن السيّد كمال الدين ابن حمزة ، وقد أُعطي إمرة الأشراف عوضاً عن السيّد تاج الدين الصَّلْتي[1] ، وأُعيد إليه نظر الشامية الجوّانية عوضاً عن الأمير خليل ناظر الحرمين بدمشق ، وإلى أخيه السيّد حسين تدريسها عوضاً عن بعض الأروام .

* * * * *

وفي أوائل[2] جُمادى الأولى ، سنة تسع وثلاثين وتسعمائة ، دخل دمشق الشيخ عبد اللطيف المُنلا الخُراساني الحنفي حاجّاً ، فنزل بالصالحية ، وكان رجلاً عالماً ، خصوصاً في التفسير ، عاملاً .

قال ابن طولون : وأفاد أن للسيّد الشريف حواشي على المختصر في علم المعاني والبيان لم تُعرف واحدة منها في ديارنا . وقال إن مؤلفه الشيخ سعد الدين التفتازاني الشافعي كان سُئل عند موته فضل السيّد الشريف الجُرجاني الحنفي في ترك التحشية عليه ، فلم يلتفت إلى سؤاله . قال : وأما حاشيته على المطوّل فمشهورة عندنا .

وفي أثناء[3] جُمادى الأولى ، سنة تسع وثلاثين وتسعمائة ، دخل دمشق الشيخ قصير مفتي بخارى الحنفي ومعه جماعة ، وزار بيت المقدس ثم عاد إلى

(1) كان الصلتي نقيباً للأشراف منذ عام 922 هـ ، المفاكهة ، 2 : 5 ، وانظر أعلاه ص 115 .
(2) الكواكب ، 2: 183 .
(3) الكواكب ، 2: 244 .

دمشق وحجّ منها . وكان عالماً بالعربية ، نزل بالشامية البرّانية ، وتردّد إليه الشيخ أحمد الحنفي والشيخ تقي الدين القاري ، وقرأ عليه الثاني في المصابيح . ذكره ابن طولون .

* * * * *

وفي يوم[1] الجمعة سلخ جُمادى الثاني من السنة ، صُلّي غائبة بالجامع الأموي على العلاّمتين شهاب الدين التّسيلي الشافعي ، توفي بمكّة ، وشهاب الدين الشُّويكي الحنبلي[2] .

قال ابن طولون في تاريخه ، في وقائع سنة تسع وثلاثين وتسعمائة[3] :

في يوم[4] الجمعة سلخ جُمادى الأولى صُلّي غائبة بالأموي على العلاّمتين الشيخ أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن محمد الشويكي النابلسي الصالحي ، مفتي الحنابلة بدمشق . وعلى شهاب الدين التّسيلي الشافعي ، توفي بمكّة ، وشهاب الدين الدين الشويكي توفي بالمدينة .

[وهو] الشيخ العلاّمة الزاهد شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن محمد ابن أحمد النابلسي الشويكي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي ، مولده في سنة خمس أو ست وسبعين وثمانمائة تقريباً ، بقرية الشّويكة من بلاد نابلس ، ثم قدم دمشق

---

(1) عودة إلى النقل من الروض العاطر ، 42 ظ .

(2) كتب الأيوبي معلقاً : صاحب هذه الترجمة ، وسيأتي ذكر ابن ابنه رفيقنا في محكمة قناة العَوْني ، القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن شهاب الدين أحمد الشّويكي ، في هذا الحرف إن شاء الله تعالى . توفي بالمدينة الشريفة كما تقدّم . كما كتب في الحاشية : وهوجد القاضي شهاب .

(3) الروض العاطر ، 41 ظ ؛ مع إضافات من الكواكب ، 2 : 99 .

(4) أعلاه ذكر الأيوبي : جمادى الأولى .

وسكن صالحيتها . وحفظ القرآن بمدرسة أبي عمر ومختصر الخرقي والملحة في النحو وغير ذلك ، ثم سمع الحديث على ناصر الدين ابن زُريق ، وحلّ الملحة والألفية على الشيخ شمس الدين محمد بن علي بن طولون الحنفي . وحجّ وجاور بمكّة ، ثم عاد ثم حجّ وجاور بالمدينة سنتين إلى أن توفي بها في هذا العام . وصنّف في مجاورته كتاب التوضيح ، جمع فيه بين المُقنع والتنقيح ، الأول للموفق ابن قُدامة ، والثاني للعلاء المرداوي ، وزاد عليهما أشياء مهمّة .

قال ابن طولون : وسبقه إلى ذلك شيخه الشهاب العسكري ، لكنه مات قبل إتمامه فإنه وصل به إلى الوصايا ، وعصريّه أبو الفضل ابن النجّار ، ولكنه عقّد عبارته . انتهى .

* * * * *

وفي أوائل[1] رجب ، سنة تسع وثلاثين [وتسعمائة] ، تبيّن بدمشق وضواحيها ، خلا المزّة ، الطاعون . فنقل القاضي [الفخر ابن إسرافيل] أولاده إليها . ثم لمّا وُجد بها نقلهم إلى الصّالحيّة ، فلمّا كثر بها نزلهم إلى بيته .

* * * * *

وفي يوم[2] الخميس خامس عشر شوّال ، سنة تسع وثلاثين وتسعمائة ، توفي زين العابدين ابن العجمي الأصل الرّومي الشافعي ، نزيل دمشق .

---

(1) الثغر البسام ، ص 315 .
(2) الكواكب ، 2: 246 .

قال ابن طولون : أصله من بغداد واشتغل بتبريز ، وولي تدريساً بمدينة طوقات ورُتّب له فيه أربعون عثمانياً ، ثم تركه وتصوّف على الطريقة النقشبندية . ثم قدم دمشق وأقرأ فيه الأفاضل .

ومات شهيداً بالطاعون ، بعد أن مات بهذه العلّة بضعة عشر من جماعته . ووقف بيته على الرّواحية ، وبعده على الحرمين وكتبه عليه ، ثم على الشافعية وشَرط النّظر لأعلمهم ، واستقرارها بمقصورة الأموي .

وأوصى أن يصلّي عليه الشيخ محمد الإيجي ، فعند وفاته أصيب الإيجي بالطاعون واشتغل بنفسه ، فتقدّم للصّلاة عليه الشيخ تقي الدين القاري بإشارة قاضي القضاة ابن إسرافيل .

* * * * *

وفي يوم[1] الجمعة رابع عشر ذي القعدة من السنة ، وقف الولد علاء الدين ابن عماد الدين الشافعي على فتوى مكتوب عليها الجواب بخط الشمس ابن الفلّوجي الشافعي ، وهو خطأ ، فرُفع إلى الشيخ تقي الدين القاري شيخ الشافعية ، فجمع له طلبة العلم وأرسل خلفه وهو جالس على الكرسي يعظ . فحذّره والده فهرب ، ثم اجتمع بالشيخ تقي الدين آخر النهار في بيته واعتذر إليه وأنه ما بقي يفتي ، وإنما يعظ ويدرّس .

وفي يوم[2] الأربعاء سابع عشر ذي القعدة منها ، مات بالعلّة[3] [ابنا القاضي الفخر ابن إسرافيل] ابنه الكبير مصطفى ، وتبعه أخوه قادري شلبي ، ودُفنا بباب

---

(1) عودة إلى الروض العاطر ، 42 ظ .
(2) الثغر البسام ، ص 315 .
(3) يعني الطاعون ، انظر حوادث رجب من السنة .

الصغير شرقي ضريح سيدي أوس رضي الله عنه . ورُخّم قبراهما وجُعل على صفّيهما درابزين من خشب سقوف ، ودُهن خشبُ ذلك .

وفي[1] سادس عشري ذي القعدة سنة تسع [وثلاثين وتسعمائة] عُزل [نائب دمشق مصطفى أبْلاق] ، وأعيد إليها لطفي ، وجاء أخوه أحمد متسلّماً عنه .

وأوقف هذا النائب المنفصل بستانه على النبي صلّى الله عليه وسلّم . ثم سافر إلى الرّوم ، وولي وزيراً ثانياً . ثم مات سنة ثلاث وأربعين باصطنبول[2] .

* * * * *

وفي هذه السنة[3] توفي الأستاذ الكبير الشيخ علي الخوّاص ، نفعنا الله ببركته ، وكان رضي الله عنه ينظر في اللّوح المحفوظ ، وكان من أكابر أهل الكشف الذي لا يخطئ . ودُفن بالديار المصرية .

* * * * *

---

(1) إعلام الورى ، ص 244 .

(2) من الواضح أن هذه الأخبار تالية للعام الحالي 939 هـ ، لكن نتركها هنا كما وردت في إعلام الورى .

(3) الباشات ، ص 12 .

[حوادث سنة 940 هـ]

قال ابن طولون [1] :

استهلّت سنة أربعين وتسعمائة ، والخليفة على حاله ، وهو أمير المؤمنين المتوكّل على الله أبو عبد الله العبّاسي ، وهو مقيم بمصر . والسّلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان ابن السّلطان سليم ابن عثمان ، وهو الآن مقيم باصطنبول .

ونائبه بدمشق عيسى [2] باشا ، وهو عن قريب أُعيد إليها ، وإلى الآن لم يصل إليها .

---

(1) الروض العاطر ، 38 و – 41 ظ ، عقب ترجمة أحمد بن محمد الجعفري ابن قاضي نابلس . وهي منقولة من المفاكهة ، أثبتناها في محلها أدناه .

(2) كذا في أصل مخطوط الروض ، غير أن ابن طولون يذكر في إعلام الورى (ص 244) : ثم عزل مصطفى أبلاق في سادس عشري القعدة سنة تسع [وأربعين] ، وأعيد إليها لطفي ، وجاء أخوه أحمد متسلماً عنه ، وأوقف هذا النائب المنفصل بستانه على النبي صلى الله عليه وسلم . ثم سافر إلى الروم ، وولي وزيراً ثانياً ، ثم مات سنة ثلاث وأربعين باصطنبول . ويؤيد قوله بولاية لطفي وليس عيسى ما ذكره أيضاً ابن جمعة (ص 12) : استقام لطفي باشا ، وقاضيها أحمد افندي ابن عبد الله . بيد أن ابن طولون في إعلام الورى (ص 244) يعود فيذكر دخول لطفي باشا ، ثم يذكر عقب ذلك ثانية (ص 246) : ثم أعيد إلى نيابة دمشق عيسى باك ، ودخلها يوم الخميس سلخ محرم سنة أربعين وتلقاه القاضي الكبير ونائب القلعة والأعيان . فكل ذلك أوقعنا في ارتباكات شتى ، غير أن الرأي المقبول حسب توقعنا أن يكون عيسى ثم لطفي تعاقبا النيابة في هذه السنة .

والقاضي بها فخر الدين ابن إسرافيل[1] ، ونائبه بالمحكمة من الحنفية أكمل الرّومي ، ومن الشافعية الشيخ معروف الصّهيوني ، ومن المالكية البهاء البعلبكي ، ومن الحنابلة الزين ابن الرُّجيحي . وبالصالحية أبو الثناء محمود ابن الشيخ جلال الدين البصروي ، وبمحلّة ميدان الحَصا الشمس ابن مفلح الحنفي ، وبمحلة قناة العَوني ومحلّة مسجد القصب الكمال البقاعي الشافعي ، وبمحلّة المؤيدية الزين عبد القادر بن مفلح الحنبلي .

ونائب القلعة حسين كما تقدّم .

وفي ليلة الجمعة سابع عشر المحرّم من السنة ، توفي صاحبنا الشيخ الصالح إمام الجامع المظفّري بسفح قاسيون شهاب الدين أحمد بن محمد الديوان المرداوي ، وكان مولده بها[2] ، ونشأ هناك إلى أن عمل ديواناً بها ، ثم قدم دمشق فقرأ القرآن بها على الشيخ شهاب الدين الدّويب الحنبلي لبعض السّبعة ، وأخذ الحديث عن الجمال بن المبرد وغيره ، وتفقّه عليه وعلى الشهاب العسكري على مذهب الحنابلة ، وولي إمامة جامعهم بالسّفح نيّفاً وثلاثين سنة .

وكانت وفاته فجأة بعد أن صلّى المغرب به ، ودُفن بصُفَّة الدُّعاء أسفل الرّوضة بالسّفح . وولي إمامة الجامع بعده الشيخ موسى الحجّاوي الحنبلي ، وكانت له جنازة عظيمة .

* * * * *

---

(1) ذكرنا أن المقار أورد : وقاضيها أحمد افندي ابن عبد الله . وسيرد أدناه في حوادث 25 جمادى الأولى تعيين أحمد بن قرا اوغلى الحنفي .

(2) أي مردا ، كما كتب ابن العماد الحنبلي .

وفي يوم[1] الخميس حادي عشر صفر ، سنة أربعين وتسعمائة ، توفي بالصّالحية الشيخ الصالح الزاهد العابد علي ابن مكّي البقاعي ثم الدمشقي الصالحي الشافعي ، المعروف بابن مكّي . أصله من بيت رُوحا من أعمال البقاع ، وسكن الصالحية ولم يتزوّج قطّ ، وكان حائكاً ثم ترك ذلك وانقطع للعبادة . وكان ملازماً لتلاوة القرآن وصيام يوم الإثنين والخميس من كل أسبوع ، والأيام البيض والسّود من كل شهر ، والأشهر الثلاثة من كل عام رجب وشعبان ورمضان . وكان للناس فيه اعتقاد .

قال ابن طولون : وصلّيتُ عليه ، ودُفن في أعلى الرّوضة من جهة الشرق ، أعني تربة ابن عُبادة .

وفي يوم[2] الخميس عشري صفر من السنة ، توفي الولد محمد ابن أبي الشامات التاجر بالدّهشة بغتة ، وعمره ستة عشر سنة ، وكان يحفظ القرآن وتلاوة العشرة بعد أن عرض الشاطبية الكبرى على الشيخ شمس الدين ابن طولون ، وحلّ المتوسط شرح الكافية وشرح الشمسية للقطب وغير ذلك على الشيخ محمد الإيجي العجمي الشافعي نزيل سفح قاسيون ، وهو الذي خيّط كفنه وصلّى عليه بالجامع الأموي .

قال ابن طولون : وحضرتُ دفنه بباب الفراديس ، وجماعات الطلبة والتّجار ، وتأسّف عليه الخلق فإنه كان أنجب الطلبة وأعقلهم وأشكلهم . وتألم لموته الشيخ تقي الدين القاري والشيخ علي القيمري الشافعيان ، فإنهما شيخاه .

وفي يوم الجمعة ثامن عشريه ، شُكي على قاضي المؤيديّة الزين عبد القادر ابن مفلح الحنبلي ، بسبب أنه حكم على مقتضى مذهبه على شخص من الأروام حنفي المذهب ، فبهدله بهدلة فاحشة ، وقال : لا بدّ من إبطال قضاة الحنابلة

---

(1) الكواكب ، 2: 215 .

(2) عودة إلى الروض ، 38 ظ .

والمالكية .

* * * * *

وفي يوم[1] الثلاثاء رابع ربيع الأول ، سنة أربعين وتسعمائة ، توفي محمد ابن يونس الأميري المولوي ابن المنقار الحلبي الأصل . ولي صفد ودخل دمشق . وقال ابن طولون : كان عنده حشمة .

ودُفن بالخوارزمية بجنب كهف جبريل بسفح قاسيون ، بوصية منه ، رحمه الله تعالى .

وفي [39 و] يوم[2] الخميس خامس ربيع الأول من السنة ، قدم من الرّوم ولدا شيخ الإسلام السيّد كمال الدين بن حمزة ، وهما : السيّد علي ، وهو باق على نقابة الأشراف ، والسيّد عمر ، وقد أُعطي تدريس المقدّمية الجوّانية بخمسة عشر عثمانياً ، وهي من مدارس الحنفية ، لكن الأروام لم يُراعوا شروط الواقفين إلاّ فيما لهم فيه مصلحة . كما أعطى قاضي دمشق تدريس البلخية من مدارس الحنفية للزّين ابن الرُّجيحي الحنبلي .

وقدم معهما المحبّ ابن الفرفور الشافعي الأسمر ، وقد ولي قضاء المعرّة بحماة ، ووصل معه مرسوم للشيخ أبي الفتح المالكي بالتولية على النُّورية الكبرى بأربعة عثمانية ، عوضاً عن بعض جماعة القاضي الكبير . ثم عوّضه القاضي عنه[ا] فتركه[ا] .

وفي ليلة الثلاثاء رابع عشريه ، قدم من الرّوم المتولّي على العمارة السّليمية

---

(1) الكواكب ، 2: 67 .
(2) الروض العاطر مجدداً .

المخدوم علي جلبي ، وهو باقٍ على وظيفته ، وقد رُقّي عشرة عثمانية في معلومه زيادة على ما هي عليه .

* * * * *

وفي ليلة[1] الإثنين مستهلّ ربيع الآخر ، سنة أربعين وتسعمائة ، توفي الشيخ عز الدين ابن قاضي نابلس ، أحمد بن محمد بن محمد بن عبد القادر الجعفري الحنبلي ، أحد الشهود العدول المشهورين وعين الموقّعين بدمشق . مولده سنة أربع وستين وثمانمائة ، أو سنة ثلاث وستين .

وكتب على ابن دقماق فمهر في الكتابة ، وجلس للتكتيب فانتفع به خلق كثير ، منهم الشمس محمد بن خطّاب الحنبلي ، حتى صار بحيث إذا كتب مستنداً وكتب شيخه آخر لم يحصل فرق بينهما ، وظن من رأى ذلك أن الكاتب واحد وأن الذي كتب هذا كتب الآخر بعينه .

قال ابن طولون : وقال لي ابن قاضي نابلس المذكور أن من أشياخي الكمال ابن أبي شريف والمحدّث ابراهيم الناجي والعلاّمة علاء الدين المرداوي والشيخ علي البغدادي . وأجاز له الشيخ الشهاب ابن المناوي وكتب بعض مؤلفاته . وكان ممن انفرد بدمشق بجودة الكتابة وإتقان صنعة الشهادة .

ودُفن بالروضة بسفح قاسيون ، وكانت جنازته حافلة وحضرها الأكابر والأعيان . وكان رئيس المؤذنين بالحاجبية وشيخ الخانقاه الصوفية .

* * * * *

---

(1) الروض العاطر ، 38 و ؛ مع إضافات من الكواكب السائرة ، 2: 101 .

وفي يوم[1] الجمعة تاسع عشر جُمادى الأولى من السنة المذكورة ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ العلاّمة شهاب الدين أحمد بن أحمد الباجي ، بالموحّدة ، الأنطاكي الحنفي المشهور بابن كلف . ولي قضاء العسكر بماردين في زمان السّلطان قاسم بيك[2] ، ثم ترك ذلك وعاد إلى مسير العلم بأنطاكية ، ثم درّس بحلب .

وسمّاه ابن طولون : محمد ابن الأنطاكي .

وفي يوم[3] الجمعة تاسع عشر جُمادى الأولى من السنة المذكورة ، صُلّي بجامع دمشق غائبة في يوم واحد ، على الشيخ الصّالح العابد المحدّث شمس الدين محمد أبو الطحلة العجلوني البسّامي ، نسبة إلى أحد أجداده بسّام الشافعي ، وعلى المنلا محمد الأنطاكي المتقدّم قبله .

دخل [البسّامي] دمشق ، وأمّ بالجامع الأموي نيابةً ، وكان له سند بالمصافحة والمشابكة . أخذ عنه ابن طولون وغيره ، ثم عاد إلى عجلون ومات بها في سنة أربعين وتسعمائة ، رحمه الله تعالى .

قال [ابن طولون][4] :

وفي يوم الخميس خامس عشري جُمادى الأولى ، سنة أربعين وتسعمائة ، وصل الخبر بعزل القاضي فخر الدين عثمان بن إسرافيل ، وتولية أحد المدرّسين الثمانية باصطنبول أحمد بن قَرَا أوغلى الحنفي عوضه .

* * * * *

---

(1) الكواكب ، 2 : 102 .

(2) لعل المراد بالسلطان قاسم بيك هو الأمير قاسم شقيق پير أحمد القرماني حاكم إمارة قونية ، اللذان قامت السلطنة بضم إمارتهما قرمان إليها في سنة 1474 م .

(3) الكواكب ، 2 : 69 .

(4) من ترجمة قاضي الشام ولي الدين ابن الفرفور ، الروض ، 75 ظ ؛ والثغر ، 315 .

وفي يوم الجمعة رابع جُمادى الآخرة من السنة ، قدم إلى دمشق متسلّم القاضي الجديد ، واسمه يني[1] ، ومعه قسّامه واسمه أمر الله . ونزلا بقيسارية نائب القلعة ، ثم سلّم عليهما القاضي شمس الدين ابن مفلح الحنفي ، وأخذهما إلى منزله إلى أن رحل القاضي المنفصل إلى حلب .

وفي يوم الجمعة خامس عشري جمادى الآخرة من السنة ، تحقق أن الوزير الأعظم وصل إلى حلب في عاشر هذا الشهر ، وعزمه التوجّه إلى الشرق . ثم أرسل أولاقيه إلى مصر ثم إلى دمشق باستحضار الأموال السّلطانية .

وفي يوم الإثنين ثامن عشريه من السنة ، توفي الشيخ شرف الدين موسى ابن محمد بن إسماعيل العلماوي الشافعي ، الخطيب بجامع الحاجب برسباي الكائن بسويقة صاروجا ، وهو أحد الشهود القدماء بدمشق . وصُلّي عليه بالجامع الأموي ودُفن بباب الفراديس .

وخلّف ولدين ، أنجب أحدهما وأكبرهما عبد الباسط ، والثاني اسمه محمد ، باشر الأذان والميقات بالجامع الأموي . ومات محمد عن ولد ذكر اسمه زين العابدين ، وعن بنتين ، وهو أحد العدول ، تارة يشهد على القضاة بمحكمة قناة العَوْني ، وتارة يكتب مع قضاة البرّ ، وتارة متولّي نواحي حوران نائباً من قِبَل قاضيها ، ويكتب في رسم شهادته : محمد بن محمد العَلْمَوي[2] .

قال ابن طولون :

وبعد وفاة موسى العلماوي بيومين ، توفي الشيخ أبو بكر الشريطي

---

(1) الاسم بالتركية yeni يعني : جديد ، ولكن المعنى هكذا ناقص لا يستقيم ، لا بد له من تتمة . والنص هذا من الروض ، 75 ظ ، ضمن ترجمة القاضي ابن الفرفور .

(2) نقل الغزي الترجمة بإيجاز في الكواكب (2 : 253) نقلاً عن المفاكهة ، بيد أنه لم يصرّح بذكر مصدره . وابن صاحب الترجمة ، عبد الباسط العلموي ، هو مؤلف كتاب مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس . وضعه مختصراً على كتاب النعيمي ، وهذا ما فعله كثيرون غيره ، ومنهم ابن طولون .

الصالحي تلميذ شيخنا أبي الفتح المزّي ، ممن أخذ عنه ولبس منه الخرقة . ودُفن بسفح قاسيون ، وكلاهما توفي بغتة .

* * * * *

وفي يوم الإثنين ثاني عشر رجب من السنة ، كان ختم «البهجة الورديّة» ، [39 ظ] قرأها الزين عبد القادر الصّهيوني الشافعي حلاً على الشيخ تقي الدين القاري الشافعي ، وحضر الشيخ بدر الدين الغزّي الشافعي ، والشيخ شهاب الدين الميلي المالكي ، والشيخ شمس الدين محمد ابن طولون الحنفي[1] ، وخلق بمشهد عُرْوة بالجامع الأموي .

وأنشد قصيدة في مدح القوم من نظم الولد علاء الدين علي بن عماد الدين ، التاجر أبوه . وأطعم الناس رزاً بعسل وخبزاً تنّورياً . وكان مجلس فوائد واستفادات .

وفي يوم[2] الجمعة تاسع عشر رجب ، سنة أربعين وتسعمائة ، توفي أحمد البقاعي الشافعي الضرير نزيل دمشق ، بغتةً . حفظ القرآن بمدرسة أبي عمر ، وحفظ الشاطبية وتلا بعضها على الشيخ علي الجرايحي القيمري ، وحلّ البصروية وغيرها في النحو على ابن طولون ، وبرع وحصّل وحجّ ، وصار يقرئ الأطفال بمكتب الحاجبية بصالحية دمشق .

---

(1) كذا كما في نص الأيوبي ، والأصل أن يقول : وكاتبه ، فليس يستقيم أن يذكر ابن طولون اسمه على هذا النحو . غير أننا لم نشأ تغيير حرفية النص . وهذا ما يتكرر أدناه ويرد مراراً في تضاعيف الكتاب ، حتى ليخيّل للقارئ أن المؤلف شخص آخر غير ابن طولون . ولولا خوف الإملال كنا أشرنا إلى ذلك في كل مرة .

(2) الكواكب ، 2: 118 .

وفي[1] سادس حادي عشري[2] رجب ، سنة أربعين [وتسعمائة] ، دخل النائب لطفي إلى دمشق دخولاً حافلاً ، وقد كثر الطّاعون ، فأمر بقتل كلاب دمشق وضواحيها ، ونادى من لا يقتل كلباً ويعلّقه على دكّانه أو باب بيته يؤخذ منه ثمانون عثمانياً . فهرعت الناس إلى قتلهم ، وأُبيع كل كلب بقطعتين ، فقُتل نحو ألف كلب .

ثم إن القاضي الكبير أمر برفعه وقت الغدا ، ورمي ما قُتل ، وإلاّ كان عزمهم يقتلون فيهم ثلاثة أيام . ثم قيل وسبب قتلهم جري العادة بذلك في الرّوم عند وجود الطّاعون وعقيبه يخفّ أو يرتفع .

وفي يوم[3] الخميس ثامن عشريه ، كان ختم جمع الجوامع لتاج الدين السبكي ، قرأه الشيخ محمد العجلوني الشافعي على الشيخ بدر الدين الغزّي الشافعي حلاً ، وحضر الشيخ تقي الدين القاري الشافعي والشيخ أبو الفتح المالكي والشيخ شمس الدين محمد بن طولون الحنفي وخلق ، عند باب بيت الخطابة بالجامع المزبور[4] . ولخّص فيه مقاصد الكتاب مع ما يرد عليها ، وطرّز الختم بفوائد . ثم عزم الجميع إلى منزله وعمل لهم سماطاً مفتخراً ، ثم أنشد بعده قصيدة من نظم الزين القرعوني الشافعي . وكان يوماً مطيراً .

* * * * *

---

(1) إعلام الورى ، ص 244 .
(2) كذا في نص الإعلام ، فيها تحريف ، فما المقصود بسادس حادي عشري ؟ ولو كان ذكر اليوم لكنا حددنا صوابه في 21 أو 26 رجب .
(3) متابعة من الروض العاطر ، 39 ظ .
(4) يعني الأموي ، انظر ما تقدم . وقوله «الجامع المزبور» يدل على وجود نقص بين أيدينا في المخطوط مما نقله الأيوبي عن ابن طولون ، كان يستطرد بذكر الأموي فيه .

وفي يوم[1] الجمعة سادس شعبان منها ، توفي الشيخ نور الدين ابن عين الْمُلك ، بغتة . وكان رجلاً صالحاً محبّاً لطلبة العلم ، ملازماً لعمل الوقت بزاوية جدّه عين الْمُلك بالسفح ، ودُفن بحوشها .

وفي يوم[2] الجمعة سادس عشر شهر شعبان ، سنة أربعين وتسعمائة ، توفي الشيخ نور الدين علي ابن عين الْمُلك الصالحي الصوفي بغتةً ، ودُفن بحوش الزاوية .

قال ابن طولون : كان رجلاً صالحاً محبّاً لطلبة العلم ، ملازماً لعمل الوقت بزاوية جدّه عين الْمُلك بسفح قاسيون .

وفي يوم[3] الأربعاء ثامن عشري شعبان منها ، وصل إلى دمشق قاضيها الجديد شهاب الدين أحمد ، وتحرّر أن اسم والده عبد الأحد الرّومي ، ونزل في بيت القاضي المنفصل أسفل الطواقيين . وهو شيخٌ ، الغالب عليه مسلك الصّوفية .

وفي غده زار الجامع الأموي ، ثم الأماكن المقصودة بالزيارة ، ومرّ على الذين يقامرون بالبيض فكسره ، وأعطى أهله ثمنه ، ونادى بمنع ذلك .

وفي ليلة[4] الإثنين رُئي هلال رمضان من القابون ، وثبت رمضان آخر الليل ، وأصبح الناس صياماً .

وفي ليلة هذا اليوم صُلّي بالمدرسة العمادية التي أنشأها بمحلّة قناة العوني

---

(1) متابعة من الروض العاطر ، 39 ظ .

(2) الكواكب ، 2 : 215 . وأوردنا الخبر أعلاه مكرراً نقلاً عن الروض للمقارنة ، والتاريخ في الروض أعلاه أصح بحساب أيام الشهر .

(3) متابعة من الروض ؛ والثغر البسام ، 316 .

(4) متابعة من الروض العاطر ، 39 ظ . وهنا تضارب في الأيام ، فأعلاه يذكر الأربعاء 28 شعبان ، فكيف يكون الإثنين أول رمضان ؟ ولدى الرجوع إلى التوفيقات الإلهامية وجدنا حقاً أن مطلع رمضان كان الإثنين .

خارج باب الفراديس بشرق ، وبنى إلى جانبها خاناً محكماً المولى ابن عماد الدين . وقد أرّخ هذه العمارة المولى مصلح الدين الرومي الكاتب بالعمارة السليمية ، فقال :

من خان فقد عمّر خاناً بحرام ألهمتُ بتاريخه خان الحرامي

يعني تسعمائة وأربعين ، وهي تاريخ انتهائه .

وقد نظم في هذه المدرسة عدة من الشعراء ، منهم الشيخ أبو الفتح المالكي ، فقال [40 و] :

بنى ابن عماد الدين لله مسجداً محاسنه تزهو على كل مسجد
تلطّف جداً في بديع انسجامه فأدهش حسناً من يروح ويغتدي
بناء أنيق محكم الوضع فائق بنظم عقود كالجُمان المنضّد
على الدر والياقوت بسطت بأرضه سماء عقيق رُصّعت بزبرجد
فيا حُسن أقمار تلوح وأنجم بها وشموس من لجين وعسجد
ويا حبّذا العذب الفرات الذي انبرى بلجّته من فوق صرح ممدّد
أنابيب قَطر بل شآبيب كوثر تشبّب تغريداً بألحان معبد
صدى صوتها يجلو الصّدا فإذا حدا هَدا من غدا يرتاد أعذب مورد
لأحمد قد فاهت لأحمد مدحة وأطيب ذكر في الشآم مخلّد
هُمام إذا عُدّت مآثر مجده تعذّر قطعاً حصرها في مجلّد
ولو لم يكن منها سوى المسجد الذي بنى لكفى فخراً لدى كل مشهد
تكامل عام الأربعين بناؤه وتسع مئين بعد هجرة أحمد

فلمّا وقف هذا الواقف لهذا المسجد على هذه الأبيات ، أهدى لناظمها سكّراً ، فكتب أيضاً الشيخ أبو الفتح يقول :

جــدّد ابــــن العمـــاد لله بيتـــاً — منـه إحيـاء البنـاء مـا كـان ميتـا

كـان فيمـا مضـى مـن الدهـر حيـاً — يمتطـي الشـــاربون فيــه الكميتــا

فغـــدا معبـــداً وأبـــدل نـــوراً — وشـــموعاً مـــن الظـــلام وزيتــا

مســـجداً كـامل المحاســـن فـــرداً — جامعــاً لـــم تشـنـه لَـــولا ولَيْتـــا

ســيق فيــه إلــى العطــاش ســبيل — نعــمَ يـا ابـن العمـاد مـا قـد أتيتـا

فمتـى رُمـــتَ أمـر تـاريخ وضـع — فهــو لُهـــى بـــه إليــه اهتدينـــا

وقال القاضي محمود بن عمر التميمي :

زان العمــارة مســجد هـــو معبــدٌ — يزهـــو بروضتــه البهيّـــة معبـــدُ

لله محــــــرابٌ بقبلتـــــه ســـــما — وبــه إمـــام العصــر فيــه يغــرّد

مــن تحتــه عــينٌ جـرت في حوضهـا — وبـــه زلالٌ للعطـــاش مـــبرّد

يـا حُســنه بعمــاد ديـن الله فـا — ءَ مــن بنــاه للعمـــادة أحمــــد

بـــالذكر والصلـــوات لله المهيــــ — ــمن بـالتردد في كـل وقـت يُقصـد

هـو مسـجد هـو معبـد هـو مسـعد — هـو مـورد هـو معهـد هـو مشـهد

جمـع الأحاسـن والمحاسـن كلهـا — فتعجبـوا مـن جـامع هـو مفـرد

تاريخـــه في الأربعـــين وقبلهـــا — تسـع المئـين فشـاهدوه واشـهدوا

يبنـــي الإلـــه لمـــن بنـــاه عنـــده — في جنـة الفـــردوس بيتـــاً يُحمـد

وقال الشيخ علاء الدين بن صدقة [40 ظ] :

لله مـــــا أنشــــــأته — يـــا ابـــن عمـــاد الديـــن

مـــن مســـجد قـــد غـــدا — في أحســــن التكويــــن

وقـــد أتـــى مرتبـــاً — في غايـــة التحســـين

ورشف ماء حوضه لي منه ما يحييني
وذي العمارة قد أتت في غاية التمكين
في عام تسع وثلا ثين من السنين
وقد مضى من قبلها تسع من المئين

وقال ناصر الدين محمد [بن] أبي الجود الحنفي ، ويعرف بابن الكشك :

أدخل بناء شيّدوه مسجداً جمع المحاسن وهو حقاً مُفرد
يأوي الغريب إذا تناءت داره ويُظلّ من ظل عنه ينشد
قد كان بيت الظلم غير مشرّف فغدا شريفاً للبريّة معبد
وإذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد
في عام ظلم قد أقام عمارة نجل العماد وهو الأعزّ الأمجد

ونظم فيه أيضاً الشيخ أبو البقاء البقاعي الحنفي ، والشيخ شمس الدين محمد الصالحي[1] .

قال ابن طولون :

وفي يوم الخميس خامس عشرين شعبان من السنة ، ختم الشيخ بدر الدين ابن مزلّق صحيح البخاري بالجامع الأموي ، وحضرت النساء من وراء ستر ،

---

(1) كتب الأيوبي معلقاً : قلتُ : وكل هؤلاء عن صناعة التاريخ بمعزل ، فلو أدرك الأديب ماماي عمارة هذا المعبد وسمع هذا الشعر من هؤلاء الجماعة لأربى عليهم وأتى بالتاريخ العجيب ، مع الاختصار ولطف المعنى ، كما سيأتي من التواريخ التي نظمها في سبلان الماء والمساجد وغير ذلك . وعمارة هذا المسجد ليست من العمائر المفتخرة ، كمثل عمارة مدرسة سيباي ، ولا عمارة درويش باشا ، ولا عمارة الوزير الأعظم سنان باشا ، ولا الشاذبكية ولا الجقمقية ، فإن العمادية المذكورة حجرة من حجرات هذه المساجد ، والله أعلم .

وحضر عنده الشيخ تقي الدين القاري الشافعي والشيخ قطب الدين ابن سلطان الحنفي وجماعة من الأفاضل .

ونقل في ختمه أن قول أبي حنيفة في ليلة القدر أنها دائرة في السنة ، فأنكر ذلك الشيخ قطب الدين وقال : ليس هذا المُعتمد . وأسند إلى ما نقله قاضي القضاة بدر الدين العيني المصري حيث قال : ودوران ليلة القدر في العام رواية عن أبي حنيفة ، وفي رواية أخرى : في شهر رمضان ، وهي المختارة ، وهي قول أبي يوسف ومحمد .

وذكر الفقيه أبو جعفر أن المذهب عند أبي حنيفة أن ليلة القدر في شهر رمضان [41 و] لا في غيره ، لكنها تتقدّم وتتأخّر ، وعندهما تكون في شهر رمضان في ليلة واحدة لا تتقدّم ولا تتأخر . وفائدة الخلاف ، فمن قال لعبده : «أنت حرّ ليلة القدر» ، فإن قال ذلك قبل دخول شهر رمضان عُتق إذا انسلخ الشهر ، وإن قال بعد مضي ليلة القدر من الشهر لم يُعتق عنده حتى ينسلخ الشهر من العام المقبل . وعندهما إذا مضى ليلة من الشهر من العام المقبل ، فجاء مثل الوقت الذي حلف فيه عُتق . انتهى .

وجزم الزندوسي في كتابه «روضة العلماء» أن قول أبي حنيفة «في ليلة القدر» إنما يكون في جميع السنة ، ولم يحك عنه خلافاً . ولفظه ولو قال لامرأته : «أنت طالق في ليلة القدر» فهو على وجهين : إما أن يقول بعد ما مضى من رمضان يوم أو يومان ، أو قبل دخول رمضان ، فإن قال بعد دخول رمضان بيوم أو أكثر فإنهم اتفقوا أنه لا يقع الطلاق ما لم يجيء ذلك اليوم الذي قال هذه المقالة فيه من العام القابل ، وقال : إذا مضى رمضان من اليوم الذي قال من عامه ذلك ، يقع الطلاق .

وهو على اختلاف بينهم أن ليلة القدر تكون في رمضان أو في جميع السنة . قال أبو حنيفة تكون في جميع السنة ، وقالا تكون في رمضان لا غير . انتهى .

قال [ابن طولون] :

وفي هذا اليوم وصل من حلب ناظر الجامع الأموي السيد تاج الدين الصلتي ، ورسم له الوزير الأعظم بنحو الخمسين عثمانياً مما ينحل .

وفي يوم[1] الأربعاء ثامن عشري شعبان منها ، وصل إلى دمشق قاضيها الجديد شهاب الدين أحمد ، وتحقق أن اسم والده عبد الأحد الرومي ، ونزل في بيت القاضي المنفصل أسفل الطواقيين . وهو شيخ ، الغالب عليه مسلك الصوفية .

* * * * *

وفي يوم[2] الثلاثاء ثاني رمضان منها ، نادى [القاضي] أن لا تخرج امرأة طفلة إلى الأسواق[3] ، وإن خرجت ومعها زوجها أو غيره مُسكا . وأن لا يسبّط أحد من السُّوقة في الطريق ، خصوصاً الخبّازين . وأن لا يكشف أحد من الرّجال أوالنساء عورته في الحمّام ، وأن تكون الفُوطة إلى تحت الركبتين ، ويوضع على بابه ستر كبير حين يدخل النساء . وأن لا يدخل الجامع الأموي ليلاً أمرد . وهذه الأشياء لا بأس بها لو استمرّت .

ثم ليلة تاسع عشر هذا الشهر ، نادى بإبطال المشاهرة[4] ، و . . . . . . وسعّر البضائع حتى البصل ، وأجرى الموازين على قانون الرّوم ، و . . . . . . [5]

---

(1) الروض العاطر ، 75 ظ ، ضمن ترجمة القاضي ولي الدين ابن الفرفور .
(2) الروض العاطر ، 75 ظ ضمن ترجمة القاضي ابن الفرفور ؛ والثغر البسام ، 316 .
(3) أي امرأة شابة تبدو عليها علائم الصبا وفتنته ، انظر الكواكب ، 2: 109 .
(4) بالأصل : الساهرة ، والمشاهرة هي البيع بطريق المزاودة ، وردت في الأول من المفاكهة .
(5) النص من الثغر البسام ، وبه خروم في الأصل .

وفي ثالث عشريه خَتَمَ الأخ أمين الدين ابن عَوْن الحنفي «الجامع الصّحيح» ، وحضر عنده خلقٌ من النساء . فأرسل [القاضي] إليه رسولاً ، فنزل عن الكرسي وذهب إليه ، وقال : لم أعرفكَ ، ولكن لا تحضر ولا عند غيرك ، ولا يختم أحد هناك إلا أن يعرض عليّ ما يقرأ .

فذهب إليه الولد البدري ابن المُزَلِّق [1] ، فأعجبه فهمُه وقراءته وبحثه ، فأطلق للناس القراءة وللنساء الحضور من وراء ستر .

* * * * *

وفي يوم[2] الإثنين رابع عشر شوّال منها ، عيّن [القاضي] لقراءة سورة الأنعام ألفاً وست مئة لبَركتها من ضرب أربعين في مثلها ، فإن في ذلك سراً لاستجابة الدُّعاء لتوجّه السّلطان إلى الشرق .

[وفي شوّال][3] مات الابن الأكبر [لنائب دمشق لطفي باشا] بالعلّة[4] ، وكان ابن اثني عشر سنة . وكان قرأ خمس كتب في خمس علوم . ودُفن بحوش الشيخي المحيوي ابن العربي يوم السبت ثالث عشرين شوّال منها .

* * * * *

---

(1) أسرة المزلّق بدمشق ، التي أنجبت بأواخر عهد المماليك وأوائل عهد العثمانيين عدداً من العلماء والقضاة ، لا ندري أين طوّحت بها الأيام ، فكيف اختفى ذكرها واسمها في عصرنا ؟ ولماذا لم تصمد كباقي الأسر العلمية المذكورة في هذا الكتاب كآل الفرفور والغزي وسلطان والعمادي والصمادي والأسطواني ، وغيرهم ؟ هل تحوّل اسمها مثلاً إلى المزيّك أو الزالق (رجماً بالغيب) ؟ وأخيراً نذكر أن «كركون الشيخ حسن» الذي حيّر اسمه الباحثين ما هو إلا تربة قديمة للشيخ حسن ابن المزلّق ، راجع ص 166 .

(2) متابعة من الثغر البسام لابن طولون ، ص 317 .

(3) إعلام الورى ، ص 245 .

(4) أي الطاعون المتقدم ذكره في شهر رجب .

وفي يوم[1] الجمعة ثاني ذي القعدة منها ، صُلّي غائبة بالجامع الأموي على مفتي اصطنبول أحمد بن كمال باشا ابن سليمان الرومي الحنفي ، وله تصانيف نفيسة ، منها تفسير القرآن الكريم وصل فيه إلى سورة ص ، وله غير ذلك[2] .

وفي يوم الثلاثاء سادسه ، درّس الشيخ يونس العيثاوي البقاعي الشافعي ، إمام الجامع الجديد خارج باب الفرج والفراديس وخطيبه ، في مدرسة الشيخ أبي عمر . وكان هذا التدريس شاغراً من موت شيخ الإسلام تقي الدين ابن قاضي عجلون وذريّته ، لأن ناظر النظّار الكمال كان أبطله لعدم المباشرة ، والآن سعى الطلبة فيه عند القاضي الكبير فأعاده . وكان الشيخ يونس المشار إليه يدرّس داخل المدرسة ، وأنا أدرّس قدّام أبوابها ، وعن [41 ظ] يمينه الحنابلة[3] .

قال ابن طولون[4] : أفادني [الشيخ يونس العيثاوي] ، أنه يُكتب نهار خميس البيض قبل طلوع الشمس ويُعلّق في المنزل ، ينفع إن شاء الله تعالى من الهوام ، وهو : «بسم الله الرحمن الرحيم ، إني توكلتُ على الله . . إلى قوله [299 ظ] مستقيم ، عقدتُ زبانى العقرب ولسان الحيّة ويد السارق وفم كل سبع وسبعة ، بحق الحجر الأسود ، ولا يعود أحد ينصرهم . ﴿قل هو الله أحد﴾ (السورة) ، ذلك تخفيف من ربّكم ورحمة ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم» . انتهى .

ثم توفي النائب لطفي [بعلة الطاعون][5] ، ودُفن بالجنينة التي كانت أوقفها

---

(1) الروض العاطر ، 41 و .
(2) أما أشهر كتب ابن كمال باشا فهو : «رجوع الشيخ إلى صباه في القوّة على الباه» .
(3) كذلك أورد الأيوبي النص ذاته ثانية ضمن ترجمة الشيخ يونس العيثاوي في الروض العاطر (299 ظ) وقد صوبنا منه شيئاً في العبارة أعلاه . وللعيثاوي ترجمة وافية في الروض العاطر (299 و) ، وكان شيخاً للأيوبي مؤلف الروض ، وفيه أن وفاته كانت عام 978 هـ . بينما ذكر الغزي أنه توفي 976 أو 977 هـ ، الكواكب ، 3 : 222 .
(4) الروض العاطر 299 و .
(5) تتمة للنص المنقول أعلاه من إعلام الورى عن وفاة ابن لطفي باشا بالطاعون أيضاً .

النائب فرهاد على ست مقرية[1] ، ولم يتم ذلك . وهي شرقي جامع تنكز، يفصل بينهما الطريق الآخذ إلى الخاتونية ، إلى جانب الشارع . يوم الأربعاء سابع[2] ذي القعدة منها ، ثم بُني عليه قبّة ورتِّب مقرية واشتُري لذلك وقف[3] .

وفي[4] ثامن عشرين ذي القعدة [من سنة أربعين] وردت أولاقية بعزل [عيسى باك] وتولية نائب حلب خسرو عوضه ، وكان هذا النائب المنفصل كتب عرضاً بأن لا تؤخذ العشور من الأراضي بواسطة السقعة الحاصلة في شوال ، فلم يتم ذلك .

وكان تولية خسرو هذا في توجه السلطان إلى الشرق ، ثم عُزل وما أتى دمشق ، ثم ولي مصر ، ثم أتاها منفصلاً متوجهاً إلى مصر[5] .

* * * * *

وفي يوم[6] الأربعاء خامس ذي الحجّة ، سنة أربعين وتسعمائة ، توفي الأمير عبد القادر ابن أبي بكر إبن ابراهيم ابن منجك ابن الأمير زين الدين ابن منجك الدمشقي ، أحد أجلاّء دمشق وأمرائها .

---

(1) يريد مقرئة .
(2) في الأصل بإعلام الورى : خامس ، والتصويب من ترتيب أيام الشهر قبله ، ومن قوائم مقابلة السنين الهجرية .
(3) لا أثر لهذه التربة اليوم ، وكان موقعها بأعلى الزاوية اليمنى للنازل من شارع النصر إلى زقاق رامي ، وهذا الزقاق ينطبق على نفس الطريق الذي يذكر ابن طولون بأنه الآخذ إلى المدرسة الخاتونية البرانية ، إحدى آثار العهد الأيوبي (الدارس ، 1 : 502) ، التي كان موقعها عند مبنى التلفزيون بساحة الأمويين حالياً .
(4) إعلام الورى ، ص 246 . مع الإشارة إلى التشويش الذي سبق أن أشرنا إليه في مطلع هذا العام من ذكر ابن طولون أكثر من مرة تولي عيسى باشا ولطفي باشا دمشق بالتوالي .
(5) هذه الأخبار بالطبع تالية للعام 940 هـ ، يستطرد بها المؤلف في إعلام الورى .
(6) الكواكب ، 2: 174 .

حفظ القرآن وتفقّه على الشيخ برهان الدين ابن عوف الحنفي وغيره ، وحصّل كتباً نفيسة .

قال ابن طولون : تردّدتُ إليه كثيراً ، وولي النظر على أوقافهم سنين ، وحصّل دُنيا وكان سَمْحاً . تمرّض وطالت علّته إلى أن توفي .

وصُلّي عليه في عدّة في الجامع الأموي . ودُفن بتربتهم بجامع ميدان الحصا ، وحضرتْ جنازته الأعيان ، وخلّف ولدين هما الأمير إبراهيم والأمير أبو بكر .

* * * * *

وفيها[1] توفي مفتي الثقلين الإمام الهمام أحمد أفندي ابن كمال باشا ، وقد وقع لفظ تاريخ وفاته : ارتحل العلوم بالكمال .

قال ابن طولون [2] :

وفي سنة أربعين وتسعمائة توفي الشيخ الفاضل شمس الدين الزحلي الشافعي ، محمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الغني ، أحد مباشري الجامع الأموي ، وكان لا بأس به . وكان قد باع عقاره وخرج إلى الحج عازماً على المجاورة ، فمات في طريق الحجاز في الذهاب في أرض الأقيرع المعروف بمفارش الرز .

* * * * *

(1) الباشات ، ص 13 . وسبق ذكر وفاة ابن كمال باشا أعلاه في 2 ذي القعدة . وورد لفظ التاريخ في الباشات : ارتجل العلوم بالكمال ، والصواب ما أثبتناه على حساب الجمّل .
(2) الكواكب ، 2 : 60 .

[حوادث سنة 941 هـ]

[استهلّت هذه السنة والخليفة على ما هو عليه ، والسّلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان][1] .

[ونائبه بدمشق خسرو باشا ؟][2] .

---

(1) زيادات يقتضيها السياق .

(2) نواجه ها هنا إشكالاً غير يسير ، ولا ندري مقدار صحة ما ورد حول هوية والي دمشق ، فابن طولون في إعلام الورى (ص 246) ذكر (كما نقلنا في السنة الفائتة) توجيه ولاية دمشق لخسرو نائب حلب في 28 ذي القعدة 940 هـ ، وبقائه فيها حتى أواخر رجب عام 941 هـ . أما المقار فيكتب (ص 13) : تولى دمشق عيسى باشا المذكور المرة الثانية .

وسبق أن ذكرنا بمطلع العام 940 هـ ما واجهنا من التشويش بين تولية دمشق لعيسى باشا ولطفي باشا لعدة مرات لكل منهما ، وعلى التعاقب . وعلى أي حال فمصدر هذا التشوش هو عدم وضوح نص ابن طولون في إعلام الورى ، وابتسار نص المقار في الباشات ، المنقول أصلاً عن المفاكهة .

ثم بالرجوع إلى سالنامه ولايت سوريه نجد شيئاً آخر : تولى لطفي باشا أول مرة عام 932 هـ لمدة 4 سنوات و6 أشهر ، والدفعة الثانية كانت عام 939 هـ لمدة سنة وشهرين . أما عيسى باشا فتولى المرة الأولى عام 936 هـ لسنتين و6 أشهر ، والثانية عام 941 هـ لسنة واحدة ، والثالثة عام 947 هـ لمدة 4 سنوات . غير أن ابن طولون يذكر أن عيسى باشا أعيد إلى ولاية الشام أيضاً في عام 942 هـ وبعدها ، كما سيمر بنا لاحقاً !

أما الغزي فقد ترجم لعيسى باشا في الكواكب (2 : 235) وذكر وفاته بدمشق عام 950 هـ نقلاً عن ابن طولون (وسيرد ذلك معنا) ، لكن دون أن يعين سنوات ولايته بدمشق .

[والقاضي بها أحمد ابن قرا أوغلى][1] .

وفي يوم[2] الأربعاء رابع عشري المحرّم سنة إحدى وأربعين وتسعمائة ، توفي الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد بن علي الفصّي البعلي الشافعي ، مفتي بعلبك ، ولم يخلّف بعده مثله في فقه الشافعية . وصُلّي عليه غائبة بدمشق يوم الجمعة .

ورأيتُ أيضاً في تاريخ ابن طولون [3] ، في سنة إحدى وأربعين وتسعمائة ، ما صورته :

قال : وفي يوم الجمعة سادس عشرين المحرّم من السنة ، صُلّي بالجامع الأموي غائبة على العلاّمة المحقّق آخر الفقهاء بهاء الدين محمد ابن العيني[4] البَعْلي ، توفي بها يوم الأربعاء الماضي ، الشافعي . ولم يخلّف بعده مثله ، حتى ولا في دمشق في فقه الشافعية ، وهو كان أنجب تلامذة شيخنا وقريبنا شيخ الإسلام التقي ابن قاضي عجلون .

وفي يوم الثلاثاء سلخ المحرّم جاءت كتب الحاج ، وفيها أن الوقفة كانت يوم الإثنين ، وكان يوم عيدنا ، وأن مكّة مغلّية ، وتعلّق الغلا مع الحاج . وأن العلاّمة أحد فضلاء مكّة الشيخ زين الدين عبد اللطيف ابن أبي كثير الشافعي ، قدم من مكّة صحبة الحاج المصري . وأن قاضي مكّة العلاّمة محبّ الدين ابن أبي ظهيرة الشافعي توفي في ذي القعدة من العام الماضي .

---

(1) كتب المقار في الباشات (ص 13) : ، وقاضيها أحمد أفندي المذكور . أما الثغر البسام فليس فيه أية أخبار حوله في عام 941 هـ .

(2) الكواكب ، 2 : 11 . ونفس الخبر نقناه ثانية أدناه من الروض العاطر ، بغرض المقارنة .

(3) الروض العاطر ، 302 و .

(4) وردت أعلاه في الكواكب الفصّي بدلاً من العيني ، ونتوقع أن يكون التصحيف من الأيوبي لا الغزي . أما البعلي فنسبة إلى بعلبك ، كما مر بنا سابقاً في هذا الكتاب .

ووصل إليّ كتاب من محدّث مكّة الشيخ جار الله ابن فهد ، وفيه أن المحدّثين كنا نعدّهم قليلاً ، وقد صاروا أقلّ من القليل ، ولم أعرف بالشام غير خدمتكم ، وبالقاهرة الشيخ شمس الدين الداودي ، مع ضعف بصره ويديه ، ويشاركه الشيخ شمس الدين المظفّري مع كثرة حرصه على الدنيا ، وباليمن مؤرخها الشيخ عبد الرحمن ابن الدّيبع الشيباني ، وقد اجتمعتُ به وهو يكاتبني ، مولده سنة ستين وثمانمائة . وقد وصلني كرّاس التراجم المفيدة ، وكتبتُ لكم مؤلفين في القهوة :

أحدهما : «أصل في التحريم» ، للعلاّمة عين الأطباء بمكّة نور الدين أحمد بن محمد بن خضر العمري الكازروني الشافعي نزيل مكّة ، وكان تأليفه له سنة سبع عشرة وتسعمائة . وقد سبقه إلى ذلك شخص يماني يقال له الغزالي ، وآخر يقال له مكّي ابن الزبير العدوي ، وسمّى تأليفه : «قمع الأمّارة بالسّوء عن الشهوة ، ببيان حرام شرب القهوة» ، وتبعه البدري حسن ابن العلاّمة عفيف الدين عبد الله بن كثير الحضرمي الأصل المكّي الشافعي ، وسمّى مؤلّفه : «قمع الشهوة عن شرب القهوة» ، وشيخ القرّاء العلاّمة خطيب المدينة الشريفة وإمام محرابها الشمسي محمد بن زين الدين عبد الرحمن القطّان الشافعي ، وسمّى مؤلّفه بـ : «زلّة القدم والهفوة ممن يتعاطى شرب القهوة» .

وقد ورد علينا صورة سؤال في تحريمها من الديار المصرية ، بعد أن منع من شربها مفتي الشافعية نور الدين علي بن ناصر المكّي في سنة ثمان عشرة وتسعمائة [302 ظ] فكتب عليه بالتحريم شيخنا البرهان ابن أبي شريف الشافعي ، وشيخ القرّاء شرف الدين عبد الحق بن محمد السنباطي الشافعي ، وقاضي القضاة السّريّ عبد البرّ ابن الشحنة الحنفي ، وشيخ الشيوخ البرهان إبراهيم ابن موسى الطرابلسي ، والقاضي نور الدين علي بن ياسين الطرابلسي ، أيضاً الحنفيان ، وقاضي القضاة الشرفي يحيى بن إبراهيم الدميري المالكي ، وشيخ

الشيوخ شهاب الدين أحمد بن محمد المالكي ، والقاضي شمس الدين محمد ابن حسن اللقاني المالكي ، وقاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن علي الحنبلي ، وقاضي القضاة بعده الشهابي أحمد بن المنجّا الحنبلي .

ولّما حج شيخ الشيوخ نور الدين علي المحلّي الشافعي ، سنة عشرين وتسعمائة ، رُفع له سؤال فيها ، فأجاب بالتفصيل فقال : إن كانت تضرّ بالعقل فلتحريمها سببان ، وإن لم تكن مضرّة فلتحريم تعاطيها على الوجه المعروف سبب واحد . وحاصله القول بالتحريم .

وثانيهما : «أصل في الإباحة» ، للعلاّمة المفنن الأديب فخر الدين أبي بكر ابن العلاّمة الشرفي إسماعيل ابن أبي زيد المكّي الشافعي ، وسمّى مؤلّفه : «إزالة الهفوة بتحريم شرب القهوة» . وكل من ألّف في التحريم سمّى هذا المؤَلف الكبير بـ : «إجابة الدعوة بنصرة القهوة» .

قال ابن طولون :

وأنا ممن شربها ولم ير الضّرر منها ، لكن النفس تنفر من شربها لقول بعض مشايخي إنها تشبه لقاعة الرذائل ، وتضرّ السّوداوي وتنفع البلغمي . . إلى أن قال : والذي أدين الله به أنها مباحة ، وتحرّم على من تضرّه أو يضيف إليها ما يحرّمها . انتهى[1] .

* * * * *

وفي يوم[2] الإثنين ثاني عشر ربيع الأول ، سنة إحدى وأربعين وتسعمائة ،

---

(1) بعد هذا النص آراء للأيوبي ونصوص وأشعار لغيره في تحليل القهوة ، لم نر في إيرادها فائدة ، خاصة أنها لا تتصل بمؤرخنا ابن طولون ، ولا تقدم جديداً أو مفيداً .
(2) الكواكب ، 2 : 24 .

توفي الشيخ أبو الفضل محمد بن أحمد الرّملي ، أحد العدول بدمشق ، والإمام بالجامع الأموي . ذكر ابن طولون أنه كان حسن السياسة وكان يرجع إليه الناس في المحكمة الكبرى . قال ابن طولون : وكثر الثناء عليه واستقرّ الإمامة عليه بإشارة الأفندي .

* * * * *

وفي[1] سلخ رجب سنة إحدى وأربعين ، وصل الخبر بتولية دمشق لأحمد باشا نائب قرمان ، أخو إياس باشا الوزير الأعظم .

وفي ثاني رمضان منه قدم دمشق ، وتلقّاه القاضي الكبير والأكابر ، وكان قيل إنه أحمد بن يَخْشي[2] الذي ولي دمشق في غيبة السلطان سليم لفتح مصر .

* * * * *

وفي[3] يوم الجمعة خامس عشر رمضان منها ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ الإمام العلاّمة نور الدين علي البحيري الشافعي ، أحد علماء القاهرة ، توفي في سنة إحدى وأربعين وتسعمائة .

وترجمه ابن طولون بأنه آخر شيوخ المصريين .

* * * * *

---

(1) إعلام الورى ، ص 246 . وفيه يذكر بقاءه حتى عام 942 هـ ، كما سيمر في محله أدناه .

(2) حول أحمد يخشي اوغلى والي الشام عام 922-923 هـ انظر القسم الأول من مفاكهة الخلان ، 2: 36 ، 70 . والاسم بالتركية : Yahşi ، معناه المليح ، الحلو ، الطيب . وهي من الكنى الدمشقية اليوم ، غير أنها تنطق وتكتب بلفظ (يغشي) .

(3) الكواكب ، 2: 216 .

وفي يوم[1] الثلاثاء ثاني عشري شوّال ، سنة إحدى وأربعين وتسعمائة ، توفي الشيخ الصّالح السيّد الشريف عبد الوهاب الصوّاف الدمشقي الشافعي المقرئ ، ودُفن بباب الصغير .

قال ابن طولون : سمع معي بمكّة على محدّثها الشيخ عزّ الدين ابن فهد وغيره ، وبدمشق على مؤرخها القاضي محيي الدين النُّعيمي وغيره . وكان يقرأ للأموات ، خصوصاً بتربة باب الصغير ، وكان يدعو في المحافل أدعية لطيفة . وكان له بعض اشتغال وصلاح ، وكان فقيراً .

* * * * *

وفي يوم[2] الجمعة عاشر ذي الحجّة منها ، وقع القاضي [شهاب الدين أحمد ابن قَرَا أوغلى][3] في المرض بعد أن عيّد .

وفي يوم الثلاثاء حادي عشريه توفي ، وصلّى عليه بباب العنبرانيين وكان الإمام بهم الشيخ الصالح ركن الدين محمد الكوسوي الخراساني الحنفي النازل بالبادرائية ، وهو مؤاخٍ في الله الشيخ محمد الإيجي الشيرازي الشافعي . ودُفن بباب الصّغير عند سيدي بلال بوصية منه ، بين القبرين في الجُورتين المكتوبتين بالكوفي في أعلاهما ، وجُعل عند رأسه ورجليه عمودان .

---

(1) الكواكب ، 2 : 188 .

(2) الروض ، 75 ظ ؛ والثغر البسام ، 317 ؛ والكواكب ، 2 : 109-110 . وفي الكواكب نقل دقيق من ابن طولون وتصحيح لأغلاط بعض من ألف التاريخ ممن لا يوثق به ، ويرجع الغزي إلى الشقائق النعمانية فيجد تاريخ وفاته 942 هـ بدلاً من 941 ، فيؤكد بكل ثقة : والأصح ما تقدم كما حررته من خط ابن طولون في تاريخه . ونقل عن ابن طولون أنه وصفه بالعلاّمة .

(3) الاسم في التركية : Karaoğlu ، يعني ابن الأسْوَد .

وكان يوم عَرَفة زار الصالحين بدمشق وضواحيها ، حتى ذهب إلى برزة وزار المقام ، ثم وقع في المرض يوم عيد النَّحر . ولمّا تزايد مرضه جُمع له واحد وأربعون نفساً ، كل منهم اسمه محمد ، وقرأوا سورة الأنعام ودعوا له بالشفاء . ثم لمّا تزايد به المرض فرّق قرابين من الغنم وذبح بعضها للمحابيس ، وأطلق مَنْ كانت جريمته يسيرة ووزن عنهم ، وأعتق أرقّاءه وكانوا أكثر من ثلاثين رقبة . وأوقف كتبه وجعل مقرّها بتربة أستاذه قَرَا أوغلي عند سيدي [أبي] أيّوب الأنصاري بالرّوم ، رضي الله عنه . وأوصى بالودائع وبكفّارات الصّلوات الفائتة ، وأقبل على الله تعالى وصار يتلو أوراده إلى أن وقع في النَّزع ، رحمه الله رحمة واسعة ، آمين .

وكان منوّر الشَّيبة محبّاً للصالحين ، غير أن فوق يده أيدياً وكان ذلك يمنعه من سماع كلمته ونفوذ أمره ، وهو أمثل قضاة الأروام .

* * * * *

وفيها[1] توفي عيسى باشا المذكور ، ودُفن بمدفن حضرة الشيخ محيي الدين ابن العربي ، قدّس الله سرّه .

* * * * *

---

(1) الباشات والقضاة ، ص 13 . وهنا يوقعنا المقار بحيرة وارتباك جديدين ، فوق ما كنا ذكرناه بمطلع العام . غير أننا نعتقد بأنه غلط منه في النقل ، فعيسى باشا توفي عام 950 . وإنما الذي توفي كان لطفي باشا ، كما تقدم في السنة الماضية .

[حوادث سنة 942 هـ]

[استهلّت هذه السنة والخليفة على ما هو عليه ، والسّلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان] [1] .

[ونائبه بدمشق أحمد باشا] [2] .

[والقاضي بها لم يعيّن بعد مكان المتوفى أحمد ابن قرا أوغلي] [1] .

وفي يوم [3] الجمعة رابع عشر صفر ، سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن محمد البصروي الحنفي ، ابن العلاّمة جلال الدين البصروي الشافعي ، وهو سبط الشيخ العلاّمة زين الدين ابن عبد الرحمن ابن العيني الحنفي . ربما تُرجم بالعلم .

---

(1) إضافات يقتضيها السياق .

(2) التتمة بحسب إعلام الورى ، ص 246 . أما المقار فيذكر (ص 13) : تولى دمشق محمد باشا الملقب بكوزلجه ، والقاضي بها فخر الدين ابن إسرافيل أفندي المرة الثانية . قلنا : وسيرد ذكر ذلك أدناه حول الباشا والقاضي الجديدين أدناه . أما حول أحمد باشا فراجع خبر تعيينه في سلخ رجب من السنة الفائتة .

(3) الكواكب ، 2 : 157 ؛ ونقلها ابن العماد في شذراته ، 8 : 248 .

قال ابن طولون : وقد رأيته وهو يدرّس في المختار .

توفي بالحَسى ، أحد منازل الحاج .

* * * * *

وفي يوم[1] الجمعة ثاني جُمادى الأولى ، سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة ، صُلّي غائبة بجامع دمشق الأموي على الشيخ بديع ابن الضياء ، قاضي مكّة المشرّفة وشيخ الحرم الشريف بها .

قال ابن طولون : كان من أهل الفضل والرئاسة ، قدم دمشق ثم سافر إلى مصر ، فبلغه تولية قضاء مكّة للشيخ زين الدين عبد اللطيف ابن أبي كثير ، وأنه خرج عنه قضاء جدّة ، فرجع إلى دمشق وأقام بها مدّة .

ثم سافر إلى الرّوم ، فخرج من دمشق يوم السبت منتصف ربيع الأول ، سنة إحدى وأربعين وتسعمائة ، بعد أن حضر ليلة الجمعة التي قبل التاريخ المذكور عند الشيخ علي الكيزواني تجاه مسجد العفيف بالصالحية ، وسمع المولد وشرب هو والشيخ علي وجماعته القهوة المتّخذة من البنّ .

قال ابن طولون : ولا أعلم أنها شُربت في بلدنا هذه ، يعني دمشق ، قبل ذلك . قال : وكان عمّي الشيخ جمال الدين ابن طولون يقول بتحريمها . وقال : أمرها مشهور بمكّة ، ولعلمائها مصنّفات في حِلّ شربها وعدمه[2] . انتهى .

---

(1) الكواكب ، 2 : 126 .

(2) انظر حول ذلك أخبار السنة الفائتة 941 هـ ، بتفصيل الأزمة الفقهية التي أثارها موضوع شرب القهوة في مجتمع دمشق بأواسط القرن العاشر الهجري .

فلمّا وصل القاضي بديع إلى الرّوم ، أُعيد إليه قضاء جدّة ، ثم رجع فتوفي بمدينة بدْليس من أطراف ديار بكر . وورد الخبر بموته في صفر سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة .

قال ابن طولون : وغلطوا في المنادى عليه ، فقالوا إنه توفي بآمد ، وقد قدّمنا أنه توفي ببدليس .

وفي يوم[1] الخميس خامس عشر جمادى الأولى ، سنة اثنين وأربعين [وتسعمائة] توفي أحمد باشا [نائب دمشق] ، وصلّى عليه قدّام باب دار السعادة ، أحد أبواب دمشق ، الشيخ عبد الصّمد الحنفي مدرّس العزّية بالشّرف الأعلى .

ودُفن في بيت قبلي زاوية الحفّار تجاه الصّابونية بشرق إلى القبلة ببيت اشتُري له . ثم عُمِّر عليه قبّة معظّمة وسبيل ماء[2] ، ورُتّب له مقرية وبوّاب وغير ذلك .

وأقيم نائب غيبة الأمير بابا خُراسان ، وهو شيخ معتقد في الشيخي المحيوي ابن العربي .

---

(1) إعلام الورى ، ص 246-247 .

(2) كتب الشيخ دهمان في نشرته لإعلام الورى : هذه التربة قرب مخفر الشيخ حسن ، وهي تربة ذات جبهة جميلة ، ورغم أنها بنيت في العهد العثماني فإن طرازها مملوكي مما يجعلها وحيدة في نوعها . وتحت قبتها قبر له شاهدان ، الشاهد الشرقي عليه سورة الإخلاص ، والشاهد الغربي كتب عليه ما يلي : 1- انتقل المرحوم أمير الأمراء العظام أحمد باشا 2- أخو الوزير الأعظم إياس باشا يوم الخميس في رابع 3- عشر جمادى الآخر سنة أحد وأربعين وتسعماية . وهنا طبعاً غلط واضح في التاريخ .

قلنا : في كلام الشيخ بعض الإسراف ، فالتربة المذكورة واضح انتماؤها التام إلى العمارة المملوكية ، وكانت تعتبر بحكم مجهولة النسبة ، وسماها سوفاجيه (تربة مجهولة) في كتابه *Les Monuments Historique de Damas* ، إلى أن تبين أنها تعود بالفعل إلى العهد المملوكي وتضم تربة الأمير ظهير الدين مختار الطواشي (توفي 716 هـ) . غير أن القبة الجنوبية منها تضم بالواقع قبر الوالي أحمد باشا ، وقول ابن طولون «ببيت اشتري له» يحتمل معنى استعمال تربة مختار لذلك . أما ما المقصود بزاوية الحفار فهو ما لم يتضح لنا ، ولعلها محرفة مثلاً عن زاوية مختار ؟

وفي يوم[1] الثلاثاء سابع [76 و] عشري جُمادى الأولى ، سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة ، وصل الخبر بإعادة الفخري عثمان بن إسرافيل إلى قضاء دمشق ، عوضاً عن المتوفى ، على يد خسروه مملوكه . ومعه كتاب للزين ابن الرُّجيحي بتولية من كان متولّياً عند موت القاضي قبله .

وقيل إنه ولي قضاء تبريز وأنه خرج فاراً منها فنُهبت كتبه .

* * * * *

وفي يوم[2] الإثنين رابع جُمادى الآخرة منها ، وصل القاضي ابن إسرافيل إلى دمشق ، وتلقّاه الأعيان .

ثم إنه حجّ في هذا العام .

* * * * *

وفي ثاني[3] عشر رجب منها ، وصل متسلّم النائب الجديد ، واسم هذا النائب محمد كُزَل[4] .

وفي تاسع عشرين [منه] دخل هذا النائب إلى دمشق ، ومعه عسكر جيّد ، وتلقّاه القاضي الكبير ونائب القلعة والأعيان .

* * * * *

---

(1) الروض العاطر ، 75 ظ – 76 و ، من ترجمة القاضي ابن الفرفور ؛ والثغر البسام ، 317 .
(2) تتمة من الروض العاطر أعلاه ؛ والثغر ، 318 ؛ ونزهة الخاطر ، 162 .
(3) إعلام الورى ، 247 .
(4) هو الذي ذكره المقار باسم محمد باشا كوزَلْجه . وفي التركية Güzelce تعني : جميّل .

وفي تاسع[1] شعبان منها ، حَرَقَ القاضي [الفخري ابن إسرافيل] شمس الدين محمد بن سيف الدّمشقي الحنفي ، نائب [قاضي القضاة]ابن الشّحنة بمصر [وقاضي القضاة] ابن يونس بدمشق - كان - ، وحسين البعلبكي البقسماطي ، تحت القلعة ، بعد أن ربط رقبتيهما ويديهما ورجليهما في خوازيق . ثم ألقى عليهما القنّب والبواري والحطب وأطلقت عليهما النار إلى أن صارا كوم رماد ، ثم أُلقي في نهر بردى لأنه ثبت عليهما عند القاضي المندرج بالوفاة[2] أنهما رافضيّان .

وسُئل الشيخ قطب الدين بن سلطان مفتي الحنفية عن قتلهما ، فقال : لا يجوز في الشرع ، بل يُستتابان[3] .

* * * * *

وفي يوم[4] الخميس تاسع عشري شوّال ، أضاف الشيخ بدر الدين الغزّي الشافعي الشيخ شمس الدين الضّيّروطي المصري المشهور بابن عروس ، ضيافة حافلة ، حضرها جماعة من أهل العلم منهم الشموس الثلاثة ابن طولون الحنفي والعجلوني الشافعي والشويكي الحنبلي .

قال ابن طولون : وكانت ضيافة هائلة .

وكان دخل إلى دمشق عائداً من رحلته إلى الرّوم ، في سنة اثنتين وأربعين ، فأكرمه علماؤها ، واجتمع به ابن طولون عند الشيخ قطب الدين ابن سلطان .

---

(1) متابعة من إعلام الورى ، 247 .
(2) يعني أحمد بن قرا اوغلى ، المتوفى في السنة الماضية 941 هـ .
(3) نقل الغزي الخبر في الكواكب ، 2 : 35 ؛ ونقله ابن العماد في الشذرات ، 8 : 249 .
(4) الكواكب ، 2 : 36 .

قال : فسلّمتُ عليه ورأيته يتذاكر معه ، فتحقّقتُ أنه من أهل العلم . قال : وأخبرني الشيخ قطب الدين أنه اشتغل بفنون لا يعرفها غيره . انتهى .

* * * * *

وفي سابع[1] ذي القعدة منها ، وصل أولاقية بعزل النائب [كُزَلْجِه محمد باشا] ، وإعطائه نيابة سيواس[2] ، وإعادة عيسى باك إلى دمشق .

وأقام الأمين صُوباشياً لضبط البلد .

* * * * *

---

(1) إعلام الورى ، 248 .

(2) سيواس Sivas ولاية تقع بأقصى الحد الشرقي للأناضول ، تبعد عن أنقرة 372 كلم .

[حوادث سنة 943 هـ]

[استهلّت هذه السنة والخليفة على ما هو عليه ، والسّلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان][1] .

[ونائبه بدمشق عيسى باشا ، المرّة الثالثة ، ولم يدخلها بعد][2] .

[والقاضي بها فخر الدين ابن إسرافيل ، المرّة الثانية][3] .

وفي يوم[4] الأحد رابع صفر ، سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ، جاء الخبر بعزل قاضي دمشق الفخري ابن إسرافيل ، وتولية مدرّس الصّحن من المدرّسين الثمانية المولى إسحاق بن إبراهيم البُرْصاوي الإصطنبولي الحنفي عوضه . وكانت توليته في ثاني عشري الحجّة من العام الماضي .

---

(1) زيادات يقتضيها السياق .

(2) ذكر ابن جمعة المقار في الباشات (ص 13) : تولى دمشق سليمان باشا الطوبال . وهذا ما ذكره رسلان بن يحيى القاري أيضاً ، ص 73 . أما عن عيسى باشا فانظر أخباره في السنين السابقة ، وبخاصة مطلع 941 هـ .

(3) ذكر ابن جمعة (المصدر المذكور) : وقاضيها إسحق أفندي ابن إبراهيم ، استقام مدة وعزل ، وتولى أبو الليث مدة يسيرة وعزل ، وتولى القضاء مرحبا جلبي . وهذا ما سيرد في عام 944 هـ الساقط من كتاب المقار .

(4) الروض العاطر ، 76 و ؛ والثغر البسام ، 318 .

ووصل الخبر بالعزل إلى القاضي المنفصل بأذرعات ، وأنكر عزله لما شرط في حال توليته . فأسرع وعاد إلى دمشق ، فاستراح وسافر إلى الرّوم ، فولي تدريساً بمدينة بُرْصا .

وفي يوم السبت عاشره ، وصل متسلّم القاضي الجديد تاج الدين الرّومي ، ونزل عند الأمير أصلان إلى أن يحصّل له منزلاً ، ومعه ثلاثة من الطّانشْمانيّة [1] : التاج الرّومي الصغير ، وأمير شاه ، والكمال بن إسحاق .

* * * * *

قال ابن طولون [2] : وفي يوم الجمعة مستهل ربيع الأول ، سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ إسماعيل الشرواني الحنفي ، توفي بمكّة في عشري ذي القعدة سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة ، عن نحو أربع وثمانين سنة .

قال ابن طولون : وانفرد بجامع التكيّة السليمية ، واجتمعتُ به ثمّة ، وأخبرني أنه أخذ الحديث من الأمير جمال الدين الخراساني المحدّث . قال : ورأيته ينتقص الإمام البغوي المفسّر للقرآن ، فنفرت النفس منه بسبب ذلك ، فإنه أحد أئمة السنّة . انتهى .

* * * * *

---

(1) الطانشمانية بصيغة الجمع محرفة عن كلمة تركية ذات أصل فارسي (دانشْمَند) ، تعني : عاقل ، ومعناها المجازي دارس العلم وصاحب المعرفة .

(2) الكواكب ، 2 : 123 .

وفي يوم[1] الإثنين ثامن عشر جُمادى الأولى منها ، وصل إلى دمشق القاضي الجديد ، ونزل في سكن القاضي المنفصل ، وقال : لا يأتيني أحد إلى ثلاثة أيام لأستريح بها ، فإني شيخ كبير سَفُور .

ثم بعدها برز للناس وحكم ، فشكر في أحكامه وعفّته .

وجاء الخبر بموت ابن إسرافيل ، فترحّم الناس عليه مقلوباً[2] .

* * * * *

وفي خامس[3] عشر جُمادى الآخرة ، سنة ثلاث [وأربعين وتسعمائة] ، وصل إلى دمشق نائبها عيسى باشا ، وتلقّاه القاضي الكبير فمن دونه .

* * * * *

---

(1) الروض العاطر ، 76 و ؛ والثغر البسام ، 318 .

(2) أي بقولهم : لا رحمه الله ، وقد تقدم مثل ذلك .

(3) إعلام الورى ، 248 . وهي آخر عبارة وردت في الكتاب بخط ابن طولون ، كما نشره أستاذنا الشيخ محمد أحمد دهمان ، رحمه الله .



[حوادث سنة 944 هـ]

[استهلّت هذه السنة والخليفة على ما هو عليه ، والسّلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان][1] .

[ونائبه بدمشق عيسى باشا ، المرّة الثالثة] .

[والقاضي بها إسحق جلبي ابن ابراهيم] .

وفي يوم[2] الإثنين ثاني المحرّم ، سنة أربع وأربعين وتسعمائة ، قدم دمشق الشيخ أحمد ابن البيطار المغربي المالكي ، كان من أصحاب الشيخ عرفة ابن الشابي القزويني . وقال : أتيتُ إلى دمشق لتهذيب جماعة سيدي علي ابن ميمون ، بإشارة شيخي .

ونزل بزاوية ابن الموصلي بميدان الحصا ، ثم انتقل إلى النّورية تجاه البيمارستان النوري ، وسلّم عليه الشيخ شهاب الدين الميلي والعلاّمة الشيخ أبو الفتح المالكي وغيرهما . وزار الشيخ محيي الدين العربي .

---

(1) زيادات يقتضيها السياق .
(2) الكواكب ، 2 : 120 .

واجتمع بالشيخ شمس الدين ابن طولون ، ثم سلّم عليه وتذاكر معه ، وذكر أنه كان عليه بُرنُس أسود ، قال : والصّلاح لائح عليه .

* * * * *

وفي يوم[1] الإثنين تاسع عشرين صفر ، سنة أربع وأربعين وتسعمائة ، توفي الشيخ الصالح المفيد عبد الواحد المغربي المالكي بالبيمارستان النُّوري ، وكان قرأ عليّ عدّة مقامات في النحو ، ثم ألفيّة ابن مالك وشرحها لولده بدر الدين ، وسمع عليّ في الحديث كثيراً ، وبرع في فقه المالكيّة ، ودرّس حسبةً بالجامع الأموي .

وكان قاطناً بالكلاّسة ، ولفقره أقرأ الأطفال آخر عمره بالأمينيّة . ودُفن بباب الصّغير وكثر التّرحم عليه[2] .

* * * * *

(1) الروض العاطر ، 237 و . وقد أورد الأيوبي هذا الخبر بمناسبة إيراده لقدح الشيخ أبي الفتح المالكي التونسي على ابن طولون ، ونقل عنه : قال الشيخ أبو الفتح المالكي ، ومن خطه نقلت : هذا كذب صرف ، ما أقرأ قط - يعني ابن طولون - في فقه ولا غيره ، لا سيّما في الفقه فإنه لم يكن له فيه يد ، وليس له ناطقة ولا لسان في شيء من العلوم ، وما تخرّج إلا عليّ ، رحمه الله وإيانا .
واتضح لنا تماماً أن ما قرأه الأيوبي من خط أبي الفتح المالكي ، إنما كان بخطه على هامش المخطوط الأصل لفاكهة الخلان . انظر حكايته في حوادث سنة 945 هـ الآتية ، وهي سبب حنقه على مؤلفنا .

(2) أورد الغزي الترجمة ، 2 : 185 ، دون أن يذكر مصدره ، وهو المفاكهة .

وفي يوم[1] الخميس مستهلّ ربيع الأول ، سنة أربع وأربعين وتسعمائة ، توفي الشيخ مُبارك عبد الله الحبشي الدمشقي ثم القابوني الشافعي .

ذكر ابن طولون في التمتع بالإقران : ذكره [شيخنا] ابن المبرد في رياضه فقال : الشيخ مُبارك ظهر في سنة سبع وتسعين ، بتقديم السين الأولى وتأخيرها في الثاني ، وثمانمائة . وصار له مريدون وأمر بالمعروف ونهي عن المُنكر ، من إراقة الخمور وغيرها ، بعد ما أبطل ذلك وقام على الأتراك[2] وقاموا عليه غير مرّة وكسر خماميرهم ، وقصدوا قتله فلم يُقدّر ذلك . واشتهر ذكره . انتهى .

وذكر ابن طولون في «مفاكهة الأخوان» أن الشيخ مُبارك قرأ في غاية الاختصار على الشيخ شيخ الإسلام تقي الدين ابن قاضي عجلون ، وبنى له زاوية بالقرب من القابون التحتاني ، وأقام هو وجماعته بها يرصدون الطريق على نَقَلة الخمر ، فيقطعون ظروفها ويريقونها .

فبلغ الحكّام ذلك ، فقبض النائب على بعض جماعة الشيخ ، وحبسهم في سجن باب البريد ، فنزل الشيخ مُبارك ليشفع فيهم ، فأمر النائب بوضعه في الحبس معهم . فبلغ الخبر إلى الشيخ تقي الدين ابن قاضي عجلون ، فأرسل وشفع فيه ، فأُطلق .

ثم هجم بقيّة جماعة الشيخ مُبارك على السّجن وكسروا بابه ، وأخرجوا من فيه من رفاقهم . فبلغ النائب ، فأرسل جماعة من مماليكه ، فقتل منهم نحو سبعين نفساً عند باب البريد والعنبرانيّة وقرب الجامع الأموي .

ثم ترك الشيخ مُبارك ذلك ، ولازم حضور الزوايا ، كزاوية الشيخ أبي بكر

---

(1) الروض العاطر ، 285 ظ - 286 ظ ؛ التمتع بالإقران ، 200 ؛ الكواكب السائرة ، 2: 245 .

(2) المراد بالأتراك هنا أرباب السلطة من المماليك ، وليس العثمانيين الذين عرفوا آنذاك باسم الأروام .

ابن داود بالسفح ، وقبر سيدي سعد بن عُبادة بالمنيحة .

وحُكي أن الشيخ مُبارك كان شديد السواد عظيم الخلقة ، له همّة عليّة وشدّة بأس وقوّة . وكان له معرفة تامة بالنّغمة والصّيد ، يسرح إلى الصّيد هو وفقراؤه ومريدوه ، ومعهم قسيّ البُندق ، وكان يصطاد الحمام والإوز والكراكي وغير ذلك . وحُكي أنه كان كسر مرّة بندقة نصفين واصطاد في كل نصف طائراً عظيماً . وكان عارفاً بالسباحة ، وكان يغوص في تيّار الماء ثم يخرج منه وبين يديه وأصابع رجليه السمك .

ورُوي أنه حجّ ومعه جماعة من أصحابه ، فلما دخل مكّة فرغت نفقتهم ، فقال الشيخ لبعض أصحابه : خُذ بيدي إلى السّوق ، واقبضْ ثمني ، واصرفه على بقيّة الجماعة . ففعل ذلك ، واشتراه بعض تجّار العجم ، ثم أعتقه .

قال ابن طولون :

والشيخ مُبارك هو الذي أحدث اللهجة في الذِّكر . قال : وحقيقتها أنهم يذكرون إلى أن يقتصروا من [اسم] الجلالة على الهمزة والهاء ، لكنهم يبدلون الهاء حاءً مهملة ، فيقول : أحْ أحْ .

وكانت وفاته يوم الخميس مستهلّ ربيع الأول ، سنة أربع وأربعين وتسعمائة ، بالقابون التحتاني ، ودُفن بتربة القابون [1] . وكانت جنازته حافلة حضرها الصالحون وبعض أعيان البلد [2] .

---

(1) كتب الأيوبي معلقاً : وزاويته باقية آثارها إلى اليوم .

(2) ذكر الأيوبي الخبر من وجه آخر ، نقلاً عن ابن الشيخ مبارك ، وكان صديقه : قلتُ : وكان الشيخ مُبارك المذكور رجلاً صالحاً من أصحاب الهمم العليّة ، ذو قوّة وبأس شديد ، وكان عظيم الخلقة أسود بصّاص . وكان له معرفة تامة بالنّغمات وعلمها ، ومعرفة الصّيد والقنص ، وكانت له يد طولى في رماية البندق والسباحة وغير ذلك . حكى لي ولده الشيخ محمد عن والده الشيخ مبارك أنه خرج للصيد مع جماعته إلى جهة البحرة بالمَرْج ، فكسر بندق تراب نصفين ، وضع النصف في جوزة القوس ورمى =

وفي ليلة[1] الإثنين خامس عشري ربيع الآخر ، سنة أربع وأربعين ، توفي القاض إسحق جلبي ، وصلّى عليه بالجامع الأموي مُلاّ داود الأويسي الحنفي ، ودُفن بباب الصغير عند حوافير ولدي جَقْمَق ، تجاه قبر القاضي ، كان قبله ، من جهة الشمال . ثم عُمل على قبره عمودان[2] .

وكانت جنازته حافلة ، حضرها النائب فمن دونه . وكثر الترحّم عليه من الصالحين ، وعُدّ من الصّالحين .

وكان يُحسن النَّظم الفارسي ، ولم يتزوّج قطّ ، وشاع بدمشق أنه يحب النساء[3] الحسان ، وعند عُقلاء أهلها أنه كان يكتفي منهم بالنظر والحديث ، ويعضُد ذلكَ أنه شيخ كبير في نحو السبعين .

وكان همّه أن يقرأ «الهداية» لتلامذته ، فلم يُقدّر ذلك . ونُسب إلى العلم ولكنه قاصر في دُرْبَة القضاء ، ولذا غلب عليه التحجّب في البيت .

وزار الشيخ أبا الرِّجال ، وسيدي جَنْدَل بمنين ، وأقام هناك نحو الشهر ، وعقب رجوعه وقع في مرض الموت . وأعتق مماليكه من مدّة ، ولم يعلم ذلك إلا إقراره في هذا الزمن ، وأوصى لكل منهم بمبلغ ، وأوصى بمئتي قبرصي أن يُحج عنه حجّة فرضاً وحجّة نَفْلاً . ورام ابن أخته أن يحج عنه من دمشق ، والنائب من اصطنبول سكنه ، فأطلعتُ لهما النقل من «البدائع» بأن يحج عنه من دمشق وطنه الثاني .

= بها طائراً فصرعه إلى الأرض ، ثم وضع النصف ورمى به فصرع طيراً آخر . وكان إذا عام في تيّار الماء يخرج وفي أصابع رجليه سمك ، وفي أصابع كفيه سمك ، وفي فمه سمكة عظيمة ، وتحت كل إبط سمكة (اهـ) . قلنا : ولا ندري إن كان النص الذي نقلناه أعلاه في المتن قد استمدّه الغزي من ابن طولون أم رجع فيه إلى الأيوبي نفسه .

(1) الروض العاطر ، 76 و – 76 ظ في ترجمة القاضي ابن الفرفور ؛ الثغر البسام ، 318 . وله ترجمة في الكواكب (2 : 121) وفيها نقل الغزي من المفاكهة أشياء مما هو وارد هنا .

(2) بالأصل : عمودين .

(3) في الثغر البسام المطبوع : الشباب الحسان .

وأوقف كتبه على تلامذته ، وهي قليلة ، ولكنه استكتب بدمشق «الفتاوى التتارخانيّة» في أربع مجلّدات ، وبسطه على الجامع الأموي .

ثم أقام النائب مقامه من يضبط اليَسَق ، وعزل من النوّاب وولّى ، لأن الشيخ تقي الدين القاري الشافعي أذن له ذلك حينئذ .

* * * * *

وفي يوم[1] السبت رابع عشر جُمادى الأولى ، توفي الشيخ الصالح المفيد شهاب الدين أحمد بن مردال الدّمشقي الحُصري الشافعي الشمّاع ، وكان يتسبّب بعمل الشّمع وكان أستاذاً في صناعته ، وولي فراشة السّليمية بالسّفح . ولازم الشيخ شمس الدين ابن طولون وغيره ، وكان له نظم وسط .

* * * * *

[قدوم الشيخ مغوش لدمشق][2] :

محمد بن عفّان التونسي المالكي الشيخ الإمام العالم العلاّمة المحقّق الشهير بمغوش المغربي[3] . مولده سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ، ثم لما فتح السلطان سليمان ابن عثمان تونس أُخذ إلى اصطنبول في جماعة ، فأكرمه السلطان وتحقّق

---

(1) الكواكب ، 2 : 115 . ولم يذكر الغزي أنه نقل الخبر عن ابن طولون ، غير أننا نعتقد بذلك جازمين .

(2) الروض العاطر ، 234 و . والنص نقله الأيوبي حتماً من مفاكهة الخلان ، بدليل قوله : رأيتُ على هامش تاريخ ابن طولون . انظر ما يأتي أدناه .

(3) توفي سنة 955 هـ تقريباً كما يقول الأيوبي ، أي بعد وفاة ابن طولون . وله ترجمة أوردها الغزي في الكواكب ، 2 : 15 ، وذكر (ص 16) قدومه دمشق .

عند علمائها فضله . ثم جاء الخبر أن تونس ملكها الفرنج ، فتشوّش لذلك فبان أهله وأولاده بها . ثم طلب الحج فأذن له ، ورُتب له على جوالي مصر في كل يوم أربعون عثمانياً .

قال ابن طولون :

ثم قدم علينا دمشق ، وقرأتْ عليه الأفاضل . وكان دخوله دمشق [يوم الثلاثاء رابع جُمادى الأولى] سنة أربع وأربعين وتسعمائة [1] ، ونزل بجامع تنكز ، ثم ذهب إليه بلديّه الشيخ أبو الفتح ابن عبد السلام المالكي ، ومعه القاضي زين الدين معروف الصهيوني الشافعي ، نقلاه إلى داخل دمشق ومعه تلميذه العلاّمة شمس الدين محمد الطبلّبي ، بتشديد اللام بعد الموحّدة المضمومة ، ووالد هذا وهو حركة الشيخ وولداه [2] .

قال ابن طولون :

ثم استقر الشيخ مغوش في بيت القاضي معروف ، واجتمع به الأفاضل ، وشهدوا له بالعلم خصوصاً في التفسير والعربية والمنطق والكلام والعروض والقراءات والمعاني والبديع ، وقالوا : لم يرد إلى دمشق من يستحضر كلام الشيخين السّعد التفتازاني والسيّد الشريف الحنفيّان ، ويقرّره وما يرد عليه مثله .

ثم قرأ عليه الشيخ علاء الدين ابن عماد الدين الشافعي في أوائل تفسير البيضاوي فأفاد وأجاد إلى الغاية ، حتى أذهل العقول .

---

(1) وكان ذلك في جمادى الأولى ، لأنه رحل في 26 جمادى الآخرة ، وذكر ابن طولون أنه استراح بدمشق نحو الأربعين يوماً . ثم وجدت تحديد ذلك لدى الغزي : يوم الثلاثاء رابع جمادى الآخرة .

(2) كتب الأيوبي معلقاً : قلتُ : رأيتُ مكتوباً بخط مفتي المالكية أبو الفتح ابن عبد السلام المالكي ، على هامش تاريخ ابن طولون عند ذكر مغوش المذكور وذكر تلميذه ، أنه الطُّبْلي باللام الساكنة المخففة بلا خلاف ، نسبة إلى طُبُلْبَة ، وهي قرية من قرى تونس . ثم قال : «والمصنّف - يشير إلى ابن طولون - يخبط خبط عشواء حتى في ضبط الأسماء فليت شعري من أخبره أن لام الطّبلبي مشددة ؟» والله أعلم .

ثم صعد إلى الصالحية وزار الشيخ محيي الدين ابن عربي ، واجتمعتُ به هناك ، ثم أنزلناه إلى الجنينة تحت شبّاكه ، وسمّاها البَخْشه[1] كما في لسان الأروام ، فجلس بها ساعة ، ثم طلب مكاناً أوسع ، فذهب به إلى الناصريّة وجلس على التخت على نهر يزيد إلى جانب الناعورة بها وهي دائرة ، وعلى النهر قدّامه [234 ظ] شجر الآس في قوّة حمله ، فأعجبه ذلك[2] . وكنتُ معه أنا والشيخ أبو الفتح المالكي والقاضي معروف ووالد تلميذه وولداه ، ثم لحقنا تلميذه . وقام بالأكل ذلك اليوم الشيخ أبو الفتح .

وكان الشيخ أول ما جاء إلى الزيارة على رأسه عمامة عظيمة وجوخة بأكمام كبار ، فشلحهما ولفّ عمامته على مجوزة على طريقة المغاربة محنكة ، ووضع فوقها عراقية جوخ أحمر كبير[3] .

قال ابن طولون :

ثم إنه ثناها ، فسألته عن هذه ، فقال : هذه لا يضعها على عمامته إلا السلطان وأخصّائه تميزاً لهم في بلادنا[4] . وبقي بجوخة قصيرة الكمّين .

ثم في ثاني يوم ، ضيّفه القاضي معروف في جنينة سيدي أحمد ابن السيوفي

---

(1) بالتركية bahçe : حديقة ، جُنينة .

(2) هي دار الحديث الناصرية البرانية التي أنشأها السلطان الأيوبي الناصر صلاح الدين الثاني عام 654 هـ . ذكرها ابن طولون في القلائد الجوهرية (ص 88-94) : بمحلة الفواخير قبلي جامع الأفرم . . وهذه الدار من أحاسن دمشق ، وهي مركبة على نهر يزيد . ويتابع بتقديم وصف حي وجميل لها . ويذكر الشيخ دهمان أنها دثرت ولم يبق من آثارها شيء إلا اسم بستان الناصرية . قلنا : وموقعها اليوم عند مبنى وزارة الخارجية تحت جامع الأفرم (الجدد) ، أما البستان واسمه فقد انقرضا . لكننا عثرنا لها على نقيشة جميلة قديمة قبل اندثارها ، تعود إلى القرن التاسع عشر (انظر الصورة بآخر الكتاب) .

(3) كتب الأيوبي معلقاً : قلتُ : قال أبو الفتح المالكي منقّباً على ابن طولون في قوله «عراقية جوخ» : حتى العَرَقيّة يلحن فيها ، فيتوهم أنها منسوبة إلى العراق ، وإنما هي منسوبة إلى العَرَق . والله أعلم .

(4) يقصد في اسطنبول عاصمة ديار السلطنة ، لإقامته بها ، وليس يقصد تونس .

المطلّة على المرجة لصيق قبر ابن الجوزي مؤلف مرآة الزمان . وقد أدركتُ مكانه عامراً بإيوان معظّم وشبّاك مطلّ على المرجة وبركة ماء وتابوت معظّم ، والآن صار الجميع كوم تراب [1] .

وكان الشيخ مغوش المذكور قاضي العسكر ببلاد تونس ، وجاء من تونس في جماعة لما ملكها قبطان البحر خير الدين [2] من قبل السلطان أبو النصر سليمان ابن عثمان . ثم إن الفرنج ملكتها منه ، فاستمرّ الشيخ مغوش في اصطنبول بعد أن اجتمع بالسلطان وأكرمه ، ثم عرف قاضيا العسكر والمدرّسون الثمانية وعلماؤها فضيلته وأكرموه .

ثم لما أنهى مفتي الزمان سعدي أفندي جلبي [3] دار القرآن التي أنشأها باصطنبول ورتّب فيها شيخاً وعشرة مقرئة ، وشرط عليهم أن يقرأ كل منهم في كل يوم ثُمن حزب ، وبقراءة الأول بقراءة نافع ، والثاني بقراءة ابن كثير ، وهكذا إلى آخر القراءات العشر .

ثم إنه لما تحقّق أن أهله وأحد أولاده ملكتهم الفرنج تنكّد وطلب الحجّ ، فأذنوا له ، ورتّبوا له أربعين عثمانياً في كل يوم على جوالي مصر . فسافر إلى حلب فأكرمه أهلها ، وتلقّاه تلميذه الشمس الطّبلبي إليها ، ثم أخذه إلى طرابلس ، وكان له مدّة مقيماً بها ، وانتفع به أهلها في النحو وغيره .

---

(1) الموقع المذكور كان يقع ضمن تربة الصوفية المشهورة ، وقوله المطلة على المرجة يعني المرج الأخضر (أو مرجة الحشيش) ، الذي قام عليه المتحف الوطني ومعرض دمشق الوطني . ومكان الموقع أقيم مستشفى الغربا بأواخر العهد العثماني ، وقبالته اليوم المديرية العامة للآثار والمتاحف ، على الجانب الآخر من نهر القنوات .

(2) يقصد قبطان البحر التركي الشهير خير الدين بربروس Barbarossa (تعني في الإيطالية : ذا الذقن الحمراء) أخا القبطان عرّوج Oruç ، مؤسسي دولة الجزائر في القرن السادس عشر . كانت لمعاركه البحرية مع القبطان الجنوي الشهير آندريا دوريا Andrea Doria جولات ووقائع مشتهرة في القرن المذكور في البحر المتوسط وسواحل شمال أفريقيا . ودوريا المذكور هو الذي احتل تونس عام 942 هـ/ 1535 م لصالح شارلكان .

(3) چلبي بالتركية çelebi تعني : الولي الفاضل .

ثم رحل هو والشيخ إلى دمشق [235 و] عازمين إلى مصر ثم الحجاز . ولمّا اجتمعتُ بهما في الناصرية افتتح المجلس بالأدبيات ، ثم وقع في أثنائه مسألة فلسفية حديثية ، فظهر منه معرفة تحقيق الفنّين ، ثم مسألة حكمية ، فظهر منه تحقيق معرفة الحكمة ، ثم مسألة نحويّة ، فظهر من تلميذه تحقيق معرفة النحو .

ثم اجتمع به الولد بدر الدين حسن ابن المزلّق ، وسأله عن استشكالات ثلاثة ، فأجاب عنها بألطف عبارة . ثم الولد شهاب الدين أحمد ابن الطيبي ، وقرأ عليه القاضي معروف . وسأله ابن الطيبي المذكور في القراءة عليه من طريق النشر لابن الجزري ، فسمح . وما أعرف هل قرأ عليه أم لا ، وأخبر أن بينه وبين مؤلّفه اثنان [1] .

وقرأ عليه القاضي معروف رسالة الوجود للسيّد الشريف ، ثم شرع في شرح آداب البحث للمسعودي .

واستراح نحو الأربعين يوماً ، ثم سافر هو وتلميذه إلى مصر . وأرّخ رحيله الولد شهاب الدين الطيبي في مؤلَّف سمّاه «الدرّ المرشوش» [2] في الرمز إلى تاريخ اليوم الذي رحل فيه من دمشق الشيخ مغوش . وسبب هذا التأليف أن الولد زين الدين عمر بن عيت (؟) عرض علي الشاطبيّة وأراني عروضه لها على المصريين ، فرأيتُ في بعضها تاريخاً غريباً ، فقلتُ لا بأس أن ينسج على منواله ، فعمل الولد شهاب الدين الطيبي المذكور ذلك .

وملخّص ذلك : في اليوم السادس والعشرين جمادى الآخرة سنة أربع

---

(1) كتب الأيوبي معلقاً : قال الشيخ أبو الفتح المالكي : قرأ عليه بحضوري وأجازه إجازة حافلة ، ولم يتيسّر له الكتابة عليها إلا بعد التبريز من دمشق إلى داريّا ، وأنا هيّأت له الإجازة معي . وقول ابن طولون «من طريق النشر» خبطاً ، وإنما كان يقرىء من طريق الشاطبية ، وكان يقول : النشر ليس لي به رواية . فالمؤلف - يعني ابن طولون - لا يحقّق شيئاً . اهـ .

(2) ذكر الغزي ذلك في الكواكب السائرة ، 2 : 17 ضمن ترجمته للشيخ مغوش ، غير أنه سمّى المؤلّف بـ : «السكّر المرشوش في تاريخ سفر الشيخ مغوش» .

وأربعين وتسعمائة ، وهو يوم الإثنين ، سافر العلاّمة قاضي العسكر بتونس محمد الملقّب بمغوش ، بعد أن درّس بالجامع الأموي ، وكُتب عنه إجازات لجماعة ، وودّعه الطلبة إلى داريّا . وألّف ابن الطيبي مؤلَّفاً في تاريخ سفره بالكسور العددية ، كنتُ السبب فيه[1] .

* * * * *

وفي يوم[2] السبت تاسع عشر رجب منها ، وصل متسلّم القاضي الجديد ، وهو قاضي حلب أبو اللّيث الرّومي الحنفي ، خُوجَا الوزير الأعظم إياس باشا . واسم هذا المتسلّم المحيوي محمد بن الحسين الرّومي ، ومعه أخوان .

* * * * *

وفي يوم الخميس تاسع شعبان منها ، وصل هذا القاضي الجديد إلى دمشق ودخل من باب السّلامة بعد أن تلقّته الأعيان ، ونزل ببيت القاضوي البدري ابن الفرفور شرقي البادرائيّة ، وأكل ضيافته ، وقيل إنه لم يعجبه . وكان تفادى من النزول في بيت القاضيين قبله[3] ، المندرجين بالوفاة إلى رحمة الله تعالى .

* * * * *

(1) كتب الأيوبي : ولولا خوف الإطالة لذكرته . وتوفي تقريباً في حدود خمس وخمسين وتسعمائة . ثم عاد فكتب بالهامش مستدركاً : والصحيح أنه توفي بمصر سنة سبع وأربعين وتسعمائة ، ودُفن بتربة الإمام الشافعي . وهذا يوافق ما ذكره ابن طولون في حوادث عام 947 هـ .

(2) عودة إلى الروض العاطر ، 76 و ؛ وكذلك الثغر البسام ، 319 .

(3) واضح أن ما حمله على ذلك إنما كان التطيّر ومخافة سوء الطالع .

وفي ليلة[1] الأربعاء ثالث عشري رمضان منها ، مات هذا القاضي الجديد أبو اللّيث ، وصلّى عليه بالجامع الأموي الشيخ [76 ظ] تقي الدين القاري . وحضر نائب البلد ، ونائب قلعتها ، فمن دونهما من المتعمّمة .

ودُفن بباب الصغير قبلي القاضيين المذكورين ، وجُعل على قبره عمودان كهُما . وكان . . .[2] ، سيرته غير حسنة .

* * * * *

وفي عشري[3] ذي القعدة منها ، ورد مرسوم بتولية قضاء دمشق لأحد المدرّسين الثمانية باصطنبول مصطفى أفندي المدعو مَرْحَبا الرّومي الحنفي . وقيل لا بأس به ، فضبط اليَسَق له .

ثم بعد تسعة أيام وصل متسلّمه خُسْرُشاه[4] ومعه اثنان .

* * * * *

---

(1) الروض العاطر ، 76 و ؛ والثغر ، 320 . ويبدو أن تطيّره لم ينفعه ، فالحذر لا ينجي من القدر .

(2) فراغ في أصل الثغر البسام بمقدار كلمة واحدة .

(3) الروض العاطر ، 76 ظ ؛ والثغر ، 320 .

(4) كذا في الثغر ، أما في الروض : خضر شاه .

[حوادث سنة 945 هـ]

قال ابن طولون [1] :

وفي سنة خمس وأربعين وتسعمائة ، استهلّت وسلطان مصر والشام وما مع ذلك أبو النصر سليمان ابن سليم ابن عثمان ، وهو الآن مقيم باصطنبول .

ونائبه بدمشق عيسى باك ، وهو الآن مقيم بها [2] .

والقاضي الكبير بها مصطفى أفندي المدعو مَرْحَبا الإصطنبولي ، أحد المدرّسين الثمانية بها كان ، ونائبه من الشافعية البرهان ابن الأخنائي ، وهو الآن ضعيف [3] وقد أشرف على العافية ، ومن المالكية الزيني بركات الغزّي ، وليس بها من الحنابلة أحد . وبالصالحية عبد القادر محيي الدين ابن مفلح الحنبلي ، وبمحلّة ميدان الحَصا الكمال ابن الخَيْضري الشافعي ، وبمحكمة قناة العَوْني الزّين ابن المنزّه البَعلي الحنبلي ، وبالمؤيّديّة تقي الدين ابن الفرفور .

---

(1) الروض العاطر ، 86 ظ - 89 و ، عقب ترجمة الشيخ تقي الدين القاري الشافعي ، وهي منقولة من المفاكهة ، أثبتناها في محلها أدناه .

(2) ذكر المقار في الباشات : وفي سنة خمس وأربعين وتسعمائة تولى دمشق أحمد باشا ، برادر صدر أعظم ، وقاضيها محمد بيك أفندي . وهذا غلط ، فأحمد باشا شقيق (برادر بالفارسية) الوزير الأعظم إياس باشا تولى دمشق في رجب 941 هـ ثم توفي بها في العام القابل 942 هـ . وأما القاضي محمد بيك فهو مرحبا الرومي نفسه كما سيرد .

(3) تعبير دمشقي عامي يقصد به أنه مريض ، وليس ضعيفاً بالمعنى المعروف .

وفي يوم الجمعة ثالث عشرين المحرّم ، شرع الشيخ محمد الإيجي الشافعي في عمارة الزاوية التي تحت كهف جبريل بسفح قاسيون ، بمرسوم أتى به من الرّوم . ثم إن الدّفتردار حصّل كتاب وقفها ، ورام تخليص ما فيها من الجهات لكونها خرجت بمبيع حُكمي . فامتنع الشيخ محمد [87 و] من ذلك وقال : لا أريد ذلك . ثم دفع له خمسين ديناراً لأجل العمارة فامتنع من قبولها ، وصار يأخذ من التجّار سرّاً ويعمّر . وشرع في توسيعها من جهة الشرق .

وفي يوم[1] السبت رابع عشريه ، وصل القاضي الجديد إلى دمشق المدعو مَرْحَبا ، وتحرّر أن اسمه محمد بن بيري محمد الرّومي الحنفي ، من طريق قارا ، وتلقّاه نائب القلعة والأعيان ، ونزل في بيت ابن المُزَلِّق أسفل الطواقيين .

وفي يوم الأحد خامس عشريه ، ولي القاضي زين الدين ابن الرُّجيحي الحنبلي في المحكمة الكبرى .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشريه ، ولي الشهاب الميلي المالكي فيها ، وولي الكمال البقاعي الشافعي في باب الأفندي ، وعُزل القاضي تقي الدين ابن الفرفور الحنفي من محكمة المؤيّديّة .

* * * * *

وفي يوم السبت ثاني صفر من السنة ، وقع من سطح الجامع الأموي إلى صحنه من جهة باب البريد شخص من الفَعَلة ، فمات .

وفي يوم الخميس رابع عشر صفر من السنة ، وصل إلى دمشق محمل الحاج ، وتلقّاه النائب والقاضي الكبير ، ودخل معهما الأمير قاسم بك .

(1) المتابعة من الروض العاطر أعلاه ، وكذلك 76 و ؛ مع إضافات من الثغر البسام ، 320 .

ووصل معه الشيخ قطب الدين محمد الصفّوري الشافعي ، وصحبته كتابٌ لي من محدّث مكّة المحبّ جار الله ابن فهد ، وفيه :

إني أرسلتُ لكم معه الذيول الثلاثة على طبقات الحفّاظ للشمس الذهبي ، لتلميذه السيّد أبي المحاسن محمد بن علي الحسيني ، ولشيخ السنّة التقي أبي الفضل محمد بن محمد بن فهد جدّ والدي ، وهو ذيل على الذيل المذكور قبله ، ولشيخنا جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، وهو ذيل على الأصل . وكنتُ ذيّلتُ على جدّي في عام تاريخه في المسوّدة ، كتبتُ لك كُرّاساً من أولها ، وأرجو الله تمام الباقي . وخاطري عندكم في توعّككم هذه السنة ، فأسأل الله دوام العافية لكم لإحياء السنّة الشريفة ، فإنكم بقيّة البقايا من المحدّثين ، وكنا نعدّهم قليلاً وقد صاروا أقل من القليل .

وكتب[1] الشيخ جار الله ابن فهد المكّي إلى الشيخ شمس الدين ابن طولون أن محدّث اليمن ، الشيخ عبد الرّحمن بن علي الشيباني الزَّبيدي الشافعي المعروف بابن الدَّيْبَع[2] ، توفي في سابع عشري رجب الحرام سنة أربع وأربعين وتسعمائة [الماضية] ، وصُلّي عليه بمسجد الأشاعرة ، ودُفن بتربة باب سهام عند قبّة الشيخ إسماعيل الجبرتي . وخلّف ولده علي يقرأ الحديث عوضه في جامع زُبيد الكبير .

وفي هذا اليوم ، ولي الولد الشيخ علاء الدين علي بن عماد الدين الدمشقي الشافعي ، وفضيلته لا تُنكر ، القضاء بمحلّة ميدان الحَصا ، عوضاً عن الكمال ابن الخَيْضري[3] .

* * * * *

(1) تتمة للخبر من الكواكب السائرة ، 2 : 159 .

(2) انظر ما تقدم عنه أيضاً في رسالة سابقة من عام 939 هـ .

(3) نقل الغزي الخبر في الكواكب (3 : 184) في ترجمة علاء الدين قائلاً : كما نقلته من تاريخ شيخه ابن طولون .

وفي ليلة[1] الأربعاء حادي عشر ربيع الأول ، سنة خمس وأربعين وتسعمائة ، توفي [العلاّمة تقي الدين القاري] ، وهو أبو بكر بن محمد بن يوسف القاري الدمشقي الشافعي ، الشيخ الإمام الأوحد العلاّمة شيخ الإسلام تقي الدين . أخذ عن البرهان بن أبي شريف والشيخ إبراهيم الناجي ، وتلا القرآن بالسبع على الشهاب الرملي ، والفقه على الشيخ تقي الدين ابن قاضي عجلون ، ثم السيد كمال الدين بن حمزة . وميلاده تقريباً كما ذكر سنة ست وسبعين وثمانمائة .

وفوّض إليه قاضي القضاة نجم الدين محمد بن شيخ الإسلام الشيخ تقي الدين ابن قاضي عجلون نيابتي الإمامة بالجامع الأموي والحكم بدمشق سنة أربع عشرة وتسعمائة . [86 ظ] واستمرّ ينوب في القضاء إلى أن عُزل مولّيه القاضي نجم الدين ابن القاضي تقي الدين ابن قاضي عجلون . وفي أيام الدولة السليمية ولي الشيخ تقي الدين القاري نظر الحرمين الشريفين .

وكان أزين أشياخه العلاّمة البصروي والمحبّي أبو الفضل ابن الإمام وابن الصيرفي ، وبالقاهرة شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري . ورأس بدمشق إلى أن صار شيخ الإسلام بها .

وصلّى عليه بالجامع الأموي خطيبه جلال الدين البصروي ، وحضر الصلاة عليه قاضي دمشق فمن دونه . ودُفن بمقبرة باب الصغير ، وكانت جنازته حافلة جداً . وتقرّر موضعه في تدريس الشاميّة البرّانية شيخ الإسلام بدر الدين ابن رضي الدين الغزّي ، وتسلّم المشهد المنسوب إليه ، وأُعطيت إمامته بالجامع للشيخ شهاب الدين الطيبي[2] .

---

(1) الروض العاطر ، 86 و .

(2) كتب الأيوبي معلقاً : وكان جدّي القاضي شهاب الدين أحمد بن أيوب ، المقدّم ذكره في الأحمدين ، أحد نواب القاضي نجم الدين المذكور ، كان هو والقاضي تقي الدين القاري من أخصّاء وأعيان القاضي نجم الدين ابن قاضي عجلون .

وفي يوم[1] الإثنين مستهلّ ربيع الآخر منها ، بلغني أن ناظر مدرسة الشيخ أبي عمر ، قدّس الله سرّه ، أخرج سجلاً يشهد بأن من شروط واقفها أن يكون الناظر والمدرّس والإمام وسكّانها حنابلة ، مع أنه حجّة عليه ، فإنه حنفي رومي من الأروام . وقصد أن يخرج الطّانشْمانية[2] المقيمين بها ، لحصول الفسق من غالبهم والشرّ ، وأن يخرج الشيخ محمد التبريزي العجمي من التدريس بها ، وكان أخذه عن القاضي برهان الدين إبراهيم بن مفلح الحنبلي بعد أن عيّنه للشيخ موسى الحجّاوي الحنبلي ، ثم عرضه على القاضي الكبير ، فلم يلتفت إليه ، وقال : إئت بأصله .

وكان قد رتّب الشيخ أبو الفتح المالكي التونسي المفتي في طلبة الحنابلة ليشتكوا على الشيخ محمد التبريزي العجمي المذكور ، لمنافسة كانت بينهما ، وأعطاهم سجلاً شاهداً برفضه ثابت على صاحبه القاضي بركات المالكي . فوقفوا للقاضي الكبير[3] ، فعيّن الدعوى عند نائبه مصلح الدين ، فادّعوا عنده أن شرط هذا التدريس أن يكون لحنبلي ، فإن بها مدرّساً شافعياً وحنفياً غيره ، فقال : أثبتوا أن شرط واقفها أن يكون حنبلياً ، فعجزوا . ثم أخرجوا السجل الشاهد برفضه ، فأخرج هو محضراً فيه خطوط أعيان دمشق بأنه من أهل السنّة والجماعة ، فاعتبر القاضي خطوطهم ولم يلتفت إلى السجلّ ، ورجّحه عليهم وأنصفه[4] .

---

(1) متابعة من الروض العاطر ، 87 ظ .

(2) الطانشمانية بصيغة الجمع محرفة عن كلمة تركية ذات أصل فارسي (دانشْمَند) ، تعني : عاقل ، ومعناها المجازي دارس العلم وصاحب المعرفة . سبق ذكرها بمطلع 943 هـ .

(3) محمد بن بيري الرومي المدعو مرحبا .

(4) كتب الأيوبي معلقاً : قلتُ : رأيتُ على هامش هذا الكتاب الذي فيه هذه القصّة مكتوب بخط الشيخ أبي الفتح المالكي : «فشر مخرّج هذا الكلام ، العجب من هذا الرجل كيف ينقل الكذب الذي لا أصل له . . فإن كان بقيّة ما نقله في هذا الجلد المهمل مثل هذه الحكاية فكله كذب باطل ! فإن هذا الكلام الذي قاله في هذا المحل لم يقع منه شيء أصلاً» . والله أعلم . قلنا : يقدم لنا الأيوبي هنا فائدة كبيرة بذكره لهذه الحاشية =

قال [ابن طولون] :

وفي يوم الأربعاء مستهل جمادى الأولى منها ، ختم الفاضل تقي الدين أبو بكر ابن أبي اللطف المقدسي ، قدم علينا دمشق ، كتاب «جمع الجوامع» في أصول الفقه لشيخ الإسلام تاج الدين السبكي ، بالشاميّة البرّانية على مدرّسها العلاّمة بدر الدين ابن القاضي رضي الدين الغزّي الشافعي ، بعرض من قاضي دمشق . وحضرتُ أنا[1] والشيخ أبو الفتح المالكي وأعيان الطلبة . ثم أنشد الريّس محمد الجعيدي وجوقه ما يناسب المقام ، ثم مدّ سماطاً حافلاً من لحم على عجين مورّق ، ما بين ساذج وحامض وحلو بسكّر ، وصحبته شيء من الفاكهة .

وفي يوم الأحد تاسع رجب من السنة ، وصل إلى دمشق من اصطنبول القاضي كمال الدين محمد ابن المرحوم العلاّمة شهاب الدين أحمد الحمراوي الشافعي[2] ، وقد أُعطي نظر النظّار عوضاً عن نصر الله ، بثلاثين [88 و] عثمانياً ، وكان تولاّها ابن المعمار من الدفتردار حسبة .

= التي كتبها أبو الفتح المالكي بهامش القسم الثاني الضائع من مفاكهة الخلان . وهذا ما يفسّر تحامله الشديد على الرجل حتى بعد موته ، وكلامه المشحون حقداً عليه فيما ذكره الأيوبي عند ترجمته ابن طولون . هذا رغم أن الرجلين ، ابن طولون وأبا الفتح المالكي نفسيهما ، كانا صاحبين ، ومراراً ما أثنى ابن طولون على المالكي في مؤلفاته .

(1) من النادر أن يثبت الأيوبي نص ابن طولون بذكر نفسه على هذا الشكل «حضرتُ أنا» بذكر تاء الفاعل وضمير المتكلم صراحة . وكان عوّدنا في هذه الصحائف بذكر اسم ابن طولون في نصّه وكأنما الكاتب كان سواه . فالآن تعود روح المؤلف إلى نصه بحرارة تزيده صدقاً ومباشرة .

(2) هو القاضي كمال الدين محمد بن أحمد بن يوسف الصفدي الشهير بالحمراوي الحنفي (رغم أن المذكور أعلاه الشافعي) ، توفي 976 هـ . ترجم له الأيوبي في الروض العاطر (255 ظ) وذكر : وأنشأ الدار التي بباب الخضراء ، وأتقن عمارتها وبالغ في إتقانها . ثم إنه لما توفي خلّف ولداً ذكر وبنت ، فماتا وسُدّ باب الدار وتغيّرت معالمها .
قلنا : يقدم لنا الأيوبي بذلك الحل النهائي لهوية زقاق الحمراوي الممتد على الجهة الشمالية من قصر العظم ، حيث بقيت التسمية مجهولة النسبة لفترة طويلة ، رغم الضجة التي قامت حول مشروع تنظيمه عام 1984 . أما دار الحمراوي المذكورة فهي المعروفة في أيامنا بدار الأسطواني ، من دور دمشق البديعة في الزقاق ذاته .

وفي يوم الجمعة سلخه رأيتُ هلالي القبّتين وسط صحن الجامع قد فُرغ من ترصيصهما وركّب هلالاهما ولونهما أبيض . وبلغني أن القاضي معروف عمل تاريخ هذا الترصيص وقدّمه لمن كان الأمر على يده ، وهو الدفتردار الكبير على هذه البلاد ، فقال وكتبه لي بخطّه :

سموتَ أوجه[1] المطلع البارع	فقلت منه أسعد الطالع
وجيتَ ديوان العلا كاملاً	فكنتَ دفتاره النافع
يا مالكاً قال لسان النهى	عنه حديثاً أعجب السامع
حسبي من الفخر إذا أنصفوا	وأرّخوا ترصيص الجامع
مولاي دامت بالهنا والمنى	أوقاتكم أنوارها ساطع

وقال مثله أيضاً[2] :

دفتارنا في عصرنا	سرّ الكمال خصّصه
أرّختُ بيتاً مفرداً	له بخير أخلصه
الجامع الأموي البهي	سعد أفندي رصّصه

---

(1) كذا تبيّنا الكلمة من خط الأيوبي ، ويبدو أنه أشكل عليه خط ابن طولون الدقيق ، فرسمها هكذا : أوجه ح ، ولا ندري إن كنا أصبنا في تبيانها أم لا . وعلى أي حال فهذه الأبيات أقل مستوى من أن يبذل فيها الباحث جهداً أكبر .

(2) كتب الأيوبي معلقاً : قلتُ : قد تفحّصتُ وأمعنتُ النظر في هذه الأبيات حتى أستخرج منها موضع التاريخ فما قدرتُ عليه ، وإن الذي اصطلحوا عليه أرباب هذا الفن ، أعني فن التاريخ ، أن يكون الحساب بعد لفظة «أرّختُ» أو «تاريخه» ، فيبدأ من بعد هذه اللفظة . وإني لأستحي إذ رأيت مثل هذه التواريخ التي يوردها ابن طولون عن مثل هذه الجماعة الأفاضل ، ولو تركوا التاريخ كان أنسب وأشرف في حقهم . ومن أعظم الأمور وأبشعها قول الشيخ تقي الدين القاري لما عُمل خشب باب البريد ووضعوا عليه الصفائح النحاس في سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة : «عام جلظ في جماد الأول» . ثم يتابع الأيوبي بذكر أمثلة في التاريخ الشعري للشاعر المُجيد ماماي الرومي .

قال [ابن طولون] :

وفي يوم الخميس سادسه ، سافر القاضي معروف إلى محل ولايته ، وهي بلد حارم ، وكان قدم دمشق من أول شعبان لزيارة أولاده وأهله .

وفي يوم[1] الجمعة عاشر جُمادى الأولى منها ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ العلاّمة شمس الدين محمد المصري الشافعي الفرضي الحَيْسوب . وكان الذي صلّى عليه الشيخ زين الدين عمر ابن أبي اللّطف الشافعي ، وكان قد خطب يومئذ بالجامع المذكور .

قال ابن طولون : قال لي الشيخ محمد الفلّوجي مدرّس الشامية الجوّانية ، إنه أعلم أهل مصر بالحساب والفرائض .

وفي يوم[2] الجمعة رابع عشره ، صلّي غائبة بالجامع الأموي على العلاّمة مفتي اصطنبول سعدي ، واسمه أحمد ، توفي بعلّة النقرس . وهو باني دار الحديث بها . وكانت وفاته عند صلاة الجمعة ثاني عيد الفطر منها . وأقيم مفتياً عوضه قاضي اصطنبول ابن قطب الدين الرومي الحنفي .

وفي يوم الأربعاء سادس عشريه ، وصلت أولاقية بعزل قاضي دمشق الكبير[3] ، وتوليتها للقاضي محمد باك ، أحد المدرّسين بمدينة أدرنه . فلزم القاضي شهاب الدين الميلي المالكي والقاضي زين الدين ابن الرجيحي الحنبلي بيتهما ، وتبعهما القاضي برهان الدين الأخنائي الشافعي . وأما القاضي كمال الدين البقاعي والقاضي علاء الدين بن عماد الدين والقاضي بدر الدين بن جمعة الشافعيون والقاضي زين الدين ابن البزة[4] الحنبلي فإنهم استمروا يحكمون في

---

(1) الكواكب ، 2: 72 .
(2) عودة إلى الروض العاطر ، 88 ظ .
(3) أي محمد بن بيري الرومي ، المدعو مرحبا .
(4) ورد ذكره في القسم الأول من المفاكهة ، 1: 3، 356 .

محاكمهم بالتحكيم. وكذلك نوّاب الحنفية استمروا يحكمون في سائر المحاكم على قول الإمام محمد بعدم عزلهم فيما إذا انعزل مستخلفهم ، خلافاً لزُفَر .

ثم تبيّن أن القاضي الكبير المنفصل أُعطي قضاء بُرْصة ، فعيّن نائبه ببابه مصلح الدين ومعه جماعة ، فتأهّبوا وسافروا بعد جمعة لتسلّمها ، ثم أخذ في أهبة السفر هو وبقية جماعته ، ولم يبق نائب حنفي يحكم بدمشق إلا القاضي زين الدين ابن منلا شمس خطيب السليمية بالصالحية . فأفتى الشيخ عبد الصمد الحنفي النائب بأن له أن يولّي قاضياً ، فولّى بالمحكمة الكبرى القاضي سليمان القسّام الرومي الحنفي ، وبمحكمة ميدان الحصا الشمس ابن يونس الرومي الحنفي ، قاضي الصالحية كان ، عوضاً عن القاضي علاء الدين بن عماد الدين ، فإنه أخذ في أهبة السفر مع القاضي [89 و] المنفصل .

واعتمد هذا المفتي ، أعني عبد الصمد الحنفي ، في إفتائه على عبارة فصول العمادي ، في أن الأمير إذا كان له التصرّف في الجيش واحتيج إلى قاض فله أن يولّي قاضياً .

ولم يسلّم له الشيخ قطب الدين بن سلطان الحنفي ذلك ، مستنداً إلى ما في الخلاصة من أن نائب البلد ليس له أن يولّي قاضياً ، وعلى كلامه اعتمد من يعوّل عليه ، والله سبحانه أعلم .

* * * * *

وفي يوم[1] الإثنين ثالث القعدة ، سنة خمس وأربعين وتسعمائة ، توفي الشيخ الصالح شمس الدين محمد بن حسّان الدمشقي الشافعي . قال ابن طولون : وكان غالباً عليه التنزّه . وصُلّي عليه بمسجد الأقصاب ، ودُفن بمقبرة

---

(1) الكواكب ، 2 : 30 .

باب الفراديس ، رحمه الله تعالى .

وفي يوم[1] الجمعة رابع عشر ذي القعدة ، سنة خمس وأربعين وتسعمائة ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على المولى سعدي جلبي أحد صدور الرّوم ومواليها .

قال ابن طولون : واسمه أحمد[2] ، وتوفي بعلّة النّقرس . قال : وكانت وفاته عند صلاة الجمعة ثاني عيد الفطر من السنة المذكورة . قال : وأقيم مفتياً عوضه قاضي قضاة العسكر الأناضولي جوي زاده ، وولي قاضي قضاة العسكر الإصطنبولي ابن قطب الدين الرّومي الحنفي .

وفي يوم[3] الأربعاء سادس عشري ذي القعدة منها ، وصل إلى دمشق أولاقيّة بعزل القاضي [محمد ابن بيري الرّومي] ، وتوليتها للقاضي محمد باك الرّومي الحنفي ، وهو أحد المدرّسين بمدينة أدرِنْة ، وتولية القاضي المنفصل قضاء بورصة . فأرسل متسلّميه إليها .

* * * * *

وفي يوم[3] الخميس ثالث عشري ذي الحجّة منها ، وصل متسلّم القاضي الجديد لطف الله الرّومي الحنفي .

وفي يوم السبت تلوه ، سافر القاضي المنفصل إلى محل ولايته . وكان لا بأس به .

* * * * *

---

(1) الكواكب ، 2 : 237 .
(2) علّق الغزي في الكواكب : قال ابن طولون : اسمه أحمد ، والصواب أنه عيسى كما تقدم لأنه هو الثابت في الشقائق النعمانية ، ومؤلفها أخبر بأحوال أهل الروم من غيره .
(3) الروض العاطر ، 76 ظ ؛ الثغر البسام ، 320 . ولدى الأيوبي : ثالث عشر .

وفي سنة[1] خمس وأربعين تولى دمشق أحمد باشا ، برادر صدر أعظم . وقاضيها محمد بيك أفندي .

* * * * *

---

(1) الباشات والقضاة ، ص 13 . وقوله برادر صدر أعظم يعني شقيق الصدر الأعظم ، وبرادر كلمة فارسية تعني الأخ ، مثلها كمثل brother الإنكليزية و bruder الألمانية . وجاء في مخطوط «ذكر من تولى دمشق من البكلربكية العظام» (ورقة 2 و) : أحمد باشا أخو مصطفى باشا صاحب تكية القنيطرة . والمقصود به الصدر الأعظم لالا مصطفى باشا ، الشهير بفاتح قبرص ، ترجم له المقار في الباشات (ص 15) : في سنة 971 هـ تولى دمشق الوزير الأعظم والمشير الأفخم صاحب الرأي والتدبير لالا مصطفى باشا ، صاحب الخيرات والحسنات . عمّر تكايا وأماكن ، وعمّر الخان المعروف بخان لالا مصطفى باشا تحت قلعة دمشق ، والحمام الذي بسوق السروجية اللذين ليس لهما نظير . قلنا : وهو جد عائلة مردم بك بدمشق ، وله كتاب وقف مشهور طبع بدمشق 1925 .

[حوادث سنة 946 هـ]

[استهلّت هذه السنة والخليفة على ما هو عليه ، وهو أمير المؤمنين المتوكّل على الله أبو عبد الله العبّاسي ، والسّلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان](1) .

[ونائبه بدمشق أحمد باشا الوزير](2) .

[والقاضي بها محمد باك أفندي الرّومي] .

وفي سنة(3) خمس وأربعين وتسعماية تولى خسرو باشا برادر صاحب التكية . وفيها عُزل خسرو باشا ، وتولّى مكانه عيسى باشا ، واستقام عيسى باشا ومحمد بيك القاضي(4) إلى ختام سنة تسع وأربعين وتسعمائة .

---

(1) زيادات يقتضيها السياق .

(2) هذا بحسب المذكور حول السنة الماضية ، في الباشات والقضاة ، ص 13 ؛ والوزراء الذين حكموا دمشق للقاري ، ص 73 . والمشكلة أن المقار في الباشات لا يحدد الولاة والقضاة بحسب مطالع السنين ، بل يذكر من كان منهم في قلب السنة . على أننا هنا افترضنا كون أحمد باشا استمر منذ السنة الفائتة ، وبعده تولى فيها خسرو باشا ، ثم فيها أيضاً تولى عيسى باشا ، كما سيرد أدناه في حوادث 11 صفر بدليل ذكره لعبارة : نائب الغيبة علي ابن النائب عيسى باك .

(3) الباشات والقضاة ، ص 13 .

(4) أضاف الأيوبي في نزهة الخاطر (2: 165) نقلاً عن الفاكهة : وكان من عتقاء السلطان فلهذا قيل له بك ، وكان يكتب اسمه : محمد القاضي بدمشق .

[وفي شهر محرّم توفيت][1] خديجة بنت نصر الله الصّالحية الدمشقية .

قال ابن طولون : كانت حنبلية ، وكان للناس فيها اعتقاد ، خصوصاً الأروام حتى الوزير الأعظم إياس باشا ، وقد أرسل من الرّوم دراهم لتعمير سكنها ، وهو وقف الزاوية الداودية .

وكانت إذا سألها أحد عن أمر تقول : حتى أبيتُ كذا الليلة ، ثم تصبح فتشير عليه بفعل كذا وتركه ، وغالبه يصحّ . لكن كان ابن عمّها الشيخ زين الدين عمر ابن نصر الله يُنكر عليها ذلك ، ويقول لها : هذا من فعل الكهنة ، ولا أرى لكِ ذلك .

وحجّت سنة خمس وأربعين ، فوقفت بيتاً كانت ورثته من أبيها على جامع الحنابلة ، وأعتقت جاريتها . وماتت في رجوع الحجّاج في هدية حادي عشر المحرّم سنة ست وأربعين وتسعمائة ، وكانت أُقعدت قبل موتها ، وكان يُطاف بها في شقدوف ، رحمها الله تعالى .

* * * * *

وفي يوم[2] السبت حادي عشر صفر ، سنة ستّ وأربعين ، وصل القاضي الجديد [محمد بالك الرّومي] ، وتلقّاه نائب الغيبة علي ابن النائب عيسى بالك والأعيان . ونزل في بيت القاضي قبله ، أسفل الطواقيين ، وكان انتقل إليه متسلّمه المذكور [لطف الله الرّومي] .

* * * * *

---

(1) الكواكب ، 2 : 141 .

(2) الثغر البسام ، 321 ؛ والروض العاطر ، 76 ظ ضمن ترجمة القاضي ابن الفرفور .

وفي يوم[1] الجمعة سابع ربيع الآخر، سنة ست وأربعين وتسعمائة، حصل لخطيب الجامع الأموي الشيخ جلال الدين البصروي الشافعي دَوْخة وهو على المنبر، ولولا أن المرقّي حضنه لسقط إلى أسفله، ولم يكمل الخُطبة الثانية. فصلّى الجمعة إمام الجامع صاحبنا تاج الدين عبد الوهاب ابن الإسكاف الحنفي.

وأعاد الشافعية الصّلاة، ولم تُعدها الحنفيّة، لتصريح مفتيهم ابن سلطان وقاضيهم الكبير بصحّتها. وعندي تتعيّن الإعادة، لأن هذه الصّلاة وقعت بغير إذن من الإمام ولا نائبه، مع حضوره، والله سبحانه أعلم.

وفي يوم[2] الجمعة رابع عشر ربيع الآخر، سنة ست وأربعين وتسعمائة، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ الصالح نعمة الصّلتي. توفي بالصَّلت في السنة المذكورة.

قال ابن طولون: وكثر الثناء عليه.

وفي يوم[3] الجمعة سلخ ربيع الثاني، سنة ست وأربعين وتسعمائة، توفي الشيخ شرف الدين موسى البيت لبدي الصالحي الحنبلي، مؤدّب الأطفال بالشاذبكيّة بمحلّة القنوات خارج دمشق.

قال ابن طولون: كان يسمع معنا على الشيخ أبي الفتح المزّي والمحدّث جمال الدين ابن المبرد، ولبس خرقة التصوّف من شيخنا أبي عراقية، وقرأ عليّ محنة الإمام أحمد، جمع ابن الجوزي، وأشياء أخرى.

* * * * *

(1) الروض العاطر، 237 و، ضمن ترجمة الأيوبي لابن طولون الصالحي.
(2) الكواكب، 2: 255.
(3) الكواكب، 2: 253.

وفي ليلة[1] الثلاثاء رابع عشري جُمادى الأولى ، سنة ست وأربعين وتسعمائة ، توفي القاضي جلال الدين محمد ابن شيخنا القاضي علاء الدين البُصروي الشافعي ، خطيب الجامع الأموي .

قال ابن طولون : وصلّى عليه الشيخ محمد الإيجي بوصيّة منه . ونزل في مرضه عن تدريس العادليّة للشيخ نجم الدين البهنسي وأحد ولديه .

ودُفن بمقبرة باب الصغير تجاه الشيخ نصر الله المقدسي ، إلى جانب الإمام التغلبي خطيب الأموي في عصره أيضاً .

وعقيب[2] موت القاضي جلال الدين محمد ابن شيخنا القاضي علاء الدين علي ابن البُصروي الشافعي ، خطيب الجامع الأموي عمّره الله بذكره ، عرض علي قاضي دمشق محمد باك الإصطنبولي الحنفي وظيفة هذه الخطابة عوضاً عنه ، بخمسة عشر عثمانياً مرتبة على وقف الجامع المذكور ، وخمسة عشر أخرى مرتبة على أوقاف الخطابة بدمشق وبعلبك .

فامتنعتُ من ذلك لضعف بدني[3] ، فاستناب فيها وكتب عرضاً فيها للسّلطان ، فعيّن لها الشيخ خير الدين الرّومي الحنفي ، فأتى إليها وباشرها .

وفي أواخر شعبان[4] ، سنة ست وأربعين ، توفي الشيخ الفاضل زين الدين عمر ابن معروف الجبرتي[5] الشافعي ، إمام الصّابونية خارج باب الجابية بدمشق .

---

(1) الكواكب ، 2 : 47-48 . وترجمة البصروي فيه حافلة ، نقل فيها عن ابن طولون وعن الشيخ يونس العيثاوي .
(2) الخبر من الفُلك المشحون لابن طولون ، 25 .
(3) هذه إشارة من ابن طولون حول مرضه ، وله هنا من العمر 66 سنة ، وسنراه في حوادث سنة 950 هـ يذكر عن رفضه لقبول عرض أتاه بتدريس المدرستين القصاعية والظاهرية الجوانية بسبب توالي الأوجاع عليه ، إلى أن توقف عن الكتابة في عام 951 ثم توفي بعد سنتين 953 هـ وله من العمر 73 عاماً .
(4) الكواكب ، 2 : 227 .
(5) لعلها مصحفة عن «الجبريني» في طبعة الكواكب التي تضم كثيراً من الأغلاط .

كان من نوادر الزمان في الحفظ ، فإنه كان يقرأ القرآن من آخره إلى أوله ، كلّما ختم آية افتتح الآية التي قبلها .

قال ابن طولون : تردّد إلي مرّات ، وفي كل مرّة نستفيد منه في علم التفسير غرائب .

* * * * *

ذكر ابن طولون[1] أنه في يوم الجمعة عاشر القعدة ، سنة ست وأربعين وتسعمائة ، صُلّي بعد الجمعة غائبة بجامع دمشق على الشيخ أبي العبّاس الحريثي المصري .

[قال الشعراوي : توفي بثغر دمياط في سنة خمس وأربعين وتسعمئة ، ودُفن في زاوية الشيخ شمس الدين الدمياطي الواعظ ، وقبره بها ظاهر يزار][2] .

* * * * *

قال ابن طولون[3] :

وفي يوم الخميس ثاني عشرين القعدة من السنة ، درّس بدار الحديث الأشرفية الدمشقية الشيخ أبو البقاء البقاعي الحنفي ، نيابة عن الشيخ علاء الدين

---

(1) الكواكب ، 2 : 94 .

(2) ترجم الغزي للحريثي نقلاً عن الشعراوي ، ثم ختم الترجمة بالنقل عن ابن طولون ، ولا نظن أنه اعتمد فيها أصلاً على ابن طولون .

(3) الروض العاطر ، 258 ظ ، ضمن ترجمة الشيخ جلال الدين البصروي المتوفى مؤخراً .

ابن عماد الدين ، فإنه استقرّ باسمه بثلاثين عثمانياً ، وأضيف إليــه النظر حِسبةً .
وافتتح هذا الدرس بالكلام على آية من القرآن [1] .

* * * * *

(1) كتب الأيوبي معقباً : وهـذا الـدّرس تجدّد في هـذه الدّولـة الرّومية ، ولـم يكـن بهـا سـوى المشيخة للحديث ، وهي الآن بيد القاضي محمود ابن قاضي الخليل التميمي الشـافعي ، والله أعلم بالصواب .

[حوادث سنة 947 هـ]

[استهلت هذه السنة والخليفة على ما هو عليه ، والسّلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان][1] .

[ونائبه بدمشق عيسى باشا ، المرّة الرابعة ؟][2] .

[والقاضي بها محمد باك أفندي الرّومي][2] .

قال [ابن طولون][3] :

وفي يوم الجمعة رابع صفر من السنة ، (يعني سنة 947)[4] ، خطب بالجامع

---

(1) زيادات يقتضيها السياق .

(2) الباشات ، 13 ، بحسب ما ذكر المقار سنة 946 هـ عن بقاء كل من عيسى باشا والقاضي محمد بيك إلى ختام سنة تسع وأربعين وتسعمائة . وراجع نزهة الخاطر ، 2: 165 .

(3) الروض العاطر ، 258 ظ - 259 و ، ضمن ترجمة الشيخ جلال الدين البصروي . ونقل الغزي الخبر (3: 219) في عام 946 ، قال : يوم الجمعة رابع صفر سنة ست وأربعين وتسعمائة ، كما ذكره ابن طولون في تاريخه . قلنا : ولعله الأصوب ، لأنها المرة الوحيدة التي كتب فيها الأيوبي السنة 947 رقماً وليس كتابة ، والذي عهدناه من الغزي أنه أدق في النقل من الأيوبي ، هذا خلا كون المنشور من الكواكب مليء بأغلاط النسّاخ وهفوات المحقق .

(4) كذا في حاشية مخطوط الروض العاطر .

الأموي [259 و] داخل دمشق ، الشيخ محيي الدين يحيى بن حامد الصّفدي الشافعي ، وهو جهوري الصوت ، بحيث سمعتُ خُطبته من تحت مادنة العروس كأني قربه ، وشكره الناس .

وكان قدم هو وأخوه مع والدهما إلى دمشق قريباً ، حردانين على قاضي صفد عبد القادر التركماني الحنفي ، بسبب أنه أراد أن يسكن في بيت لهم معظّم ، فمنعوه من ذلك خوفاً من أن يصير منزلاً للأروام ، فجازاهم في إخراج وظائفهم عنهم . فرحلوا عنه ، ثم جلس والدهم في الناصرية الجوّانية دار النُّحاة لتدريس الطلبة ، ونفعهم ، إلى أن قدم القاضي عبد القادر المذكور إلى دمشق ، فسعى في الصّلح بينه وبينهم خطيب الجامع الأموي الجلال البصروي وجماعة من الأعيان [1] .

وفي صفر [2] سنة سبع وأربعين وتسعمائة ، قدم دمشق مع الحاج الشيخ المقرئ سعد الدين علي بن محمد الشامي ثم الحجازي الشافعي ، ولد الشيخ محمد بن عراق . دخل دمشق وحلب في رحلته إلى الرّوم ، وقدم مع الحاج في صفر [من السنة المذكورة] ، ونزل بخلوة الشيخ محمد الإيجي تلميذ والده .

---

(1) كتب الأيوبي معلقاً : قلتُ : وقدم الشيخ يحيى المُشار إليه وأخوه إلى دمشق في سنة سبعين وتسعمائة ، ووعظ بالجامع تحت قبّة النّسر ، وحصل له القبول في وعظه من الناس . وأضافهما القاضي كمال الدين الحمراوي ، بل جعل لهما ضيافة في كل ليلة مدّة إقامتهما بدمشق ، ويحضر لهما الدّواخل والمنشدين .
وحصل بيني وبين الشيخ يحيى بن حامد المذكور صحبة ومودّة أكيدة ، ثم اتصل بصحبة ملك الأمراء نائب الشام مصطفى باشا ، الذي أنشأ الخان والحمّام بسوق الخيل ، وأقبل عليه ، وتوجّه معه إلى منزلة القُنَيطرة وصلّى به الجمعة وخطب خطبة بليغة وقعت موقع القبول ، دعا فيها للسّلطان ثم لمنشئ هذا المكان ، ويشير بذلك إلى مصطفى باشا ، فأنعم عليه وواثر عليه الإنعام والإحسان .
ورجع معه إلى دمشق ، وقلّد الإمام أبا حنيفة النّعمان وترك مذهبه لأجل حُطام الدُّنيا ، فسقطت مرتبته عند الناس . ومات بصفد في حدود سنة ثمانين وتسعمائة ، ومات أخوه قبله بمدّة يسيرة ، رحمهما الله تعالى .
(2) الكواكب ، 2 : 198 .

قال ابن طولون : فسلّمتُ عليه ، فوجدتُه عَرَض له صَمَم في تلك البلاد .
قال : وذكر لي أنه عمل شرحاً على صحيح مسلم شبيهاً لصنع القسطلاني على صحيح البخاري ، وشرع في كتابة شرح على العباب في فقه الشافعية ، وكان سبقه إليه العلاّمة أبو الحسن البكري ، لكن باختصار [1] .

* * * * *

ذكر ابن طولون في تاريخه ، في حوادث سنة سبع وأربعين [وتسعمائة] [2] :

وفي يوم [الأحد] ثامن عشر ربيع الثاني منها ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ المحدّث شمس الدين محمد الداودي المصري الشافعي ، كان شيخ أهل الحديث في عصره .

قال ابن طولون : وضع ذيلاً على طبقات الشافعية للشيخ تاج الدين السّبكي ، وأرسل طلب مني تراجم أناس ليضعها فيه .

* * * * *

وفي يوم الخميس ثالث جُمادى الآخرة من السنة المذكورة ، سافر [3] الشيخ علي ابن عِراق من دمشق لزيارة بيت المقدس ، فزار ثم انصرف إلى مصر .

---

(1) ذكر الغزي في الكواكب (2 : 114) : فإن الشيخ علي ابن سيدي محمد ابن عراق لما قدم الشام سنة سبع وأربعين وتسعمئة ، اجتمع به ابن طولون وأخبره أنه كتب شرحاً على العباب ، وأنه أرسل من مكة إلى مؤلفه استدعاء بالإجازة نظماً ، فأجابه إلى ذلك .
(2) الكواكب ، 2 : 71 . بينما يعلق الغزي على صحة تاريخ وفاة المترجم له ، ويقارن ما كتبه ابن طولون بما رآه على كتاب ألفه الداودي في ترجمة شيخه الحافظ جلال الدين السيوطي ، وهو ذكر لوفاة المؤلف في 28 شوال سنة 945 هـ .
(3) الكواكب ، 2 : 198 . وتقدم ذكر مجيئه في صفر واجتماع ابن طولون به .

وذكر [ابن طولون] أنه في مدّة إقامته بدمشق كان يزور قبر ابن العربي ، وأنه يبيت عنده . وأنه أشهر شرب القهوة بدمشق ، فاقتدت به الناس وكثرت من يومئذ حوانيتها . قال : ومن العجب أن والده كان ينكرها وخرّب بيتها بمكّة .

* * * * *

وفي يوم[1] الأحد رابع عشر رجب ، سنة سبع وأربعين وتسعمائة ، توفي إبراهيم المنلا العجمي التبريزي الشافعي ، نزيل دمشق . كان من أهل الفضل في المعقولات ، وقرأ نحو نصف المصابيح على الشيخ شمس الدين ابن طولون .

ودُفن بالقَلَنْدَريّة بباب الصغير ، وخلّف كتباً نفيسة .

* * * * *

ذكر ابن طولون في تاريخه [2] :

وفي يوم الجمعة سابع شوّال ، سنة سبع وأربعين وتسعمائة ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على الشيخ الإمام محمد بن محمد الملقّب بمغوش ، بمعجمتين ، التونسي المالكي ، [توفي بالقاهرة] . قيل ومُطر الناس يوم دفنه ، وعمّر عليه داود باشا نائب مصر عمارة بجوار الإمام الشافعي .

[وهو][3] محمد بن محمد ، الشيخ الإمام المحقّق المدقّق العلاّمة الملقّب بمغوش ، بمعجمتين ، التونسي المالكي . اشتغل على علماء المغرب وسمع

---

(1) الكواكب ، 2 : 82 .
(2) الكواكب ، 2 : 17 .
(3) الكواكب ، 2 : 15 .

الصحيحين والموطّأ والتّرمذي والشفاء ، وقرأ البعض من ذلك على الشيخ العلاّمة الصدر الكبير المعمّر أبي العبّاس أحمد الأندلسي المعروف بالمشّاط ، وسمع صحيح البخاري وصحيح مسلم على ولي الله الشيخ أبي عبد الله أحمد البكي المغربي ، بحق روايته لذلك عن شيخ الإسلام ابن حجر المصري . وفضل في بلاده وبرع وتميّز ، وولي قضاء عسكر تونس في دولة سلطانها مولاي حسن ابن محمد بن عثمان بن المنصور بن عبد العزيز الحفصي .

ثم قدم من طريق البحر إلى القسطنطينية في دولة السلطان سليمان خان ابن عثمان خان ، فعظّمه وأكرم مثواه ورتّب له علوفة حسنة ، وشاع فضله بين أكابرها ، وأخذ عنه جماعة من أعيانها ، حتى صار قاضياً للعسكر إذذاك . ولم يزل بها معظّماً مبجّلاً ، نشر الفوائد وحرّر الفرائد وأملى بها أمالي على شرح الشاطبيّة للجعبري إلى أثنائه . وكان مسكنه بها في عمارة الوزير محمود باشا .

ثم استأذن من السلطان في الرحلة إلى مصر ، واعتذر بعدم صبره على شتاء الرّوم وشدّة بردها ، فأذن له في الرحلة إليها ، وأمر أن يستوفي ما عيّن له من العلوفة من خزنتها . فتوجّه إلى البلاد المصرية من طريق البرّ في سنة أربع وأربعين وتسعمائة ، فدخل حلب ، وانتدب للقراءة عليه والأخذ عنه جماعة من أهلها ، منهم ابن الحنبلي قرأ عليه في العضد دروساً . ثم توعّك بها وعوفي ، ثم سافر من حلب في صحبته الشمس [الطبلبي] ، ودخلا طرابلس . وأقام بها مدّة وانتفع به أهلها في النحو وغيره .

ثم رحلا منها إلى دمشق ، فدخلاها يوم الثلاثاء رابع جُمادى الأولى من السنة المذكورة ، ونزل بجامع تنكز ، ثم انتقل إلى بيت القاضي زين الدين معروف الصهيوني الشافعي داخل دمشق . فاجتمع به أفاضلها وشهدوا له بالعلم والتحقيق ، خصوصاً في التفسير والعربية والمنطق والكلام والعروض والقراءات والمعاني والبيان ، وقالوا : لم يرد إلى دمشق من مستحضر كلام السعد التفتازاني

والسيّد الشريف ويقرّره وما يرد عليه [مثله] .

وقرأ عليه الشيخ علاء الدين ابن عماد الدين الشافعي في أوائل تفسير القاضي البيضاوي ، فأفاد وأجاد إلى الغاية حتى أذهل العقول . وقرأ عليه القاضي معروف رسالة الوجود للسيّد الشريف ، وبعض شرح آداب البحث للمسعودي . وقرأ عليه الشيخ شهاب الدين الطيبي في القراءات ، وأجازه إجازة حافلة .

ثم سافر من دمشق في يوم الإثنين سادس عشر جُمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وودّعه جماعة من الطلبة إلى داريّا . وألّف تلميذه الشيخ شهاب الدين الطيبي مؤلّفاً في تاريخ سفره بالكسور العددية وسمّاه «السّكّر المرشوش في تاريخ سفر الشيخ مغوش»[1] .

* * * * *

(1) سمى الأيوبي هذا المؤلَّف «الدرّ المرشوش» . وقد تقدّم ذكر قدوم الشيخ مغوش لدمشق في حوادث عام 944 هـ ، وكان نقلنا الخبر هنالك عن الأيوبي في الروض العاطر ، أما هذا النص هنا فنقلناه عن الغزّي في الكواكب السائرة . وهذا ما يقدم لنا بالتالي أجلى مثال للمقارنة بين أسلوبي الرجلين في النقل عن المفاكهة ، وهما كانا المصدرين الرئيسين في استرجاع النصوص الضائعة من الكتاب . ومع أننا نستبقي احتمال نقل الغزي من مصدر آخر ، فضلاً عن المفاكهة ، إلا أن المقارنة بين النصين تؤدي إلى القناعة الكافية بأنه قد أخذ عن المفاكهة حتماً ، وإن كان استبيان مدى ذلك بالضبط شيئاً من المحال .

[حوادث سنة 948 هـ]

[استهلّت هذه السنة والخليفة على ما هو عليه ، والسّلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان][1] .

[ونائبه بدمشق عيسى باشا ، المرّة الرابعة ؟][2] .

[والقاضي بها محمد باك أفندي الرّومي][2] .

وفي يوم[3] خامس عشري صفر ، سنة ثمان وأربعين وتسعمائة ، تقاعد عن الفتوى المولى محمد ابن إلياس الرّومي الشهير بجوي زاده . كان دخل دمشق يوم الثلاثاء ثامن رجب سنة أربع وأربعين وتسعمائة ، ثم صار مفتياً بالقسطنطينية ، ثم تقاعد عن الفتوى وعيّن له كل يوم مئتا عثماني .

ويومئذ توجّه السّلطان سليمان خان إلى بلاد قزوين وصدوين ، وكان سبب عزله عن الفتوى انحراف السّلطان عليه بسبب إنكاره على الشيخ محيي

---

(1) زيادات يقتضيها السياق .

(2) الباشات ، 13 ، بحسب ما ذكر المقار سنة 946 هـ عن بقاء كل من عيسى باشا والقاضي محمد بيك إلى ختام سنة تسع وأربعين وتسعمائة .

(3) الكواكب ، 2 : 28 .

الدين ابن العربي ، وغالب الأروام على اعتقاده فخالفهم في ذلك ، ووافقه على ذلك العلاّمة الشيخ إبراهيم الحلبي ثم القسطنطيني خطيب عمارة المرحوم السّلطان محمد خان ابن عثمان ، ولكن خالفه في المسح على جوارخ الجوخ غير المجلّد والنّعل ، فقال صاحب الترجمة بالمنع وقال الشيخ إبراهيم بالجواز .

ذكر ذلك الشيخ شمس الدين ابن طولون في تاريخه «مفاكهة الخلاّن» .
قال : والصّواب إن كان خُفّ الجوخ مما يستمسك بنفسه ويمكن تتابع المشي فيه لغلظه وقوّته صحّ ، وإلاّ فلا .

* * * * *

وفي يوم[1] السبت مستهل ربيع الأول ، سنة ثمان وأربعين وتسعمائة ، [توفي] القاضي عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الملك بن أبي بكر الشيباني ، القاضي زين الدين ابن شيخنا ومعتقدنا وقدوتنا شهاب الدين ابن القدوة زين الدين ابن قدوة المسلكين تقي الدين الموصلي الميداني الدمشقي الشافعي ، ودُفن بزاويتهم في ميدان الحصى بالقبيبات ، رحمه الله تعالى .

ولد في القبيبات سنة خمس وستين وثمانمائة ، ودرّس بالجامع الأموي والظاهرية الجوّانية والقيمرية الكبرى ، وولي نيابة القضاء بالصالحية وغيرها ، ثم ترك ذلك .

قال ابن طولون : وكان لا بأس به ، ولا يُستكثر عليه سلوك أهل الخير لأنه من ذرّيتهم .

* * * * *

(1) الكواكب ، 2 : 157 ؛ والتمتع بالإقران ، 136 .

وفي يوم[1] الجمعة حادي عشر جُمادى الأولى ، صُلّي غائبة بجامع دمشق على القاضي زين الدين عبد الباسط البعلي الحنفي ، عُرِف بابن البقرة .

قال ابن طولون : وكان ولده يومئذ قاضي قناة العَوني . (يعني القاضي تقي الدين) [2] .

وفي يوم[3] الجمعة خامس عشري جُمادى الأولى ، سنة ثمان وأربعين وتسعمائة ، توفي الشيخ الصالح المُعتقَد شمس الدين محمد ابن خليل الصّمادي الشافعي القادري ، شيخ الطائفة الصّمادية بالشام . وصُلّي عليه عقيب صلاة العصر بالجامع الأموي ، ثم حُمل إلى زاويته ودُفن في إيوانها ، ولم يُدفن في نفس الزّاوية لأنه قد وقفها قديماً .

كان من أولياء الله العارفين ، وكان في حال الذّكر يظهر منه أمور خارقة للعادة ، وكانت عمامته وشدّه من صوف أحمر ، فيما ذكره ابن طولون ، والمعروف عنه من حال الصّمادية وضع الشدود الحُمر والتعمّم بالصّوف الأبيض [4] .

وكان الشيخ محمد المذكور مجالسه حسنة ، وكان للناس فيه اعتقاد ، خصوصاً أعيان الأروام . وسافر إلى الرّوم ، واجتمع بالسّلطان سليم خان ابن أبي يزيد خان ابن عثمان ، فاعتقده اعتقاداً زائداً وأعطاه قرية كتيبة رأس الماء ، ثم استقرّ الأمر على أن عيّن له قرية كناكر تابع وادي العجم [5] .

---

(1) الكواكب ، 2: 156 .
(2) هذه الجملة للغزي .
(3) الكواكب ، 2: 31 بتصرف ، ولسنا نجزم إن كان الغزي نقله من المفاكهة .
(4) كتب الغزي : ثم هم الآن يتعمّمون بالعمائم الخضر ، لثبوت نسبهم .
(5) تقدم ذكر قصد سفر الشيخ محمد إلى الروم للمطالبة بقرية كناكر في عام 932 هـ . وعلّق الغزي في نصه على غلال كناكر : وغلالها إلى الآن يستوفيه الصمادية ، بعضه لزاوية الشيخ محمد المذكور بمحلة الشاغور ، وبعضه لذريّته .

وكان يقرأ في كل سنة مولداً يدعو إليه أعيان دمشق وطلبتها وصلحاءها ، ويمدّ لهم سماطاً ويكرمهم ويحسن قراهم . واشتهر أمره وأمر آبائه من قبل في دقّ الطبول عند هَيَمان الذّاكرين واشتدادَ الذِّكر . وأنكر عليهم جماعة ، واستُفتي شيخ الإسلام شمس الدين ابن حامد الصّفدي وشيخ الإسلام تقي الدين ابن قاضي عجلون ، فأفتيا بإباحته قياساً على طبل الحجيج وطبل الحرب .

واشتهرت عن بعض آباء صاحب الترجمة قصّة عجيبة ، هي أن جماعة الصّمادية كانوا يضربون الطبول قديماً بين يدي الشيخ في حلقتهم يوم الجمعة بعد الصّلاة ، فأمر بعض الحكّام بمنعهم من ذلك في بعض الأيام ، وإخراج الطبل إلى خارج الجامع . فدخل الطبل محمولاً يُضرب عليه ، ولا يرون له حاملاً ولا عليه ضارباً . واستمرّ الطبل في هواء الجامع من باب البريد ، حتى انصدم ببعض عواميد الجامع ممّا يلي باب جيرون .

* * * * *

وفي يوم[1] الإثنين سادس عشر رجب ، سنة ثمان وأربعين وتسعمائة ، توفي الشيخ الفاضل شهاب الدين أحمد بن محمد الصَّفّوري الصالحي الشافعي ، وقد بلغ الأربعين .

كان ذكياً ينظم الشعر الحسن ، وسمع على ابن طولون في الحديث . وأضرّ قبل بلوغه ، وكان يقرأ في البخاري في المواعيد ويخطب عن ظهر قلب بعد أن أضرّ[2] .

---

(1) الكواكب ، 2 : 100 .
(2) أي أصابه الفقر .

وصُلّي عليه بالجامع الجديد بالصالحية ، وكانت جنازته حافلة ، ودُفن عند جدّه بتربة السبكيين بالسّفح .

* * * * *

وفي يوم السبت تاسع عشري شعبان ، سنة ثمان وأربعين وتسعمائة [1] ، توفي الشيخ عماد الدين إسماعيل ابن عبد الرحمن ابن إبراهيم الذيابي [2] الصالحي الحنبلي ، خطيب الجامع المظفّري . سمع على أبي بكر ابن أبي عمر وأبي عمر ابن عبد الهادي وأبي الفتح المزّي ، وقرأ على الشيخ ابن طولون في العربية .

ودُفن بوصيّة منه شمالي صُفَّة الدّعاء أسفل الروضة بسفح قاسيون ، رحمه الله تعالى .

* * * * *

وفي يوم [3] الأربعاء [سادس عشري شوّال كانت جنازة] الشيخ الإمام المحدّث برهان الدين إبراهيم ابن شيخ الإسلام عبد الرحمن ابن جماعة المقدسي الشافعي .

مولده كما نقله ابن طولون عن خط والده ، صبيحة يوم الإثنين خامس عشر المحرّم سنة سبعين وثمانمائة . وسمع على والده الكتب الستة وغيرها ،

---

(1) الكواكب ، 2: 122 .

(2) كذا في الكواكب ، وكان الاسم ورد أدناه (ص 176) الذنابي ، نقلاً عن الروض العاطر .

(3) الكواكب ، 2: 76 .

وأجاز له القاضي برهان الدين ابن قاضي عجلون والعلاّمة تقي الدين الشمني وقاضي القضاة أبو العبّاس ابن نصر الله والعلاّمة تقي الدين ابن فهد والعلاّمة شمس الدين ابن عمران والشيخ أمين الدين الأقصرائي وقاضي القضاة الشرف المناوي والقاضي بدر الدين ابن قاضي شُهبة وقاضي القضاة الجمال الباعوني وأخوه البرهان .

وولي تدريس الصّلاحية ببيت المقدس سنين ، ثم قطن دمشق وحدّث بها كثيراً عن والده وغيره . وولي تدريس الشامية البرّانية سنين ، ثم تدريس التقوية ونظرها ، ثم عُزل عن التدريس واستمر النظر بيده إلى أن عزم على التوجّه إلى بلده .

فأعرض عن النظر المذكور وسافر من دمشق ، فمات بقرية سعسع[1] في آخر ليلة الثلاثاء خامس عشري شوّال سنة ثمان وأربعين وتسعمائة ، بعد أن بقي نحو سنتين مستلقياً على ظهره من زلقة حصلت له بسبب رشّ الماء داخل دمشق ، فانفك فخذه ولم يمكنه الصبر على علاجه لنحافة بدنه ولطف مزاجه .

ثم حُمل من سعسع وأُعيد إلى دمشق وغُسّل في منزله قبل ضريح سيدي صُهيب الرّومي بميدان الحصا ، ودُفن بباب الصّغير قبل سيدي الشيخ نصر المقدسي ، يوم الأربعاء ، وكانت جنازته حافلة .

قال ابن طولون : وكان عنده وسوسة في الماء ، فلا يشرب من غير بئر ، وإذا خرج من منزله عطشان فيصبر حتى يجد ماء بئر .

قال : ومن نظمه في جارية تدعى المها :

ويلاه من هَتكِ عيون المَهَا قد جرحتْ قلبي بتلك النِّبال

---

(1) بلدة في حوض الأعوج تقع إلى الجنوب الغربي من دمشق ، بها خان قديم يعود إعماره إلى العهد العثماني .

بـــالله بـــالله أُهَيْـــلَ الهـــوى إن مُـــتُّ مفتونـــاً بـــذاك الجمـــال

لا تـــأخذوا في قـــاتلي في الهـــوى ففـــي ســـبيل الحـــبِّ هـــذا حـــلال

ولله والله العظيـــــم الـــــذي أســـكنها قلبـــي بـــذاك الـــدّلال

إن وصلـــتْ أو هجـــرتْ أو نـــأتْ وُدّي لهـــا بـــاقٍ علـــى كـــلّ حـــال

* * * * *



[حوادث سنة 949 هـ]

[استهلّت هذه السنة والخليفة على ما هو عليه ، والسّلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان][1] .

[ونائبه بدمشق عيسى باشا ، المرّة الرابعة ؟][2] .

[والقاضي بها محمد باك أفندي الرّومي][2] .

[وفي يوم الأربعاء رابع عشرين صفر ، سنة تسع وأربعين وتسعمائة ، توفي] الشيخ شمس الدين محمد بن زين الدين عبد القادر بن محمد بن محمد القُوَيْضي الصالحي الحنفي[3] .

مولده بحارة حمّام المقدّم بالصالحية في سنة تسعين وثمانمائة ، وقرأ القرآن وحفظ المختار في فقه الحنفيّة ، والبصروية في النحو ، وتوضيح الخزرجية في

---

(1) زيادات يقتضيها السياق .

(2) الباشات ، 13 ، بحسب ما ذكر المقار سنة 946 هـ عن بقاء كل من عيسى باشا والقاضي محمد بيك إلى ختام سنة ، ومعنى ذلك أنهما عزلا في أثنائها وتعيّن بدلهما الوالي بيري باشا والقاضي أمين أفندي الرومي ، المذكوران في مطلع عام 950 هـ .

(3) الروض العاطر ، 258 و - 258 ظ .

العروض ، وقرأ على مفتي دار العدل [العمّ] الشيخ جمال الدين بن طولون وعلى النجم محمد بن شكم ، وسمع الحديث على الجمال ابن المبرد وغيره .

قال الشيخ الإمام شمس الدين محمد ابن طولون : ورافقني في حلّ كلّيات القانون على الشيخ شمس الدين محمد ابن مكّي ، وتخرّج بوالده في العلاج وطبخ الأشربة والمعاجين واللُّعوقات . ومهر في الطبّ الطّبائعي ، وسافر إلى اصطنبول فأعطي رئاسة الأطباء ونظر المرشدية بالصالحية بأربعة عشر عثمانياً ، ولم يصرف لأحد من مستحقها في هذ الدّولة حتى ولا الأروام ، بل يُصرف للمؤذّن درهم عتيق .

ثم ولي أحد وظيفتي الطبّ بالبيمارستان القَيْمري ، فاستناب فيها وباشر بنفسه البيمارستان النُّوري . ثم اقتصر في علاجه على الحكّام والأكابر وترك علاج الفقراء ، وليته عكس القصّة كما كان والده يفعل [1] .

ودرّس في الطبّ ، ولمّا قدم ملاّ حبيب العجمي لدمشق قرأ عليه في المنطق والحكمة . وحُبّب إليه علم الرّمل فلازمني فيه مدّة ، وعلم الزّيرْجة ورحل بسببه إلى مصر والإسكندرية فمهر فيهما . وكان يُتّهم بحُبّ الغلمان ، وبُلي في آخر عمره باستعمال الأفيون ، وكان يُحسن اللّعب على العُود والكَمَنْجَا والطّنبورة وينظم الشّعر .

وخلّف كتباً كثيرة ، وورثها من والده ، منها القانون ثلاث نسخ ، وشرحه لابن النّفيس في عشر مجلدات ضخمة ، ومفردات ابن البيطار [258 ظ] ومجاميع من تصانيف الحكماء كأرسطاليس وبُقراط . ونقّى منها قاضي دمشق بعض شيء ، وأخذ أحاسنها الشيخ أبو الفتح المالكي مع مساعدة قطب الدين ابن الصفّوري الشافعي والزين ابن المعاريكي الحنفي ، لكن كفّ عنها الشيخ محمد ابن قيصر الحنبلي بعض كفّ ، ولولا النائب بدمشق يأخذ منها خمس كتب

(1) راجع ترجمة أبيه (توفي 947 هـ) في الكواكب السائرة ، 2 : 172 .

ويكف عنها لحصل ضرر عظيم .

ورُمْتُ منها طبقات الأطبّاء ، فسابقني إليه الشيخ أبو البقا البقاعي الحنفي ، فتركتُ الكلام معه خوفاً منه [1] . ويتعيّن في هذه الأيام أن لا يخلّف الميت خلفه كتباً ، فإنها توجب عدم الترحّم عليه ، وخصوصاً إن كانت وقفاً [2] .

وكانت وفاته يوم الأربعاء رابع عشرين صفر الخير ، سنة تسع وأربعين وتسعمائة ، ودُفن عند والده تجاه تربة السبكيين تحت كهف جبريل بسفح قاسيون . ومحاسنه كثيرة ، رحمه الله تعالى [3] .

* * * * *

وفي يوم [4] السبت حادي عشر جُمادى الأولى ، سنة تسع وأربعين وتسعمائة ، توفي الشيخ الإمام علاء الدين علي بن حسن ابن أبي مشعل الجراعي ثم الدمشقي الشافعي ، المشهور بالقيمري لكونه كان يسكن بمحلّة القيمرية تجاه القيمرية الكبرى . وهو في حدود الستين .

---

(1) يتضح لنا من كلام ابن طولون كون نفسيته أدعى إلى الركون إلى جانب المسالمة .

(2) هذا القول لابن طولون ربما يفسّر لنا ما حدا بمؤرخنا ابن طولون إلى أنه وقف جميع كتبه على المدرسة العُمريّة كما قلنا في ترجمته . وقوله : وخصوصاً إن كانت وقفاً ، يعني إن ترك المتوفى كتباً مختلسة من مكتبة وقفية . غير أن صاحبنا ابن طولون ، مع الأسف ، تجرّع من نفس الكأس وضيّع أبناء مدينته تراثه الكبير بيعاً وبعثرة وربما إتلافاً ، ومن جملة ذلك كتابنا هذا الراهن ، الذي نرانا مضطرين لإعادة توصيله ولصقه من نتف ممزقة .

(3) من العجيب أن الغزي في الكواكب (2 : 44) قد ترجم له بأنه توفي عام 979 هـ ، ونحن نرجح رواية الأيوبي أعلاه لسببين : الأول كونه معاصراً لابن طولون الذي يذكر وفاته ، مع العلم أن ابن طولون توفي في 953 هـ ، فيلزم أن يكون القويضي توفي قبلها . والثاني ورود الترجمة في الجزء الثاني من الكواكب السائرة الذي يذكر وفيات الثلث الثاني من القرن العاشر ، حتى 966 هـ فقط .

(4) الروض ، 304 ظ - 305 و ؛ الكواكب ، 2 : 204 .

قرأ في علم القراءات على الشيخ شمس الدين ابن الملاّح ، وفيه وفي العربية على الجمال القويضي ، وتفقّه على الشيخ تقي الدين القاري ، وأجازه بالإفتاء والتدريس . كذا قال ابن طولون .

وقال ابن طولون : كان يقرئ الأطفال ، ثم ولي نصف إمامة الشافعية بالجامع الأموي ، ومشيخة الربعة بتربة الأمير نائب القلعة حسين [1] ، لصيق تربة السلطان صلاح الدين بن أيوب من الغرب بالعزيزية ، ويقرىء الأطفال بها .

وتصدّر للإقراء بمقصورة الجامع الأموي في تفسير القاضي البيضاوي ، ثم في تفسير البغوي ، ومات ولم يكمله . وكان يكتب للسبعة أو العشرة من طريق تحبير اليسير ومنظومة الحرز والدرّة ، [305 و] وكان خطّه حسناً ، وانتفع به الأطفال . وله مدّة يقاسي علّة البطن .

ودُفن بوصية منه في تربة باب الصغير إلى جانب قبر أخٍ له في الله صالح .

قال ابن طولون : وحضرتُ صبحته ، رحمه الله تعالى [2] .

* * * * *

(1) لم نجد ذكراً لهذه التربة في غير كتابنا هذا من بين مصادر تاريخ دمشق في العهد العثماني ، أما نائب القلعة حسين فهو المذكور سابقاً في حوادث 931 ، 932 ، 934 ، 938 ، 939 ، 940 هـ : ونائب القلعة حسين العجمي ثم الرومي . ولا وجود للتربة في عصرنا ، وموقعها ينطبق على البناء الملحق بضريح السلطان صلاح الدين من جهته الغربية ، والذي يستخدم في أيامنا كقسم لاستقبال زوار الجامع الأموي من الأجانب .

(2) هذه الترجمة أيضاً تقدّم لنا مثالاً حيّاً على توافق النقل بين الأيوبي والغزّي من المفاكهة ، وكل منهما نقل ما نقل على انفراد ، فزاد هذا مرّة وأنقص أخرى ، مما وضعنا أمام خطّة واضحة للنقد ، رسمت لنا معالم الكتاب المفقود واجتلت أكثر ما به من غموض ، على نحو بات مرضياً في نظرنا كل الرضا .

وفي ليلة[1] الأحد عيد الفطر ، سنة تسع وأربعين وتسعمائة ، توفي الشيخ بدر الدين حسن بن علي الطَّبراني ، من بلدة عند بركة الطَّبَرِيَّة ، الشافعي المقرئ ، نزيل دمشق . حفظ القرآن بمدرسة شيخ الإسلام أبي عمر بسفح قاسيون ، ثم تلاه بعدّة روايات على الشيخ علاء الدين القيمري ، واشتغل في النحو على ابن طولون ، فقرأ عليه قطعة من ألفية ابن مالك . وتسبّب بقراءة الأطفال في مكتب عزّ الدين غربي المدرسة المذكورة ، وصلح عدّة ممن أقرأه بالقرآن .

وكان أحد شقّيه بطّالاً لا يمشي إلاّ بعكّاز ، وقد كان تأهب للحجّ والمجاورة بمكّة فمات قبل ذلك ، رحمه الله تعالى .

* * * * *

قال ابن طولون [2] : وفي يوم الجمعة يوم عيد الأضحى ، صُلّي غائبة بدمشق على الشيخ شمس الدين الضّيروطي[3] المصري الشافعي المتوفى بالقاهرة ، وعلى الشيخ شهاب الدين ابن النجّار الحنبلي المتوفى بمصر أيضاً ، وعلى الشيخ شمس الدين ابن عبد الرحمن الصّهيوني خطيب جامع الأطروش بطرابلس المتوفى بها ، رحمهم الله تعالى .

* * * * *

(1) الكواكب ، 2: 135 .
(2) الكواكب ، 2: 36 .
(3) يريد الدّيروطي ، نسبة إلى ديروط ، بلدة (صارت مدينة) في مصر تتبع محافظة أسيوط .

وفي سنة[1] تسع وأربعين وتسعمائة ، قدم دمشق العلاّمة في الطب أمير شريف العجمي المكّي ، متوجّهاً إلى الروم ، وأضافه الشيخ أبو الفتح السبستري[2].

قال ابن طولون : وبلغني أنه شرح رسالة الوجود للسيد الشريف ، وشرح الفصوص للمحيوي ابن العربي .

* * * * *

---

(1) الكواكب ، 2: 124 .

(2) في طبعة الكواكب : السيستري ، تصحيف ورد في المطبوع مراراً .

[حوادث سنة 950 هـ]

[استهلّت هذه السنة والخليفة على ما هو عليه [1]، والسّلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان] .

[وتولى دمشق بيري باشا] [2] .

[والقاضي بها أمين أفندي (الرّومي)] [2] .

وفي يوم [3] الأحد تاسع صفر ، سنة خمسين وتسعمائة ، توفي عيسى باشا

---

(1) في هذه السنة بالذات توفي آخر خلفاء العباسيين بمصر ، وهو الخليفة المتوكل على الله (الثالث) محمد بن يعقوب (المستمسك بالله) بن عبد العزيز (المتوكل الثاني) بن يعقوب العباسي . وبوفاته انتهت الخلافة العباسية (الصورية) الثانية بمصر . نزل له أبوه عن أعمال الخلافة قبل دخول السلطان سليم مصر ، فلما دخلها سنة 923 هـ أقرّ المتوكل بها خليفة للمسلمين ، أما رواية انتقال الخلافة إلى السلطان سليم فخرافة خرج بها المستشرق دوسّون d'Ohsson . وكان السلطان سليم أخذ معه المتوكل إلى استانبول ، فأقام بها مدة ثم عاد إلى مصر وبقي بها حتى وفاته . تقدم ذكر ابن طولون لإقامة الخليفة في اصطنبول (راجع حوادث 930-934 هـ) .

(2) الباشات والقضاة ، ص 13 . وهذان كانا فعلاً موجودين في مطلع السنة ، لأنهما تعينا في العام الفائت 949 هـ تحقيقاً . ثم سيذكر ابن طولون أدناه قاضياً جديداً : يوسف ابن حسام الدين ابن إلياس (الرومي) في ذكر الفتوى المتعلقة بتحريم القهوة .

(3) الكواكب ، 2 : 236 .

ابن إبراهيم باشا الرّومي الحنفي أمير أمراء دمشق ، و[كان] أوصى أن يُلقّن بعد موته ، فلقّنه الشيخ أبو الفتح المالكي ، وأوصى أن يُسحب على الأرض قبل الدّفن إلى قبره ، تعزيراً لنفسه على عادة الفقراء العمرية في حال حياتهم في تعزير أنفسهم . فحُمل سريره إلى الصالحية ، فلمّا قرب من قبره سُحب على الأرض قليلاً .

قال ابن طولون : ودُفن في حوش الشيخ محيي الدين ابن العربي ، عند شبّاكه الشرقي بوصيّة منه ، مع أن الشائع عنه عدم اعتقاده [1] .

* * * * *

وفي يوم[2] الجمعة ثاني عشري ربيع الأول ، سنة خمسين المذكورة ، صُلّي غائبة في جامع دمشق على الشيخ الإمام العلاّمة شهاب الدين أحمد ابن عبد الحق السّنباطي المصري الشافعي ، الواعظ بجامع الأزهر .

وذكر ابن طولون أنه ولي تدريس الخشابية بمصر بعد الشيخ الضَّيروطي ، وهي مشروطة لأعلم علماء الشافعية ، كالشاميّة البرّانية بدمشق . وعمل له الحَسَدة النكاية عند نوّاب مصر ونجّاه الله تعالى ، وهدم كذا وكذا كنيسة وبيعة .

وكانت وفاته في أواخر صفر سنة خمسين وتسعمائة .

* * * * *

---

(1) كنا ذكرنا أن المقار في الباشات والقضاة قد ذكر وفاة عيسى باشا عام 941 هـ ، وبيّنا عدم جواز صحة ذلك حكماً . وكان عيسى باشا هذا أكثر وال حكم دمشق خلال الفترة التي يعاصرها الكتاب ، تولاها مراراً كما تقدم . راجع ملخص ذلك بمطلع عام 941 هـ .

(2) الكواكب ، 2 : 111 .

قال ابن طولون في تاريخه [1] :

وفي سنة خمسين وتسعمائة ، نادى القاضي الكبير [يوسف ابن حسام الدين الرّومي] على دكاكين القهوة بأنها لا تُشرب بجمعية وغناء وإدارة بالزبادي الصيني ، والكشف عليهم على غفلة . ثم إنه كبسهم ، فوجدهم في الدكاكين على الهيئة المذكورة ، فضرب كل من وجده في الدكاكين علقة علقة [2] .

واستفتوا فيها مفتي دمشق الشيخ قطب الدين محمد بن سلطان الحنفي ، فأفتى بتحريمها على هذه الهيئة ، وقال : ينبغي للأفندي القاضي أن ينادي بمنع بيعها ، لأن ما يُتوصّل به إلى الحرام فهو حرام .

وكان المحرّك لذلك الشيخ شرف الدين يونس [300 و] العيثاوي الشافعي خطيب الجامع الجديد خارج بابي الفرج والفراديس ، ومدرّس الشافعية بمدرسة الشيخ أبي عمر بالصالحية . ثم جمع في المنع منها مؤلّفاً ، وكتب له عليه قاضي دمشق (يوسف ابن حسام الدين) ما صورته :

الحمد لله الذي شرّع لنا ديناً قويماً ، وهدانا إليه صراطاً مستقيماً ، وجعلنا من أهله تعلّماً وتعليماً ، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد المبيّن لحدود الله تحليلاً وتحريماً ، وعلى آله وأصحابه المحرزين قصب السبق في مضمار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تبجيلاً لأوامره وتعظيماً .

وبعد ، فهذه رسالة عُملت في تحريم القهوة لبعض أكابر البلدة ، طالعتها ووقفت على ما فيها من المعاني الدقيقة المستدلّ عليها بالأسانيد الصحيحة ،

---

(1) الروض العاطر ، 299 ظ – 302 و ، ضمن ترجمة الشيخ يونس بن عبد الوهاب العيثاوي (توفي 978 هـ) وترجمته في الروض وافية ، وكان شيخاً للأيوبي المؤلف .

(2) هذا ما جرى بدمشق قبل 472 سنة هجرية (458 ميلادية) . فماذا تراه يفعل ذاك القاضي الكبير لو عادت روحه إلى الحياة وطافت على مقاهي دمشق ليشاهد بها الفتيات الغيد والصبايا الحسان وهن يتعاطين الأراكيل فضلاً عن احتساء القهوة التي قامت قيامته على شربها ؟ أظنه كان سحب كرسياً وطلب أركيلة وفنجان قهوة وأطلق لناظريه العنان !

ومؤلفها شكر الله مساعيه قد حقّق ودقّق فيما حقّق ، وأفاد فأجاد فيما أفاد . وأمّا الفقير فيقول ، سائلاً من الله التوفيق إلى الصواب والسّداد ، وهو الهادي إلى سبيل الرشاد :

إن ثبت ما نُسب إليها من الأوصاف ، محرّمة تناولها إذا بلغ حدّ السُّكر ، وهو أن يهذي متناولها . وكذا تناوُل قليلها إذا قُصد به اللّهو والطرب . وأما إذا لم يُقصد به ذلك فهو أيضاً حرام عند الإمام الشافعي ومالك وأحمد ، ووافقهم من أئمتنا الحنفية الإمام محمد . هذا إذا انفردوا في شربها ، وأما إذا اجتمعوا عليه كاجتماعهم على شرب الخمر كما هو المعتاد في هذه البلاد ، فلا شك أيضاً في حرمتها ، سيّما إذا كان بإدارة الكاس ومزمار التغنّي واللهو بالمزامير ، فحينئذ إلى أصل كيفيتها أصلاً .

وبالجملة مفاسدها أكثر من مصالحها ، يجب على وليّ الأمر المنع عنها عملاً بالأحوط ، فإنه لا بأس بالمنع عنها على كل حال .

قال ذلك وكتبه فقير عفو خالق الناس يوسف بن حسام الدين ابن إلياس ، القاضي حينئذ بدمشق المحروسة ، عفى الله عنه ، حامداً مصلّياً مسلّماً .

وكتب المفتي المشار إليه (القطب ابن سلطان) ما صورته :

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد : فقد وقفتُ على هذه الرسالة الأنيقة وما حوته من البلاغة والمعاني الدقيقة . فأما ما أشار إليه من أمر القهوة ، فإنها من جملة المصائب التي عمّت البلوى بها في هذا الزمان ، وانعكافهم على شربها على الصفة المذكورة في السرّ والإعلان . فمن قال بجواز شربها على الوجه المذكور لم يكن في قلبه مثقال ذرّة من إيمان ، وأما ما نقله عن [300 ظ] السادة الأعلام وشيوخ مشايخ الإسلام فيتعيّن القول والعمل بقولهم والاهتداء بهديهم .

والفقير يُفتي بما أفتى به المرحوم مولانا شيخ الإسلام ورأس العلماء الأعلام المحفوف باللطف الخفي قاضي القضاة عبد البرّ ابن الشحنة الحنفي ، تغمّده الله برحمته وأسكنه فسيح جنّته . .

إذا قالت حزام فصدّقوها — فإنّ القول ما قالت حزام

وينبغي على وليّ الأمر ، أيّد الله به الدين وقمع به الجهلة المتمرّدين ، منع من يتعاطى شربها على الوجه المذكور هنالك ، وردعهم وزجرهم بالضرب والحبس وغير ذلك . بل لو أشهر النداء بإبطالها أصلاً لنال إن شاء الله الدرجات العُلى ، لأن العلماء قد أجمعوا على أن شربها على الوجه المذكور تركه واجب ، وما دامت بين أيديهم لا يتركون ذلك ، فما لا يُتوصّل إلى الواجب إلاّ به فهو واجب . ويتعيّن على مولانا الأفندي أن تكون جميع أحكامه على ما تقتضيه الشريعة المطهّرة دون القانون والفراسة ، فإن العمل بالشريعة فيه صلاح الدين والدنيا وسعادة الدارين .

قال ذلك فقير عفو ربّه المنّان محمد بن محمد بن سلطان ، المفتي الحنفي عامله الله بلطفه الخفي ، والحمد لله وحده .

قال الشيخ شمس الدين محمد ابن طولون [1] :

وقفتُ على محضر بسبب تحريم القهوة في سنة سبع عشرة وتسعمائة ، ملخّصه : أنه لمّا أقام المقام الشريف السلطاني الملك الأشرف قانصوه الغوري الجناب العالي السيفي خير بك المعمار العلائي ناظر الحسبة بمكّة المشرّفة ، وباش المماليك السلطانية وشاد العمائر الشريفة فيها ، فباشرها ملازماً لأنواع العبادات .

فاتّفق له ليلة الجمعة ثالث عشري ربيع الأول من هذه السنة أنه لمّا صلّى

(1) ما تزال المتابعة من مخطوط الروض العاطر بتسلسل الأوراق مما سبق .

العشاء طاف وانصرف إلى منزله ، فوجد في جانب الحرم ناساً مجتمعين ، جمعهم السيفي قُرْقُماس الناصري بسبب عمل مولد النبي صلّى الله عليه وسلّم . فحين وصوله إليهم طفوا فوانيسهم ، فأنكر ذلك وكشف أمرهم فوجد عندهم شراب القهوة يتعاطونه على هيئة شرب الخمر بكاس يُدار عليهم ، والمدير له السيفي قُرْقُماس المذكور .

فلمّا علم ذلك أنكره وسأل عنه ، فقيل له : هذا يُسمّى القهوة ، تُطبخ من قشر حبّ يأتي من بلاد اليمن يسمّى بالبنّ ، وقد كثر هذا الشراب بمكّة وصار يباع [301 و] بها ، ويجتمع عليه الرجال والنساء بدفّ ومزمار ، وفي المكان الذي يُباع فيه يُلعب بالشطرنج والمنقلة والكنفجة ، وغير ذلك مما هو ممنوع شرعاً .

فلمّا سمع ذلك ، تذكّر قول الله تعالى : ﴿وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ ، ونحوه من الآيات والأحاديث . وأصبح جمع قضاة الإسلام وعلماء الأنام وأهل الصلاح والتصوّف والزهد والتعفّف ، وغيرهم ممن يُقتدى بقولهم وفعلهم من المذاهب الأربعة . فممّن حضر قاضي القضاة صلاح الدين ابن ظهيرة الشافعي ، وقاضي القضاة نجم الدين المالكي ، وتعذّر حضور قاضي القضاة شمس الدين الرشيدي الحنفي لضعف أوجب انقطاعه عن المسجد الحرام من مدّة ، والشيخ شهاب الدين أحمد الطيبي فاتح بيت الله الحرام ، والأخوان خطيبا المسجد الحرام وجيه الدين عبد الرحمن وشرف الدين يحيى الشافعيان ، والشيخ عفيف الدين عبد الله بن أبي كثير اليماني الحضرمي الشافعي ، والعلاّمة شمس الدين الخطيب المصري ثم الدمشقي الحنفي ، والعلاّمة ناصر الدين محمد ابن المرحوم النجمي دَولَت باي المصري نزيل مكّة الحنفي ، والعلاّمة عبد النبي المغربي الدمشقي المالكي ، والشيخ محبّ الدين محمد بن يعقوب المالكي . حتى حضر من يخالف في تحريمها ويشربها عناداً ، كالنوري ابن ناصر الشافعي ، والشهابي ابن البخاري إمام الحنفية .

فلمّا استقرّ المجلس أحضر الأمير خير بك المشار إليه القهوة في موكب كبير ، والكاس معه ، ثم فاوضهم بأن اجتماع الناس عليها على هذه الهيئة حلال أم حرام ؟ فأجابوا كلّهم بأن اجتماع الناس عليها على هذه الهيئة حرام اتفاقاً ، يجب إنكاره على كل قادر عليه بحسب قدرته . وأمّا حبّها المسمّى بالبنّ ، فحكمه سائر النباتات من أن الأصل فيه الإباحة الأصليّة ، لقوله عزّ وجلّ : ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ ، وإن كان يحصل من مطبوخ قشره ضرر في البدن أو العقل أو يحصل به نشوة ولذّة وطرب ولهو فإنه حرام ، ولو استعمله الإنسان بمقرّه في داخل بيته . والمرجع في ذلك إلى قول الأطبّاء .

وهذه الواقعة في هذا الزمان كالواقعة في هذا الزمان كالواقعة المتقدّمة في الحشيشة ، فإنها لم تظهر في زمن الأئمة المجتهدين من أصحاب المذاهب الأربعة كما صرّح بذلك النَّسَفي في فتاويه ، وقال إنها أول ما ظهرت في زمن الإمام المزني صاحب [301 ظ] الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فتفاقم أمرها فأفتى الإمام المزني بتحريمها . ثم انتقلت إلى بلاد العراق ، فاستُفتي عنها أبو حفص الكبير تلميذ محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة قبل ظهور إفسادها في العراق ، فأجاب أولاً بالحلّ بناءً على الإباحة الأصليّة ، فلمّا تبيّن له إفسادها رجع عمّا أفتى به أولاً وأفتى بحرمتها كما أفتى به الإمام المُزني . والآن فتوى أهل المذهبين على حرمتها .

ولمّا سمع الأمير خير بك أن الأمر في شأن هذا الشراب مرجعه إلى الأطبّاء العارفين بصناعة الطبّ ، أحضر الشيخين النوري أحمد العجمي الكازروني وأخاه العلائي علي ، وهما أعيان الأطبّاء بمكّة ، وسألهما عن هذا البنّ الذي يُتّخذ من قشره هذا الشراب ، فذكرا أنه بارد يابس مفسد للبدن المعتدل . فاعترض عليهما شخص من الحاضرين ممّن له إلمام بعلم الطب ، وقال : إن البنّ المذكور في «منهاج البيان» لابن جزلة ، وأنه محرق للبلغم . فقال الطبيبان إن

البنّ المذكور في «منهاج البيان» ليس هو هذا ، فإن هذا جزء مفرد بسيط ، وذلك مركّب من أبازير . ولو كان مباحاً فقد جرّ إلى معصية ، وكل طاعة جرّت إلى معصية سقطت ، وإذا دار الأمر بين المحرِّم والمبيح قُدّم المحرِّم . وأقاما شهادتهما بالصيغة المعتبرة لدى القاضيين المصدّر بهما .

ثم ذكر جماعة من الحاضرين بالمجلس أن القهوة المذكورة ذُكر لهم عنها أنها حلال ، فاستعملوها بناءً على ذلك مع الإباحة الأصلية ، فحصل لهم تغيّر في حواسّهم وأنكروا هيئاتهم ، وحصل لهم بذلك الضرر في أبدانهم . وأقاموا شهادتهم بذلك عند الحاكمين المشار إليهم .

ثم روجع في ذلك قاضي القضاة الشمس المرشدي الحنفي لتعذّره عن الحضور ، فقال إنه أقيمت البيّنة عنده بمثل ذلك ، وحصل التصريح منه بحرمتها .

ثم صرّح الحاكمان المنوّه بهما بحرمتها ، وكذلك الجماعة الحاضرون ، وتمّ الأمر على ذلك وتحقّقه الأمير خير بك . فأشهر النداء بمكّة ومسعاها وطرقها بالمنع من تعاطي القهوة وتهديد من يتعاطاها . وانفصل المجلس ضحوة يوم الجمعة ثالث عشري ربيع الأول من السنة .

وكتب في هذا المحضر قاضي القضاة الشافعي ما صورته : الحمد لله ، توكّلتُ على الله ، الأمر كما شُرح وبُيّن . وكتبه الفقير إلى الله تعالى محمد صلاح الدين ابن ظهيرة[1] [302 و] خادم الحرم الشريف والشرع المنيف ، لطف الله به . وكذلك كتب القاضيان .

* * * * *

---

(1) صلاح الدين ابن ظهيرة الشافعي ، قاضي قضاة مكة ، تقدم ذكر وفاته بها في حوادث 27 ربيع الثاني سنة 927 هـ .

وفي ليلة[1] الثلاثاء سابع عشري [ذي] القعدة الحرام ، سنة خمسين وتسعمائة ، [توفي شيخ الإسلام الإمام العلاّمة المحقق المفتي قطب الدين محمد ابن محمد ابن القاضي كمال الدين المعروف بابن سلطان الدمشقي الصالحي الحنفي] .

ميلاده في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول ، سنة سبعين وثمانمائة . أخذ عن قاضي القضاة عبد البرّ ابن الشّحنة وغيره ، وله مؤلَّف في الفقه ورسالة في تحريم الأفيون ، وغير ذلك .

وذكر ابن طولون في تاريخه «مفاكهة الأخوان» أن الشيخ قطب الدين ابن سلطان صاحب الترجمة اجتمع هو والشيخ تقي الدين القاري يوم الجمعة خامس عشر ربيع الثاني ، سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة ، عند النائب بالشبّاك الكمالي ، وعرّفه بأن البركة التي عزم على بنائها وسط الجامع الأموي لايجوز . وكان رمى آلتها ، وجاء بالحجارة من عمارة جامع بيت لهيا .

فاجتمعوا ثاني يوم ، ومعهم الجلال البصروي خطيب الجامع ، وجاء النائب والقاضي الكبير ، فعضدهم في المنع ، فكتب النائب إلى مفتي اصطنبول ، يسأل عن جواز ذلك . وصنّف القطب فيها مؤلفاً سمّاه «البرق اللامع في المنع من البِرْكة بالجامع»[2] .

توفي ليلة الثلاثاء سابع عشري القعدة الحرام ، وصُلّي عليه في الجامع الأموي ، ودُفن داخل تربة القلندريّة من باب الصغير ، ببيت مسقف قديم معدّ للعُلماء والصُّلحاء من الموالي . وأوصى أن يُلقّن بعد دفنه ، فلقّنه أحد السّادة الشافعية . وكان يتعبّد بمذهب الشافعيّة ، رحمه الله تعالى[3] .

---

(1) الكواكب ، 2 : 12 .

(2) تقدم ذكر هذا الخبر في مكانه بحوادث سنة 938 هـ .

(3) تقدّم ذكر وفاة أبيه كمال الدين محمد ابن سلطان ، في حوادث عام 932 هـ ، وذكرنا هناك أن الأيوبي في روضه العاطر كرّر بالغلط ترجمة الأب مرتين ، وسها في المرة الثانية عن ترجمة الابن ، فاعتمدنا في النقل على الكواكب فقط ، ولم نجد في ذلك بأساً =

ثم عُقيب[1] موت مفتي الحنفية الشيخ قطب الدين محمد ابن شيخنا القاضي كمال الدين محمد بن سلطان الصالحي الحنفي ، وأنا حاضر في جنازته ، قام علي مدرّس الخاتونية الشيخ أبو البقاء البقاعي الحنفي ، ومفتي المالكية الشيخ أبو الفتح التونسي المالكي ، ومدرّس الشامية الجوّانية الشيخ محمد الفلّوجي[2] الشافعي ، وقاضي الباب علاء الدين ابن عماد الدين الشافعي ، ليلزموني للتصدّي لإفتاء الحنفيّة .

= لتأكدنا من نقل الغزي من المفاكهة مباشرة ، وبخاصة أن القطب ابن سلطان كان من أصحاب ابن طولون ، وكان مفتي الحنفية في عصره ، وابن طولون حنفي .
وكتب الغزي : وذكر صاحب الترجمة قال والد شيخنا الشيخ يونس العيثاوي وقال : كان من أهل العلم الكبار ، جليل القدر مهيباً عظيماً نافذ الكلمة عند الدّولة ، يردّون الأمر إليه في الفتوى ، ماسك زمام الفقهاء في التجمّل بأحسن الثياب ، يعرف مقام الشافعيّة وما هو لهم من القدم على غيرهم ، ويرفع مقامهم .
كان بيده تدريس القصّاعيّة المختصة بالحنفية ، وتدريس الظاهرية التي هي سكنه ، والنظر عليها . وكان له تدريس في الجامع الأموي ، وغير ذلك من المناصب العليّة .
وولي القضاء بمصر في زمن الغُوري ، نيابة عن شيخه ابن الشِّحنة .
وكُفّ بصره من بعد ، مع بقاء جمال عينيه ، بحيث يُظنّ أنهما بصيرتان . وكان حَسَن الوجه والذات ، وكان يملي من الكتب الجواب على الأسئلة التي تُرفع إليه . واتّخذ خاتماً منقوشاً ، يختم به على الفتوى خوفاً من التلبيس عليه .
قال بتحريم القهوة التي حدثت بدمشق ، وقال إنها من جملة المصائب التي حدثت بهذا الزمان . قال [العيثاوي]: وحدثني عن شيخنا السيّد كمال الدين ، يعني ابن حمزة ، أنه كان يسمّي بيت القهوة الخمّارة . وأنه لمّا سلّم عليه حال رجوعه من مصر ، سأله عن رجل كيف حاله ، فقال له : إنه مُلازم الخمّارة . فقال له : كيف جرى ؟ قال : حدثت بمصر شرب القهوة ، يجتمعون عليه كاجتماعهم على شرب الخمر ، وهو معهم .
قال [العيثاوي] : وحدّثني أن من جملة أشياخه الشيخ برهان الدين الناجي ، أخذ عنه الحديث .
وامتنع آخراً من الكتابة على الفتيا في الطّلاق في مسألة الاستثناء ، وأصاب لجهل الحالف بشرطه . وداوم على قراءة القرآن مع جماعة يختلفون إليه في آخر أمره . ووقف وقفاً على جماعة يجتمعون كل ليلة جمعة في الجامع الأموي ، يذكرون الله عزّ وجلّ ويصلّون على النبي صلّى الله عليه وسلّم .

(1) الفُلْك المشحون لابن طولون ، ص 25 . ولذا فطبيعي هنا استخدامه لضمير المتكلم .
(2) في المطبوع من الفُلْك : القلوجي ، وهو غلط .

وقال لي القاضي علاء الدين المُشار إليه : إن نائب القاضي الكبير محمد جلبي ابن شيخي الرّومي الحنفي ، المفوّض إليه أمر العروض من قاضي دمشق المسافر إلى الرُّوم سْتان[1] ، يكتب لك بسبب ذلك عرضاً بتدريس القصّاعية بخمسة عشر عثمانياً ، وعرضاً آخر بتدريس الظاهرية الجوّانية ونظرها بخمسة عشر عثمانياً أيضاً وتَسكُن بها .

فامتنعتُ وتعلّلتُ بتوالي الأوجاع [2] .

* * * * *

وفي سنة [3] خمسين وتسعمائة تولى قاضي القضاة سنان جلبي الرومي الحنفي ، وباشر الأحكام بها وحُمدت سيرته لعفّته ونزاهته .

* * * * *

(1) الرّوم ستان : طريقة جديدة وطريفة يستعملها المؤلف لتسمية قاعدة السلطنة العثمانية ، ويريد بها بلاد الروم ، على القاعدة الفارسية التي دخلت التركية ، بإضافة لاحقة (أُستان) على أسماء البلدان والأقاليم .

(2) كان ابن طولون ذكر في حوادث سنة 946 هـ أن قاضي دمشق آنذاك عرض عليه منصب خطابة الجامع الأموي ، ويقول : «فامتنعتُ لضعف بدني» ، ولكن لم يبيّن ما المرض الذي كان يعانيه آنذاك . وها نحن نراه هنا ، وله من العمر 70 سنة ، يشكو توالي الأوجاع من جديد ، وكان العام التالي 951 هـ بالنسبة له آخر سنين نتاجه العلمي ، فتوقف عن كتابة يومياته في مفاكهة الخلان ، ثم توفي عام 953 هـ ، رحمه الله .

(3) الخبر من نزهة الخاطر للأيوبي (2 : 165) نقلاً عن المفاكهة ، وسيرد ذكر هذا القاضي في العام التالي 951 هـ باقياً في منصبه .

[حوادث سنة 951 هـ]

[استهلّت هذه السنة ، والسّلطان على مصر والشام وما مع ذلك ملك الرّوم أبو النصر سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن عثمان][1] .

[ونائبه بدمشق : استقام بيري باشا المذكور][2] .

[والقاضي بها سِنان أفندي (الرّومي)][2] .

وفي يوم[3] الجمعة منتصف رجب ، خطب بجامع دمشق الشيخ شهاب الدين الدّجاني الشافعي ، أحد أصحاب الشيخ علي ابن ميمون وصاحب الشيخ محمد ابن عراق ، وشكره الناس على خطبته . وزار الشيخ محيي الدين ابن العربي وأقام الذكر عنده .

وكان دخل إلى دمشق في أوائل رجب ، سنة إحدى وخمسين وتسعمائة ، بسبب قضاء حوائج للناس عند نائب الشام وكاتب الولايات .

---

(1) زيادة يقتضيها السياق . واعتباراً من هذه السنة ينقطع ذكر الخليفة العباسي المتوكل على الله الثالث لوفاته في العام الماضي ، وانقضاء أمر الخلافة العباسية (الاسمية) الثانية بمصر نهائياً بمماته .

(2) الباشات والقضاة ، ص 13 . وبدمشق أسرة معروفة (سنان) لعلها من أعقابه مثلاً ؟

(3) الكواكب ، 3: 121 .

قال ابن طولون [1] :

وحذوه فيه حذو شيخه الشيخ محمد بن عِراق . وسألتُه عن سنّه وقت موت الشيخ محمد الجلجولي رضي الله عنه ، فقالَ : نحو ثمان سنين [2] .

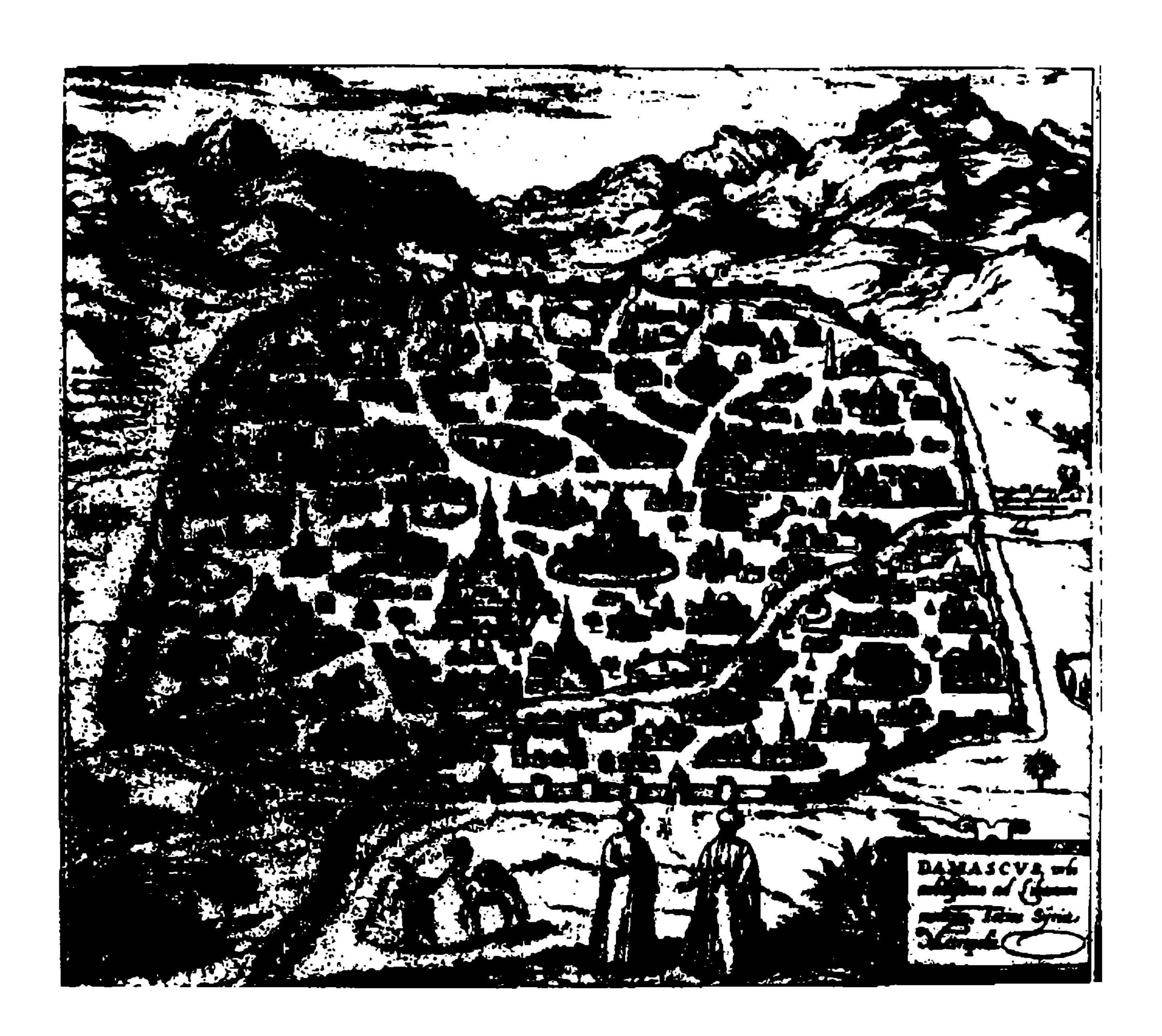
* * * * *

[تم الكتاب]

(1) كان هذا آخر ما استطعنا العثور عليه من أخبار القسم الثاني الضائع من كتاب ابن طولون الثمين «مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان» ، وكنا نتمنى لو ظفرنا به كاملاً ونشرناه بحلّته الأصلية ، غير أن الأماني تبقى رهينة الواقع ، وما قدّر الله فهو كائن . وعذرنا أننا بذلنا في عملنا هذا غاية الجهد والطاقة ، وحسبنا منه أننا استطعنا استرجاع ما يغطي كامل سنيه إجمالاً ، بين 927-951 هـ كاملة دون نقص سنة واحدة . ولله ترجع الأمور .

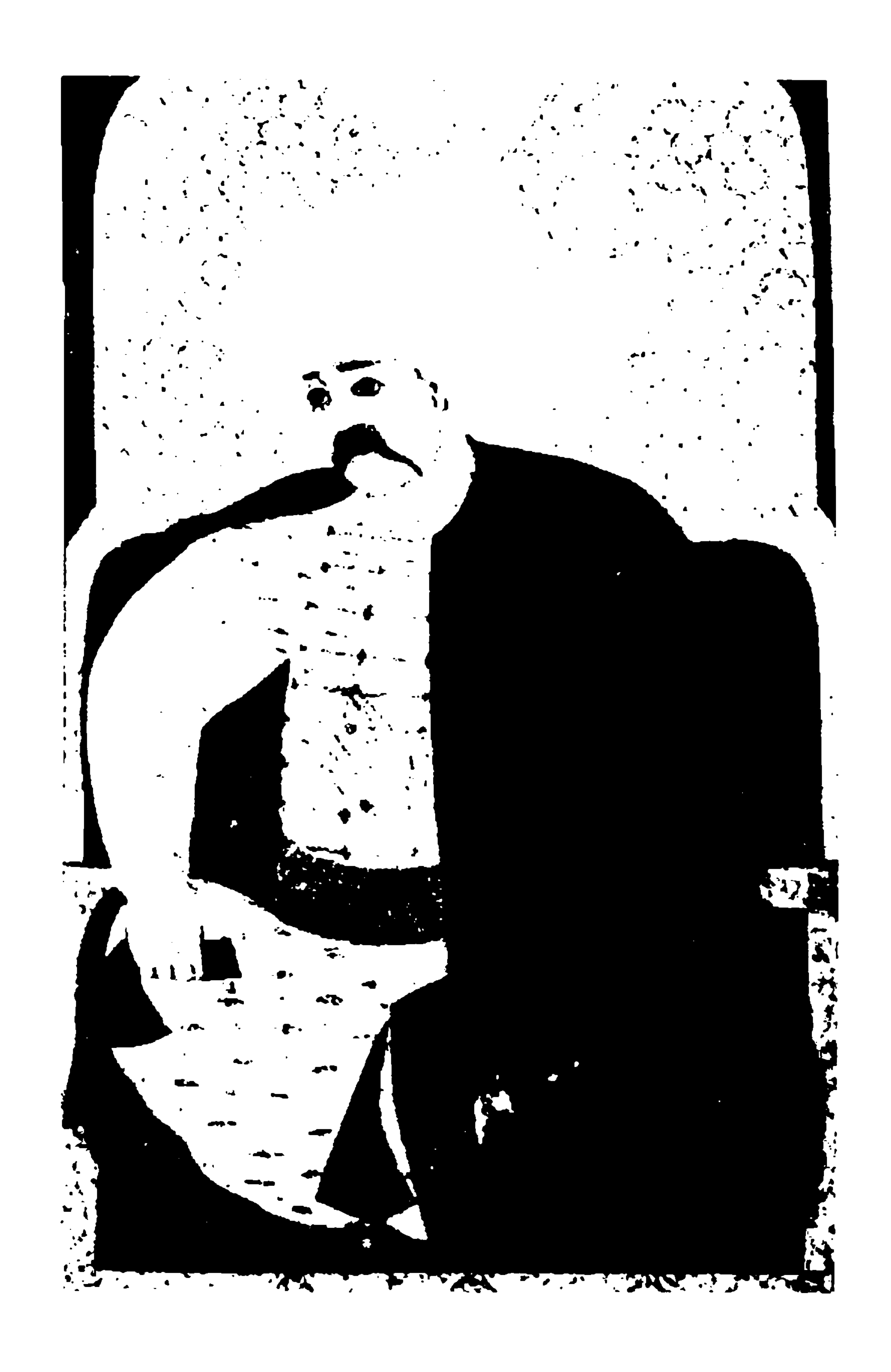
(2) كتب الغزي في الكواكب : قلت : وتقدّم أن وفاته كانت سنة عشر وتسعمائة .

صور الكتاب



صورة منظورية نادرة تمثل خريطة لمدينة دمشق عام 1575 م

عن نقيشة نحاسية من كتاب مطبوع باللاتينية لهوگنبرك Hogenbergh



منمنمة قديمة تمثل السلطان سليم خان الأول



السلطان سليمان خان القانوني عام 933 هـ/ 1526 م

عن نقيشة خشبية قديمة للفنان الهولندي يان سفارت Jan Swaart



لوحة زيتية قديمة تمثل السلطان سليمان خان القانوني



مجموعة من عسكر الإنكشارية

صورة من القرن التاسع عشر عن نقيشة حجرية من القرن السادس عشر

محفوظة في المكتبة الوطنية بڤيينا



نقيشة فرنسية قديمة من عام 1568 م
تمثل عسكرياً من طائفة الإنكشارية



نقيشة خشبية قديمة من عام 1576 م تمثل أحد فرسان السپاهية
للفنان الفرنسي ملكيور لوريش Melchior Lorich



مجموعة نقيشات من كتاب فرنسي عن الدولة العثمانية مطبوع عام 1568 م تمثل شخصيات مختلفة من المجتمع ورد ذكرها في الكتاب ، من اليمين إلى اليسار : جندي إنكشاري – قاضي العسكر – تاجر عربي – طبيب يهودي – امرأة باللباس السوري – إحدى بنات الخطا



لوحة قديمة تمثل فتوحات العثمانيين في هنگاريا

إثر معركة موهاكس Mohács 928 هـ/ 1521 م

ويبدو السلطان سليمان وهو يتحاور مع مستشاريه تحت الوطاق السلطاني



لوحة قديمة تمثل الفتح العثماني لجزيرة رودس عام 928 هـ/ 1521 م

معقل فرسان القديس يوحنا - انظر النص (صفحة 154)

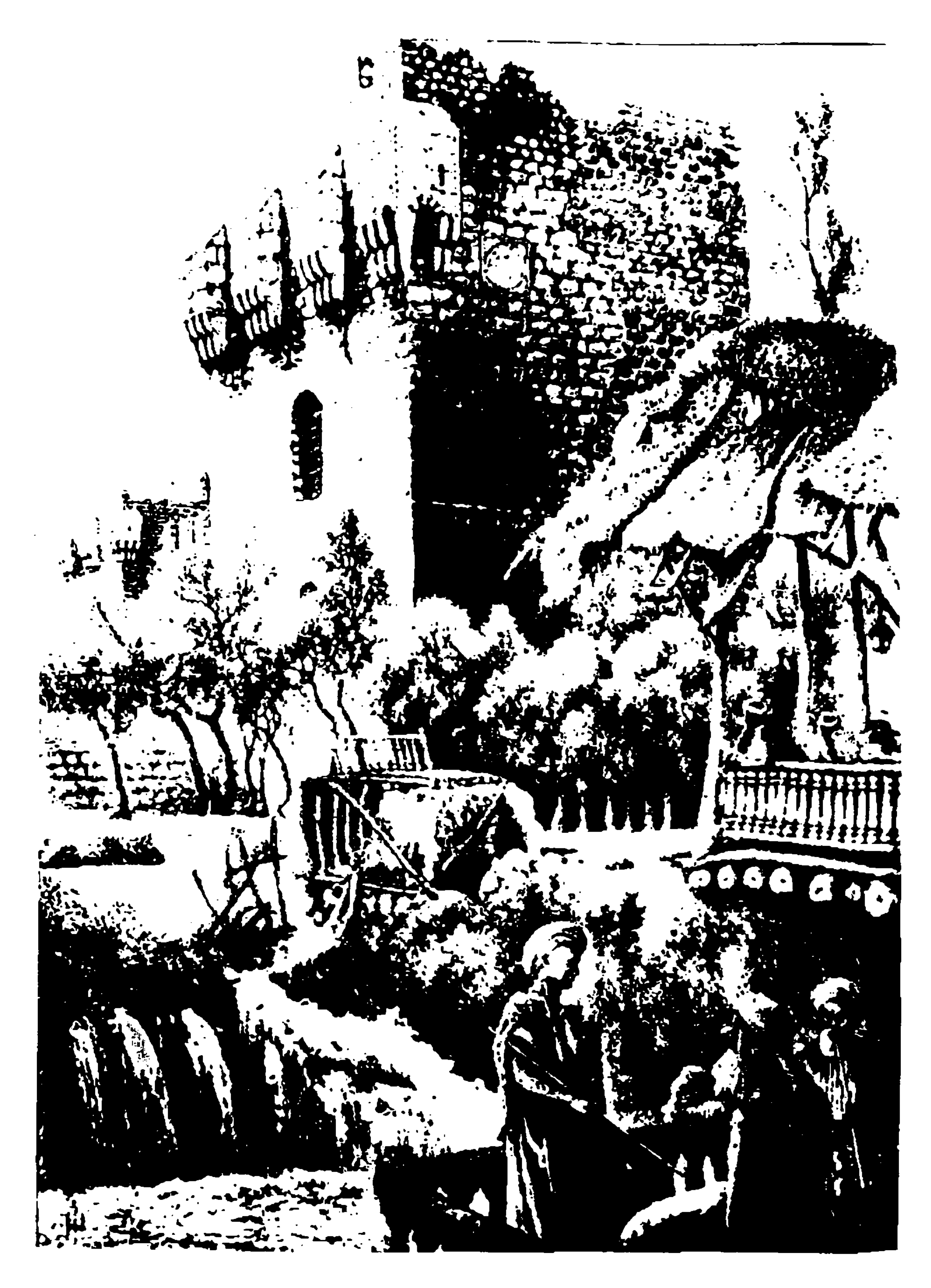
ويبدو السلطان سليمان وهو يعطي تعليماته لحفر النقوب تحت أسوار الجزيرة



نقيشة معدنية قديمة من أواسط القرن التاسع عشر

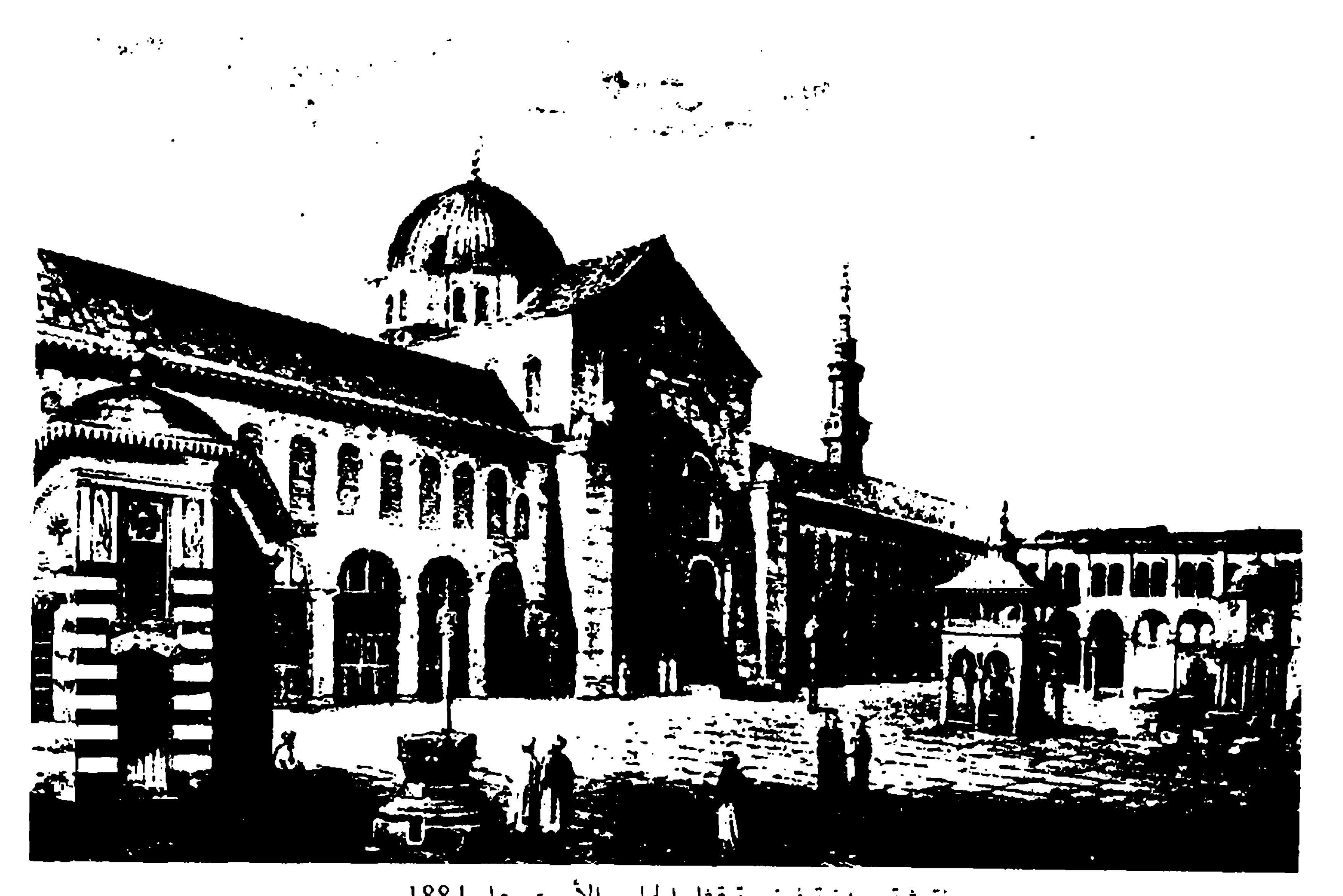
عن كتاب Picturesque Palestine

تمثل المدرسة التغري ورمشية قرب سوق الخيل ، هدمت عام 1928



نقيشة معدنية قديمة عن كتاب Picturesque Palestine

تمثل الزاوية الشمالية الشرقية من قلعة دمشق

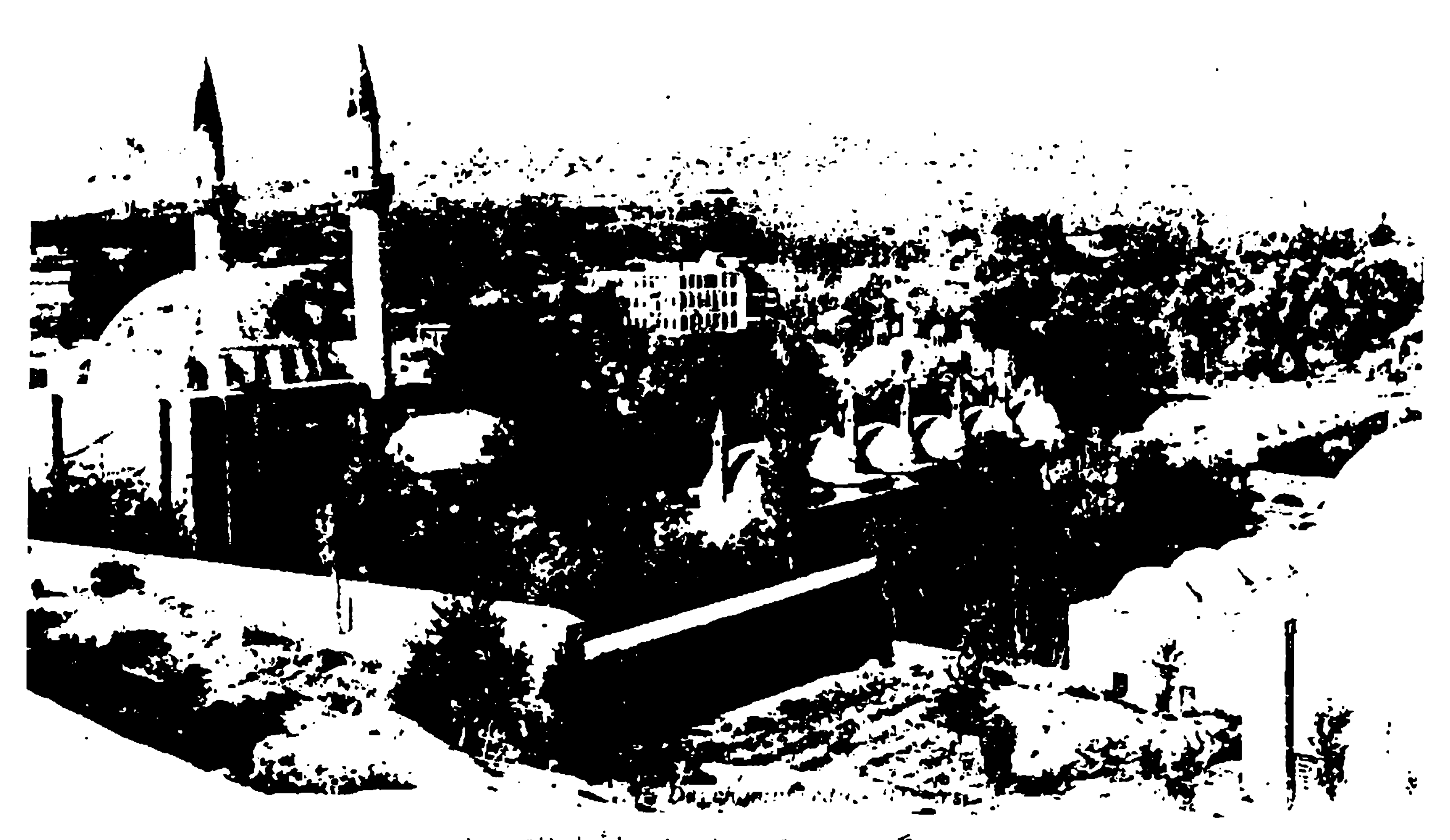


نقيشة معدنية فرنسية تمثل الجامع الأموي عام 1884 م

عن كتاب : Dr. Lortet: La Syrie d'Aujourd'hui

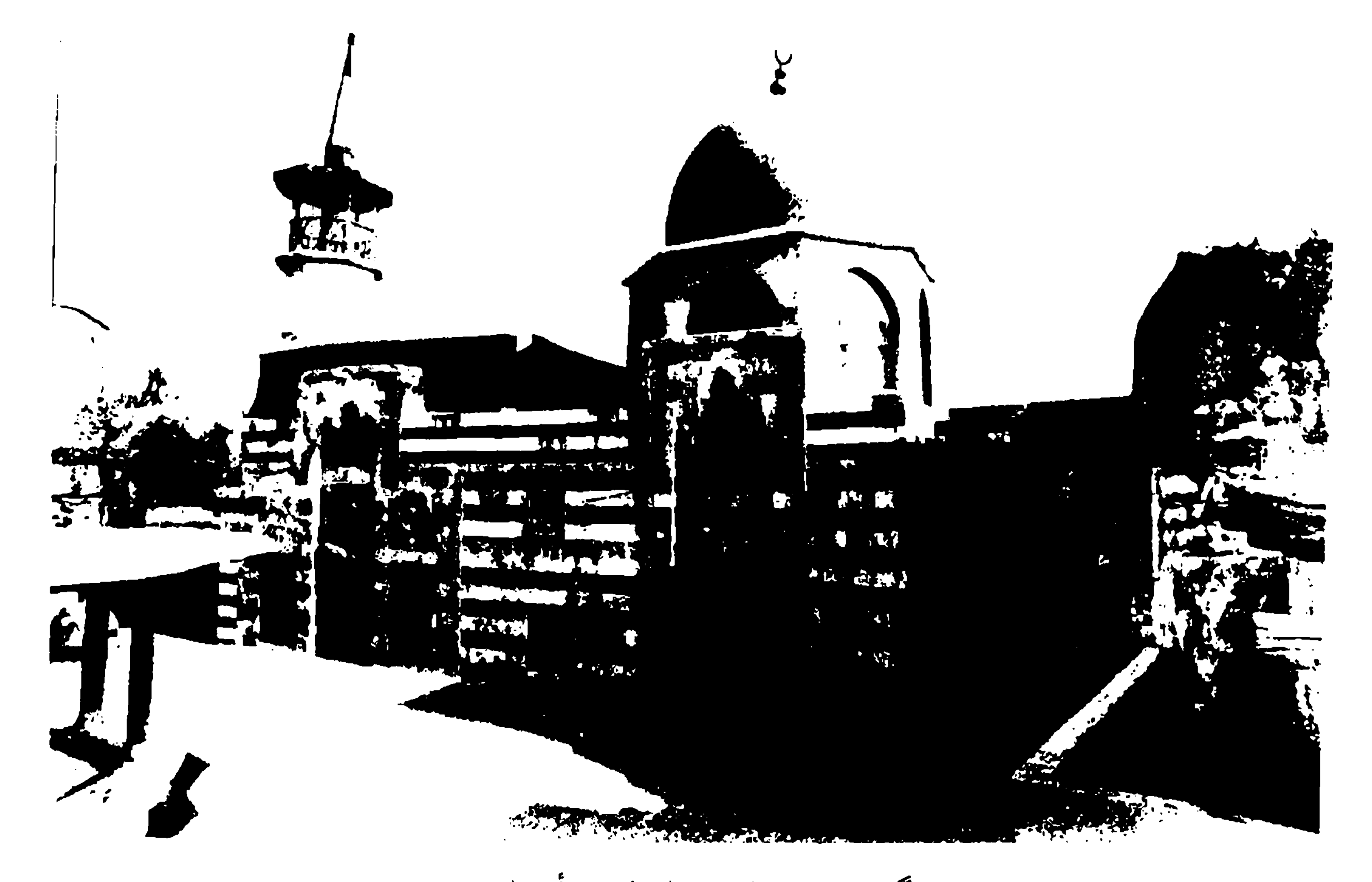


نقيشة معدنية نادرة من النصف الثاني للقرن التاسع عشر
تمثل دار الحديث الناصرية (يمين الصورة) وجامع الأفرم (يسار الصورة)

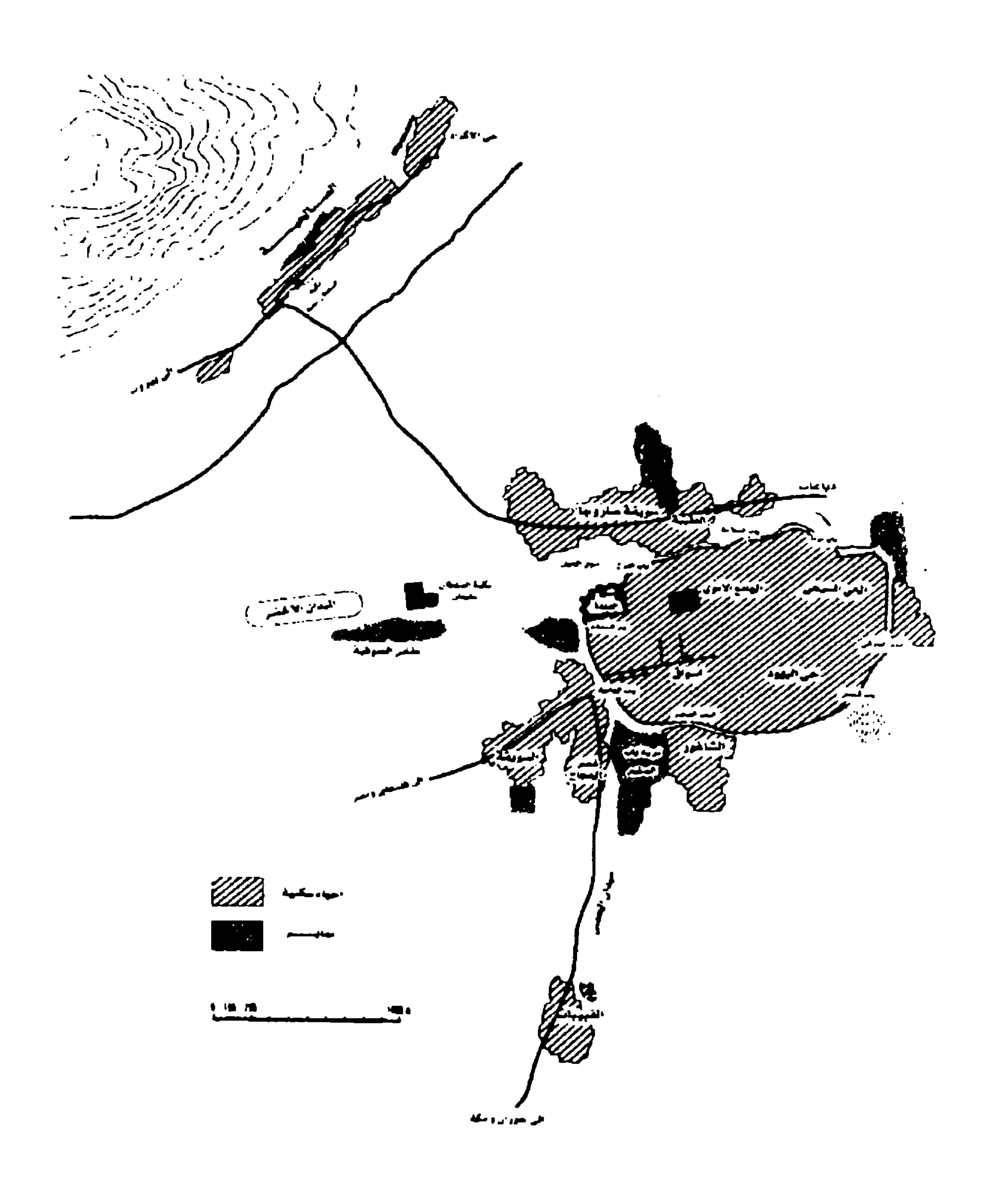


صورة فوتوگرافية قديمة من النصف الأول للقرن العشرين

تمثل تكية السلطان سليمان القانوني ، بنيت عام 962-967 هـ



صورة فوتوگرافية حديثة تمثل مقام الشيخ أرسلان بدمشق
أخذنا الصورة عام 1984 قبل أعمال الترميم التي أدت إلى تشويه معالم البناء



خريطة دمشق في القرن السادس عشر الميلادي

مسرد
المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة

- الباشات والقضاة بدمشق : محمد ابن جمعة المقّار ، مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق ، برقم : 7522 ، وهي اليوم محفوظة في مكتبة الأسد .

- الباشات والقضاة بدمشق : محمد ابن جمعة المقّار ، مخطوطة مكتبة الدولة في برلين ، برقم : 418 (II) .9785 We .

- الباشات والقضاة بدمشق : محمد ابن جمعة المقّار ، مخطوطة مكتبة الدولة في برلين ، برقم : 188 .9785 Spr .

- تاريخ ابن سباط (الجزء الثاني : 526 - 926 هـ) : حمزة بن أحمد ابن سباط العاليهي ، مخطوطة مكتبة يافث في الجامعة الأميركية في بيروت ، برقم : Ms-956.9/113 .

- تاريخ السلطان سليم مع قانصوه الغوري : أحمد بن علي ابن زُنْبُل الرّمّال ، جزءان ، دار الكتب المصرية بالقاهرة ، برقم : 44 و 129 .

- التذكرة الأيوبية : شرف الدين موسى بن يوسف الأيوبي الأنصاري ، مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق بخط المؤلف ، برقم : 7814 ، وهي اليوم محفوظة في مكتبة الأسد .

- التذكرة الأيوبية : شرف الدين موسى بن يوسف الأيوبي الأنصاري ، مخطوطة مكتبة الدولة في برلين ، برقم : 9887 .

- حدائق الياسمين في قوانين الخلفاء والسلاطين : محمد بن عيسى ابن كنّان الصالحي الدمشقي ، مخطوطة مكتبة الدولة في برلين ، برقم : 5631 .

- حدائق الياسمين في قوانين الخلفاء والسلاطين : ابن كنّان الصالحي الدمشقي ، مخطوطة مكتبة چستر بيتي بإيرلندة (نسخت عام 1204 هـ) ، برقم 3548/5 . وصورة عنها بمكتبة يافث في الجامعة الأميركية في بيروت .

- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران : شهاب الدين أحمد ابن محمد الشهير بابن الحمصي ، مخطوطة مكتبة الڤاتيكان ، برقم : 273 .

- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران : ابن الحمصي ، مخطوطة مكتبة فيض الله أفندي باستانبول (الجزء الأول) ، برقم : 1438 ، نسخة مصورة عنها في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، برقم : 222 تاريخ .

- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران : ابن الحمصي ، مخطوطة مكتبة جامعة كامبريدج (الجزء الثاني) ، برقم : Ddv 1102 ، نسخة مصورة عنها في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، برقم : 51 تاريخ (2/222) .

- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران : ابن الحمصي ، مخطوطة مكتبة رفاعة رافع الطهطاوي بسوهاج بمصر (الجزء الثالث) ، برقم : 439 ، نسخة مصورة عنها في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، برقم : 239 تاريخ .

- ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، مخطوطة مسوّدة المؤلف في مكتبة يافث بالجامعة الأميركية في بيروت ، برقم : Ms-920.02/I132tA .

- ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، مخطوطة الخزانة التيمورية بمصر ، برقم : 1422 ، في دار الكتب المصرية .

- ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، مخطوطة مكتبة جامعة غوطا بألمانيا (نسخت سنة 1159 هـ) برقم : 1779 .

- ذكر من تولى دمشق من البكلربكية العظام : مجهول المؤلف ، مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق ، برقم : عام 4681 .

- الروض العاطر فيما تيسّر من أخبار القرن السابع إلى ختام القرن العاشر : شرف الدين موسى بن يوسف الأيوبي الأنصاري ، مخطوطة مكتبة الدولة في برلين بخط المؤلف ، برقم : 9886 .

- سليمان نامه (بالتركية) : قرا چلبى زاده عبد العزيز افندى ، دار الكتب المصرية ، قسم الكتب التركية ، (فهرس دار الكتب ، 359) .

- غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، مخطوطة مكتبة الدولة في برلين ، برقم : 10106 .

- الغرف العليّة في تراجم متأخري الحنفية (أو الذيل على طبقات الحنفية) : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، مخطوطة المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية ، برقم : 631 تاريخ .

- الغرف العليّة في تراجم متأخري الحنفية : محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، مخطوطة مكتبة المتحف البريطاني ، برقم : 3046 .

- الغرف العليّة في تراجم متأخري الحنفية : ابن طولون الصالحي ، مخطوطة مكتبة شهيد علي باستانبول ، برقم : 1924 تاريخ .

- مآثرى سليم خان (بالتركية) : قوجه نشانجى مصطفى جلال زاده ، مخطوطة مكتبة المتحف البريطاني ، برقم : Add. 7848 .

- المروج السندسية الفيحيّة في تلخيص تاريخ الصالحيّة : محمد بن عيسى ابن كنّان الصالحي الدمشقي ، مخطوطة مكتبة الدولة في برلين بخط المؤلف ، برقم : 9789 (We II 1117) .

- المروج السندسية الفيحيّة في تلخيص تاريخ الصالحيّة : محمد بن عيسى ابن كنّان الصالحي الدمشقي ، مخطوطة مكتبة چستر بيتي في إيرلندة (نسخت عام 1204 هـ) ، برقم : 3548/3 .

- مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، مخطوطة في مكتبة جامعة توبنگن بألمانيا بخط المؤلف ، برقم : Ma VI, 7 .

- المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية : لابن كنّان الصالحي ، مخطوطة مكتبة الدولة في برلين ، برقم : 6088 .

- المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية : لابن كنّان الصالحي ، مخطوطة مكتبة چستر بيتي في إيرلندة (نسخت عام 1204 هـ) ، برقم : 3548/4 .

- نزهة الخاطر وبهجة الناظر : شرف الدين موسى بن يوسف الأيوبي الأنصاري ، مخطوطة المكتبة الظاهرية بدمشق بخط المؤلف ، برقم : 7814 .

المراجع العربية

- أخبار الأعيان في جبل لبنان : طنوس الشدياق ، الطبعة الأولى ، بيروت 1895 . والطبعة الثانية ، بيروت 1954 .

- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ : أحمد بن يوسف القرماني ، بعناية المفتي محمد أمين بن أحمد ، بغداد 1282 هـ .

- الإدارة العثمانية في ولاية سورية : عبد العزيز محمد عوض ، دار المعارف بمصر ، القاهرة 1969 .

- إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق الشيخ محمد أحمد دهمان ،

مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق 1964 .

- إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق عبد العظيم حامد خطاب ، مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة 1973 .

- الباشات والقضاة في دمشق : محمد بن جمعة المقّار ، نشره صلاح الدين المنجد مضافاً لنص الوزراء الذين حكموا دمشق لرسلان بن يحيى القاري ، بعنوان : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق 1949 .

- بدائع الزهور في وقائع الدهور : محمد بن أحمد ابن إياس الحنفي ، تحقيق محمد مصطفى ، منشورات جمعية المستشرقين الألمانية ، دار المعارف بمصر 1951 ، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة ، 1960 - 1963 ، 1972 - 1975 .

- البرق اليماني في الفتح العثماني : قطب الدين محمد بن أحمد المكي النهروالي ، تحقيق حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض 1967 .

- بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (1516 - 1799) : الدكتور عبد الكريم رافق ، الطبعة الثانية ، دمشق 1968 .

- تاريخ ابن سباط (صدق الأخبار) : حمزة بن أحمد ابن سباط الغربي العاليهي ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري ، طبعة جرّوس برس ، طرابلس 1993 .

- تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي (نزهة الزمان في تاريخ جبل لبنان) ، نشرة نعّوم مغبغب ، القاهرة 1900 - 1901 .

- تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي (لبنان في عهد الأمراء الشهابيين) ، تحقيق الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت 1969 .

- تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني : عيسى اسكندر المعلوف ، الطبعة الثانية ، بيروت 1966 .

- تاريخ البصروي : علاء الدين علي بن يوسف الدمشقي البصروي ، تحقيق أكرم حسن العلبي ، دار المأمون للتراث ، دمشق 1988 .

- تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية : الدكتور علي حسّون ، المكتب الإسلامي ، دمشق 1980 .

- تاريخ الدولة العليّة العثمانية : محمد فريد بك ، الطبعة الثانية ، مطبعة محمد أفندي مصطفى ، مصر 1896 .

- تاريخ الدولة العليّة العثمانية : محمد فريد بك المحامي ، تحقيق الدكتور إحسان حقي ، دار النفائس ، بيروت 1981 .

- تاريخ سلاطين آل عثمان من أول نشأتهم حتى الآن : يوسف آصاف ، طبعة هولاندة 1919 . وطبعة جديدة بتحقيق بسام عبد الوهاب الجابي ، دار البصائر ، دمشق 1985 .

- تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان ، دار العلم للملايين ، بيروت 1949 .

- تاريخ مصر في العهد العثماني (1517 - 1798) ، ضمن كتاب المجمل في تاريخ مصر العام : د. حسن عثمان ، نشره حسن إبراهيم حسن ، القاهرة 1942 .

- تراجم الأعيان من أبناء الزمان : الحسن بن أحمد البوريني ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1959 - 1963 .

- التعريف بالمصطلح الشريف : ابن فضل الله العمري ، مطبعة العاصمة بمصر 1894 .

- التعليق (مذكرات يومية كتبت بدمشق ، 885 - 908 هـ) : شهاب الدين أحمد ابن طوق ، الجزء الأول (885 - 890 هـ) ، تحقيق جعفر المهاجر ، مراجعة أحمد إيبش ، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، 2000 .

- التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني : أحمد عزت عبد الكريم ، حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس ، المجلد الأول ، مايو 1951 .
- التمتع بالإقران بين تراجم الشيوخ والأقران : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي، نشره صلاح الدين الموصلي ، مطبعة الفردوس ، دمشق 1986 .
- الثغر البسّام فيمن ولي قضاء الشام : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، مطبعة الترقي 1956 .
- ثمار المقاصد في ذكر المساجد : يوسف ابن عبد الهادي ، تحقيق محمد أسعد طلس ، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بدمشق ، 1943 .
- حدائق الياسمين في قوانين الخلفاء والسلاطين : محمد بن عيسى ابن كنّان الصالحي الدمشقي ، تحقيق عباس صباغ ، دار النفائس ، بيروت 1991 .
- حوادث دمشق اليومية (1154 - 1175 هـ) : أحمد البديري الحلاّق ، تحقيق أحمد عزّت عبد الكريم ، الطبعة الأولى ، مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة 1959 .
- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران : شهاب الدين أحمد ابن محمد الشهير بابن الحمصي ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت 1999 .
- خطط الشام : محمد كرد علي ، الطبعة الأولى ، مطبعة الترقي ، دمشق 1925 - 1928 .
- الدارس في تاريخ المدارس (تنبيه الطالب وإرشاد الدارس) : عبد القادر النعيمي ، تحقيق الأمير جعفر الحسني ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق 1948 - 1951 .
- دائرة المعارف (قاموس عام لكل فن ومطلب) : بإدارة فؤاد أفرام

البستاني ، مادة (ابن طولون) للدكتور صلاح الدين المنجد ، الجزء الثالث ، صفحة 318 ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1960 .

- درّ الحبب في تاريخ أعيان حلب : رضي الدين محمد بن إبراهيم الحلبي الحنبلي ، تحقيق محمود الفاخوري ويحيى عبّارة ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1972 - 1974 .

- الدرّ المصان في سيرة المظفّر سليم خان : علي بن محمد اللخمي الإشبيلي ، تحقيق هانس إرنست ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة 1962 .

- دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام ، إبّان العصر العثماني : د . ليلى عبد اللطيف أحمد ، مكتبة الخانجي بمصر 1980 .

- الدرّة المضيّة في الدولة الظاهرية (السلطان الظاهر برقوق) : محمد ابن محمد بن صصرى ، تحقيق وليم برينر ، مطبعة جامعة كاليفورنيا ، بركلي ولوس آنجليس 1963 .

- دمشق بين عصري المماليك والعثمانيين 906 - 922 هـ : أكرم حسن العلبي ، الشركة المتحدة للتوزيع ، دمشق 1982 .

- دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين : أحمد الإيبش و د . قتيبة الشهابي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1998 .

- دمشق الشام ، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة حتى العصر الحاضر : جان سوفاجيه ، تعريب فؤاد أفرام البستاني ، بيروت 1936 .

- دور أسرة آل الحنش ، والمهام التي أوكلت إليها في ريف دمشق الشام 790 - 976 هـ : د . محمد عدنان البخيت ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان 13-14 تشرين الأول 1983 ، ص 88 - 137 .

- الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها : عبد العزيز محمد الشناوي ، القاهرة 1980 .

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك : غرس الدين خليل ابن شاهين الظاهري ، نشره پول راڤيس ، المطبعة الجمهورية ، باريس 1894 .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب : محمد ابن العماد الحنبلي ، نشرة حسام الدين القدسي ، مطبعة القدسي ، القاهرة 1350 - 1351 هـ .
- الشذرات الذهبية في تراجم الأئمة الإثني عشر عند الإمامية : محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت 1958 .
- ضرب الحوطة على جميع الغوطة : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق محمد أسعد طلس ، مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد 21 (عام 1946) ، ص 149 - 161 ، 236 - 247 ، 338 - 351 .
- العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك ، مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار : ابن أجا الحلبي ، تحقيق ودراسة محمد أحمد دهمان ، دار الفكر ، دمشق 1986 .
- العرب والأتراك ، دراسة لتطور العلاقات بين الأمتين خلال ألف سنة : عبد الكريم غرايبة ، مطبعة جامعة دمشق 1961 .
- العرب والعثمانيون 1516 - 1916 : الدكتور عبد الكريم رافق ، مكتبة أطلس ، دمشق 1974 .
- عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام : محمد خليل بن علي المرادي ، تحقيق محمد مطيع الحافظ ورياض عبد الحميد مراد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق 1979 .
- عشائر الشام : أحمد وصفي زكريا ، مطبعة دار الهلال ومطبعة اليقظة العربية ، دمشق 1945- 1947 .
- عقود الجوهر في تراجم من لهم خمسون تصنيفاً فمئة فأكثر : جميل العظم ، المطبعة الأهلية ، بيروت 1326 هـ .

- غاية البيان في ترجمة الشيخ أرسلان : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق أحمد إيبش ، دمشق 1984 .
- الفتح العثماني لبلاد الشام ومصر ومقدّماته ، من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له : د. أحمد فؤاد متولّي ، مكتبة النهضة ، القاهرة 1976 .
- الفتح العثماني لسورية ومطلع العهد العثماني فيها : ليلى الصبّاغ ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، 1961 .
- الفُلك المشحون في أحوال محمد بن طولون : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، نشرة حسام الدين القدسي ، مكتبة القدسي وبدير ، دمشق 1348 هـ .
- فهرست الكتب التركية الموجودة في الكتبخانة الخديوية : علي حلمي الداغستاني ، مصر 1306 هـ .
- في أصول التاريخ العثماني : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار الشروق للنشر ، بيروت 1982 .
- قانون بني عثمان ، المعروف بآصف نامه : لطفي باشا وزير السلطان سليمان الكبير ، نشره الأب لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1911 .
- القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق الشيخ محمد أحمد دهمان ، مكتب الدراسات الإسلامية ، دمشق 1949 - 1956 .
- قيام الدولة العثمانية : محمد فؤاد كوپريلّي ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة 1967 .
- الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة : الشيخ نجم الدين الغزي ، تحقيق د. جبرائيل سليمان جبّور ، منشورات كلية الآداب والعلوم بالجامعة

الأميركية في بيروت 1945 - 1958 .
- المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني : د. ليلى الصباغ ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1973 .
- مجتمع مدينة دمشق 1186 - 1256 هـ : د. يوسف جميل نعيسة ، دار طلاس ، دمشق 1986 .
- المروج السندسية الفيحيّة في تلخيص تاريخ الصالحيّة : محمد بن عيسى ابن كنّان الصالحي الدمشقي ، تحقيق الشيخ محمد أحمد دهمان ، مطبوعات مديرية الآثار العامة ، دمشق 1947 .
- مسجد خالد بن الوليد ، أول مسجد بدمشق منذ الفتح الإسلامي : أحمد الإيبش ، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، المجلد 35 (1985) ص 417 - 431 .
- معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة : الدكتور صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت 1978 .
- مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، تحقيق محمد مصطفى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي والمؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1962 - 1964 .
- مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان : شمس الدين محمد ابن طولون الصالحي الدمشقي ، طبعة مسروقة وممسوخة ، بعناية خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1998 .
- المنح الرحمانية في الدولة العثمانية : ابن أبي السرور البكري الصدّيقي ، تحقيق د. ليلى الصبّاغ ، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي ، دار البشائر ، دمشق 1995 .
- المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية : لابن كنّان الصالحي ،

تحقيق د. حكمت إسماعيل ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1992 - 1993 .

- مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري : محمد عبد الله عنان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1969 .

- المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة : الدكتور صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت 1964 .

- المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة من القرن الثالث إلى القرن العاشر الهجري : د. صلاح الدين المنجد ، مطبعة مصر ، القاهرة 1956 .

- المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي : د. محمد مصطفى زيادة ، القاهرة 1954 .

- ميزانيات الشام في القرن السادس عشر : د. خليل ساحلي أوغلو ، بحث ألقي في المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، الجامعة الأردنية 1974 ، نشر في بيروت 1974 .

- نزهة الأنام في محاسن الشام : لأبي البقاء البدري ، منشورات المكتبة العربية ببغداد ، بعناية صاحبها نعمان الأعظمي ، المطبعة السلفية بمصر 1341 هـ .

- نزهة الخاطر وبهجة الناظر : شرف الدين موسى بن يوسف الأيوبي الأنصاري ، تحقيق عدنان محمد إبراهيم ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1991 .

- نهاية سلاطين المماليك : د. محمد مصطفى زيادة ، المجلة التاريخية المصرية ، مايو 1951 .

- واقعة السلطان سليم بن عثمان مع السلطان الغوري : أحمد بن زُنبل الرمّال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، بعنوان : آخرة المماليك ، القاهرة 1962 .

- الوزراء الذين حكموا دمشق : رسلان بن يحيى القاري ، نشره صلاح الدين المنجد مضافاً لنص الباشات والقضاة لمحمد بن جمعة المقار بعنوان : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق 1949 .

- وصف دمشق في أيام الملك الظاهر بيبرس : نصوص للقزويني ، نشرها أحمد الإيبش ، دمشق 1983 .
- وصف دمشق في القرن السابع عشر : من مذكرات الرحالة الفرنسي الفارس دارڤيو ، نشرها وترجمها أحمد الإيبش ، دار المأمون ، دمشق 1982 .
- وصف دمشق من خلال نصوص نادرة لبعض الرحالين الأوروبيين من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر : موندڤيل ، دى لابروكيير ، بولون ، مانريك ، إعداد وترجمة أحمد الإيبش ، دمشق 1984 . ونشرت مقتطفات منها في كتاب : دمشق الشام أقدم مدينة في العالم (ص 25-27) ، لأيوب سعدية ، دمشق 1989 .
- ولاة دمشق في العهد العثماني : نصوص لمحمد بن جمعة المقّار ورسلان ابن يحيى القاري ، جمعها وحققها صلاح الدين المنجد ، دمشق 1949 .
- ولاة دمشق في عهد المماليك : محمد أحمد دهمان ، مكتب الدراسات الإسلامية بدمشق 1964 .

المراجع التركية
القديمة والحديثة

- اوليا چلبى سياحتنامه سى (1041 - 1091 هـ) : اوليا چلبى محمد ظلى ابن درويش ، طابعى احمد جودت ، اقدام مطبعه سى ، در سعادت 1314 هـ .
- بيوك تاريخ عمومى : محررى أحمد رفيق ، ناشرى كتابخانه اسلام وعسكرى صاحبى إبراهيم حلمى ، ايكنجى طبع ، استانبول 1328 .
- تاج التواريخ : خواجه أفندى سعد الدين ، استانبول 1280 .
- تاريخ دولت عليه : خير الله أفندى ، مطبعه شاهانيه ، استانبول 1273 .

- تاريخ سياسي دولت عليه عثمانيه : كامل باشا ، استانبول 1327 هـ .
- رسملى وخريطه لى تاريخ عثمانى : محررى أحمد راسم ، ناشرى اقبال كتبخانه سى صاحبى حسين ، شمس مطبعه سى ، استانبول 1328 هـ .
- رسملى قاموس عثمانى : محررى على سيدى ، ناشرى مطبعه وكتبخانه جهان صاحبى مهران ، دار الخلافة العليه 1330 هـ .
- سالنامه دولت عليّه عثمانيّه ، 1318 سنه هجريه سنه مخصوص ، اللى التنجى دفعه ، دار الخلافة العلية ، محمود بك وسرويچن مطبعه لرى 1316 .
- سالنامه ولايت سوريه ، يكرمى دردنجى دفعه ، 1309 - 1310 سنه هجريه (رومى 1308) .
- شقائق نعمانيه (في علماء الدولة العثمانية) : أحمد بن مصطفى طاشكپرى زاده معروفدر ، طبعخانه شاهانيه عامره ، استانبول 1269 هـ .
- صحائف الأخبار : منجم باشى أحمد ابن لطف الله ، استانبول 1285 .
- قاموس الأعلام (تاريخ وجغرافيا لغاتنى) : شمس الدين سامي ، مهران مطبعه سى ، استانبول 1306 - 1316 .
- مجموعة منشآت السلاطين : أحمد فريدون بك ، استانبول 1274 هـ .
- محاسن الآثار : أحمد واصف ، استانبول 1319 هـ .

- Barkan, Ömer Lutfi: *XV. ve XVI.ıncı asırlarda Osmanlı imparatorluğunda ziraî ekonominin hukukî ve malî esasları.* Cilt I. Kanunlar. İstanbul, 1943.
- Evliya Çelebi: *Seyahatnamesi*, 9uncu cilt, Anadolu, Suriye ve Hicaz, Devlet Matbaası, İstanbul, 1935.
- Uzunçarşılı, Ismail Hakkı: *Osmanlı devletinin teşkilâtından Kapukulu ocakları*, 2 cilt, Ankara, 1943-1944.
- Uzunçarşılı, Ismail Hakkı & Karal, Enver Ziya: *Osmanlı Tarihi*, 10 cilt, Türk Tarih Kurumu Yayınları, Ankara, 1947-1983.

المراجع الفرنسية

- Abdel-Nour, Antoine, *Introduction à l'Histoire Urbaine de la Syrie Ottomane*. Publications de l'Université Libanaise, Beyrouth, 1982.
- Encyclopédie de l'Islam (nouvelle édition), Leyde, E. J. Brill, 1960.
- von Hammer - Purgstall, Joseph, *Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours*, traduite de la langue allemande par J. J. Hellert, 18 Vols., Bellizard, Paris, 1835-43.
- Laoust, Henri, *Les Gouverneurs de Damas sous les Mamlouks et les premiers Ottomans*, Traduction des annales d'Ibn Tulun et d'Ibn Gum'a. L'Institut Français de Damas, 1952.
- du Mans, Pierre Belons, *Les Observations de plusieurs Singularités et Choses Mémorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie, etc. (de 1546 à 1549)*, Paris, 1553.
- Mantran, Robert (Editeur) et autres, *Histoire de l'Empire Ottoman*, Librairie Fayard, Paris, 1989.
- Mantran, R., & Sauvaget, J., *Règlements Fiscaux Ottomans dans les Provinces Syriennes*, Beyrouth, 1951.
- Sauvaget, Jean, «Esquisse d'une histoire de la ville de Damas», *Revue des Études Islamiques*, IV (1934), pp. 421-80.
- Masson, Paul, *Histoire du Commerce Français dans le Levant au XVII^e Siècle*, Paris, 1896.

المراجع الإنكليزية

- Bakhit, M. 'Adnan, *The Ottoman Province of Damascus in the Sixteenth Century*, Librairie du Liban, Beirut, 1982.
- Bowen, H. & Gibb, H. A. R., *Islamic Society and the West*, Vol. I, in 2 parts. Oxford University Press, London, 1951-1957.

- Creasy. Edward S., *History of the Ottoman Turks from the beinning of their Empire to the present time*, London 1877, reprinted by Khayats, Beirut, 1961.
- Dedeoğlu, Abdülkadir, *Album of the Ottomans*, translated by H. Ismail Ercan, Osmanlı Yayınevi, Istanbul, 1982.
- Inalcık, Halil, «The Emergence of the Ottomans», *The Cambridge History of Islam*, 2 vols. edited by P. M. Holt, A. K. S. Lambton and B. Lewis, Cambridge 1970. Vol. I, pp. 263-291.
- Inalcık, Halil, «The Heyday and Decline of the Ottoman Empire», *The Cambridge History of Islam*, 2 vols. edited by P. M. Holt, A. K. S. Lambton and B. Lewis, Cambridge 1970. Vol. I, pp. 324-353.
- Inalcık, Halil, *The Ottoman Empire. The Classical Age, 1300-1600*, translated by N. Itzkowitz & C. Imber, London 1973.
- Inalcık, Halil, *The Ottoman Empire, conquest, organization and economy*, (collected studies), Variorum Reprints, London 1978.
- Inalcık, Halil, «Ottoman Methods of Conquest», *Studia Islamica*, II (1954), pp. 102-129.
- Lapidus, I., *Muslim Cities in the Latter Middle Ages*, Cambridge, Massachusetts, 1967.
- Lewis, B., «The Ottoman Archives as a source for the history of the Arab lands», *Journal of the Royal Asiatic Society*, October 1951.
- Lybyer, A. H., *The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent*, 2nd impression, New York, 1966.
- Poliak, A. N., *Feudalism in Egypt, Syria, and the Lebanon*, 1250-1900, London, 1939.
- Shaw, Stanford, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*: vol. I: The Empire of the Ghazis: The Rise and the Decline of the Ottoman Empire, 1280-1808, Cambridge Univ. Press, 1977.
- Toynbee, Arnold J., *The Ottoman State and its place in World History*, edited by Kemal H. Karpat, Leiden, E. J. Brill, 1974.
- Wittek, Paul, *The Rise of the Ottoman Empire*, Lusac, London, 1971.
- Wood, Alfred C., *A History of the Levant Company*, London, 1935.

المراجع الألمانية

- Jansky,H., «Die Eroberung Syriens durch Sultan Selim I»; in: *Mitteilungen zur Osmanischen Geschichte*, Band II, Heft 3 u. 4, 1923-1926. S. 173-241.
- Jansky, H., «Die Chronik des Ibn Tulun als Geschichtsquelle für den Feldzug Sultan Selims I gegen die Mamluken»; in: *Der Islam*, Bd. XVIII, 1929.
- Hartmann, R., «Das Tübinger Fragment der Chronik des Ibn Tulun»; in: *Schriften der Königsberger Gelehrten Gesellschaft*, 3. Jahr, Heft 2, Berlin, 1926, S. 118-70.
- Iorga, N., *Geschichte des Osmanischen Reiches*, Gotha, 1908-13.
- Seybold, C. F., *Verzeichnis der arabischen Handschriften der K. Universitätsbibliothek zu Tübingen*, 1907.
- Zinkeisen, J. W., *Geschichte des Osmanischen Reiches in Europa*, 7 Bände, Hamburg, 1845-1863; Neudruck, Darmstadt, 1963.

المراجع البرتغالية

- Kuraiem, Mussa, *Aconteceu em Damasco*, São Paulo, 1945.
- Manrique, Sebastião, *Viagens de fr. Sebastião Manrique, 1629-1643*, The Haklyut Society, London, 1927.

المراجع الروسية

- Н. А. ИВАНОВ: *ОСМАНСКОЕ ЗАВОЕВАНИЕ АРАБСКИХ СТРАН, 1516-1574*, ИЗДАТЕЛБСТВО «НАУКА», ГЛАВНАЯ РЕДАКЦИЯ ВОСТОЧНОИ ЛИТЕРАТУРЫ, МОСКВА, 1984.

الفهرس العام

لأسماء الأعلام والأقوام والأماكن

الواردة في متن الكتاب

فهرس

موضوعات الكتاب

- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (الجزء الثاني) :

* * * * *

back to that time. Of the most noteworthy, we can allude to the revolution of Jan-Verdi al-Ghazali, the first *Wali*, or governor, to whom the *Osmanlis* confided the *Vilayet* of Damascus just after the conquest, between 1516-1521. For the first time ever, Ibn Tolun provides us with enlarged view of the context that preceded the revolution, the sequence of acts the rebellious governor undertook, then a detailed account of how his revolt was drastically subdued, with himself having got killed.

We will see how this revolt had dramatic impact on the political policies carried out by Ottomans. It became a solemn obligation, ever since, to assign alien governors to Damascus, with service periods not exceeding one or two years, as a precaution measure not to give way to ambitious governors to contemplate mutiny.

Furthermore, the book comprises a lot of useful information about the new methods of administration adopted by Ottomans to run the province, whether on the political, military, economic, legislative, juridical or social levels. Reader will find many quotations about new taxes imposed; about how the Damascene community rejected, but rather silently, some tyrannical and obscene moves committed by the *Arwam*, or Turks by the common term; and then how this community turned out to react with its new masters, then lent itself finally to the inevitable assimilation within the orbit of the prevailing Empire

All in all, Ibn Tolun's work, drew clear outlines and frameworks of the political and civil life of Damascus, through AD 1520-1544, under the rule of Ottoman State, that was meant to last for a fraction over 400 years, just on the apogee of the realm, topped then by the ubiquitous Sultan Suleiman the Magnificent.

A true piece of history, this volume will reveal generous amount of information, never known before. That alone, in fact, will let us believe that our compilation of those torn fragments, as well as our efforts to bring them back to life, were ultimately rewarding.

A. N. I.

Born in al-Salihiya hill, north of Damascus, (AD 1476), Mohamed Ibn Tolun (wrongly transcribed before "Ibn Tulun") was a real man of literature. From the very beginning of his academic career he showed keen abilities in studying, writing and engaging important scholar positions. Moreover, he witnessed the last four decades of life-span of the Mamluk Sultanate, which, under the strikes of the Ottomans faced its total doom, in 1516-17.

More important than this, Ibn Tolun lived up to eye-witness the ferocious events that accompanied the Ottoman conquest of Damascus (1516), and the relevant tumults that followed. With vivid and highly emotional language, he described the fate of Damascus giving up to the conqueror, without the slightest sign of resistance, or even complaint! The reason behind this, was of course, the notion that put the Turks as heroes of the holy war of Islam (Jihad).

Through four years, following the conquest, Ibn Tolun set to write, in the most live and interesting style, the detailed events and reactions that marked the period of first attempts to annex Syria to the Ottoman Empire, under Sultan *Yavuz Selim* I. His accounts in the first volume of his work are absolutely unique. Despite the other chroniclers who witnessed that period, such as al-Homsi, he stood head-and-shoulders above all, being not surpassed but by Ibn Iyas, the famed Egyptian historian, author of the large and impeccable chronicle "Badaie' al-Zuhur."

These four years were, unfortunately, all what we had of Ibn Tolun's account of the early Ottoman rule over Syria. The completion that spanned roughly 24 years had been completely lost, under the sad fact that nobody seemed to have copied the lost second volume. Still, the extracts that we have retrieved, could serve as sufficient substitute to the original work. Probably a compromise, but not a bad one!

Although compiled from torn fragments, our present work affords ample and authentic information about the above mentioned period. A brief account of the most important political events, bridges the gap that engulfed in much obscurity most of historical occurrences dating

FOREWORD

An overwhelming pleasure takes over me today, when I set out to introduce this long-awaited book.

Ibn Tolun's *Mufakahat al-Khillan* was not, however, anything of novelty or contingency. For over four decades now, it has been well known to all scholars aiming their studies toward the history of Syria, or *Bilad al-Sham*, under the Ottoman rule. Back in 1962-64, the first volume of this book was published in Cairo, by the renowned Egyptian scholar Mohamed Mostafa. He lamented, then, the loss of many parts of the first volume, as well as the whole second one.

My inherent obsession, ever since I read the lone volume, was of tracking down the lost brother- "Damascus' treasure," as I have always dubbed it. Very much to my good luck and rejoice, my search proved not to be in vain. I could trace a few captions copied from it, in some manuscripts kept in the *Staatsbibliothek* of Berlin. Then, in a matter of short interval of time, I accumulated a host of paragraphs taken from the book.

An imposing question rose before me: Is it a possible, or even, acceptable task to rebuild a 500-year-old book from torn fragments? A farfetched idea as such, but it eventually paid-off.

Here we are now, in the presence of a totally new source on Damascus and its adjacent provinces, in the outset of the Ottoman rule over Syria and Egypt. A genuine source of information, written by a prominent eye-witness, that will shed so many lights on its era.

* * * * *

P. O. Box 11252
Damascus, SYRIA

First edition
Printed in Damascus, Syria. 2002

SYRIA REDISCOVERED

PART - 1

A DAILY CHRONICLE OF DAMASCUS

JUST AFTER THE OTTOMAN CONQUEST AD 1520 - 1544

UNKNOWN EXTRACTS

FROM IBN TOLUN'S CHRONICLE

«Mufâkahat al-Khillân»

Compiled & Edited

By

AHMED N. IBESCH

AL-AWA'EL PUBLISHERS

DAMASCUS

2002

A DAILY CHRONICLE OF DAMASCUS

AD 1520 - 1544



هذا الكتاب :

عقب الغزو العثماني لبلاد الشام
في عام 922 هـ - 1516 م
ابتدأت في منطقة المشرق العربي
مرحلة تاريخية جديدة ، رافقتها
تغييرات جذرية في المجالات
السياسية والادارية و الثقافية
والاقتصادية .
ودام حكم العثمانيين للوطن
العربي فترة طويلة زادت على
الاربعة قرون .

والنص الذي نقدمه اليوم
للمؤرخ الدمشقي الشهير
ابن طولون الصالحي
يعتبر اول المصادر واكثرها
اصالة عن بداية الحكم
العثماني لبلاد الشام .
وهو يصور بدقة وحيوية
حوادث المجتمع الدمشقي
وطرائفه ، ابان دخول
العثمانيين سورية ، وضمها
الى حكمهم في عهد
السلطان سليمان القانوني .